تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن

تأليف الشيخ العلامة

محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي

المدرس بدار الحديث الخيرية في مكة المكرمة

إشراف ومراجعة

الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي

خبير الدراسات برابطة العالم الإسلامي

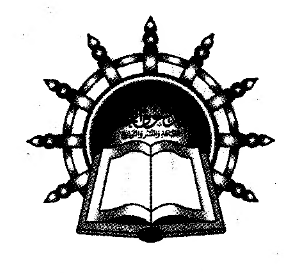
مكة المكرمة

المجلد الثاني والعشرون

دار طوق النجاة

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م



دار طوق النجاة

بيروت ـ لبنان

تفسير

حدائق الروح والريحان

في

روابي علوم القرآن


بسم الله الرحمن الرحيم

شعرٌ

كُــنْ مِــنَ الــخَــلْــقِ جَــانِــبَــا   وَٱرْضَ بِــٱلــلَّــهِ صَــاحِــبَــا
قَــلِّــبِ الــخَــلْــقَ كَــيْــفَ شِــئْــ   ــتَ تَــجِــدْهُ عَــقَــارِبَــا

آخرُ

أَلاَ إِنَّـمَـا ٱلـدُّنْـيَـا كِـظِـلِّ سَـحَـابَـةٍ   أَظَلَّتْكَ يَوْماً ثُمَّ عَنْكَ ٱضْمَحَلَّتِ
فَـلاَ تَـكُ فَـرْحَـانـاً بِـهَـا حِـيْـنَ أَقْـبَـلَـتْ   وَلاَ تَـكُ جَـزْعَـانـاً بِـهَـا حِـيْـنَ وَلَّـتِ

آخرُ

سَـقَـامُ ٱلْـحِـرْصِ لَـيْـسَ لَـهُ شِـفَـاءُ   وَدَاءُ ٱلْـجَـهْـلِ لَـيْـسَ لَـهُ طَـبْـيْـبُ

آخرُ

وَفِيْ ٱلْجَهْلِ قَبْلَ ٱلْمَوْتِ مَوْتٌ لأَهْلِهِ   وَأَجْـسَـامُـهُـمْ قَـبْـلَ ٱلْـقُـبُـورِ قُـبُـورُ
وَإِنِ ٱمْـرَأً يَـحْـيَ بِـٱلْـعِـلْـمِ مَـيِّـتٌ   وَلَـيْـسَ لَـهُ حِـيْـنَ ٱلـنُّـشُـوْرِ نُـشُـوْرُ

آخرُ

تَـسَـاوَىٰ ٱلْـكُـلُّ مِـنَّـا فِـيْ ٱلْـمَـسَـاوِيْ   فَـأَفْـضَـلُـنَـا فَـتِـيْـلاً مَـا يُـسَـاوِيْ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أطلق ألسن من شاء من عباده بالقرآن العظيم، وأطلع قلوبهم على خبايا معانيه بالفهم القويم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد صاحب الخلق العظيم، وعلى آله وصحبه أولي المعارف والفضل الجسيم.

أما بعد: فإني لما فرغت من تفسير الجزء العشرين من القرآن الكريم.. تفرغت - إن شاء الله تعالى - لتفسير الجزء الحادي والعشرين منه، مستمداً من الله التوفيق والهداية، لأقوم الطريق في تفسير كتابه بما يناسب ويليق، فقلت: وهذا قولي:

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ
ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ (٤٦) وَكَذَٰلِكَ
أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ
بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ (٤٧) وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ
ٱلۡمُبۡطِلُونَ (٤٨) بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا
ٱلظَّٰلِمُونَ (٤٩) وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠
نَذِيرٞ مُّبِينٌ (٥٠) أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ
وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ (٥١) قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗاۖ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ (٥٢) وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ
بِٱلۡعَذَابِ وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ (٥٣) يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ
وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ (٥٤) يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ وَيَقُولُ
ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ (٥٥) يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ (٥٦) كُلُّ نَفۡسٖ
ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ (٥٧) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي
مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ (٥٨) ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ (٥٩)

وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ
خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن
يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً
فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ
ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا
رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟
بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ
حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ
كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا
وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما بين(١) طريق إرشاد المشركين وجدالهم بالخشن من القول، والمبالغة في تسفيه آرائهم، وتوهين شبههم.. أردف ذلك بذكر طريق إرشاد أهل الكتاب من اليهود والنصارى، بأن يسلك معهم طريق الحجاج بالحسن، ولا يسفه آراءهم، ولا ينسب إلى الضلال آباءهم.

ذلك أن المشركين جاؤوا بالمنكر من القول، ونسبوا إلى الله سبحانه ما لا ينبغي من الشريك والولد، أما أهل الكتاب فقد اعترفوا بالله وأنبيائه، لكنهم أنكروا نبوة محمد ﷺ وقالوا: إن شريعتهم باقية على وجه الدهر، لا تنسخ بشريعة أخرى، فينبغي إقناع مثل هؤلاء بالحسن من القول، ولفت أنظارهم إلى الأدلة الباهرة الدالة على نبوته، وصدق رسالته، بما يكون لهم فيه مقنع، وبما لو

---

(١) المراغي.

تأملوا فيه.. وصلوا إلى الصواب، وأدركوا الأمر على الوجه الحق، إلا من ظلموا منهم وعاندوا، ولم يقبلوا النصح والإرشاد، فاستعملوا معهم الغلظة في القول، والأسلوب الجاف في الحديث، لعلهم يتوبون إلى رشدهم، ويتأملون فيما يقنعهم من الحجج والبراهين، ثم أمر رسوله أن يقول لهم: آمنا بالذي أنزل إلينا من القرآن، وأنزل إليكم من التوراة والإنجيل، وإن إلٰهنا وإلٰهكم واحد، ونحن مطيعون له.

ثم ذكر أن من أهل الكتاب من يؤمن بالقرآن، كما أن من أهل مكة من يؤمن به، وما يجحد به إلا من توغل في الكفر، وعدم حسن التأمل والفكر، إذ لا ريب في صدق رسوله، وأن كتابه منزل من عند ربه، فإن رجلاً أمياً لا يقرأ ولا يكتب، ولم يتعلم العلم، ولم يدارس إنساناً مدى حياته، يأتي بهذه الحكم والأحكام، وجميل الآداب ومكارم الأخلاق، مما لم يكن له مثيل في محيط نشأ به، ولا في بلد كان يأويه، لمن أكبر الأدلة على أنه ليس من عند بشر، بل أوتيه من لدن حكيم خبير.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر الدليل على أن القرآن من عند الله تعالى، وليس بمفترىً من عند محمد ﷺ.. أردف هذا شبهةً أخرى لهم، وهي أنهم طلبوا من النبي - ﷺ - أن يأتي لهم بمعجزة محسوسة، كما أتى بذلك الأنبياء السابقون، كناقة صالح وعصا موسى، فأجابهم بأن أمر ذلك إلى الله سبحانه، لا إليه، فلو علم أنكم تهتدون بها.. لأجابكم إلى ما طلبتم، ثم بين سخف عقولهم، وطلبهم الآيات الدالة على صدقه، بعد أن جاءهم بالمعجزة الباقية على وجه الدهر، وهي القرآن يتلى عليهم آناء الليل وأطراف النهار، فيه خبر من قبلهم، ونبأ من بعدهم، وحكم ما بينهم، وفيه بيان الحق ودحض الباطل، وفيه ذكرى حلول العقاب بالمكذبين والعاصين.

ثم أبان أن الله شهيد على صدقه، وهو العليم بما في السماوات والأرض، ثم هدد الكافرين بأن كل من يكذب رسل الله بعد قيام الأدلة على صدقهم،

ويؤمن بالجبت والطاغوت.. فقد خسرت صفقته، وسينال العقاب من ربه، جزاءً وفاقاً على جحوده وإنكاره.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله[1] سبحانه لما أنذر المشركين بالعذاب، وهددهم أعظم تهديد.. قالوا له تهكماً واستهزاءً: إن كان هذا حقاً فائتنا به، وهم يقطعون بعدم حصوله، فأجابهم بأنه لا يأتيكم بسؤالكم، ولا يعجل باستعجالكم، لأن الله أجله لحكمة، ولولا ذلك الأجل المسمى الذي اقتضته حكمته، وارتضته رحمته.. لعجله لكم، ولأوقعه بكم، وإنه ليأتيكم فجأةً وأنتم لا تشعرون به، ثم تعجب منهم في طلبهم الاستعجال، وهو سيحيط بهم في جميع نواحيهم، ويقال لهم على طريق الإهانة والتوبيخ: ذوقوا جزاء ما كنتم تعملون.

قوله تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه[2] لما ذكر أحوال المشركين، وأنذرهم بالخسران، وجعلهم من أهل النار.. اشتد عنادهم للمؤمنين، وكثر أذاهم لهم، ومنعوهم من العبادة، فأمرهم الله بالهجرة إلى دار أخرى، إن تعذرت عليهم العبادة في ديارهم.

ولما كانت مفارقة الأوطان عزيزة على النفس، كريهة لديها.. بين لهم أن المكروه واقع لا محالة، إن لم يكن بالهجرة فهو حاصل بالموت، فأولى لكم أن يكون ذلك في سبيل الله، لتنالوا جزاءه، ومرجعكم إلى ربكم، وحينئذ تنالون من النعيم المقيم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فهنالك الغرف التي تجري من تحتها الأنهار، ونعم هذا الأجر جزاء للعاملين الصابرين، المتوكلين على ربهم، الذين يعلمون أن الله قد تكفل بأرزاقهم، كما تكفل بأرزاق جميع مخلوقاته، وهو السميع لدعائهم، العليم بحاجتهم.

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ . . .﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما[1] بين الأمر للمشركين، وذكر لهم سوء مغبة أعمالهم. . خاطب المؤمنين بما فيه ذكر لهم، وإرشاد للمشرك لو تأمله، وفكر فيه، ومثل هذا مثل الوالد له ولدان: أحدهما رشيد، والآخر مفسد، فهو ينصح للمفسد أولاً، فإن لم يسمع. . يعرض عنه ويلتفت إلى الرشيد قائلاً: إن هذا لا يستحق أن يخاطب، فاسمع أنت، ولا تكن كهذا المفسد، فيكون في هذا نصيحة للمصلح، وزجر للمفسد، ودعوة له إلى سبيل الرشاد.

قوله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ. . .﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر فيما سلف أنهم يعترفون بأن الله هو الخالق، وأنه هو الرازق، وهم بعد ذلك يتركون عبادته، ويعبدون من دونه شركاء، اغتراراً بزخرف الدينا وزينتها. . أردف ذلك أن ما في هذه الدنيا باطل، وعبث زائل، وإنما الحياة الحقة هي الحياة الآخرة، التي لا فناء بعدها، فلو أوتوا شيئاً من العلم. . ما آثروا تلك على هذه.

ثم أرشد إلى أنهم ـ مع إشراكهم بربهم ـ سواء في الدعاء والعبادة، إذا هم ابتلوا بالشدائد، كما إذا ركبوا البحر، وعلتهم الأمواج من كل جانب، وخافوا الغرق. . نادوا الله معترفين بوحدانيته، وأنه لا منجي سواه، وليتهم استمروا على ذلك، ولكن سرعان ما يرجعون القهقرى، ويعودون سيرتهم الأولى، كما هو دأب من يعمل للخوف لا للعقيدة.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا. . .﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر أن المشركين حين يشتد بهم الخوف إذا ركبوا في الفلك ونحوه لجؤوا إلى الله وحده، مخلصين له العبادة. . ذكر هنا أنهم حين الأمن، كما إذا كانوا في حصنهم الحصين، وهو مكة التي يأمن من دخلها من الشرور والأذى يكفرون به، ويعبدون معه سواه، وتلك حال من التناقض لا

(١) المراغي.

يرضاها لنفسه عاقل، فإن دعاءهم إياه حال الخوف مع الإخلاص، ما كان إلا ليقينهم بأن نعمة النجاه منه لا من سواه، فكيف يكفرون به حين الأمن، وهم يوقنون بأن الأصنام حين الخوف لا تجديهم فتيلاً ولا قطميراً.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[١]: ما أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم، والدارمي في «مسنده»، وأبو داود من طريق عمرو بن دينار، عن يحيى بن جعدة قال: جاء أناس من المسلمين بكتب قد كتبوا فيها بعض ما سمعوه من اليهود، فقال النبي - ﷺ -: «كفى بقوم ضلالةً أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إليهم إلى ما جاء به غيره إلى غيرهم» فنزلت: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ...﴾ الآية.

وعن عبد الله بن الحارث الأنصاري قال[٢]: دخل عمر بن خطاب على النبي ﷺ بكتاب فيه مواضع من التوراة، فقال: هذه أصبتها مع رجل من أهل الكتاب أعرضها عليك، فتغير وجه رسول الله ﷺ تغيراً شديداً، لم أر مثله قط، فقال عبد الله بن الحارث لعمر: أما ترى وجه رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: رضينا بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً، فسرى عن رسول الله ﷺ وقال: «ولو نزل موسى فاتبعتموه وتركتموني.. لضللتم، أنا حظكم من النبيين، وأنتم حظي من الأمم» أخرجه عبد الرزاق.

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ...﴾ الآية، سبب نزولها[٣]: ما أخرجه عبد بن حميد، وابن أبي حاتم والبيهقي، وابن عساكر بسند ضعيف، عن ابن عمر قال: خرجت مع رسول الله ﷺ حتى دخل بعض حيطان المدينة، فجعل يلتقط من التمر ويأكل، فقال لي: «يا ابن عمر ما لك لا تأكل؟» قلت: لا أشتهيه، قال: «لكني أشتهيه، وهذا صبح رابعةٍ لم أذق طعاماً، ولم أجده، ولو

---

(١) لباب النقول.

(٢) المراغي.

(٣) لباب النقول.

شئت لدعوت ربي فأعطاني مثل ملك كسرى وقيصر، فكيف بك يا ابن عمر إذا لقيت قوماً يخبئون رزق سنتهم، ويضعف اليقين». قال: فوالله ما برحنا ولا رمنا حتى نزلت: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن الله لم يأمرني بكنز الدنيا، ولا باتباع الشهوات، ألا وإني لا أكنز ديناراً ولا درهماً، ولا أخبأ رزقاً لغدٍ».

وروى ابن عباس: أن النبي ـ ﷺ ـ قال للمؤمنين بمكة حين آذاهم المشركون: «اخرجوا إلى المدينة وهاجروا، ولا تجاوروا الظلمة» قالوا: ليس لنا بها دار ولا عقار، ولا من يطعمنا، ولا من يسقينا، فنزلت الآية.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا. . .﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه جويبر عن الضحاك عن ابن عباس أنهم قالوا: يا محمد ما يمنعنا أن ندخل في دينك إلا مخافة أن يتخطفنا الناس لتقتلنا، والأعراب أكثر منا، فمتى ما يبلغهم أنا قد دخلنا في دينك. . اختطفتنا فكنا أكلة رأس، فأنزل الله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا. . .﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: ولا تخاصموا اليهود والنصارى أيها المؤمنون ﴿إِلَّا بِٱلَّتِى﴾ إلا بالخصلة التي ﴿هِىَ أَحْسَنُ﴾ وأسهل[1] كمعاملة الخشونة باللين، والغضب بالحلم، والمشاغبة ـ أي: تحريك الشر وإثارته ـ بالنصح؛ أي: بتحريك الخير وإثارته، والعجلة بالتأني والاحتياط، على وجه لا يؤدي إلى الضعف، ولا إلى إعظام الدنيا الدنية، يعني: جادلوهم على سبيل الدعاء لهم إلى الله عز وجل، والتنبيه لهم على حججه وبراهينه، رجاء إجابتهم إلى الإسلام، لا على طريق الإغلاظ والمخاشنة.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِى﴾ حرف استثناء، وقرأ ابن عباس: ﴿ألا﴾:

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.

حرف تنبيه واستفتاح، تقديره: ألا جادلوهم بالتي هي أحسن.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾[1] بالإفراط في الاعتداء والعناد، فإن الكافر إذا وصف بمثل الفسق والظلم.. حمل على المبالغة فيما هو فيه، أو بإثبات الولد لله، وهم أهل نجران، أو بنبذ العهد ومنع الجزية ونحو ذلك، كقولهم: يد الله مغلولة، فلا بأس بالإغلاظ عليهم، والتخشين في مجادلتهم، فإنه يجب حينئذ الموافقة بما يليق بحالهم، من الغلظة باللسان، وبالسيف والسنان.

وعبارة «المراح» هنا: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: ولا تخاصموا[2] اليهود والنصارى إلا بالأحسن؛ أي: بعدم استخفاف آرائهم، وبعدم نسبة آبائهم إلى الضلال، لأنهم جاؤوا بكل حسن، غير الاعتراف بالنبي - ﷺ - فإنهم آمنوا بإنزال الكتب، وإرسال الرسل، وبالحشر، ففي مقابلة إحسانهم يجادلون بالأحسن، إلا الذين أشركوا منهم، بإثبات الولد لله، وبالقول بثالث ثلاثة، فيجادلون حينئذٍ بالأخشن، من تهجين مقالتهم وتبيين جهالتهم، كالمشرك الذي جاء بالمنكر من غيرهم، فاللائق أن يجادل بالأخشن، ويبالغ في تهجين مذهبه، وتوهين شبهه. اهـ.

وعبارة «الخازن» هنا: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾؛ أي: أبوا أن يعطوا الجزية، ونصبوا الحرب فجاؤوهم بالسيف، حتى يسلموا أو يعطوا الجزية، ومعنى الآية: إلا الذين ظلموكم، لأن جميعهم ظالم بالكفر، وقيل: هم أهل الحرب ومن لا عهد له، وقيل: الآية منسوخة بآية السيف اهـ.

هكذا[3] فسر الآية أكثر المفسرين، بأن المراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى، وقيل: معنى الآية: لا تجادلوا من آمن بمحمد - ﷺ - من أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام، وسائر من آمن منهم، إلا بالتي هي أحسن، يعني بالموافقة فيما حدثوكم به من أخبار أهل الكتاب، ويكون المراد بالذين ظلموا

---

(١) روح البيان.
(٢) المراح.
(٣) الشوكاني.

على هذا القول: هم الباقون على كفرهم، وقيل: هذه الآية منسوخة بآيات القتال، وبذلك قال قتادة ومقاتل، قال النحاس: من قال: هي منسوخة، احتج بأن الآية مكيّة، ولم يكن في ذلك الوقت قتال مفروض، ولا طلب جزية ولا غير ذلك، وقال سعيد بن جبير ومجاهد: إن المراد بـ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ الذين نصبوا القتال للمسلمين بالسيف، حتى يسلموا أو يعطوا الجزية.

فإن قلت[1]: كيف قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ مع أن جميع أهل الكتاب ظالمون، لأنهم كافرون، وقال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؟

قلتُ: المراد بالظلم هنا: الامتناع عن قبول عقد الذمة، أو نقض العهد بعد قبوله.

﴿وَقُولُوٓا۟﴾ أيها المؤمنون للذين قبلوا الجزية، إذا حدثوكم بشيء مما في كتبهم ﴿ءَامَنَّا﴾ بالصدق والإخلاص ﴿بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ من القرآن ﴿والذي أنزل إليكم﴾ من التوراة والإنجيل؛ أي: آمنّا بأنهما منزلان من عند الله تعالى، وأنهما شريعة ثابتة إلى قيام الشريعة الإسلامية، والبعثة المحمدية، ولا يدخل في ذلك ما حرفوه وبدلوه، ﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ﴾ لا شريك له في الألوهية، ولا ضد له ولا ند، ﴿وَنَحْنُ﴾ معاشر أمة محمد ﴿لَهُۥ﴾ سبحانه وتعالى، لا لغيره ﴿مُسْلِمُونَ﴾؛ أي: مطيعون له منقادون خاصةً، ولا نقول: عزير ابن الله، ولا المسيح ابن الله، ولا نتخذ أحبارنا ورهباننا أرباباً من دون الله.

ويحتمل أن يراد[2]: ونحن جميعاً منقادون له، ولا يقدح في هذا الوجه كون انقياد المسلمين أتم من انقياد أهل الكتاب، وطاعتهم أبلغ من طاعاتهم، وفيه تعريض بحال الفريقين، حيث اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله تعالى.

وأخرج البخاري، والنسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه،

---

(١) فتح الرحمٰن.

(٢) الشوكاني.

والبيهقي في «الشعب» عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا تصدقوا أهل الكتاب، ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم، وإلهنا وإلهكم واحد، ونحن له مسلمون». وفي روايةٍ: وقولوا: «آمنا بالله وبكتبه وبرسله، فإن قالوا باطلاً.. لم تصدقوهم، وإن قالوا حقاً.. لم تكذبوهم».

قال ابن الملك[1]: إنما نهى عن تصديقهم وتكذيبهم، لأنهم حرفوا كتابهم، وما قالوه إن كان من جملة ما غيروه، فتصديقهم يكون تصديقاً بالباطل، وإن لم يكن كذلك.. يكون تكذيبهم تكذيباً لما هو حق، وهذا أصل في وجوب التوقف فيما يشكل من الأمور والعلوم، فلا يقضى فيه بجواز ولا بطلانٍ، وعلى هذا كان السلف رحمهم الله تعالى.

والمعنى[2]: أي إذا حدثكم أهل الكتاب عن كتبهم، وأخبروكم عنها بما يمكن أن يكونوا صادقين فيه، وأن يكونوا كاذبين، ولم تعلموا حالهم في ذلك.. فقولوا لهم: آمنا بالقرآن الذي أنزل إلينا، والتوراة والإنجيل اللذين أنزلا إليكم، ومعبودنا ومعبودكم واحد، ونحن خاضعون له، منقادون لأمره ونهيه.

ثم بين أنه لا عجب في إنزال القرآن على الرسول، فهو على مثال ما أنزل من الكتب من قبل، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ خطاب للرسول ـ ﷺ ـ والإشارة فيه إلى مصدر الفعل الذي بعده، كما بيناه في مواضع كثيرة؛ أي: ومثل ذلك الإنزال البديع الموافق لإنزال سائر الكتب، أنزلنا عليك القرآن، وقيل: المعنى كما أنزلنا الكتب على من قبلك أيها الرسول، أنزلنا إليك هذا الكتاب؛ أي: القرآن.

و﴿الفاء﴾[3] في قوله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ من الطائفتين، لترتيب ما

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

بعدها على ما قبلها، فإن إيمانهم به مترتب على إنزاله على الوجه المذكور، ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾؛ أي: بالقرآن، يعني مؤمني أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام وأضرابه من أهل الكتاب خاصة، وخصهم بإيتائهم الكتاب، لكونهم العاملين به، وكأن غيرهم لم يؤتوه، لعدم عملهم بما فيه، وجحدهم لصفات رسول الله - ﷺ - المذكورة.

وقيل: المراد بهم، من تقدم عهد الرسول - ﷺ - حيث كانوا مصدقين بنزوله حسبما شاهدوا في كتابهم، ومنهم قس بن ساعدة، وبحيرا، ونسطورا، وورقة وغيرهم، وتخصيصهم بإيتاء الكتاب: للإيذان بأن من بعدهم من معاصري رسول الله - ﷺ - قد نزع منهم الكتاب بالنسخ، فلم يؤتوه.

والإشارة في قوله: ﴿وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ إلى أهل مكة ﴿مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾؛ أي: بهذا القرآن، وهم من أسلم منهم، وقيل: الإشارة إلى جميع العرب.

والمعنى: أي كما أنزلنا الكتب من قبلك أيها الرسول، أنزلنا إليك هذا الكتاب، فالذين آتيناهم الكتب ممن تقدم عهدك من اليهود والنصارى، يؤمنون به إذ كانوا مصدقين بنزوله، بحسب ما علموا عندهم من الكتاب، ومن كفار قريش وغيرهم من يؤمن به.

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾؛ أي: بالكتاب[1] المعظم بالإضافة إلينا، يعني: القرآن، عبر عنه بالآيات: للتنبيه على ظهور دلالته على معانيه، وعلى كونه من عند الله. ﴿إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ المتوغلون في الكفر، والمصممون عليه من المشركين وأهل الكتاب، ككعب بن الأشرف وأصحابه، وأبي جهل وأضرابه، فإن ذلك يصدهم عن التأمل فيما يؤديهم إلى معرفة حقيقتها.

والمعنى[2]: أي وما يكذب بآياتنا ويجحد بحقيقتها، إلا من يستر الحق بالباطل، ويغطي ضوء الشمس بالوصائل، ويغمط حق النعمة عليه، وينكر التوحيد عناداً واستكباراً.

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

واعلم[1]: أن المجادلة في الدين، تبطل ثواب الأعمال إذا كانت تعنتاً وترويجاً للباطل، وأما الجدال بالحق لإظهاره، فمأمور به، وقد جادل علي ـ رضي الله عنه ـ شخصاً قال: إني أملك حركاتي وسكناتي، وطلاق زوجتي، وعتق أمتي، فقال علي ـ رضي الله عنه ـ: أتملكها دون الله، أو مع الله؟ فإن قلت: أملكها دون الله.. فقد أثبت مالكاً دون الله، وإن قلت أملكها مع الله.. فقد أثبت له شريكاً، كذا في «شرح المواقف».

ثم ذكر ما يؤيد إنزاله، ويزيل الشبهة في افترائه، فقال: ﴿وَمَا كُنتَ﴾ يا محمد ﴿تَتْلُوا۟﴾ وتقرأ ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾؛ أي: من قبل القرآن؛ أي: وما كانت عبادتك يا محمد قبل إنزالنا إليك القرآن، أن تتلو وتقرأ شيئاً. ﴿مِن كِتَٰبٍ﴾ من الكتاب المنزلة، ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ﴾؛ أي: ولا أن تكتب كتاباً من الكتب المذكورة ﴿بِيَمِينِكَ﴾؛ أي: بيدك، وذكر اليمين[2] لكون الكتابة غالباً باليمين، لا أنه لا يخط بيمينه ويخط بشماله، فإن الخط بالشمال من أبعد النوادر.

قال الشيعة: إنه ـ ﷺ ـ كان يحسن الخط قبل الوحي، ثم نهي عنه بالوحي، وقالوا: إن قوله: ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ﴾ نهي، فليس بنفي الخط.

قال في «كشف الأسرار»: قرىء ﴿ولا تخطه﴾ بالفتح على النهي، وهو شاذ، والصحيح: أنه لم يكتب. انتهى.

وفي «الأسئلة المقحمة» قول الشيعة مردود، لأن ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ﴾ لو كان نهياً.. لكان بنصب الطاء، أو قال: لا تخططه بطريق التضعيف.

﴿إِذًا﴾؛ أي: لو كنت ممن يقدر على التلاوة والخط، أو ممن يعتادهما.. ﴿لَّٱرْتَابَ﴾ وشك في نبوتك ﴿ٱلْمُبْطِلُونَ﴾؛ أي: المشركون، وقالوا: لعله التقط ما يتلوه علينا من كتب الله المنزلة على الأنبياء، أو من الكتب المدونة في أخبار الأمم، فلما كنت أمياً لا تقرأ ولا تكتب، لم يكن هناك موضع للريبة، ولا محل للشك أبداً، بل إنكار من أنكر، وكفر من كفر مجرد عنادٍ وجحود بلا شبهة.

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

وخلاصة ما سلف[1]: أنك قد لبثت يا محمد في قومك عمراً طويلاً، قبل أن تأتي بهذا القرآن لا تقرأ ولا تكتب، وكل واحد من قومك يعرف أنك أمي لا تقرأ ولا تكتب، وهذه صفتك في الكتب المتقدمة، كما قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾.

فلا وجه إذاً للشك في أن هذا القرآن منزل من عند الله، وليس مفتعلاً من صنع يدك، تعلمته من الكتب المأثورة عمن قبلك، كما حكى سبحانه عنهم من نحو قولهم: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥﴾.

فإن قلت[2]: لم سماهم المبطلين، ولو لم يكن أمياً وقالوا: ليس بالذي نجده في كتبنا لكانوا محقين، ولكان أهل مكة أيضاً على حق في قولهم: لعله تعلمه أو كتبه، فإنه رجل قارىء كاتب؟

قلت: لأنهم كفروا به، وهو أمي بعيد من الريب، فكأنه قال: هؤلاء المبطلون في كفرهم به، لو لم يكن أمياً.. لارتابوا أشد الريب، فحيث إنه ليس بقارىءٍ ولا كاتب، فلا وجه لارتيابهم، قيل: وسماهم مبطلين، لأن ارتيابهم على تقدير أنه - ﷺ - يقرأ ويكتب ظلم منهم لظهور نزاهته، ووضوح معجزاته.

قال في «الأسئلة المقحمة»: كيف منّ الله على نبيه بأنه أمي لا يعرف القراءة والكتابة، وهما من قبيل الكمال، لا من قبيل النقص؟

والجواب: إنما وصفه بعدم القراءة والكتابة، لأن أهل الكتاب كانوا يجدون من نعته في التوراة والإنجيل، بأنه لا يقرأ ولا يكتب، فأراد تحقيق ما وعدهم به على نعته إياه، ولأن الكتابة في قبيل الصناعات، فلا توصف بالمدح ولا بالذم، ولأن المقصود من الكتابة والخط: هو الاحتراز عن الغفلة والنسيان، وقد خصه الله تعالى بما فيه غنية عن ذلك، كالعين بها غنية عن العصا والقائد. انتهى.

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

وقال في «أسئلة الحكم»: كان ـ عليه السلام ـ يعلم الخطوط ويخبر عنها، فلماذا لم يكتب؟

والجواب: أنه لو كتب لقيل: قرأ القرآن من صحف الأولين. انتهى.

قال النيسابوري: إنما لم يكتب، لأنه إذا كتب وعقد الخنصر يقع ظل قلمه وإصبعه على اسم الله تعالى وذكره، فلما كان ذلك قال الله تعالى: لا جرم يا حبيبي لَمَّا لَمْ ترد أن يكون قلمك فوق اسمي، ولم ترد أن يكون ظل القلم على اسمي، أمرت الناس أن لا يرفعوا أصواتهم فوق صوتك تشريفاً لك وتعظيماً، ولا أدع بسبب ذلك ظلك يقع على الأرض صيانةً له أن يوطأ بالأقدام. انتهى.

فائدة: قيل أول من كتب الكتاب العربي، والفارسي، والسرياني، والعبراني، وغيرها من بقية الاثني عشر، وهي: الحميري، واليوناني، والرومي، والقبطي، والبربري، والأندلسي، والهندي، والصيني ـ آدم عليه السلام، كتبها في طين وطبخه، فلما أصاب الأرض وانفرق.. وجد كل قوم كتاباً فكتبوه، فأصاب إسماعيل ـ عليه السلام ـ الكتاب العربي، وأما ما جاء «أول من خط بالقلم: إدريس ـ عليه السلام ـ». فالمراد به: خط الرمل.

ثم أكد ما سلف، وبين أنه منزل من عند الله حقاً، فقال: ﴿بَلْ هُوَ﴾؛ أي: بل هذا القرآن ﴿ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾؛ أي: آيات واضحات الإعجاز، ثابتات راسخات ﴿فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ به، يعني: المؤمنين الذين حفظوا القرآن على عهده ـ ﷺ ـ وحفظوه بعده.

أي[1]: بل القرآن آيات واضحات، ثابتة راسخة في قلوب الذين أعطوا العلم بالقرآن، فليس مما يشك فيه، لكونه محفوظاً، من غير أن يلتقط من كتاب، بحيث لا يقدر على تحريفه أحد، بخلاف غيره من الكتب، فإنه لا يقرأ إلا في المصاحف.

---

(١) المراح.

والمعنى: أن المؤمنين يقرؤون القرآن بالحفظ عن قلب تلقياً منك، وبعضهم من بعض، وأنت تلقيته من جبريل عن اللوح المحفوظ، فلم تأخذه من كتاب بطريق تلقيه منه.

يعني[1]: كونه محفوظاً في الصدور من خصائص القرآن، لأن من تقدم كانوا لا يقرؤون إلا نظراً، فإذا أطبقوها.. لم يعرفوا منها شيئاً، سوى الأنبياء، وما نقل عن قارون: من أنه كان يقرأ التوراة على ظهر قلب فغير ثابت.

وقال قتادة ومقاتل[2]: إن الضمير يرجع إلى النبي - ﷺ -؛ أي: بل محمد آيات بينات؛ أي: ذو آيات.

وقرأ ابن مسعود: ﴿بل هي آيات بينات﴾. قال الفراء: معنى هذه القراءة: بل آيات القرآن آيات بينات، واختار ابن جرير ما قاله قتادة ومقاتل، وقد استدل لما قالاه بقراءة ابن السميفع ﴿بل هذا آيات بينات﴾ ولا دليل في هذه القراءة على ذلك، لأن الإشارة يجوز أن تكون إلى القرآن، كما جاز أن تكون إلى النبي - ﷺ - بل رجوعها إلى القرآن أظهر، لعدم احتياج ذلك إلى التأويل، والتقدير وقوله: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾[3] إضراب عن ارتيابهم؛ أي: ليس القرآن مما يرتاب فيه، لكونه في الصدور، وكونه محفوظاً بخلاف غيره من الكتب، فإنه لا يقرأ إلا في المصاحف، ولذا جاء في وصف هذه الأمة: صدورهم أناجيلهم. ا هـ. «شهاب». وهو جمع إنجيل، والمعنى: أنهم يقرؤون كتاب الله عز وجل عن ظهر قلب، وهو مثبت محفوظ في صدورهم، كما كان كتاب النصارى مثبتاً في أناجيلهم؛ أي: كتبهم ا هـ. «زاده».

وفي بعض الآثار: «ما حسدتكم اليهود والنصارى على شيء كحفظ القرآن» قال أبو أمامة: إن الله لا يعذب بالنار قلباً وعى القرآن. وقال - عليه السلام -: «القلب الذي ليس فيه شيء من القرآن، كالبيت الخراب». وفي الحديث

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

(٣) الفتوحات.

الصحيح: «تعاهدوا القرآن، فوالذي نفس محمد بيده، لهو أشد تفلتاً من الإبل من عقالها»؛ أي: من الإبل المعقلة إذا أطلقها صاحبها، والتعاهد والتعهد، التحفظ؛ أي: المحافظة وتجديد الأمر به، والمراد هنا، الأمر بالمحافظة على تلاوته، والمداومة على تكراره.

فمن سنة القارىء[1]: أن يقرأ القرآن كل يوم وليلة، كيلا ينساه، وعن النبي - ﷺ -: «عرضت علي ذنوب أمتي، فلم أر ذنباً أكبر من آية أو سورة أوتيها الرجل، ثم نسيها». والنسيان أن لا يمكنه القراءة من المصحف، كذا في «القنية». وكان ابن عيينة يذهب إلى أن النسيان الذي يستحق صاحبه اللوم، ويضاف إليه الإثم: ترك العمل به، والنسيان في «لسان العرب»: الترك. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾؛ أي: تركوا. وقال تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾؛ أي: تركوا طاعته، ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾؛ أي: فترك رحمتهم.

قال شارح «الجزرية»: وقراءة القرآن من المصحف أفضل من قراءته من حفظه. هذا هو المشهور عن السلف، ولكن ليس هذا على إطلاقه، بل إن كان القارىء من حفظه يحصل له التدبر والتفكر، وجمع القلب والبصر، أكثر مما يحصل له من المصحف، فالقراءة من الحفظ أفضل، وإن تساويا فمن المصحف أفضل، لأن النظر في المصحف عبادة، واستماع القرآن من الغير في بعض الأحيان من السنن.

قال إبراهيم الخواص - رحمه الله تعالى -: دواء القلب خمسة: قراءة القرآن بالتدبر والخلاء، وقيام الليل، والتضرع إلى الله عند السحر، ومجالسة الصالحين. جعلنا الله وإياكم من أهل الصلاح والفلاح، إنه القادر الفتاح فالق الإصباح، خالق المصباح.

﴿وَمَا يَجْحَدُ﴾ وما ينكر ﴿بِآيَاتِنَا﴾ مع كونها كما ذكر ﴿إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾؛ أي: المتجاوزون للحدود في الشر والمكابرة والفساد والعناد؛ أي[2]: وما يكذب

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

بآياتنا، ويبخس حقها، ويردها إلا المعتدون المكابرون، الذين يعلمون الحق ويحيدون عنه، ونحو الآية قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾.

وإنما قال أولاً: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وثانياً: ﴿إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ وثالثاً: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ مع أن المراد بكل من الثلاثة: اليهود والمشركون، للتفتن وتسجيلاً عليهم باسم كل من الثلاثة.

﴿وَقَالُوا۟﴾؛ أي: قال كفار قريش ﴿لَوْلَآ﴾ تحضيضية بمعنى هلا؛ أي: هلا ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾؛ أي: على محمد ﴿ءَايَٰتٌ﴾ تكوينية ﴿مِّن﴾ عند ﴿رَّبِّهِۦ﴾ سبحانه؛ أي: آيات كآيات الأنبياء قبله، وذلك كعصا موسى ويده، وناقة صالح، ومائدة عيسى - عليهم السلام -

وقرأ[1] نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحفص: ﴿ءَايَٰتٌ﴾ بالجمع، واختار هذه القراءة أبو عبيد، لقوله بعد: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ﴾ وقرأ ابن كثير، وأبو بكر، وحمزة والكسائي: ﴿آية من ربه﴾ بالإفراد.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ﴾؛ أي: إنما أمرها وشأنها ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه؛ أي: في قدرته وحكمه، ينزلها على من يشاء من عباده، ولا قدرة لأحد على إنزالها، فليس بيدي شيء من أمرها فآتيكم بما تقترحونه ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ﴾؛ أي: ما أنا إلا مخوف لكم من عذاب الله سبحانه ﴿مُّبِينٌ﴾؛ أي: بين الإنذار والتخويف، أنذركم كما أمرت، وأبين لكم كما ينبغي، ليس قدرتي غير ذلك؛ أي: ليس[2] من شأني إلا الإنذار والتخويف من عذاب الله، بما أعطيت من الأيات.

قال في «كشف الأسرار»: والحكمة في ترك إجابة النبي - ﷺ - إلى الآيات المقترحة: أنه يؤدي إلى ما لا يتناهى؛ وأن هؤلاء طلبوا آيات تضطرهم إلى الإيمان، فلو أجابهم إليها، ولم يؤمنوا.. لاستؤصلوا، وعذاب الاستئصال مرفوع عن هذه الأمة ببركة النبي ﷺ.

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

ومعنى الآية: أي[1] وقال كفار قريش تعنتاً وعناداً: هلا أنزل على محمد آية من الآيات التي أنزل مثلها على رسل الله الماضين، كناقة صالح وعصا موسى وأشباههما من المعجزات المحسوسة، التي ترى رأي العين، فيكون ذلك أقبل لدى النفوس، وأدهش للعقول، فتلجىء إلى التصديق بمن تظهر على يده المعجزة، فأمره الله أن يجيبهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْآيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: قل لهم: إنما أمر الآيات ونزول المعجزات إلى الله، ولو علم أنكم تهتدون.. لأجابكم إلى ما سألتم، لأن ذلك سهل يسير عليه، ولكنه يعلم أنكم إنما قصدتم بذلك التعنت والامتحان، فهو لا يجيبكم إلى ما طلبتم، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْآيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ﴾.

﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي: وليس من شأني إلا الإنذار بما أوتيت من الآيات، إلا الإتيان بما اقترحتموه منها، فعلي أن أبلغكم رسالة ربي، وليس علي هداكم، كما قال: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾. وقال: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ﴾.

ثم بيّن سبحانه سخفهم وجهلهم، إذ كيف يطلبون الآيات مع نزول القرآن عليهم، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ كلام[2] مستأنف وارد من جهته تعالى رداً على اقتراحهم، وبياناً لبطلانه. و﴿الهمزة﴾: فيه: للإنكار، والنفي داخلة على محذوف يقتضيه المقام، و﴿الواو﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أقصر هذا القرآن عن درجة الإعجاز، ولم يكفهم آية مغنية عن سائر الآيات.

﴿أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الناطق بالحق، المصدق لما بين يديه من الكتب السماوية، وأنت بمعزل من مدارستها وممارستها؛ أي: إنزالنا عليك هذا الكتاب.

---

(١) المراغي.

(٢) أبو السعود.

وفي «القرطبي»: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ هذا[1] جواب لقولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾؛ أي: أولم يكف المشركين من الآيات هذا الكتاب المعجز، الذي قد تحداهم بأن يأتوا بمثله أو سورة منه فعجزوا، ولو أتيتهم بآيات موسى وعيسى.. لقالوا: هذا سحر، ونحن لا نعرف السحر، والكلام مقدور لهم، ومع ذلك عجزوا عن المعارضة ا هـ.

حال كون ذلك الكتاب ﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ بلغتهم[2] في كل زمان ومكان، فلا يزال معهم آية ثابتة، لا تزول ولا تضمحل، كما تزول كل آية بعد كونها، وتكون في مكان دون مكان، فهو معجزة ظاهرة باقية، أتم من كل معجزة، وقد وصل إلى المشرق والمغرب وسمعه كل أحد، بخلاف قلب العصا ثعباناً، فإنه لم يبق لنا منه أثر، ولم يره من لم يكن في ذلك المكان.

والمعنى: أي أما كفاهم دليلاً على صدقك، إنزالنا الكتاب عليك، يتلونه ويتدارسونه ليلاً ونهاراً، وأنت رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب، ولم تخالط أحداً من أهل الكتاب، وقد جئتهم بأخبار ما في الصحف الأولى، وبينت الصواب فيما اختلفوا فيه، كما قال: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾.

ثم بين فضائل هذا الكتاب ومزاياه فقال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الكتاب العظيم الشأن، الباقي على ممر الدهور والأزمان ﴿لَرَحْمَةً﴾؛ أي: نعمة عظيمة في الدنيا والآخرة ﴿وَذِكْرَىٰ﴾؛ أي: تذكرةً في الدنيا يتذكرون بها، وترشدهم إلى الحق، ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: يصدقون بما جئت به من عند الله، فإنهم هم الذين ينتفعون بذلك؛ أي: لقوم همّهم الإيمان، لا التعنت كأولئك المقترحين.

والمعنى: أي[3] إن في هذا الكتاب الباقي على وجه الدهر، لرحمةً لمن

---

(١) القرطبي.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

آمن به، ببيان الحق وإزالة الباطل، وتذكرةً بعقاب الله الذي حل بالمكذبين قبلكم، وبما سيحل بهم من النكال والوبال، وبما سيكون لمن اتبع سنتهم، وكذب بالآيات بعد وضوحها.

وبعد أن أقام الأدلة على صدق رسالته، وبين أن المعاندين من أهل الكتاب والمشركين، لم يؤمنوا به، أمره أن يكل علم ذلك إلى الله، وهو العليم بصدقه وكذبه، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المكذبين من اليهود والمشركين ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: كفى اللّهُ سبحانه، و﴿الباء﴾: صلة. ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًاۖ﴾ بما صدر عني وعنكم؛ أي: كفى اللّهُ سبحانه عالماً بما صدر مني، من التبليغ والإنذار، وبما صدر منكم، من مقابلة ذلك بالتكذيب والإنكار، وهو المجازي كلاً بما يستحق، وإني لو كنت كاذباً عليه.. لانتقم مني، كما قال: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ بل إني صادق فيما أخبرتكم به، ومن ثم أيدني بالمعجزات الواضحات، والدلائل القاطعات، ثم علل كنايته وأكدها بقوله: ﴿يَعْلَمُ﴾ سبحانه ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾؛ أي: من الأمور التي من جملتها شأني وشأنكم، لا تخفى عليه من ذلك خافية.

أي: هو سبحانه وتعالى العليم بكل ما فيهما، ومن جملته شأني وشأنكم، فيعلم ما تنسبونه إلى من التقول عليه، وبما أنسبه إليه من القرآن الذي يشهد لي به عجزكم عن الإتيان بمثله، فهو حجتي الفالجة عليكم، التي لم تستطيعوا لها رداً ولا دفعاً.

ولما بين طريق الجدل، مع كل من أهل الكتاب والمشركين.. عاد إلى تهديد المشركين، وبين مآل أمرهم فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ الذي لا يجوز الإيمان به، كالصنم والشيطان وغيرهما ﴿وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ الذي يجب الإيمان به مع تعاضد موجبات الإيمان ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بهذه الصفة ﴿هُمُ﴾ لا غيرهم ﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾؛ أي: الجامعون بين خسران الدنيا والآخرة، المغبونون في صفقتهم الأخروية، حيث اشتروا الكفر بالإيمان، وضيعوا الفطرة الأصلية، والأدلة

السمعية الموجبة للإيمان؛ أي: والذين يعبدون الأوثان والأصنام، ويكفرون بالله مع تظاهر الأدلة التي في الآفاق والأنفس على الإيمان به، ويكفرون برسوله، مع تعاضد البراهين على صدقه، أولئك هم الأخسرون أعمالاً، المغبونون في صفقتهم، من حيث أنهم اشتروا الكفر بالإيمان، فاستوجبوا العقاب حين الوقوف بين يدي الملك الديان.

وخلاصة ذلك[1]: أن الله سيجزيهم على ما صنعوا، من تكذيبهم بالحق واتباعهم للباطل، وتكذيبهم برسول الله، مع قيام الأدلة على صدقه، ناراً تلظى، لا يصلاها إلا الأشقى، الذي كذب وتولى.

فإن قلت: من آمن بالباطل فقد كفر بالله، فهل لهذا العطف فائدة غير التأكيد؟

قلت: نعم، فائدته: أنه ذكر الثاني لبيان قبح الأول، فهو كقول القائل: أتقول الباطل، وتترك الحق، لبيان أن الباطل قبيح.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ يا محمد استهزاءً وتكذيباً منهم بذلك، كقولهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾؛ أي: معين قد جعله الله لعذابهم وعينه، وهو القيامة.

وقال الضحاك: الأجل: مدة أعمارهم، لأنهم إذا ماتوا.. صاروا إلى العذاب.

﴿لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾؛ أي: لولا ذلك الأجل المضروب.. لجاءهم العذاب الذي يستحقونه بذنوبهم عاجلاً.

وقيل[2]: المراد بالأجل المسمى: النفخة الأولى، وقيل: الوقت الذي قدره الله لعذابهم في الدنيا بالقتل والأسر يوم بدر.

---

(١) المراغي.

(٢) الشوكاني.

والحاصل: أن لكل عذاب أجلاً، لا يتقدم عليه ولا يتأخر عنه، كما في قوله سبحانه: ﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ وفي الآية[1] إشارة إلى أن الاستعجال في طلب العذاب في غير وقته المقدر لا ينفع، وهو مذموم، فكيف الاستعجال في طلب مرادات النفس وشهواتها في غير أوانها.

والمعنى: أي: ويستعجلك كفار قريش بنزول العذاب بنحو قولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ وقولهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ولولا أجل مسمى ضربه الله لعذابهم لجاءهم حين استعجالهم إياه.

وجملة قوله: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾ مستأنفة مبينة لمجيء العذاب المذكور قبلها، ومعنى بغتة: فجأة؛ أي: وعزتي وجلالي ليأتينهم العذاب الذي عين لهم عند حلول الأجل فجأة، كوقعة بدر، فإنها أتتهم بغتة، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾؛ أي: والحال أنهم لا يعلمون بإتيانه، بل يكونون في غفلة عنه، واشتغال بما ينسيهموه.

وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: أنه تأكيد لمعنى قوله: ﴿بَغْتَةً﴾ كما يقول القائل: أتيته على غفلةٍ منه بحيث لم يدر، فقوله: بحيث لم يدر: أكد معنى الغفلة.

والثاني: يفيد فائدةً مستقلةً، وهي أن العذاب يأتيهم بغتةً، وهم لا يشعرون هذا الأمر، ويظنون أن العذاب لا يأتيهم أصلاً ا هـ. «كرخي».

فإن قلت[2]: عذاب الآخرة ليس من قبيل المفاجأة، فكيف يأتي بغتةً؟

قلت: الموت يأتيهم بغتةً؛ أي: في وقت لا يظنون أنهم يموتون فيه، وزمانه متصل بزمان القيامة، ولذا عد القبر أول منزل من منازل الآخرة، ويدل عليه قوله - ﷺ -: «من مات فقد قامت قيامته». وفي البرزخ عذاب، ولو كان نصفاً من حيث أنه حظ الروح فقط.

---

(١) روح البيان.　　(٢) روح البيان.

ثم زاد في التعجيب من جهلهم بقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ في الدنيا، كرره للتأكيد، أو ذكره أولاً إخباراً عنهم، وثانياً تعجيباً منهم. ا هـ. «كرخي»؛ أي: يطلبون منك يا محمد إيقاع العذاب ناجزاً في غير ميقاته، ويلحون في ذلك، ولو علموا ما هم صائرون إليه.. لتمنوا أنهم لم يخلقوا، فضلاً عن أن يستعجلوا، ولأعملوا جميع جهدهم في الخلاص منه.

ثم بين السبب في جهلهم وحمقهم فقال: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ﴾؛ أي: والحال أن محل العذاب الذي لا عذاب فوقه ﴿لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ المستعجلين للعذاب يوم القيامة، أي: سيحيط بهم عن قريب، لأن ما هو آت قريب.

قال في «الإرشاد»: وإنما جيء بالاسمية دلالةً على تحقق الإحاطة واستمرارها، وتنزيلاً لحال السبب منزلة المسبب، فإن الكفر والمعاصي الموجبة لدخول جهنم محيطة بهم. انتهى.

وقال بعضهم: إن الكفر والمعاصي هي النار في الحقيقة، ظهرت في هذه النشأة بهذه الصورة.

والمعنى عليه[1]: هي كالمحيطة بهم الآن، لإحاطة الكفر والمعاصي التي توجبها بهم.

و﴿اللام﴾: في قوله: ﴿بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ للعهد على وضع الظاهر موضع المضمر، للدلالة على موجب الإحاطة، أو للجنس، فيكون استدلالاً بحكم الجنس على حكمهم.

قوله: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ ظرف لقوله: محيطة، كما في «السمين» أو ظرف لمحذوف، تقديره: يوم يعلوهم العذاب الذي أشير إليه بإحاطة جهنم بهم ويسترهم ﴿مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾. والمراد: من جميع جهاتهم يكون من الأحوال والأهوال ما لا يفي به المقال.

---

(١) البيضاوي.

فإن قيل[١]: لم خصَّ الجانبين، ولم يذكر اليمين ولا الشمال، ولا الخلف ولا الأمام؟

فالجواب: أن المقصود ذكر ما تتميز به نار جهنم عن نار الدنيا، ونار الدنيا تحيط بالجوانب الأربع، فإن من دخلها تكون الشعلة قدامه وخلفه، ويمينه وشماله، وأما النار من فوق فلا تنزل، وإنما تصعد من أسفل في العادة، وتحت الأقدام لا تبقى الشعلة التي تحت القدم، بل تطفأ، ونار جهنم تنزل من فوق، ولا تطفأ بالدوس عليها بوضع القدم.

﴿وَيَقُولُ﴾ معطوف على ﴿يَغْشَىٰهُمُ﴾؛ أي: يقول الله، أو بعض الملائكة بأمره لهم على سبيل التوبيخ والتقريع ﴿ذُوقُواْ﴾ وباشروا ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: جزاء ما كنتم تعملونه في الدنيا على الاستمرار من السيئات، التي من جملتها الاستعجال بالعذاب، فلا تفوتونا.

وقرأ[٢] الكوفيون، ونافع ﴿وَيَقُولُ﴾؛ أي: الله أو بعض الملائكة، بياء الغيبة، واختار أبو عبيد هذه القراءة لقوله: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ وباقي السبعة: بالنون، نون العظمة، أو نون جماعة الملائكة.

وقرأ أبو البرهشيم: ﴿وتقول﴾ بالتاء الفوقية؛ أي: جهنم، كما نسب القول إليها في ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ وقرأ ابن مسعود، وابن أبي عبلة: ﴿ويقال﴾ مبنياً للمفعول.

وقوله: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ خطاب تشريف لبعض المؤمنين، الذين لا يتمكنون من إقامة أمور الدين كما ينبغي، لممانعة من جهة الكفار، وإرشاد لهم إلى الطريق الأسلم، وأضافهم إليه بعد خطابهم تشريفاً لهم، وتكريماً، و﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾: صفة موضحة، أو مبينة.

---

(١) الرازي.

(٢) البحر المحيط.

وقرأ ابن عامر[1] بفتح الياء، والباقون بتسكينها.

﴿إِنَّ أَرْضِى﴾؛ أي: إن بلاد المواضع التي خلقتها ﴿وَٰسِعَةٌ﴾ لا مضايقة لكم فيها، ففيه تحريض على الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام؛ أي: يا من شرفكم الله بالعبودية له، هاجروا من مكة إن كنتم في ضيق من إظهار الإيمان فيها، ولا تجاوروا الظلمة، فأرض الله واسعة.

قال مقاتل[2]: نزلت في ضعفاء مسلمي مكة، كانوا في ضيق من إظهار الإسلام بها، وأمااليوم، فإنا بحمد الله لم نجد أعون على قهر النفس وأجمع للقلب، وأحث على القناعة، وأطرد للشيطان، وأبعد من الفتن، وأظهر لأمر الدين من مكة حرسها الله تعالى. ا هـ. «قاري».

﴿فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾؛ أي: فخصوني بالعبادة، ولا تعبدوا أحداً سواي، فـ﴿الفاء﴾: واقعة في جواب شرط محذوف، حذف الشرط وعوض عنه تقديم المفعول، مع إفادة تقديم المفعول معنى الاختصاص والإخلاص؛ أي: فإن لم تخلصوا لي العبادة في أرض، فأخلصوها لي في غيرها.

وقرأ يعقوب[3]: ﴿فاعبدوني﴾ بالياء.

وقيل المعنى: إن أرضي التي هي أرض الجنة واسعة، فاعبدوني حتى أورثكموها.

ولما أخبر تعالى[4] عن سعة أرضه، وكان ذلك إشارةً إلى الهجرة، وأمر بعبادته، فكان قد يتوهم متوهم: أنه إذا خرج من أرضه التي نشأ فيها لأجل من حلها من أهل الكفر، إلى دار الإسلام، لا يستقيم له فيها ما كان يستقيم له في أرضه، وربما أدى ذلك إلى هلاكه.. أخبر أن كل نفس لها أجل تبلغه، وتموت في أي مكان حل، وأن رجوع الجميع إلى جزائه يوم القيامة، فقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ من النفوس، سواء كانت نفس إنسانٍ أو غيرها، وهو مبتدأ، وجاز الابتداء

---

(١) المراح.
(٢) زاد المسير.
(٣) نسفي.
(٤) البحر المحيط.

بالنكرة لما فيها من العموم.

﴿ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾؛ أي: واجدة مرارة الموت، ومتجرعة غصص المفارقة، كما يجد الذائق ذوق المذوق، وهذا مبني على أن الذوق يصلح للقليل والكثير، كما ذهب إليه الراغب، وقال بعضهم: أصل الذوق بالفم فيما يقل تناوله، فالمعنى إذاً: إن النفوس تذوق بملابسه البدن جزءاً من الموت.

واعلم[1]: أن للإنسان روحاً وجسداً، وبخاراً لطيفاً بينهما هو: الروح الحيواني، فما دام هذا البخار باقياً على الوجه الذي يصلح أن يكون علاقةً بينهما، فالحياة قائمة، وعند انطفائه وخروجه عن الصلاحية تزول الحياة، ويفارق الروح البدن مفارقةً اضطرارية، وهو الموت الصوري، ولا يعرف كيفية ظهور الروح في البدن ومفارقته له وقت الموت إلا أهل الانسلاخ التام.

﴿ثُمَّ إِلَيْنَا﴾ لا إلى غيرنا؛ أي: إلى حكمنا وجزائنا ﴿تُرْجَعُونَ﴾ تردون[2] من الرجع، وهو: الرد، فمن كانت هذه عاقبته.. ينبغي أن يجتهد في التزود والاستعداد لها، ويرى مهاجرة الوطن سهلةً، واحتمال الغربة هوناً، هذا إذا كان الوطن دار الشرك، وكذا إذا كان أرض المعاصي والبدع، وهو لا يقدر على تغييرها، والمنع منها، فيهاجر إلى أرض المطيعين من أرض الله الواسعة.

والمعنى: كل نفس من النفوس واجدة مرارة الموت لامحالة، فلا يصعب عليكم ترك الأوطان، ومفارقة الإخوان والخلان، ثم إلى الله المرجع بالموت والبعث لا إلى غيره، فكل حي في سفر إلى دار القرار، وإن طال لبثه في هذه الدار، فيوفيكم جزاء ما تعملون، فقدموا له خير العمل تفوزوا بنعيم مقيم، وجنة عرضها السماوات والأرض.

وقرأ علي[3]: ﴿ترجعون﴾ مبنياً للفاعل من الرجوع، والجمهور: مبنياً للمفعول بتاء الخطاب، وروى عن عاصم: بياء الغيبة، وقرأ أبو حيوة: ﴿ذائقة﴾

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

(٣) البحر المحيط.

بالتنوين، ﴿الموت﴾ بالنصب.

والخلاصة: أي أينما تكونوا يدرككم الموت، فكونوا في طاعة الله، وافعلوا ما أمركم به، فذلك خير لكم فإن الموت لا محالة آتٍ، ولله در القائل:

ٱلْمَوْتُ فِيْ كُلِّ حِيْنٍ يُنْشِدُ ٱلْكَفَنَا ... وَنَحْنُ فِيْ غَفْلَةٍ عَمَّا يُرَادُ بِنَا
لاَ تَرْكَنَنَّ إِلَىٰ ٱلدُّنْيَا وَزَهْرَتِهَا ... وَإِنْ تَوَشَّحْتَ مِنْ أَثْوَابِهَا ٱلْحَسَنَا
أَيْنَ الأَحَبَّةُ وَٱلْجِيْرَانُ مَا فَعَلُوْا ... أَيْنَ ٱلَّذِيْنَ هُمُ كَانُوْا لَهَا سَكَنَا
سَقَاهُمُ ٱلْمَوْتُ كَأْساً غَيْرَ صَافِيَةٍ ... صَيَّرَتْهُمْ تَحْتَ أَطْبَاقِ ٱلثَّرَىٰ رَهَنَا

ثم إلى الله مرجعكم، فمن كان مطيعاً له.. جازاه خير الجزاء، وآتاه أتم الثواب.

ثم بين جزاء المؤمن بربه، المهاجر بدينه فراراً من شرك المشركين، فقال: و﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله، وصدقوا رسوله فيما جاء به من عنده ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ومن الصالحات: الهجرة للدين؛ أي: وعملوا بما أمرهم به، فأطاعوه، وانتهوا عما نهاهم عنه. ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لننزلنهم ﴿مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ مفعول ثان لـ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾؛ أي: قصوراً[1] عالية من الدر والزبرجد والياقوت، وإنما قال ذلك، لأن الجنة في جهة عالية، والنار في سافلة، ولأن النظر من الغرف إلى المياه والخضر أشهى وألذ.

﴿تَجْرِي﴾ وتسيل ﴿مِن تَحْتِهَا﴾؛ أي: من تحت أشجارها ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الأربعة صفة لـ﴿غُرَفًا﴾ حال كونهم ﴿خَٰلِدِينَ﴾؛ أي: ماكثين ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في تلك الغرف مكثاً مؤبداً لا نهاية له، جزاءً لهم على ما عملوا ﴿نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ الأعمال الصالحة، والمخصوص بالمدح محذوف؛ أي: نعم أجر العاملين أجرهم.

وقرأ ابن مسعود[2]، والأعمش، ويحيى بن وثاب، وحمزة، والكسائي،

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط مع الشوكاني.

والربيع بن خثيم، وزيد بن علي: ﴿لنثوينهم﴾ بالثاء المثلثة الساكنة، مكان الباء الموحدة بعد النون، وياء مفتوحة بعد الواو المكسورة المخففة، من الثواء، وهو: الإقامة؛ أي: لنقيمنهم وننزلنهم منزلاً يقيمون فيه.

وقرأ الباقون: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾ بالباء الموحدة من المباءة؛ أي: لنجعلن لهم مكاناً مباءةً؛ أي: مرجعاً يأوون إليه، وبوأ: يتعدى لاثنين، قال تعالى: ﴿تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾.

وروي عن ابن عامر: ﴿غرفاً﴾ بضم الراء، وقرأ ابن وثاب ﴿فنعم﴾ بالفاء. والجمهور: بغير فاء.

ثم بين صفات هؤلاء العاملين، الذين استحقوا تلك الجنات بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ على مفارقة أوطانهم والهجرة، وجميع المشاق، من امتثال الأوامر واجتناب المناهي، والموصول: صفة لـ﴿ٱلْعَٰمِلِينَ﴾، أو نصب على المدح.

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ لا على غيره ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾؛ أي: يعتمدون في أمورهم ديناً ودنيا؛ أي: يفوضون أمورهم إليه تعالى في كل إقدام وإحجام.

وهذا التوكل من قوة الإيمان، فإذا قوي الإيمان.. يخرج من القلب ملاحظة الأوطان والأموال والأرزاق وغيرها، وتصير الغربة والوطن سواءً، ويكفي ثواب الله بدلاً من الكل، وفي الحديث: «من فر بدينه من أرض إلى أرض، ولو كان شبراً.. استوجب الجنة، وكان رفيق إبراهيم ومحمد».. - عليهما السلام -.

أما استيجابه الجنة والغرف، فلتركه المسكن المألوف لأجل الدين، وامتثال أمر رب العالمين، وأما رفاقته لهما فلمتابعتهما في باب الهجرة، وإحياء سنتهما، فإن إبراهيم - عليه السلام - هاجر إلى الأرض المقدسة، ونبينا - عليه السلام - هاجر إلى أرض المدينة، وفيه إشارة إلى أن السالك ينبغي له أن يهاجر من أرض الجاه - وهو قبول الخلق - إلى أرض الخمول.

والمعنى[1]: أي هؤلاء العاملون، هم الذين صبروا على أذى المشركين، وشدائد الهجرة، وغيرهما من الجهود والمشاق، وتوكلوا على ربهم فيما يأتون وما يذرون، كأرزاقهم، وجهاد أعدائهم، فلا ينكلون عنهم، ولا يتراجعون ثقةً منهم بأن الله معلي كلمتهم، وموهن كيد الكافرين، وأن ما قسم لهم من الرزق لن يفوتهم.

ثم ذكر سبحانه: أن مما يعين على التوكل عليه: معرفة أنه كافي أمر الرزق في الوطن والغربة، فقال: ﴿وَكَأَيِّن﴾ اسم مركب من كاف التشبيه، وأي، آخره نون بمعنى كم الخيرية، في محل الرفع مبتدأ. ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ تمييز له، وهي كل ما يدب على الأرض عاقلاً كان أم لا، من الطيور والسباع والهوام، وجملة: ﴿لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ صفة لدابة، وجملة ﴿ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا﴾: خبر المبتدأ؛ أي[2]: وكثير من دابة ذات حاجة إلى الغذاء، لا تطيق حمل رزقها لضعفها، أو لا تدخر، وإنما تصبح ولا معيشة عندها، الله يرزقها؛ أي: يعطيها رزقها يوماً فيوماً، حيث توجهت، ﴿و﴾ يرزق ﴿إياكم﴾ حيث كنتم؛ أي: ثم إنها مع ضعفها وتوكلها، وإياكم مع قوتكم واجتهادكم، سواء في أنه لا يرزقها وإياكم إلا الله، لأن رزق الكل بأسباب هو المسبب لها وحده، فلا تخافوا الفقر بالمهاجرة والخروج إلى دار الغربة؛ أي: فكيف لا يتوكلون على الله مع قوتهم وقدرتهم على أسباب العيش، كتوكلها على الله مع ضعفها وعجزها. ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ الذي يسمع كل مسموع، أو المبالغ في السمع، فيسمع قولكم هذا في أمر الرزق ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بكل معلوم، أو المبالغ في العلم فيعلم ضمائركم.

ومعنى الآية: أي[3] هاجروا أيها المؤمنون بالله ورسوله وجاهدوا أعداءه، ولا تخافوا عيلةً ولا إقتاراً، فكم من دابة ذات حاجة إلى الغذاء والمطعم، لا تطيق جمع قوتها، ولا حمله، فترفعه من يومها لغدها، عجزاً منها عن ذلك، الله يرزقها وإياكم، يوماً بيوم، وساعةً فساعةً، وهو السميع لقولكم: فلا نخشى من

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

فراق أوطاننا العيلة، ﴿العليم﴾ بما في أنفسكم، وإليه يصير أمركم وأمر عدوكم، من إذلال الله إياه ونصرتكم عليه، ولا تخفى عليه خافية من أمور خلقه.

وقال ابن عباس: لا يدخر الرزق إلا الآدمي والنمل والفأرة والعقعق. وقيل عن بعضهم: رأيت البلبل يحتكر في حضنيه، وروى ابن عباس: أن النبي ـ ﷺ ـ قال للمؤمنين بمكة حين آذاهم المشركون: «اخرجوا إلى المدينة، وهاجروا ولا تجاوروا الظلمة». قالوا: ليس لنا بها دار ولا عقار ولا من يطعمنا، ولا من يسقينا، فنزلت الآية.

ثم إنه سبحانه ذكر حال المشركين من أهل مكة وغيرهم، وعجب السامع من كونهم يقرون بأنه خالقهم ورازقهم ولا يوحدونه، ولا يتركون عباده غيره، فقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾؛ أي: أهل مكة ﴿مَّنْ﴾ استفهام ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ السبع ﴿وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ لمصالح العباد، حيث يجريان على الدوام، أتى[1] بشيئين:

أحدهما: يتعلق بالذوات، وهو خلق السماوات والأرض.

والثاني: يتعلق بالصفات، وهو تسخير الشمس والقمر لإصلاح الأقوات، ومعرفة الأوقات، وغير ذلك من المنافع.

﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي ليقولن أهل مكة: خلقهن الله ـ سبحانه وتعالى ـ إذ لا سبيل لهم إلى الإنكار لما تقرر في العقول، من وجوب انتهاء الممكنات، إلى واحد واجب الوجود، ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾؛ أي[2]: فكيف يصرفون عن الإقرار بتفرده في الإلٰهية، مع إقرارهم بتفرده فيما ذكر من الخلق والتسخير، فهو إنكار واستبعاد لتركهم العمل بموجب العلم، وتوبيخ وتقريع عليه، وتعجيب منه.

---

(١) الفتوحات.

(٢) روح البيان.

والمعنى[1]: أي ولئن سألت هؤلاء المشركين بالله: من خلق السماوات والأرض فسواهن، وسخر الشمس، والقمر يجريان دائبين لمصالح خلقه، ليقولن: الذي خلق ذلك وفعله هو الله، فأنى يؤفكون؛ أي: فكيف يصرفون عن توحيده، وإخلاص العبادة له بعد إقرارهم بأن خالق كل ذلك.

تنبيه: ذكر في السماوات والأرض الخلق، وفي الشمس والقمر التسخير، لأن مجرد خلق الشمس والقمر ليس حكمةً، فإن الشمس لو كانت مخلوقة بحيث تكون في موضع واحد، لا تتحرك.. ما حصل الليل والنهار، ولا الصيف والشتاء، فحينئذٍ الحكمة إنما هي في تحريكهما وتسخيرهما. ا هـ. «كرخي».

والخلاصة[2]: أنهم يعترفون بأنه هو الخالق للسماوات والأرض، والمسخر للشمس والقمر، ثم هم مع ذلك يعبدون سواه، ويتوكلون على غيره، فكما أنه الواحد في ملكه، فليكن الواحد في عبادته، وكثيراً ما يقرر القرآن توحيد الألوهية بعد الاعتراف بتوحيد الربوبية، التي كانوا يدينون بها، نحو قولهم: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك.

ولما ذكر اعترافهم بالخلق.. ذكر حال الرزق من قبل أن كمال الخلق ببقائه، ولا بقاء له إلا بالرزق، فقال: ﴿اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَبْسُطُ﴾ ويوسع ﴿الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ أن يبسط له ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ مؤمنين وكافرين ﴿وَيَقْدِرُ﴾؛ أي: يضيق ويقتر ﴿لَهُۥٓ﴾؛ أي: لمن يشاء أن يقدر عليه منهم، كائناً من كان، على أن[3] الضمير مبهم حسب إبهام مرجعه، ويحتمل أن يكون الموسع له، والمضيق عليه واحداً، على أن البسط والقبض على التعاقب؛ أي: يقدر لمن يبسط له على التعاقب.

---

(١) المراغي.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

وقرأ علقمة الحمصي: ﴿ويقدر﴾ بضم الياء وفتح القاف وشد الدال، ذكره في «البحر».

قال الحسن: يبسط الرزق لعدوه مكراً به، ويقدر على وليه نظراً له، فطوبى لمن نظر الله إليه؛ أي: إن الله سبحانه يوسع رزقه على من يشاء من خلقه، ويقتر على من يشاء، فالأرزاق وقسمتها بيده تعالى، لا بيد أحدٍ سواه، فلا يؤخرنكم عن الهجرة، وجهاد عدوكم، خوف العيلة والفقر، فمن بيده تكوين الكائنات، لا يعجز عن أرزاقها، ونحو الآية قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾.

ثم علل التفاوت في الرزق بين عباده بعلمه بالمصلحة في ذلك، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ يعلم ما فيه صلاح عباده وفسادهم، ويعلم مقادير الحاجات ومقادير الأرزاق، فيعلم من يليق ببسط الرزق فيبسط له، ويعلم من يليق بقبضه فيقبض له، أو فيعلم أن كلاً من البسط والقبض في أي وقتٍ يوافق الحكمة والمصلحة، فيفعل كلاً منهما في وقته، وفي الحديث القدسي: «إن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الغنى، ولو أفقرته.. لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الفقر، ولو أغنيته.. لأفسده ذلك».

ثم ذكر اعترافهم بهذا بقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾؛ أي: وعزتي وجلالي، لئن سألت يا محمد مشركي العرب ﴿مَّن نَّزَّلَ﴾ مرة بعد مرة ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: من السحاب ﴿مَآءً﴾؛ أي: مطراً ﴿فَأَحْيَا﴾ وأخصب ﴿بِهِ﴾؛ أي: بسبب ذلك الماء ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ بإخراج الزرع والنبات والأشجار منها ﴿مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا﴾؛ أي: يبسها وقحطها ﴿لَيَقُولُنَّ﴾؛ أي: ليقولن المشركون جواباً لك، نزله ﴿ٱللَّهُ﴾ سبحانه، وأحيا به الأرض، إذ لا جواب غيره؛ أي: يعترفون بأنه الموجد للممكنات بأسرها، أصولها وفروعها، لا يجدون إلى إنكاره سبيلاً، ثم إنهم يشركون به بعض مخلوقاته، الذي لا يكاد يتوهم منه القدرة على شيء ما أصلاً.

والمعنى: أي ولئن سألتهم: من ينزل من السحاب ماءً، فيحيي به الأرض القفر، فتصير خضراء تهتز بعد أن لم تكن كذلك، لم يجدوا في الجواب إلا سبيلاً واحدةً هي الاعتراف الذي لا محيص عنه بأنه الله، فهو الموجد لسائر

المخلوقات، ومن عجبٍ أنهم بعد ذلك يشركون به بعض مخلوقاته، التي لا تقدر على شيء من ذلك.

فإن قلت: لِمَ[1] زاد ﴿مِنۢ﴾ هنا في قوله ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا﴾ وحذفها في البقرة، حيث قال هناك: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾ وفي الجاثية أيضاً، حيث قال: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾؟

قلت: زادها هنا موافقةً لما قبله من قوله: ﴿مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ وقوله: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ بخلاف ذلك في البقرة والجاثية.

ثم لما اعترفوا[2] هذا الاعتراف في هذه الآيات، وهو يقتضي بطلان ما هم عليه من الشرك، وعدم إفراد الله سبحانه بالعبادة.. أمر رسوله ـ ﷺ ـ أن يحمد الله على إقرارهم، وعدم جحودهم مع تصلبهم في العناد، وتشددهم في رد كل ما جاء به رسول الله من التوحيد، فقال: ﴿قُلِ﴾ يا محمد متعجباً من حالهم ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ والشكر له على إظهار الحجة، واعترافهم بأن النعم كلها منه تعالى؛ أي: أحمد الله على أن جعل الحق معك، وأن أظهر حجتك عليهم.

وعبارة «القرطبي» هنا: قل الحمد لله على ما أوضح من الحجج والبراهين على قدرته، وقيل: قل الحمد لله على إقرارهم بذلك، وقيل: قل الحمد لله على إنزال الماء، وإحياء الأرض بالنبات. اهـ.

ثم ذمهم فقال: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾؛ أي: شيئاً من الإشياء، فلذلك لا يعملون بمقتضى قولهم، فيشركون به سبحانه أخس مخلوقاته، وهو الصنم؛ أي: ولكن أكثر المشركين لا يعقلون ما لهم فيه النفع في دينهم، وما فيه الضر لهم، فهم لجهلهم يحسبون أنهم لعبادتهم الأصنام دون الله ينالون بها الزلفى والقرب عنده تعالى.

---

(1) فتح الرحمٰن.

(2) الشوكاني.

والخلاصة: أن أقوالهم تخالف أفعالهم، فهم يقرون بوحدانية الله، وعظيم قدرته وجلاله، ثم هم يعبدون معه سواه، مما هم معترفون بأنه خلقه.

قال بعضهم[1]: قد ذكر الله تعالى آية الرزق، ثم آية التوحيد، ثم كررهما في صورتين أخريين، تنبيهاً منه لعباده المؤمنين على أنه سبحانه لا يقطع أرزاق الكفار، مع وجود الكفر والمعاصي، فكيف يقطع أرزاق المؤمنين مع وجود الإيمان والطاعات، وأنه سبحانه لا يسأل من العباد إلا التوحيد والتقوى والتوكل، فإنما الرزق على الله الكريم، وقد قدر مقادير الخلق قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وما قدر في الخلق والرزق والأجل لا يتبدل بقصد القاصدين، ألا ترى إلى الوحوش والطيور، لا تدخر شيئاً إلى الغد، تغدو خماصاً، وتروح بطاناً؛ أي: ممتلئة البطون والحواصل، لاتكالها على الله تعالى، بما وصل إلى قلوبها من نور معرفة خالقها، فكيف يهتم الإنسان لأجل رزقه، ويدخر شيئاً لغده، ولا يعرف حقيقة رزقه وأجله، فربما يأكل ذخيرته غيره، ويصل إلى غده، ولذلك كان ـ ﷺ ـ لا يدخر لغد إذ الأرزاق مجددة كالأنفاس المجددة في كل لمحة، والرزق يطلب الرجل كما يطلبه أجله. انتهى.

ثم أشار سبحانه إلى تحقير الدنيا، وأنها من جنس اللعب واللهو، وأن الدار على الحقيقة هي دار الآخرة فقال: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ إشارة تحقير للدنيا، وكيف لا وهي لا تزن عند الله جناح بعوضة، قال الإمام الراغب: الحياة[2] باعتبار الدنيا والآخرة ضربان: الحياة الدنيا، والحياة الآخرة، فهي إشارة إلى أن الحياة الدنيا بمعنى الحياة الأولى بقرينة المقابلة بالآخرة، فإنه قد يعبر بالأدنى عن الأول المقابل للآخر، والمراد بالحياة الأولى ما قبل الموت، لدنوه؛ أي: لقربه، وبالآخرة: ما بعد الموت لتأخره.

﴿إِلَّا لَهْوٌ﴾؛ أي: إعراض عن الآخرة ﴿وَلَعِبٌ﴾؛ أي: شغل بما لا يعني ولا يهم، قال الرازي: اللهو: هو الإعراض عن الحق بالكلية، واللعب: الإقبال

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.

على الباطل ا هـ.

وقيل[1]: اللهو: الاشتغال بما فيه نفع عاجل، واللعب: الاشتغال بما لا نفع فيه أصلاً.

وقيل: اللهو: هو الاستمتاع بلذات الدنيا، وقيل: هو الاشتغال بما لا يعنيه وما لا يهمه، واللعب: هو العبث، فاللهو: كل ما يشغل الإنسان عما يهمه ويعنيه، والملاهي: آلة اللهو، ويقال: لعب فلان: إذا لم يقصد بفعله مقصداً صحيحاً؛ أي: إن[2] الدنيا سريعة الزوال، فالاشتغال بلذاتها كاشتغال الصبيان بلهوهم وعبثهم، فإنهم يجتمعون عليه، ويفرحون به ساعةً، ثم يتفرقون عنه، فالإعراض عن الحق لهو، والإقبال على الباطل لعب.

وفي «التأويلات النجمية»: يشير إلى أن هذه الحياة التي يعيش بها المرء في الدنيا، بالنسبة إلى الحياة التي يعيش بها أهل الآخرة في الآخرة، وجوار الحق تعالى لهو ولعب، وإنما شبهها باللهو واللعب لمعنيين:

أحدهما: أن أمر اللهو واللعب سريع الانقضاء، لا يداوم عليه؛ فالمعنى: أن الدنيا وزينتها، وشهواتها لظل زائل، لا يكون لها بقاء، فلا تصلح لاطمئنان القلب بها، والركون إليها.

والثاني: أن اللهو واللعب من شأن الصبيان والسفهاء، دون العقلاء وذوي الأحلام، ولهذا كان النبي ـ ﷺ ـ يقول: «ما أنا من ددٍ ولا الدد مني». والدد: اللهو واللعب، فالعاقل يصون نفسه منه. انتهى.

قال في «كشف الأسرار»: فإن قيل: لما سماها لهواً ولعباً، وقد خلقها لحكمةٍ ومصلحةٍ؟

قلنا: إنه سبحانه بنى الخطاب على الأعم الأغلب، وذلك أن غرض أكثر الناس من الدنيا اللهو واللعب. انتهى.

---

(١) صاوي.   (٢) المراح.

وورد في الخبر النبويّ، حين سُئل عن الدنيا، فقال: «دنياك ما يشغلك عن ربك». قيل: الشر[1] كله في بيت واحد، ومفتاحه حب الدنيا. وما أحسن من شبهها بخيال الظل حيث قال:

رَأَيْتُ خَيَالَ ٱلظِّلِّ أَعْظَمَ عِبْرَةٍ ... لِمَنْ كَانَ فِيْ عِلْمِ ٱلْحَقَائِقِ رَاقِيْ
شُخُوْصٌ وَأَصْوَاتٌ يُخَالِفُ بَعْضُهَا ... لِبَعْضٍ وَأَشْكَالٌ بِغَيْرِ وِفَاقِ
تَمُرُّ وَتَقْضِي أَوْبَةً بَعْدَ أَوْبَةٍ ... وَتَفْنَىٰ جَمِيْعاً وَٱلْمُحَرِّكُ بَاقِيْ

والمعنى: أي وما هذه الحياة الدنيا التي يتمتع بها هؤلاء المشركون، إلا شيء يتعلل به، ثم هو منقض عما قريب، لا بقاء له ولا دوام، ومن ثم قيل: الدنيا إن بقيت لك لم تبق لها، وأنشدوا:

تَرُوْحُ لَنَا ٱلدُّنْيَا بِغَيْرِ ٱلَّذِيْ غَدَتْ ... وَتَحْدُثُ مِنْ بَعْدِ ٱلأُمُوْرِ أُمُوْرُ
وَتَجْرِيْ ٱللَّيَالِيْ بِٱجْتِمَاعٍ وَفِرْقَةٍ ... وَتَطْلُعُ فِيْهَا أَنْجُمٌ وَتَغُوْرُ
فَمَنْ ظَنَّ أَنَّ ٱلدَّهْرَ بَاقٍ سُرُوْرُهُ ... فَذَاكَ مُحَالٌ لاَ يَدُوْمُ سُرُوْرُ
عَفَا ٱللَّهُ عَمَّنْ صَيَّرَ ٱلْهَمَّ وَاحِداً ... وَأَيْقَنَ أَنَّ ٱلدَّائِرَاتِ تَدُوْرُ

﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ﴾؛ أي: وإن الحياة الثانية ﴿لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُۚ﴾؛ أي: لهي الحياة الدائمة، التي لا موت فيها، ولا زوال ولا انقطاع ﴿لَوْ كَانُوا۟﴾؛ أي: لو كان هؤلاء المشركون ﴿يَعْلَمُونَ﴾ أن الحياة المعتبرة هي حياة الآخرة.. لما آثروا عليها الحياة الدنيا، السريعة الزوال، الوشيكة الاضمحلال.

وقيل المعنى[2]: وإن الدار الآخرة لهي الحياة الدائمة الخالدة، التي لا موت ولا فناء فيها، ذهب المفسرون إلى أن معنى الحيوان هنا: الحياة، وأنه مصدر بمنزلة الحياة، فيكون كالنزوان، والغليان، واللهيان، والجولان، والطوفان، وقد قيل في شأن الدنيا:

أَحْلاَمُ نَوْمٍ أَوْ كَظِلٍّ زَائِلٍ ... إِنَّ ٱللَّبِيْبَ بِمِثْلِهَا لاَ يُخْدَعُ

---

(١) روح البيان.
(٢) الخازن.

ثم أخبر سبحانه، بأن تلك حال المشركين في الرخاء، فإذا ابتلوا بالشدائد.. دعوا الله وحده ليخلصهم منها، كما قال: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ﴾؛ أي: فإذا ركب هؤلاء المشركون في السفينة، لتجاراتهم وتصرفاتهم، وهاجت الرياح، واضطربت الأمواج، وخافوا الغرق.. ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى إنجاءَهم من الغرق، حالة كونهم ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾؛ أي: الدعاء والتضرع والاستغاثة، ولم يستغيثوا بآلهتهم وأندادهم، ليخلصوهم من تلك الشدة، لعلمهم أنه لا يكشف هذه الشدة العظيمة النازلة بهم غير الله سبحانه وتعالى. أو المعنى: دعوا الله كائنين في صورة من يخلص الدين لله من المؤمنين، حيث لا يذكرون إلا الله، ولا يدعون مع الله آخر، وفي المخلصين ضرب من التهكم.

ثم بين[1] سرعة رجوعهم وعودتهم إلى ما كانوا عليه وشيكاً، فقال: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ﴾ وخلصهم مما كانوا فيه من الضيق، ونجاهم من الهلاك والغرق، ووصلوا ﴿إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ جواب ﴿لما﴾؛ أي: فاجأ التنجية إشراكهم بالله، ورجعوا القهقرى، وعاودوا سيرتهم الأولى، وجعلوا مع الله الشركاء، ودعوا الآلهة والأنداد، ونحو الآية قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾.

روى محمد بن إسحاق في «السيرة» عن عكرمة بن أبي جهل، قال: لما فتح رسول الله ـ ﷺ ـ مكة.. ذهبت فاراً منها، فلما ركبت البحر إلى الحبشة.. اضطربت بنا السفينة، فقال أهلها: يا قوم أخلصوا لربكم الدعاء، فإنه لا منجي هاهنا إلا هو. فقال عكرمة: لئن كان لا ينجي في البحر غيره، فإنه لا ينجي في البر أيضاً غيره، اللهم لك عليّ عهد، لئن خرجت.. لأذهبن، فلأضعن يدي في يد محمد، فلأجدنه رؤوفاً رحيماً، فكان كذلك.

وقال عكرمة: كان أهل الجاهلية إذا ركبوا في البحر.. حملوا معهم الأصنام، فإذا اشتد عليهم الريح.. ألقوها فيه، وقالوا: يا رب يا رب. قال

---

(١) المراغي.

الرازي في «اللوامع»: وهذا دليل على أن معرفة الرب في فطرة كل إنسان، وأنهم إن غفلوا في السراء.. فلا شك أنهم يلوذون إليه في حال الضراء. ا هـ.

واللام[1] في قوله: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ وفي قوله: ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ لام كي، معللة بمحذوف معلوم من السياق، تقديره: فاجؤوا المعاودة إلى الشرك ﴿لِيَكْفُرُوا﴾؛ أي: ليكونوا كافرين بما آتيناهم، وأعطيناهم من نعمة النجاة، التي حقها أن يشكروها ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾؛ أي: ولينتفعوا باجتماعهم على عبادة الأصنام، وتوادّهم عليها، ويجوز أن تكون في كليهما لام أمر، ومعناه التهديد، كما في ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾؛ أي: اكفروا بما أعطيناكم من النعمة، وتمتعوا، ويدل على هذا الوجه الأخير، قراءة أبيّ ﴿وتمتعوا﴾ واحتمالها للأمرين، إنما هو على قراءة أبي عمرو، وابن عامر، وعاصم، وورش: بكسر اللام، وأما على قراءة الجمهور: بسكونها فلا خلاف أنها لام الأمر، وقولنا: لام كي فيه شيء، لأنه ليس الحامل لهم على الإشراك قصد الكفر، والظاهر: أنها لام العاقبة والمآل، كما أشار له «الشهاب».

فائدة[2]: قال الشيخ الشهير، بزورق الفارسي في «شرح حزب البحر»: ومن أوراد البحر: الحي القيوم، ويقول عند ركوب السفينة: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧)﴾. فإنه أمان من الغرق. انتهى. اقتداءً بنوح ـ عليه السلام ـ وكذا يقال في كل مركوب غير حيوان، كالسيارة، والباخرة، والطائرة إلى غير ذلك.

وفي قوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ تهديد عظيم لهم؛ أي: فسيعلمون عاقبة ذلك، وما فيه من الوبال عليهم، حين يرون العذاب يوم القيامة.

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

وقرأ ابن مسعود[1]: ﴿فتمتعوا فسوف تعلمون﴾ بالتاء فيهما؛ أي: قيل لهم: ﴿تمتعوا فسوف تعلمون﴾، وكذا في مصحف أبيّ، وقرأ أبو العالية ﴿فيتمتعوا﴾ بالياء مبنياً للمفعول، ومن قرأ: ﴿وليتمتعوا﴾ بسكون اللام، وكان عنده ﴿اللام﴾ في ﴿لِيَكْفُرُواْ﴾ لام كي، فـ﴿الواو﴾: عاطفة كلاماً على كلام، لا عاطفة فعلٍ على فعلٍ، وحكى ابن عطية عن ابن مسعود: ﴿لسوف تعلمون﴾ باللام.

ثم ذكرهم[2] الله تعالى نعمه، حيث أسكنهم بلدةً أمنوا فيها، لا يغزوهم أحد مع كونهم قليلي العدد، قارين في مكان غير ذي زرع، وهذه من أعظم النعم التي كفروا بها، وهي نعمة لا يقدر عليها إلا الله تعالى، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ و﴿الهمزة﴾ فيه: للاستفهام الإنكاري التوبيخي، داخلة على محذوف، و﴿الواو﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: ألم يشاهد هؤلاء المشركون من قريش، ولم يروا ﴿أَنَّا جَعَلْنَا﴾ بلدهم ﴿حَرَمًا﴾؛ أي: محترماً ﴿ءَامِنًا﴾؛ أي: مصوناً من النهب والتعدي، سالماً أهله، آمناً من كل سوء ﴿و﴾ الحال أنه ﴿يتخطف الناس﴾ والعرب؛ أي[3]: يختلسون ويؤخذون ﴿مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ وجوانبهم، قتلاً وسبياً، إذ كانت العرب حوله في تغاورٍ وتناهبٍ.

والمعنى[4]: أي أولم ير هؤلاء المشركون من قريش ما خصصناهم به من النعمة، دون سائر عبادنا، فأسكناهم بلداً حرمنا على الناس أن يدخلوه لغارة، أو حرب، وآمناً من سكنه من القتل والسبي والنهب، فصاروا في سلامة وعافيةٍ، مما صار فيه غيرهم من العرب، لأن الناس حولهم يقتلون ويسبون في كل حين، وتطرقهم الغارات، وتجتاح أموالهم الغزاة، وتسفك دماءهم الجنود، وتستبيح حرمهم وأموالهم شطار العرب وشياطينها، فيشكرونا على ذلك، ويزدجروا عن كفرهم بنا، وإشراكهم ما لا ينفعهم ولا يضرهم.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) النهر.
(٣) روح البيان.
(٤) المراغي.

والخلاصة: أنه تعالى يمتن على قريش بما أحلهم من حرمه الذي جعله للناس، سواءً العاكف فيه، والباد، ومن دخله كان آمناً، فهم في أمنٍ عظيم، والأعراب حولهم نهب مقسم، يقتل بعضهم بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً، ثم هم مع ذلك يكفرون به، ويعبدون معه سواه.

ونحو الآية قوله: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾.

ثم بين سبحانه: أن العقل كان يقضي بشكرهم على هذه النعمة، لكنهم كفروا بها، وما جنحوا إلى مرضاة ربهم، فقال: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: بعد ظهور الحق الذي لا ريب فيه بالباطل، وهو الصنم أو الشيطان، يؤمنون دون الحق، وتقديم الصلة[1]: لإظهار شناعة ما فعلوه.

وكذا في قوله: ﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ المستوجبة للشكر ﴿يَكْفُرُونَ﴾ حيث يشركون به غيره.

وعبارة «البيضاوي» هنا: وتقديم الصلتين للاهتمام، أو الاختصاص على طريق المبالغة، و﴿الهمزة﴾ في قوله: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ للاستفهام التوبيخي التقريعي، المضمن للإنكار، داخلة على محذوف، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أيكذبون رسوله محمداً - ﷺ - فيؤمنون بالباطل، ويكفرون بنعمة الله.

وقرأ الجمهور: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ و﴿يَكْفُرُونَ﴾ بالياء فيهما، وقرأ السلمي، والحسن: بتاء الخطاب فيهما، ذكره في «البحر».

والمعنى: أي[2] أفكان شكرهم على هذه النعمة العظيمة، أن أشركوا به، وعبدوا معه غيره من الأصنام والأنداد، وبدلوا نعمة الله كفراً، وأحلوا قومهم دار البوار، فكفروا بنبي الله وعبده ورسوله.

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

والخلاصة: أنه كان من حق شكرهم له على هذه النعم، إخلاص العبادة له، وأن لا يشركوا به، وأن يصدقوا برسوله ويعظموه ويوقروه، لكنهم كذبوه، فقاتلوه، وأخرجوه من بين أظهرهم، ومن ثم سلبهم الله تعالى ما كان أنعم به عليهم، بقتل من قتل منهم ببدر، وأسر من أسر، حتى قطع دابرهم يوم الفتح، وأرغم آنافهم، وأذل رقابهم.

والخلاصة(١): أنكم يا أهل مكة في أخوف ما كنتم دعوتم الله تعالى، وفي أمنِ ما حصلتم عليه كفرتم بالله، وهذا متناقض، لأن دعاءكم في وقت الخوف على سبيل الإخلاص، لم يكن إلا لقطعكم بأن النعمة من الله لا غير، وقد اعترفتم بأن تلك النعمة العظيمة من الله، كيف تكفرون بها، وقد قطعتم في حال الخوف أنه لا أمن من الأصنام، حيث ألقيتموها في البحر، كيف آمنتم بها في حال الأمن.

ولما استنارت الحجة، وظهر الدليل، ولم يكن لهم فيه مقنع.. بين أنهم قوم ظلمة مفترون، وضعوا الأمور في غير مواضعها، بكذبهم على الله، فقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ والاستفهام فيه للإنكار بمعنى النفي؛ أي: لا أحد أشد ظلماً ﴿مِمَّنِ افْتَرَىٰ﴾ واختلق ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ سبحانه كذباً، بأن زعم أن له تعالى شريكاً، وأنه إذا فعل فاحشة.. قال: إن الله أمرني بها، والله لا يأمر بالفحشاء، ﴿أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ﴾؛ أي: بالرسول، أو بالقرآن ﴿لَمَّا جَاءَهُ﴾؛ أي: حين جاءه الحق من غير توقف؛ أي: كذبه حين مجيئه عناداً دون أن يتأمل فيه أو يتوقف، بل سارع إلى التكذيب أول ما سمعه. وفي قوله(٢): ﴿لَمَّا جَاءَهُ﴾ من تسْفيه آرائهم وتقبيح طرائقهم، ما لا يخفى، حين كذبوا الحق من غير توقف وتأمل.

فالله تعالى لا يمكن أن يكون له شريك، فمن جعل الشريك لملك مستقل في الملك كان ظالماً يستحق العقاب منه، فكيف إذا جعل الشريك لمن لا يمكن أن يكون له شريك، ومن كذَّب صادقاً يجوز عليه الكذب كان ظالماً، فكيف من

---

(١) المراح. (٢) المراغي.

كذّب صادقاً لا يجوز عليه الكذب، فإذاً ليس أحد أظلم ممن يكذب على الله بالشرك، ويكذب الله في تصديقه نبيه - ﷺ - ويكذب النبي في رسالة ربه، ويكذب القرآن المنزل من الله تعالى إلى الرسول - ﷺ -.

ثم بين سوء مغبة أعمالهم بطريق الاستفهام التقريري، وهو أبلغ في إثبات المطلوب، وهددهم وتوعدهم، فقال: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى﴾ ومنزل ومأوى ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: مكان يستقرون فيه؛ أي: ألا يستوجب هؤلاء الكافرون من أهل مكة الثواء والإقامة في جهنم، فقد افتروا على الله الكذب، فكذبوا بالكتاب أو الرسول لما جاءهم بلا توقف ولا تأمل.

والخلاصة: أن مثوى هؤلاء، وأشباههم جهنم وبئس المصير، فهو[1] تقرير لثوائهم وإقامتهم فيها، فإن همزة الاستفهام الإنكاري إذا دخلت على النفي صار إيجاباً؛ أي: ألا يستوجبون الإقامة والخلود في جهنم، وقد فعلوا ما فعلوا من الافتراء والتكذيب بالحق الصريح، مثل هذا التكذيب الشنيع، أو إنكار واستبعاد لاجترائهم على الافتراء والتكذيب؛ أي: ألم يعلموا أن في جهنم مثوىً للكافرين، حتى اجترؤوا هذه الجرأة، وقوله[2]: ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ من وضع الظاهر موضع المضمر؛ أي: مثواهم.

وبعد أن بين عاقبة أولئك الكافرين، ذكر عاقبة المؤمنين الذين اهتدوا بهُدى الله، وجاهدوا في سبيله، فقال: ﴿وَالَّذِينَ جَٰهَدُوا فِينَا﴾؛ أي[3]: والذين جدوا واجتهدوا في طاعتنا، وبذلوا وسعهم، وطاقتهم في شأننا وحقنا، وأخلصوا عملهم لوجهنا، والمجاهدة: استفراغ الوسع في مدافعة العدو، وأطلق المجاهدة ليعم جهاد الأعداء الظاهرة والباطنة، أما الأول فكجهاد الكفار المحاربين، وأما الثاني فكجهاد النفس والشيطان. وفي الحديث: «جاهدوا أهواءَكم كما تجاهدون أعداءَكم». ويكون الجهاد باليد واللسان. كما قال - عليه السلام -: «جاهدوا

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.

الكفار بأيديكم وألسنتكم»؛ أي: بما يسوءهم من الكلام، كالهجوِ ونحوهِ، قال ابن عطاء: المجاهدة: صدق الافتقار إلى الله بالانقطاع عن كل ما سواه، وقال عبد الله بن المبارك: المجاهدة: علم أدب الخدمة، فإن أدب الخدمة أعز من الخدمة، وفي «الكواشي»: المجاهدة: غض البصر، وحفظ اللسان، وخطرات القلب، ويجمعها الخروج عن العادات البشرية. انتهى.

﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لنرشدنهم ﴿سُبُلَنَا﴾؛ أي: أي سبل السير إلينا، والوصول إلى جنابنا، ولنوفقنهم طرق مرضاتنا، وإنما جمع السبل، لأن الطريق إلى الله تتعدد بعدد أنفاس الخلائق، وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يريد المهاجرين والأنصار؛ أي: والذين جاهدوا المشركين، وقاتلوهم في نصرة ديننا، لنهدينهم سبل الشهادة والمغفرة والرضوان.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ﴾[1]: مبتدأ، خبره: القسم المحذوف، وجوابه هو ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ﴾، وبهذا ونظيره رد على أبي العباس ثعلب، في منعه أن تقع جملة القسم والمقسم عليه خبراً للمبتدأ، ونظيره: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي: لمع المخلصين في القول والعمل، بالتوفيق والنصرة والإعانة والعصمة في الدنيا، والثواب والمغفرة في العقبى.

وفي «التأويلات النجمية»: لمع المحسنين، الذين يعبدون الله كأنهم يرونه، ومن كان الله معه.. لم يخذل ولم يذل.

ودخلت[2] ﴿لام﴾ التوكيد على ﴿مع﴾، وفي ﴿مع﴾ قولان: قيل: اسم، وقيل: حرف، فدخول ﴿اللام﴾ عليها ظاهر على القول الأول، و﴿لام﴾ التوكيد إنما تدخل على الأسماء، وكذا على الثاني من حيث أن فيها معنى الاستقرار، كما في نحو إن زيداً لفي الدار، و(مع) إذا سكنت عينها تكون حرفاً، لا غير، وإذا فتحت جاز أن تكون اسماً، وأن تكون حرفاً، والأكثر أن تكون حرفاً جاء

---

(١) البحر المحيط. (٢) القرطبي.

لمعنى. ا هـ. «قرطبي». وفيه إقامة الظاهر مقام المضمر، إظهاراً لشرفهم بوصف الإحسان. ا هـ. «سمين».

فإن قلت[1]: المجاهدة في دين الله إنما تكون بعد الهداية، فكيف جعل الهداية من ثمرتها؟

قلت: معناه: جاهدوا في طلب العلم، لنهدينهم سبلنا بمعرفة الأحكام وحقائقها، أو جاهدوا في نيل درجةٍ، لنهدينهم إلى أعلى منها، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ وقال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾.

والمعنى: أي والذين قاتلوا هؤلاء المفترين على الله الكذب، المكذبين لما جاءهم به رسوله، مبتغين بقتالهم علو كلمتنا، ونصرة ديننا، لنزيدنهم هدايةً إلى سبل الخير، وتوفيقاً لسلوكها، كما قال: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ⑰﴾.

وجاء في الحديث: «من عَمِلَ بِمَا عَلِمَ وَرَّثَهُ اللَّهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ»، وقال عمر بن عبد العزيز: إنما قصر بنا على علم ما جهلنا، تقصيرنا في العمل بما علمنا ولو عملنا ببعض ما علمنا.. لأورثنا علماً لا تقوم به أبداننا، وقال سليمان الداراني: ليس الجهاد في الآية قتال الكفار فقط، بل هو نصر الدين، والرد على المبطلين، وقمع الظالمين، وعظمة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ومنه مجاهدة النفوس في طاعة الله، وهو الجهاد الأكبر.

ثم ذكر أن الله يعينهم بالنصرة والتوفيق، فقال: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ﴾ ذا الرحمة ﴿لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي: لمع من أحسن من خلقه، فجاهد أهل الشرك، مصدقاً رسوله فيما جاء به من عند ربه بالمعونة والنصرة، على من جاهد من أعدائه وبالمغفرة والثواب في العقبى. روى ابن أبي حاتم عن الشعبي، قال عيسى بن مريم - عليه السلام -: إنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك، وليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك، والله أعلم.

---

(١) فتح الرحمٰن.

الإعراب

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾.

﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تُجَٰدِلُوٓاْ﴾: فعل مضارع وفاعل مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية. ﴿أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: مفعول به، والجملة: مستأنفة مسوقة لبيان كيفية إرشاد أهل الكتاب ومجادلتهم. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿بِٱلَّتِي﴾: متعلق بـ﴿تُجَٰدِلُوٓاْ﴾. ﴿هِيَ أَحۡسَنُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة صلة الموصول، وموصوف الموصول محذوف، تقديره: إلا بالمجادلة التي هي أحسن وأسهل. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء متصل. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل النصب على الاستثناء. ﴿ظَلَمُواْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿مِنۡهُمۡۖ﴾: جار ومجرور حال من واو ﴿ظَلَمُواْ﴾.

﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾.

﴿وَقُولُوٓاْ﴾: فعل وفاعل معطوف على قوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ﴾. ﴿ءَامَنَّا﴾: فعل وفاعل، والجملة: في محل النصب مقول: ﴿قولوا﴾. ﴿بِٱلَّذِيٓ﴾: متعلق بـ﴿ءَامَنَّا﴾. ﴿أُنزِلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة ونائب فاعل مستتر يعود على الموصول. ﴿إِلَيۡنَا﴾: متعلق بـ﴿أُنزِلَ﴾، والجملة: صلة الموصول. ﴿وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾ معطوف على ﴿أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾. وفي الكلام حذف الموصول الاسمي؛ أي: والذي أنزل إليكم. ﴿وَإِلَٰهُنَا﴾: مبتدأ. ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ﴾: معطوف عليه. ﴿وَٰحِدٞ﴾: خبر له، والجملة: في محل النصب معطوفة على جملة ﴿ءَامَنَّا﴾. ﴿وَنَحۡنُ﴾: مبتدأ. ﴿لَهُۥ﴾: متعلق بـ﴿مُسۡلِمُونَ﴾. ﴿مُسۡلِمُونَ﴾ خبر له، والجملة: معطوفة على جملة ﴿ءَامَنَّا﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿كذلك﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف

صفةٍ لمصدر محذوف، تقديره: وأنزلنا إليك الكتاب، إنزالاً كائناً كالإنزال الذي أنزلناه على من قبلك. ﴿أَنزَلْنَآ﴾: فعل وفاعل. ﴿إِلَيْكَ﴾: متعلق به. ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية: مستأنفة. ﴿فَٱلَّذِينَ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت من ذكرته لك، من إنزال الكتاب إليك، وأردت بيان من يؤمن به، ومن لا يؤمن به فأقول لك: ﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾. ﴿الذين﴾: مبتدأ ﴿ءَاتَيْنَٰهُمُ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول. ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: مفعول ثان، والجملة الفعلية: صلة الموصول. ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق به، والجملة: في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذاالمقدرة مستأنفة. ﴿وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿من هؤلاء﴾: خبر مقدم. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية: في محل النصب معطوفة على الجملة التي قبلها، على كونها مقولاً لجواب إذا المقدرة، وجملة ﴿يُؤْمِنُ﴾: صلة ﴿من﴾ الموصولة. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿يُؤْمِنُ﴾. ﴿وَمَا يَجْحَدُ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: نافية. ﴿يَجْحَدُ﴾: فعل مضارع. ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَجْحَدُ﴾. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾: فاعل، والجملة الفعلية: معطوفة على الجملة الاسمية التي قبلها، على كونها مقولاً لجواب إذا المقدرة.

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿وَمَا كُنتَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿ما﴾: نافية. ﴿كُنتَ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿تَتْلُوا۟﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على محمد. ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿تَتْلُوا۟﴾ أو حال من ﴿كِتَٰبٍ﴾ لأنه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿مِن﴾ زائدة. ﴿كِتَٰبٍ﴾: مفعول ﴿تَتْلُوا۟﴾. وجملة ﴿تَتْلُوا۟﴾ في محل النصب خبر ﴿كان﴾. وجملة ﴿كان﴾: مستأنفة. ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: نافية. ﴿تَخُطُّهُۥ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به. ﴿بِيَمِينِكَ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية: معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمَا كُنتَ﴾. ﴿إِذًا﴾: حرف جواب

وجزاء مهمل، دال على شرط محذوف، تقديره: لو كان شيء من التلاوة والخط. ﴿لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ و﴿اللام﴾: واقعة في جواب لو المحذوفة. ﴿ارتاب المبطلون﴾: فعل وفاعل، والجملة: جواب لو المحذوفة، وجملة لو المحذوفة: مستأنفة.

﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿بَلۡ﴾: حرف إضراب. ﴿هُوَ ءَايَٰتُۢ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿بَيِّنَٰتٞ﴾: صفة ﴿ءَايَٰتُۢ﴾. ﴿فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه صفة ثانية لـ﴿ءَايَٰتُۢ﴾؛ أي: راسخة في صدورهم. ﴿أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعل ومفعول ثان، لأن أتى هنا بمعنى: أعطى، والجملة: صلة الموصول. ﴿وَمَا يَجۡحَدُ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿ما﴾: نافية. ﴿يَجۡحَدُ﴾: فعل مضارع. ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾: متعلق به. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: فاعل، والجملة مستأنفة.

﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَقَالُواْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿قالوا﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة مسوقة لتقرير نوع آخر من أنواع لجاجهم. ﴿لَوۡلَآ﴾: حرف تحضيض بمعنى: هلا. ﴿أُنزِلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة. ﴿عَلَيۡهِ﴾: متعلق به. ﴿ءَايَٰتٞ﴾: نائب فاعل. ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾: صفة لـ﴿ءَايَٰتٞ﴾ أو متعلق بـ﴿أُنزِلَ﴾، والجملة الفعلية: في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾. ﴿قُلۡ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر، والجملة: مستأنفة. ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر. ﴿ٱلۡأٓيَٰتُ﴾: مبتدأ. ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾: ظرف ومضاف إليه خبر المبتدأ، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قُلۡ﴾. ﴿وَإِنَّمَآ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر. ﴿أَنَا۠﴾: مبتدأ. ﴿نَذِيرٞ﴾: خبر. ﴿مُّبِينٌ﴾: صفة ﴿نَذِيرٞ﴾. والجملة الاسمية: في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف. و﴿الواو﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، تقديره: أقصر هذا القرآن عن حد الإعجاز ولم يكفهم، والجملة المحذوف: مستأنفة. ﴿لم﴾: حرف جزم. ﴿يَكْفِهِمْ﴾: فعل مضارع ومفعول مجزوم بـ﴿لم﴾، وعلامة جزمه: حذف حرف العلة. ﴿أَنَّآ﴾: ناصب واسمه. ﴿أَنزَلْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَيْكَ﴾: متعلق به. ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: مفعول به، وجملة ﴿أَنزَلْنَا﴾: في محل الرفع خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾: في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية لـ﴿يَكْفِهِمْ﴾، والتقدير: أقصر هذا القرآن عن حد الإعجاز، ولم يكفهم إنزالنا عليك الكتاب من جهة كونه معجزةً، وجملة ﴿يُتْلَىٰ﴾: في محل نصب حال من ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق بـ﴿يُتْلَىٰ﴾. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿فِى ذَٰلِكَ﴾: خبر مقدم لـ﴿إِنَّ﴾. ﴿لَرَحْمَةً﴾ ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿رحمة﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾. ﴿وَذِكْرَىٰ﴾: معطوف على ﴿رحمة﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿لِقَوْمٍ﴾: صفة لـ﴿ذكرى﴾ و﴿رحمة﴾، وجملة ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ صفة ﴿لِقَوْمٍ﴾.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر، والجملة مستأنفة. ﴿كَفَىٰ﴾: فعل ماض. ﴿الباء﴾: حرف جر زائد. ولفظ جلالة ﴿بِٱللَّهِ﴾ فاعل ﴿كَفَىٰ﴾، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿بَيْنِى﴾: ظرف متعلق بـ﴿شَهِيدًا﴾. ﴿وَبَيْنَكُمْ﴾: معطوف على ﴿بَيْنِى﴾. ﴿شَهِيدًا﴾: تمييز لفاعل ﴿كَفَىٰ﴾. ﴿يَعْلَمُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة: في محل النصب حال من لفظ الجلالة. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿يَعْلَمُ﴾. ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: جار ومجرور صلة ﴿مَا﴾ الموصولة. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿الذين﴾: مبتدأ أول. ﴿ءَامَنُوا۟﴾:

فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿بِٱلۡبَٰطِلِ﴾: متعلق بـ﴿ءَامَنُواْ﴾. ﴿وَكَفَرُواْ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿ءَامَنُواْ﴾. ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلق بـ﴿كَفَرُواْ﴾. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ ثان. ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل. ﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾: خبر للمبتدأ الثاني، والجملة من المبتدأ الثاني، وخبره: في محل الرفع خبر الأول، وجملة الأول: مستأنفة.

﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝٥٣﴾.

﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿يَسۡتَعۡجِلُونَكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به. ﴿بِٱلۡعَذَابِ﴾: متعلق به، والجملة: مستأنفة مسوقة للتعجب منهم، أو للاستهزاء بهم. ﴿وَلَوۡلَآ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لولا﴾: حرف امتناع لوجود. ﴿أَجَلٞ﴾: مبتدأ، وسوغ الابتداء بالنكرة: وقوعه بعد ﴿لولا﴾ أو وصفه بما بعده. ﴿مُّسَمّٗى﴾ صفة لـ﴿أَجَلٞ﴾، وخبر المبتدأ محذوف، تقديره: موجود. ﴿لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ﴾ ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لولا﴾. ﴿جاءهم العذاب﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة الفعلية: جواب ﴿لولا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لولا﴾: معطوفة على جملة ﴿يَسۡتَعۡجِلُونَكَ﴾. ﴿وَلَيَأۡتِيَنَّهُم﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. و﴿اللام﴾: موطئة للقسم. ﴿يأتين﴾: فعل مضارع في محل الرفع لتجرده عن الناصب والجازم، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله: ضمير يعود على ﴿ٱلۡعَذَابُ﴾. ﴿الهاء﴾: مفعول به. ﴿بَغۡتَةٗ﴾: حال من فاعل ﴿يأتين﴾؛ أي: حال كون العذاب باغتاً. ﴿وَهُمۡ﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿هم﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَا يَشۡعُرُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: في محل النصب حال من ﴿الهاء﴾ في ﴿يأتينهم﴾، وجملة ﴿يأتينهم﴾: جواب القسم، وجملة القسم: معطوفة على جملة ﴿يستعجلون﴾.

﴿يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٥٤﴾.

﴿يَسۡتَعۡجِلُونَكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به. ﴿بِٱلۡعَذَابِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية: مستأنفة، مكررة لتأكيد الجملة السابقة، أو للتعجب من حماقتهم، لأن

من هدد بشيء.. التمس أسباب الوقاية منه، أما هؤلاء فيستعجلون. ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿إن جهنم﴾: ناصب واسمه. ﴿لَمُحِيطَةٌۢ﴾: خبره، و﴿اللام﴾: حرف ابتداء. ﴿بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾: متعلق بـ﴿محيطة﴾، وجملة ﴿إن﴾: في محل النصب حال من ﴿ٱلْعَذَابُ﴾ والرابط: إعادة صاحب الحال بمعناه، لأن ﴿جَهَنَّمَ﴾ بمعنى ﴿ٱلْعَذَابُ﴾، وعبر بالحال وأراد الاستقبال؛ أي: ستحيط بهم للدلالة على التحقق والمبالغة.

﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿يَوْمَ﴾: منصوب على الظرفية متعلق بـ﴿محيطة﴾. ﴿يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يَوْمَ﴾. ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾: جار ومجرور حال من ﴿ٱلْعَذَابُ﴾، أو متعلق بـ﴿يَغْشَىٰهُمُ﴾. ﴿وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه معطوف على ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾. ﴿وَيَقُولُ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿يقول﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، أو على الملك الموكل بالعذاب، والجملة: في محل الجر معطوفة على جملة ﴿يَغْشَىٰهُمُ﴾. ﴿ذُوقُوا۟﴾: فعل أمر وفاعل. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لـ﴿يقول﴾. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿كان﴾: صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة.

﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿يَٰعِبَادِىَ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء: مستأنفة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة لـ﴿عبادي﴾. ﴿ءَامَنُوٓا۟﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿إِنَّ أَرْضِى﴾: ناصب واسمه، ﴿وَٰسِعَةٌ﴾: خبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة واقعة في جواب النداء، لا محل لها من الإعراب. ﴿فَإِيَّٰىَ﴾: ﴿الفاء﴾: واقعة في جواب شرط محذوف، حذف وعوض عنه تقديم المفعول على عامله، تقديره: إن لم تتيسر لكم عبادتي في أرض.. فهاجروا منها إلى أخرى، واعبدوا إياي فيها. ﴿إياي﴾: ضمير

نصب في محل النصب على الاشتغال بفعل محذوف وجوباً، تقديره: فاعبدوا إياي. ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾: فعل وفاعل، والجملة: في محل الجزم جواب للشرط المحذوف، وجملة الشرط المحذوف: مستأنفة على كونها جواب النداء. ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾: ﴿الفاء﴾ زائدة لتحسين الخط. ﴿اعبدون﴾: فعل أمر وفاعل، والنون للوقاية، وياء المتكلم المحذوفة: مفعول به، والجملة الفعلية: جملة مفسرة للمحذوفة، لا محل لها من الإعراب. ﴿كُلُّ نَفۡسٍ﴾: مبتدأ ومضاف إليه. ﴿ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾: خبر ومضاف إليه، والجملة مستأنفة. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب. ﴿إِلَيۡنَا﴾: متعلق بـ﴿تُرۡجَعُونَ﴾، و﴿تُرۡجَعُونَ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة ونائب فاعل، والجملة الفعلية: معطوفة على الجملة الاسمية.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿الذين﴾: مبتدأ. ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿ءَامَنُواْ﴾. ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم: ﴿نبوئن﴾: فعل مضارع في محل الرفع مبني على الفتح، لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله ضمير يعود على الله، و﴿الهاء﴾: مفعول به أول. ﴿مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾: حال من غرفاً. ﴿غُرَفٗا﴾: مفعول ثان، لأن بوأ يتعدى إلى مفعولين، والجملة الفعلية: جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم: في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: مستأنفة. ﴿تَجۡرِي﴾: فعل مضارع. ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾: متعلق بـ﴿تَجۡرِي﴾. ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾: فاعل، والجملة: في محل النصب صفة لـ﴿غُرَفٗا﴾. ﴿خَٰلِدِينَ﴾: حال من هاء ﴿نبوئنهم﴾. ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ﴿خَٰلِدِينَ﴾. ﴿نِعۡمَ﴾: فعل ماض في أفعال المدح، ﴿أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾: فاعل ومضاف إليه، وجملة ﴿نِعۡمَ﴾: جملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب، أو في محل الرفع خبر مقدم للمخصوص بالمدح، المحذوف وجوباً، تقديره: نعم أجر العاملين أجرهم، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة للعاملين، ﴿صَبَرُواْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾: ﴿الواو﴾:

عاطفة. ﴿على ربهم﴾: متعلق بما بعده، ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على جملة ﴿صَبَرُوا﴾ على كونها صلة الموصول.

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿وَكَأَيِّن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿كأين﴾: اسم مركب بمعنى كم الخبرية، في محل الرفع مبتدأ أول، مبني على السكون لشبهة بالحرف شبهاً معنوياً، لتضمنه معنى رب التكثيرية، ﴿مِن دَابَّةٍ﴾: تمييز ﴿كأين﴾: مجرور بـ﴿مِن﴾. ﴿لَا﴾: نافية، ﴿تَحْمِلُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر. ﴿رِزْقَهَا﴾: مفعول به، والجملة: في محل الجر صفة لـ﴿دَابَّةٍ﴾. ﴿اللَّهُ﴾: مبتدأ ثان، وجملة ﴿يَرْزُقُهَا﴾: خبر له، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره: خبر للمبتدأ الأول، وجملة الأول: مستأنفة، ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾: معطوف على الضمير في ﴿يَرْزُقُهَا﴾، ﴿وَهُوَ﴾: مبتدأ، ﴿السَّمِيعُ﴾: خبر أول، ﴿الْعَلِيمُ﴾: خبر ثان، والجملة الاسمية: معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿وَلَئِن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿إن﴾: حرف شرط جازم، ﴿سَأَلْتَهُم﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، والجملة الفعلية: في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها، وجواب ﴿إن﴾: الشرطية، محذوف دل عليه جواب القسم، تقديره: يقولون خلقهن الله، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية: معترضة لا محل لها من الإعراب، لاعتراضها بين القسم وجوابه. ﴿مَّنْ﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ معلقة لسأل عن العمل في المفعول الثاني. ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ﴾: فعل وفاعل مستتر، ومفعول به، والجملة: خبر لـ﴿مَّنْ﴾ الاستفهامية، والجملة الاسمية: في محل النصب مفعول ثان لسأل، معلقة عنها باسم الاستفهام، ﴿وَالْأَرْضَ﴾: معطوف على ﴿السَّمَاوَاتِ﴾. ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به معطوف على ﴿خَلَقَ﴾، ﴿وَالْقَمَرَ﴾: معطوف على ﴿الشَّمْسَ﴾. ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، مؤكدة للأولى، ﴿يقولن﴾:

فعل مضارع مرفوع بثبوت النون المحذوفة لتوالي الأمثال، والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين: في محل الرفع فاعل، والنون المشددة: نون التوكيد الثقيلة، ﴿ٱللَّهُ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هو الله، أو مبتدأ، والخبر: محذوف، تقديره: الله خلقهن، والجملة الاسمية: في محل النصب مقول ﴿لَيَقُولُنَّ﴾، وجملة ﴿يقولن﴾: جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مع جوابه، مستأنفة. ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت جوابهم هذا، وأردت التعجب منهم.. فأقول لك: قل: ﴿أنى يؤفكون﴾، ﴿أنى﴾: اسم استفهام للاستفهام التعجبي بمعنى كيف في محل النصب حال من واو ﴿يُؤْفَكُونَ﴾. ﴿يُؤْفَكُونَ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة مرفوع بثبوت النون، و﴿الواو﴾، نائب فاعل، والجملة الفعلية: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، وفي «الفتوحات» قوله: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾: الاستفهام للإنكار والتوبيخ، و﴿الفاء﴾: في قوله: ﴿فَأَنَّىٰ﴾: في جواب شرط مقدر؛ أي: إن صرفهم الهوى والشيطان، فأنى يؤفكون اهـ. «شهاب».

﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾: خبره، والجملة: مستأنفة، ﴿لِمَن﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَبْسُطُ﴾، وجملة ﴿يَشَآءُ﴾ صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، والعائد: محذوف، تقديره: لمن يشاء البسط له، ﴿مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾: حال من العائد المحذوف، أو من ﴿مَنْ﴾ الموصولة، ﴿وَيَقْدِرُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر معطوف على ﴿يَبْسُطُ﴾. ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يقدر﴾. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿عَلِيمٌ﴾. ﴿عَلِيمٌ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿وَلَئِن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿إن﴾: حرف شرط، ﴿سَأَلْتَهُم﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية

على كونها فعل شرط لها، ﴿مَّن﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، وهو معلق لـ﴿سأل﴾ عن المفعول الثاني، ﴿نَّزَّلَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿مَّن﴾ الاستفهامية. ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: متعلق به، ﴿مَآءً﴾: مفعول به، وجملة ﴿نَّزَّلَ﴾ خبر ﴿مَّن﴾ الاستفهامية، والجملة الاسمية: في محل النصب مفعول ثان لـ﴿سأل﴾، وجواب ﴿إن﴾ الشرطية: محذوف، دل عليه جواب القسم، تقديره: يقولون الله، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معترضة لا محل لها من الإعراب لاعتراضها بين القسم واجوابه ﴿فَأَحۡيَا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿أحيا﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿مَّن﴾. ﴿بِهِ﴾: متعلق بـ﴿أحيا﴾، ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾: مفعول به، والجملة: معطوفة على جملة ﴿نَّزَّلَ﴾، ﴿بَعۡدِ مَوۡتِهَا﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بـ﴿أحيا﴾، أو حال من الأرض. ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ ﴿اللام﴾: موطئة للقسم مؤكدة للأولى، ﴿يقولن﴾: فعل مضارع بثبات النون المحذوفة لتوالي الأمثال، و﴿الواو﴾ المحذوفة لالتقاء الساكنين: في محل الرفع فاعل، ﴿ٱللَّهُ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هو الله، وجملة ﴿يقولن﴾: جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مع جوابه، معطوفة على جملة القسم في قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾، لأنها مماثلة لها، أو مستأنفة. ﴿قُلِ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر، والجملة: مستأنفة، ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة: في محل النصب مقول لـ﴿قُل﴾، ﴿بَلۡ﴾: حرف إضراب، ﴿أَكۡثَرُهُمۡ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَا يَعۡقِلُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية: في محل النصب مقول ﴿قُل﴾.

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٦٤﴾.

﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿ما﴾: نافية. ﴿هَٰذِهِ﴾: مبتدأ. ﴿ٱلۡحَيَوٰةُ﴾: بدل منه. ﴿ٱلدُّنۡيَآ﴾: صفة لـ﴿ٱلۡحَيَوٰةُ﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر. ﴿لَهۡوٞ﴾: خبر المبتدأ، ﴿وَلَعِبٞ﴾: معطوف عليه، والجملة الاسمية: مستأنفة، ﴿وَإِنَّ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إن الدار﴾: ناصب واسمه، ﴿ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ نعت ﴿ٱلدَّارَ﴾. ﴿لَهِيَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء. ﴿هي﴾: مبتدأ ثان، أو ضمير فصل،

﴿ٱلْحَيَوَانُۚ﴾: خبر ﴿هو﴾، أو خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ معطوفة على الجملة الاسمية قبلها، ﴿لَوْ﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَعْلَمُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿كان﴾: شرط لـ﴿لَوْ﴾ لا محل لها من الإعراب، وجواب ﴿لَوْ﴾ الشرطية: محذوف دل عليه ما قبله، وتقديره: ما آثروا الحياة الدنيا على الآخرة، وجملة ﴿لَوْ﴾ الشرطية: مستأنفة.

﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿فَإِذَا﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية. ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿رَكِبُوا۟﴾: فعل وفاعل، ﴿فِى ٱلْفُلْكِ﴾: متعلق به، والجملة: في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها، والظرف: متعلق بالجواب الآتي. ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة: جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾: مستأنفة، ﴿مُخْلِصِينَ﴾: حال من فاعل ﴿دَعَوُا۟﴾. ﴿لَهُ﴾: متعلق بـ﴿مُخْلِصِينَ﴾، ﴿ٱلدِّينَ﴾: مفعول ﴿مُخْلِصِينَ﴾. ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿لما﴾: اسم شرط غير جازم في محل نصب على الظرفية الزمانية ومتعلق بجوابه. ﴿نَجَّىٰهُمْ﴾: فعل ومفعول به وفاعل مستتر يعود على الله، ﴿إِلَى ٱلْبَرِّ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية: فعل شرط لـ﴿لما﴾ في محل جر بالإضافة لـ﴿لما﴾. ﴿إِذَا﴾: فجائية رابطة لجواب ﴿لما﴾ وجوباً، حرف لا محل لها من الإعراب، ﴿هُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يُشْرِكُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية جواب ﴿لما﴾، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لما﴾: معطوفة على جملة ﴿إذا ركبوا﴾.

﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿لِيَكْفُرُوا۟﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، أو لام العاقبة، ﴿يكفروا﴾: فعل وفاعل منصوب بـ﴿إن﴾ المضمرة بعد اللام ﴿بِمَآ﴾ جار و مجرور متعلق بـ﴿يكفروا﴾ ﴿ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ فعل وفاعل ومفعول أول والثاني محذوف تقديره بما آتيناهموه، وهو العائد على الموصول، والجملة صلة الموصول ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا۟﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة بعد ﴿اللام﴾،معطوف على ﴿لِيَكْفُرُوا۟﴾، وجملة

﴿يكفروا﴾: صلة أن المضمرة، أن مع صلتها: في تأويل مصدر مجرور بـ﴿اللام﴾، تقديره: إذا هم يشركون لقصد كفرهم بما آتيناهم، ولقصد تمتعهم وتوادهم بالاجتماع على عبادة الأصنام، الجار والمجرور: متعلق بـ﴿يُشْرِكُونَ﴾، ويحتمل كون اللامين لام الأمر، كما مر، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت تعنتاتهم واضطراباتهم هذه، وأردت بيان عاقبة أمرهم، فأقول لك: سوف يعلمون ذلك، ﴿سوف﴾: حرف تنفيس، وجملة ﴿يَعْلَمُونَ﴾: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة: مستأنفة.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، و﴿الواو﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، تقديره: ألم يشاهد هؤلاء المشركون، ولم يروا ﴿أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾، والجملة المحذوفة: مستأنفة. ﴿لم يروا﴾: جازم وفعل وفاعل مجزوم معطوف على تلك المحذوفة. ﴿أَنَّا﴾: ناصب واسمه. ﴿جَعَلْنَا﴾: فعل وفاعل والمفعول الأول محذوف، تقديره: جعلنا بلدهم. ﴿حَرَمًا﴾: مفعول ثان. ﴿ءَامِنًا﴾ صفة ﴿حَرَمًا﴾، وجملة ﴿جَعَلْنَا﴾: في محل الرفع خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾: في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي رأى، تقديره: أولم يروا جَعْلنا بلدهم حرماً آمناً. ﴿وَيُتَخَطَّفُ﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿يتخطف الناس﴾: فعل مضارع مغير الصيغة ونائب فاعل. ﴿مِنْ حَوْلِهِمْۚ﴾: حال من ﴿ٱلنَّاسُ﴾، والجملة الفعلية، في محل النصب حال من ضمير المفعول الأول المحذوف، تقديره: أولم يروا أنا جعلنا بلدهم حرماً آمناً، والحال أن الناس يتخطفون من حول بلدهم؛ أي: جعلناهم آمنين قارين في بلدهم، والناس متخطفون من حولهم. ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، ﴿بالباطل﴾: متعلق بـ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: معطوفة على تلك المحذوفة، والجملة المحذوفة: مستأنفة،

والتقدير: أيكذبون رسولنا فيؤمنون بالباطل: ﴿وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿بنعمة الله﴾ متعلق بـ﴿يَكْفُرُونَ﴾، وجملة ﴿يَكْفُرُونَ﴾: معطوفة على جملة ﴿يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿وَمَنْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿مَنْ﴾: اسم استفهام إنكاري، في محل الرفع مبتدأ. ﴿أَظْلَمُ﴾: خبره، والجملة: مستأنفة. ﴿مِمَّنِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَظْلَمُ﴾. ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿مَن﴾، والجملة: صلة ﴿مَن﴾ الموصولة ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾. ﴿كَذِبًا﴾: مفعول به، ﴿أَوْ كَذَّبَ﴾: ﴿أَوْ﴾: حرف عطف وتنويع. ﴿كَذَّبَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر معطوف على ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ متعلق بـ﴿كَذَّبَ﴾. ﴿لَمَّا﴾: ظرف بمعنى حين متعلق بـ﴿كَذَّبَ﴾. ﴿جَآءَهُۥٓ﴾: فعل ومفعول به، وفاعل مستتر يعود على الحق، والجملة الفعلية: في محل الجر مضاف إليه لـ﴿لَمَّا﴾. ﴿أَلَيْسَ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التقريري. ﴿ليس﴾: فعل ماض ناقص. ﴿فِى جَهَنَّمَ﴾: خبر مقدم لـ﴿ليس﴾، ﴿مَثْوًى﴾: اسمها مؤخر، ﴿لِّلْكَـٰفِرِينَ﴾: صفة لـ﴿مَثْوًى﴾، والجملة الاستفهامية: جملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب.

﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿الذين﴾: مبتدأ، وجملة ﴿جَـٰهَدُوا۟﴾: صلة الموصول، ومفعول ﴿جَـٰهَدُوا۟﴾ محذوف لقصد التعميم، تقديره: والذين جاهدوا الكفار والنفس والهوى والشيطان، ﴿فِينَا﴾: متعلق بـ﴿جَـٰهَدُوا۟﴾، ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم. ﴿نهدين﴾: فعل مضارع في محل الرفع، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد، وفاعله ضمير يعود على الله، وضمير الغائبين: في محل النصب مفعول أول، ﴿سُبُلَنَا﴾: مفعول ثان، أو منصوب بنزع الخافض، والجملة الفعلية: جواب القسم، وجملة القسم مع جوابه في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: مستأنفة، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَمَعَ﴾:

﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿مع المحسنين﴾: ظرف ومضاف إليه خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾: معطوفة على الجملة الاسمية قبلها. والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ المجادلة، والجدال، مصدران لجادل من باب فاعل، كما في «التاج». قال الراغب: الجدال: المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة، وأصله: من جدلت الحبل؛ أي: أحكمت فتله، فكأن المتجادلين يفتل كل واحد آخر عن رأيه، والمعنى: ولا تخاصموا اليهود والنصارى، والجدل: الحجاج والمناظرة.

﴿مُسۡلِمُونَ﴾؛ أي: خاضعون مطيعون.

﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ والجحد: إنكار الشيء بعد معرفته، وقيل: الجحد: نفي ما في القلب ثبوته، أو إثبات ما في القلب نفيه، والمراد به هنا، الإنكار عن علم.

﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ﴾. والخط: كالمد ويقال لما له: طول ويعبر عن الكتابة بالخط.

﴿إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾: الارتياب: الشك، وفي «المختار»: الريب: الشك. قال الراغب: الريب: أن يتوهم بالشيء أمراً ينكشف عما يتوهمه، ولهذا قال تعالى: ﴿لَا رَيۡبَۛ﴾ والإرابة: أن يتوهم فيه أمراً فلا ينكشف عما يتوهمه، والإرتياب: يجري مجرى الإرابة، ونفى عن المؤمنين الارتياب، كما قال: ﴿وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۙ﴾.

والمبطل: من يأتي بالباطل، وهو نقيض المحق، وهو من يأتي بالحق، لما أن الباطل نقيض الحق، قال في «المفردات»: الإبطال: يقال في إفساد الشيء وإزالته، حقاً كان ذلك الشيء أو باطلاً، قال تعالى: ﴿لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ﴾ وقد يقال فيمن يقول شيئاً لا حقيقة له.

﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ﴾ والكفاية: ما فيه سد الخلة، وبلوغ المراد في الأمر.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ والاستعجال: طلب الشيء قبل أوانه.

﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾ قال الراغب: البغت: مفاجأة الشيء من حيث لا يحتسب، يقال: بغتة: إذا دهمه على حين غفلة.

﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ والذوق: وجود الطعم بالفم، وأصله: مما يقل تناوله، فإذا أكثر يقال له: الأكل، واختير في القرآن لفظ الذوق في العذاب، لأن ذلك وإن كان في التعارف للقليل، فهو مستصلح للكثير، فخصه بالذكر ليعلم الأمرين، كما في «المفردات».

﴿إِنَّ أَرْضِى﴾: الأرض: الجرم المقابل للسماء.

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ﴾: ﴿كأين﴾: للتكثير بمعنى كم الخبرية، ركب كاف التشبيه مع أي، فجرد عنها معناها الإفرادي، فصار المجموع كأنه اسم مبني على السكون، آخره نون ساكنة، كما في من، لا تنوين تمكين، ولهذا يكتب بعد الياء نون، مع أن التنوين صورة له في الخط.

والدابة: كل حيوان يدب ويتحرك على الأرض، مما يعقل ومما لا يعقل.

﴿لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ الحمل بالفتح: الجنين، وبالكسر: اسم للمحمول على الرأس وعلى الظهر.

﴿رِزْقَهَا﴾ والرزق لغة: كل ما ينتفع به، واصطلاحاً: اسم لما يسوقه الله إلى الحيوان فيأكله.

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ والتسخير: جعل الشيء منقاداً للآخر، وسوقه إلى الغرض المختص به قهراً.

﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾: الإفك بالفتح: الصرف والقلب، وبالكسر: كل مصروف عن وجهه الذي يحق أن يكون عليه.

﴿إِلَّا لَهْوٌ﴾ واللهو: كل ما يلهي الإنسان ويشغله عما يهمه، والملاهي: آلات اللهو، لأنها تلهي عن الأذكار والصلوات.

﴿وَلَعِبٌ﴾ يقال: لعب فلان: إذا لم يقصد بفعله مقصداً صحيحاً، كفعل الصبيان، وقد قدمنا الكلام فيهما مبسوطاً، فراجعه.

﴿لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ والحيوان: مصدر حيِيَ، سمي به ذو الحياة، وأصله: حييان، فقلبت الياء الثانية واواً، لئلا يحذف إحدى الألفين، وهو أبلغ من الحياة، لما في بناء فعلان من الحركة والاضطراب اللازم للحيوان، كالنزوان واللهيان، لذلك اختير على الحياة في هذا المقام، المقتضى للمبالغة ا هـ. من «الروح».

والحياة: حركة كما أن الموت: سكون، فمجيئه على بناءٍ دالٍ على معنى الحركة، مبالغة في معنى الحياة.

﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾؛ أي: يضيق ويقتر، ولهذا الفعل خصائص عجيبة، فهو يتوزع على طائفة من المعاني سنذكرها فيما يلي:

يقال: قدر الرزق: قسمه وبابه نصر وضرب، وقدر وقدر على عياله: ضيق وقتر، قال في «الأساس»: وقدر عليه رزقه، وقدر: قتر، وقدر يقدر من باب علم، قدراً وقدرةً، ومقدَرةً، ومقدُرةً ومِقداراً وقدراً على الشيء: قوي عليه، وقدر يقدر من باب: ضرب قدراً الأمر: إذا دبره، وقدر الشيء بالشيء: قاسه به، وجعله على مقداره، وقدر يقدر ويقدر: من بابي: نصر وجلس، الله عظمه، وقدر الرجل: فكر في تسوية أمره، وتدبيره، وقدر يقدر ـ من باب تعب ـ قدراً: بفتحتين قصرت عنقه، وقدر على الشيء اقتدر.

﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ والركوب: هو الاستعلاء على الشيء المتحرك، وهو متعد بنفسه، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا﴾، واستعماله ههنا وفي أمثاله بكلمة ﴿في﴾: للإيذان بأن المركوب في نفسه، من قبيل الأمكنة، وحركته قسرية غير إرادية.

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾ البر: خلاف البحر، وتصور منه التوسع، فاشتق منه البر؛ أي: التوسع في فعل الخير، كما في «المفردات».

﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ﴾ الخطف: أخذ الشيء بسرعة.

﴿مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ﴾: وفي «المختار»: ثوى بالمكان يثوى، بالكسر: ثواءً ثوياً أيضاً بوزن مضي؛ أي: أقام به، ويقال: ثوى البصرة، وثوى بالبصرة، وأثوى بالمكان لغةً: في ثوى وأثوى غيره، يتعدى ويلزم، وثوى غيره أيضاً تثوية ا هـ. والمثوى: المنزل والمحبس.

﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا﴾ والجهاد والمجاهدة: استفراغ الوسع في مدافعة العدو.

﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ﴾ الهداية: الدلالة إلى ما يوصل إلى المطلوب.

﴿سُبُلَنَا﴾ والسبل: جمع سبيل، وهو من الطرق: ما هو معتاد السلوك، ويلزمه السهولة، ولهذا قال الإمام الراغب: السبيل: الطريق الذي فيه سهولة. انتهى.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التعريض في قوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ فإن فيه تعريضاً بكفر أهل الكتاب، حيث اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله تعالى.

ومنها: التعبير عن القرآن بالآيات، في قوله: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ للتنبيه على ظهور دلالته على معانيه، وعلى كونه من عند الله تعالى.

ومنها: الإضافة فيه للتشريف.

ومنها: الإطناب في قوله: ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ فذكر اليمين وهي الجارحة التي يزاول بها الخط، فيه زيادة في التصوير، واستحضار لنفي كونه كاتباً. والإطناب يكون حقيقةً ومجازاً، وهذا من النوع الأول، ومثله قولهم: رأيته بعيني، وقبضته بيدي، ووطِئته بقدمي، وذقته بفمي، وكل هذا يظنه الظان

المبتدىء: أنه من قبيل الزيادة والفضول، وأنه لا حاجة إليه، ويقول: إن الرؤية لا تكون إلا بالعين، والقبض لا يكون إلا باليد، والوطْء لا يكون إلا بالقدم، والذوق لا يكون إلا بالفم، وليس الأمر كما توهم، بل هذا يقال في كل شيء يعظم مناله، ويعز الوصول إليه، وهو كثير في القرآن الكريم.

ومنها: التنوين للتعظيم في قوله: ﴿لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ﴾؛ أي: رحمةً عظيمةً.

ومنها: التحضيض في قوله: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ﴾، و﴿كَفَرُواْ بِٱللَّهِ﴾.

ومنها: القصر في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾؛ أي: لا غيرهم.

ومنها: الإطناب بذكر العذاب مرات، للتشنيع على المشركين في قوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾، ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾، ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ﴾، ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ﴾، ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾.

ومنها: التعبير بما يدل على الحال عما في المستقبل في قوله: ﴿لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ والمعنى: ستحيط بهم عن قريب، لأن ما هو آت قريب عبر عنه بالاسم الدال على الحال، دلالةً على تحقق الإحاطة بهم، ومبالغةً فيه.

ومنها: التهكم في قوله: ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ لأنه كناية عن مباشرة العذاب ودخوله.

ومنها: الإضافة للتشريف في قوله: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ حيث شبه تجرعها مرارة الموت، بذوق الذائق الطعام.

ومنها: الحصر في قوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾، ﴿وَيَقْدِرُ﴾.

ومنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿حَرَمًا ءَامِنًا﴾؛ أي: آمناً أهله.

ومنها: الإشارة للتحقير في قوله: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ تحقيراً للدنيا.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾؛ أي: كاللهو وكاللعب، حذفت أداة التشبيه، ووجه الشبه، فأصبح بليغاً على حدّ قولهم: زيد أسد.

ومنها: الإيجاز بحذف جواب الشرط، لدلالة السياق عليه، في قوله: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: لو كانوا يعلمون حقارة الدنيا.. ما آثروها على الآخرة.

ومنها: تقديم الصلة؛ لإظهار شناعة ما فعلوه، في قوله: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ الخ.

ومنها: الاستفهام الإنكاري، في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ﴾.

ومنها: الجناس المغاير في قوله: ﴿كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ﴾.

ومنها: الاستفهام التقريري، في قوله: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾؛ لأن مقتضى السياق: أن يقال: مثوى لهم.

ومنها: مراعاة الفواصل، لما لها من وقع عظيم على السمع يزيد الكلام رونقاً وجمالاً، مثل: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ الخ.

ومنها: إقامة الظاهر مقام المضمر، في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إظهاراً لشرفهم بوصف الإحسان.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

فائدة: قال بعض العلماء: النبوة والرسالة: كالسلطنة، اختصاص إلٰهي لا مدخل لكسب العبد فيها، وأما الولاية: كالوزارة، فلكسب العبد مدخل فيها، كما تمكن الوزارة بالكسب، كذلك تمكن الولاية بالكسب، ولقد أحسن من قال في شأن الدنيا:

تَـأَمَّـلْ فِـيْ ٱلْـوُجُـوْدِ بِـعَـيْـنِ فِـكْـرٍ تَـرَىٰ ٱلـدُّنْـيَـا ٱلـدَّنِـيَّـةَ كَـٱلْـخَـيَـالِ
وَمَـنْ فِـيْـهَـا جَـمِـيْـعَـاً سَـوْفَ يَـفْـنَـىٰ وَيَـبْـقَـىٰ وَجْـهُ رِبِّـكَ ذُوْ ٱلْـجَـلاَلِ

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

موضوعات هذه السورة الكريمة

١ ـ اختبار المؤمنين، ليعلم صدقهم في إيمانهم.

٢ ـ في الجهاد فائدة للمجاهد، والله غني عن ذلك.

٣ ـ الحسنات يكفرن السيئات.

٤ ـ الأمر بالإحسان إلى الوالدين، وبرهما، مع عدم طاعتهما في الإشراك بالله.

٥ ـ حال المنافق الذي يظهر الإيمان، ولا يحتمل الأذى في سبيل الله تعالى.

٦ ـ حال الكافرين الذين يضلون غيرهم، ويقولون للمؤمنين: نحن نحمل خطاياكم إن كنتم ضالين.

٧ ـ قصص الأنبياء: كنوح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب، وصالح، وموسى، وهارون، وبيان ما آل إليه أمر الأنبياء من النصر، وأمر أممهم من الهلاك بضروب مختلفة من العقاب.

٨ ـ حجاج المشركين بضرب الأمثال لهم، مما فيه تقريعهم وتأنيبهم.

٩ ـ حجاج أهل الكتاب، والنهي عن جدلهم بالفظاظة والغلظة.

١٠ ـ إثبات النبوة، ببيان صدق معجزته ﷺ.

١١ ـ ذكر بعض شبههم في نبوته، والرد على ذلك.

١٢ ـ استعجالهم بالعذاب تهكماً.

١٣ ـ أمر المؤمنين بالفرار بدينهم، من أرض يخافون فيها الفتنة.

١٤ ـ العاقبة الحسنى للذين يعملون الصالحات.

١٥ ـ اعترافهم بأن الخالق الرازق هو: الله.

١٦ ـ بيان أن الدار الآخرة هي: دار الحياة الحقة.

١٧ ـ امتنانه على قريش بسكناهم البيت الحرام، ثم كفرانهم بهذه النعمة، بإشراكهم به سواه.

والله أعلم

* * *

سورة الروم

سورة الروم مكية، إلا قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾، فمدنية. قال القرطبي: كلها مكية بلا خلاف، وهي ستون أو تسع وخمسون آيةً، نزلت بعد سورة الانشقاق، وثمان مئة وتسع عشرة كلمةً، وثلاثة آلافٍ وخمس مئةٍ وأربعة وثلاثون حرفاً.

المناسبة: مناسبتها لما قبلها من وجوه[1]:

١ ـ أن السورة السابقة بُدِئت بالجهاد وختمت به، فافتتحت بأن الناس لم يخلقوا في الأرض ليناموا على مهاد الراحة، بل خلقوا ليجاهدوا، حتى يلاقوا ربهم، وأنّهم يلاقون شتى المصاعب من الأهل، والأمم التي يكونون فيها، وهذه السورة قد بدِئت بما يتضمن نصرة المؤمنين، ودفع شماتة أعدائهم المشركين، وهم يجاهدون في الله ولوجهه، فكأن هذه متممة لما قبلها من هذه الجهة.

٢ ـ أن ما في هذه السورة، من الحجج على التوحيد، والنظر في الآفاق والأنفس، مفصل لما جاء منه مجملاً في السورة السالفة، إذ قال في السالفة: ﴿فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ إلخ، وهنا بين ذلك فقال: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إلخ. وقال: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾.

تسميتها: سميت بالروم لما فيها من ذكر لفظ الروم، وقصتهم.

فضلها: ومن فضائلها: ما[2] روي عن رسول الله ـ ﷺ ـ: «من قرأ سورة الروم.. كان له من الأجر عشر حسنات، بعدد كل ملك يسبح الله بين السماء والأرض، وأدرك ما ضيع في يومه وليلته». ولكنه من «الموضوعات».

---

(١) الخازن.

وأخرج عبد الرزاق، عن معمر عن عبد الملك بن عمير: أن النبي - ﷺ - قرأ في الفجر يوم الجمعة بسورة الروم.

الناسخ والمنسوخ: وقال ابن حزم في كتابه «الناسخ والمنسوخ»: سورة الروم آياتها كلها محكمة.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾
فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصۡرِ
ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ
أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ
﴿٧﴾ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ
مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ
كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ
أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ
أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ
بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١٠﴾ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ
يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ
﴿١٣﴾ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ
فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي
ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ
وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ إِذَآ
أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا
وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنۡ
ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ
﴿٢٣﴾﴾.

المناسبة

وقد قدمنا بيان مناسبة هذه السورة لما قبلها آنفاً، فراجعها.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها[1]: أنه لما أنكر المشركون الإله بإنكار وعده، وأنكروا البعث كما قال: ﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾.. أردف هذا: أن الإدلة متظاهرة في الأنفس والآفاق، على وجوده وتفرده بخلقها، وأنه لا إله غيره، ولا رب سواه، وأنها لم تخلق سدىً، ولا باطلاً، بل خلقت بالحق، وأنها مؤجلة إلى أجل مسمى هو يوم القيامة، ثم أمرهم بالسير في أقطار الأرض، ليعلموا حال المكذبين، من الأمم قبلهم، وقد كانوا أشد منهم بأساً وقوةً، فكذبوا رسلهم، فأهلكهم الله تعالى، وصاروا كأمسِ الدابر، والمثل الغابر، وما كان ذلك إلا بظلمهم، وفساد أنفسهم، لا بظلم الله تعالى لهم.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لما بين أن عاقبة المجرمين النار، وكان ذلك يستلزم الإعادة والحشر.. لم يتركه دعوىً بلا بينة، بل أقام عليه الدليل، بأن أبان: أن من خلق الخلق بقدرته وإرادته.. لا يعجز عن رجعته، ثم بين ما يكون حين الرجوع، من إفلاس المجرمين، وتحقق بأسهم وحيرتهم، إذ لا تنفعهم شركاؤهم، بل هم يكفرون بهم، ثم ذكر أن الناس حينئذ فريقان: فريق في الجنة، وفريق في السعير، فالأولون يمتعون بسرور وحبور، والآخرون يصلون النار دأباً، لا يغيبون عنها أبداً.

قوله: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لما بين حال الفريقين، المؤمنين الذين يعملون الصالحات، والكافرين المكذبين بالآيات، وما أعد لكل منهما من الثواب والعقاب.. أرشد إلى ما يفضي إلى الحال الأولى، وينجي من الثانية،

---

(١) المراغي.

وهو تنزيه الله عز وجل عن كل ما لا يليق به، وحمده والثناء عليه، بما هو أهل له من صفات الجلال والكمال، ولما كان الإنسان حين الإصباح يخرج من حال النوم، التي هي أشبه بالموت منها إلى اليقظة، وكأنها حياة بعد موت.. أتبع ذلك بذكر الموت والحياة حقيقةً.

وعبارة أبي حيان هنا[1]: لما بين سبحانه وتعالى عظيم قدرته في خلق السماوات والأرض بالحق، وهو حالة ابتداء العالم، وفي مصيرهم إلى الجنة والنار، وهي حالة الانتهاء.. أمر تعالى بتنزيهه من كل سوء، والظاهر أنه أمر عباده بتنزيهه في هذه الأوقات، لما يتجدد فيها من النعم، ويحتمل أن يكون كنايةً عن استغراق زمان العبد، وهو أن يكون ذاكراً ربه، واصفه بما يجب له على كل حال، وقال الزمخشري: لما ذكر الوعد والوعيد.. أتبعه ذكر ما يوصل إلى الوعد، وينجي من الوعيد. انتهت.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه، لما أمر بتنزيهه عن الأسواء والنقائص، التي لا تليق بجلاله وكماله، وذكر أن الحمد له على خلقه جميع الموجودات، وبين قدرته على الإماتة والإحياء بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾.. ذكر هنا أدلةً باهرةً، وحججاً ظاهرةً على البعث والإعادة، منها خلقكم من التراب الذي لم يشم رائحة الحياة، ولا مناسبة بينه وبين ما أنتم عليه في ذاتكم وصفاتكم، ثم إبقاء نوعكم بالتوالد، فإذا مات الأب.. قام ابنه مقامه، لتبقى سلسلة الحياة متصلةً بهذا النوع، وبسائر الأنواع الأخرى، بالازدواج والتوالد، إلى الأجل الذي قدره الله لأمد هذه الحياة.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه، لما ذكر[2] دلائل

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

وجوده، بما ذكره في خلق الإنسان.. أعقبه بذكر الدلائل في الأكوان المشاهدة، والعوالم المختلفة، وفي اختلاف ألوان البشر ولغاتهم، التي لا حصر لها، مع كونهم من أبٍ واحد، وأصل واحد، وفيما يشاهد من سباتهم العميق ليلاً، وحركتهم نهاراً في السعي على الأرزاق، والجد والكد فيها.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ ...﴾ الآيات، سبب نزول هذه الآيات، إلى قوله: ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ على ما ذكره المفسرون[1]: أنه كان بين فارس والروم قتال، وكان المشركون يودون أن تغلب فارس الروم، لأن فارساً كانوا مجوساً أميين، والمسلمون يودون غلبة الروم على فارس، لكونهم أهل كتاب، فبعث كسرى جيشاً إلى الروم، واستعمل عليهم رجلاً يقال له: شهرمان، وبعث قيصر رجالاً وجيشاً، وأمّر عليهم رجلاً يدعى بخين، فالتقيا بأذرعات وبصرى، وهي أدنى الشام إلى أرض العرب والعجم، فغلبت فارس الروم، فبلغ ذلك المسلمين بمكة فشق عليهم، وفرح به كفار مكة، وقالوا للمسلمين: إنكم أهل كتاب، والنصارى أهل كتاب، ونحن أميون وفارس أميون، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من الروم، فإنكم إن قاتلتمونا.. لنظهرن عليكم، فأنزل الله هذه الآيات، فخرج أبو بكر الصديق إلى كفار مكة، فقال: فرحتم بظهور إخوانكم، فلا تفرحوا، فوالله ليظهرن الروم على فارس، أخبرنا بذلك نبينا محمد - ﷺ - فقام إليه أبيّ بن خلف الجمحيّ، فقال: كذبت، فقال: أنت أكذب يا عدو الله، فقال: اجعل بيننا أجلاً أناحبك عليه، والمناحبة بالحاء المهملة: القمار والمراهنة؛ أي: أراهنك على عشر قلائص مني، وعشر قلائص منك، فإذا ظهرت فارس على الروم.. غَرمتَ، وإذا ظهرت الروم على فارس.. غَرمتُ، ففعلوا، وجعلوا الأجل ثلاث سنين، فجاء أبو بكر إلى النبي - ﷺ - وأخبره بذلك قبل تحريم القمار، فقال النبي - ﷺ -: «ما هكذا

(١) الخازن.

ذكرت، إنما البضع ما بين الثلاثة إلى التسع، فزايده في الخطر، وماده في الأجل» فخرج أبو بكر، فلقي أبياً، فقال: لعلك ندمت، فقال: فتعال أزايدك في الخطر، وأماددك في الأجل، فاجعلها مئة قلوص، ومئة قلوص إلى تسع سنين، فقال: قد فعلت، فلما خشي أبيّ بن خلف أن يخرج أبو بكر من مكة.. أتاه ولزمه وقال: إني أخاف أن تخرج من مكة، فأقم لي ضامناً كفيلاً، فكفله ابنه عبد الله بن أبي بكر، فلما أراد أبيّ بن خلف أن يخرج إلى أحد.. أتاه عبد الله بن أبي بكر فلزمه، وقال: والله لا أدعك حتى تعطيني كفيلاً، فأعطاه كفيلاً ثم خرج إلى أحد، قال: ثم حين رجع أبي بن خلف إلى مكة، ومات بها من جراحته التي جرحه النبي - ﷺ - حين بارزه، وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية، وذلك على رأس سبع سنين من مناحبتهم، وقيل: كان يوم بدر، وربطت الروم خيولهم بالمدائن، وبنوا بالعراق مدينةً، وسموها روميةً، فقمر أبو بكر، وأخذ مال الخطر من ورثته، وجاء به للنبي - ﷺ -، وذلك قبل أن يحرم القمار، فقال النبي - ﷺ -: «تصدق به».

وكان سبب غلبة الروم فارساً، على ما قاله عكرمة وغيره: أن شهرمان لما غلب الروم.. لم يزل يطؤهم، ويخرب مدائنهم، حتى بلغ الخليج، فبينا أخوه فرحان جالس ذات يوم يشرب، قال لأصحابه: لقد رأيت كأني جالس على سرير كسرى، فبلغت كلمته كسرى، فكتب إلى شهرمان: إذا أتاك كتابي.. فابعث إليّ برأس أخيك فرحان، فكتب إليه: أيها الملك إنك لا تجد مثل فرحان، إن له نكاية وصولة في العدو فلا تفعل، فكتب إليه إن في رجال فارس خلفاً عنه، فعجل إليّ برأسه، فراجعه فغضب كسرى ولم يجبه، وبعث بريداً إلى أهل فارس: أني قد عزلت عنكم شهرمان، واستعملت عليكم فرحان، ثم بعث مع البريد صحيفةً صغيرةً، وأمره فيها بقتل شهرمان، وقال: إذا ولي فرحان الملك، وانقاد له أخوه.. فأعطه الصحيفة، فلما وصل البريد إلى شهرمان.. عرض عليه كتاب كسرى، فلما قرأه قال: سمعاً وطاعةً، ونزل عن سرير الملك، وأجلس عليه أخاه فرحان، فدفع البريد الصحيفة إلى فرحان، فلما قرأها.. استدعى بأخيه شهرمان، وقدمه ليضرب عنقه، فقال له: لا تعجل حتى أكتب وصيتي، قال: نعم، فدعا

بسفطٍ ففتحه، وأعطاه ثلاث صحائف منه، وقال: كل هذا راجعت فيك كسرى، وأنت تريد قتلي بكتابٍ واحدٍ، فرد فرحان الملك إلى أخيه شهرمان، فكتب إلى قيصر ملك الروم: أما بعد، إن لي إليك حاجةً لا تحملها البريد، ولا تبلغها الصحف، فألقني في خمسين رومياً، حتى ألقاك في خمسين فارسياً، فأقبل قيصر في خمس مئة ألف رميٍّ، وجعل يضع العيون بين يديه في الطرق، مخافة أن يريد أن يمكر به، حتى أتاه عيونه فأخبروا: أنه ليس معه إلا خمسون فارسياً، فلما التقيا.. ضربت لهما قبة فيها ديباج، قد خلاها، ومع كل واحد سكين، ودعيا بترجمان يترجم بينهما، فقال شهرمان: إن الذي خرب بلادك أنا وأخي بكيدنا وشجاعتنا، وإن كسرى حسدنا، وأراد أن يقتل أخي فأبيت عليه، ثم أمر أخي بقتلي فأبى عليه، وقد خلعناه جميعاً، ونحن نقاتله معك، فقال: قد أصبتما، وأشار أحدهما إلى صاحبه أن السر بين اثنين، فإن جاوزهما.. فشا، فقتلا الترجمان معاً بسكينهما، فأديلت الروم على فارس عند ذلك، وغلبوهم وقتلوهم، ومات كسرى، وجاء الخبر إلى رسول الله - ﷺ - يوم الحديبية، ففرح هو ومن كان معه من المسلمين بذلك، فذلك قوله عز وجل: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾. وهذه آية بينة على صحة نبوته - ﷺ - وأن القرآن من عند الله، لأنها أنباء عن علم الغيب.

وعن قتادة: وكان ذلك قبل تحريم القمار، ومن مذهب أبي حنيفة ومحمد، أن العقود الفاسدة، كعقد الربا وغيره: جائزة في دار الحرب بين المسلمين والكفار، وقد احتجا على صحة ذلك بهذه القصة.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[1]: ما أخرجه ابن أبي حاتم، عن عكرمة قال: تعجب الكفار من إحياء الله الموتى، فنزلت: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ...﴾ الآية.

(١) لباب النقول.

التفسير وأوجه القراءة

﴿الٓمٓ ①﴾؛ أي: هذه سورة ألم، قال بعضهم: الحروف المقطعات مبادي السور، ومفاتيح كنوز العبر، والإشارة هنا بهذه الحروف الثلاثة إلى قوله: أنا الله، ولي جميع صفات الكمال، ومني الغفران والإحسان، إلى غير ذلك.

﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ②﴾ وقهرت، وهم أهل الكتاب على دين عيسى - عليه السلام - غلبتهم فارس، وهم المجوس عبدة النيران، والغلبة: القهر والاستعلاء على القرن، بما يبطل مقاومته في الحرب، والروم: اسم قبيلة سميت باسم جدّها[1] روم بن يونان بن يافث بن نوح - عليه السلام -. وقيل: هم بنو روم بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم - عليهما السلام - سمي عيص، لأنه كان مع يعقوب في بطن، فعند خروجهما تزاحما، وأراد كل أن يخرج قبل صاحبه، فقال عيص ليعقوب: إن لم أخرج قبلك.. خرجت من جنب أمي، فتأخر يعقوب شفقة لها، فلذا كان أبا الأنبياء، وعيص أبا الجبارين، والفُرْس بسكون الراء: قوم معروفون، نسبوا إلى فارس بن سام بن نوح عليه السلام؛ أي: غلبتها فارس.

﴿فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي[2]: في أقرب أرض الشام إلى أرض العرب وفارس، وهي أذرعات وكشكر، أو غلبت الروم في أدنى أرضهم، وأقربها إلى عدوهم. ﴿وَهُم﴾؛ أي: الروم ﴿مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ﴾؛ أي: من بعد مغلوبيتهم على يد فارس، فهو من إضافة المصدر إلى المفعول، والفاعل: متروك، والأصل: من بعد غلبة فارس إياهم، ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ فارس[3]، ولا وقف عليه، لتعلق ﴿فِى بِضْعِ سِنِينَ﴾ به، وهو ما بين الثلاث إلى العشرة؛ أي: فالروم سيغلبون فارس، فيما بين الثلاث والتسع سنوات من الحرب الأولى، فوقع الغلب للروم على رأس سبع سنين من الحرب الأولى، وعبر بالبضع[4]، ولم يعين إبقاءً للعباد في ربقة نوع من الجهل، تعجيزاً لهم.

---

(١) روح البيان.
(٢) والواحدي.
(٣) النسفي.
(٤) روح البيان.

والمعنى: أي[1] غلبت فارس الروم في أقرب أرض الروم بالنسبة إلى أرض العرب، إذ الوقعة كانت بين الأردن وفلسطين، والروم من بعد غلب فارس إياهم سيغلبون فارس في بضع سنين، وقد تحقق ذلك فغلبوهم بعد سبع من الواقعة الأولى، ولا شك أن وقوعه على نحو ما قال الكتاب الكريم، يعد من أكبر الدلائل على إعجازه، وأنه كلام الله، العليم بكل شيء لا كلام البشر، وهذا المعنى على القراءة المشهورة، وقرأ علي[2]، وأبو سعيد الخدري، وابن عباس، وابن عمر، ومعاوية بن قرة، والحسن: ﴿غلبت﴾ مبنياً للفاعل ﴿سيغلبون﴾ مبنياً للمفعول، ويجوز على هذه القراءة، أن يكون ﴿غلبت﴾ مبنياً للفاعل على أن الضمير فيه لفارس، والروم بالنصب مفعوله؛ أي: غلبت فارس الروم. ﴿وَهُم﴾؛ أي: فارس ﴿مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ﴾ للروم ﴿سَيُغْلَبُون﴾ بالبناء للمفعول؛ أي: يكونون مغلوبين في أيدي الروم، ويجوز أن يكون ﴿ٱلرُّومُ﴾ فاعل ﴿غُلِبَتِ﴾ على البناء للفاعل؛ أي: غلبت الروم أهل فارس، وهم؛ أي: الروم بعد غلبهم لفارس ﴿سَيُغْلَبُون﴾ بالبناء للمجهول؛ أي: يكونون مغلوبين في أيدي المسلمين، فكان ذلك في زمن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ.

وقرأ الجمهور: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢﴾ مبنياً للمفعول، ﴿سَيَغۡلِبُونَ﴾ بالبناء للفاعل، وهي القراءة المشهورة التي جرينا عليها في تفسيرنا، وقرأ الجمهور: ﴿غَلَبِهِمۡ﴾ بفتح الغين واللام، وقرأ علي، وابن عمر، ومعاوية بن قرة، وأبو حيوة الشامي، وابن السميفع: بإسكان اللام.

﴿لِلَّهِ﴾ سبحانه وتعالى لا لغيره ﴿ٱلۡأَمۡرُ﴾ والقضاء والتصرف ﴿مِن قَبۡلُ﴾؛ أي: من قبل غلبة الروم على فارس، وهو وقت كونهم مغلوبين ﴿وَمِنۢ بَعۡدُ﴾؛ أي: ومن بعد غلبة الروم على فارس، وهو وقت كونهم غالبين. والمعنى[3]: أن كلا من كونهم مغلوبين أولاً، وغالبين آخراً، ليس إلا بأمر الله وقضائه، كما قال: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ فمن غلب.. فهو بأمر الله وقضائه

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.

وقدره، فهو يقضي في خلقه بما يشاء، ويحكم بما يريد، ويظهر من شاء منهم على من أحب إظهاره عليه.

وقرأ الجمهور ﴿مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُۚ﴾ بضمهما[1]؛ أي: من قبل غلبة الروم، ومن بعدها، ولما كانا مضافين إلى معرفة، وحذفت.. بنيا على الضم، والكلام على ذلك، مذكور في علم النحو، وقرأ أبو السماك، والجحدري، وعون العقيلي: ﴿من قبلٍ ومن بعدٍ﴾ بالكسر والتنوين فيهما، قال الزمخشري: على الجر من غير تقدير مضاف إليه واقتطاعه، كأنه قيل: قبلاً وبعداً، بمعنى أولاً وآخراً. انتهى.

وقال ابن عطية: ومن العرب من يقول: من قبلٍ ومن بعدٍ، بالخفض والتنوين، وحكى الكسائي عن بعض بني أسد ﴿لله الأمر من قبلٍ ومن بعدُ﴾ الأول مخفوض منون، والثاني مضموم بلا تنوين.

﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: ويوم إذ يغلب الروم على فارس، ويحل ما وعده الله تعالى من غلبتهم في بضع سنين ﴿يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ ٱللَّهِۚ﴾ للروم، لكونهم أهل كتاب، كما أن المسلمين أهل كتاب، وفيه فأل حسن، لغلبة المؤمنين على الكافرين، بخلاف فارس فإنه لا كتاب لهم، ولهذا سر المشركون بنصرهم على الروم أولاً، وقد فرح المؤمنون بذلك، وعلموا به يوم وقوعه يوم بدر، بنزول جبريل بذلك فيه، مع فرحهم بنصرهم على المشركين فيه، قد اجتمعت لهم فرحتان: فرحة بنصر الروم على فارس، وفرحة بنصرهم على المشركين، وقيل: نصر الله: هو إظهار صدق المؤمنين فيما أخبروا به المشركين، من غلبة الروم على فارس، والأول أولى.

وقال بعضهم: يفرح المؤمنون بقتل الكفار بعضهم بعضاً، لما فيه من كسر شوكتهم، وتقليل عددهم، لا بظهور الكفار، كما يفرح بقتل الظالمين بعضهم بعضاً.

---

(١) البحر المحيط.

ثم أكد قوله: لله الأمر بقوله: ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ أن ينصره من ضعيف وقوي من عباده، وهذا كلام مستأنف، مقرر لمضمون قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾. ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾؛ أي: المبالغ في العزة والغلبة، فلا يعجزه من يشاء أن ينصر عليه، كائناً من كان. ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾؛ أي: المبالغ في الرحمة، فينصر من يشاء أن ينصره أي فريق كان، أو لا يعز من عادى، ولا يذل من والى، وتقديم وصف العزة لتقدمه في الاعتبار.

والمعنى: أي[1] ينصر من يشاء أن ينصره على عدوه، ويغلبه عليه على مقتضى السنن التي وضعها في الخليقة، وهو المنتقم ممن يستحقون الانتقام بالنصر عليهم، الرحيم بعباده فلا يعاجلهم بالانتقام على ذنوبهم، كما قال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

وقوله: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾: مصدر[2] مؤكد لنفسه؛ أي: وعدهم الله سبحانه بالنصر وبالفرح وعداً، لأن ما قبله، وهو ﴿يومئذ﴾ إلخ: في معنى الوعد، إذ الوعد هو: الإخبار بإيقاع شيء نافع قبل وقوعه، وقوله: ﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾ إلخ من هذا القبيل، ومثل هذا المصدر، يجب حذف عامله كما قدرنا، يعني انظروا وعد الله، ثم استأنف تقرير معنى المصدر، فقال: ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ لا هذا الذي في أمر الروم، ولا غيره مما يتعلق بالدنيا والآخرة، لاستحالة الكذب عليه سبحانه. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ وهم المشركون، وأهل الاضطراب ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ صحة وعده لجهلهم، وعدم تفكرهم في شؤون الله تعالى، نفى عنهم العلم النافع للآخرة، وقد أثبت لهم العلم بأحوال الدنيا فيما سيأتي، والضمير في ﴿يَعْلَمُونَ﴾: راجع للأكثر.

والمعنى: أي وعد الله وعداً بظهور الروم على فارس، والله لا يخلف ما وعد، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك، لجهلهم بشؤونه تعالى، وعدم تفكرهم

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

في النواميس والسنن، التي وضعها في الكون، فإنه قد جعل من تلك السنن: أن وعده لا يخلف، إذ هو مبني على مقدمات ووسائل هو يعلمها، وقد رتب عليها تلك العدة التي وعدها، وجعل قانون الغلب في الأمم والأفراد، مبنياً على الاستعداد النفسي، والاستعداد الحربي، فلا تغلب أمة أخرى إلا بما أعدت لها من وسائل الظفر بها، وما كان لها من صفات تكفل لها هذا الظفر، من أناةٍ وصبرٍ وتضحيةٍ بما تملك من عزيز لديها من مال ونفس.

وهكذا حكم الفرد، فهو لا ينجح في الحياة إلا إذا كان معه أسلحة يغالب بها عوامل الأيام، حتى يغلبها بجده وكده، فهذه الأمور وأمثالها، تحتاج إلى دقة نظر، لا يدركها إلا ذوو البصائر.

﴿يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: يعلم أكثرهم ﴿ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾؛ أي: ما أدته إليه حواسهم من زخارفها وملاذها، وسائر أحوالها الموافقة لشهواتهم، الملائمة لأهوائهم المستدعية لانهماكهم فيها، وعكوفهم عليها، فكأن علومهم هي علوم البهائم، ولا يعلمون باطنها، وهي مضارها ومتاعبها وفناؤها، وتنكير ﴿ظَاهِرًا﴾ للتحقير والتخسيس؛ أي: يعلمون ظاهراً حقيراً خسيساً من الدنيا، يعني: أمر معاشهم، كيف يكسبون ويتجرون، ومتى يغرسون ويزرعون ويحصدون، وكيف يشققون أنهارها، ويبنون قصورها، وقال الحسن: إن أحدهم يأخذ بيده درهماً ويقول: وزنه كذا، ولا يخطىء، وكذا يعرف رداءته وجودته، وهو لا يحسن يصلي.

وقيل: يعلمون وجودها الظاهر، ولا يعلمون فناءها، وقوله: ﴿ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ يفيد أن للدنيا ظاهراً وباطناً، فظاهرها: ما يعرفه الجهال من التمتع بزخارفها، والتنعم بملاذها، وباطنها وحقيقتها: أنها مجاز للآخرة تتزود منها إليها بالطاعة والأعمال الصالحة، ذكر أبو حيان.

ولا فرق[1] بين عدم العلم، وبين العلم المقصور على الدنيا، وفي

---

(١) روح البيان.

«التيسير»: قوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ نفي للعلم بأمور الدين، وقوله: ﴿يَعْلَمُونَ﴾: إثبات للعلم بأمور الدنيا فلا تناقض، لأن الأول: نفي الانتفاع بالعلم بما ينبغي، والثاني: صرف العلم إلى ما لا ينبغي، ومن العلم القاصر: أن يهيىء الإنسان أمور شتائه في صيفه، وأمور صيفه في شتائه، وهو لا يتيقن بوصوله إلى ذلك الوقت، ويقصر في الدنيا في إصلاح أمور معاده، ولا بد له منها.

﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ﴾ التي هي الغاية القصوى، والمطلب الأسنى، والنعمة الدائمة، واللذة الخالصة، ﴿هُمْ غَٰفِلُونَ﴾؛ أي: ساهون، لايلتفتون إليها، ولا يعدون لها ما يحتاج إليه فيها بل لا يخطرونها بالبال ولا يدركون من الدنيا ما يؤدي إلى معرفتها من أحوالها، ولا يتفكرون فيها، أو غافلون عن الإيمان بها، والتصديق بمجيئها.

و﴿هُمْ﴾ الثانية: تكرير للأولى للتأكيد، يفيد أنهم معدن الغفلة عن الآخرة، أو مبتدأ و﴿غافلون﴾ خبر، والجملة: خبر للأولى، وفي الآية تشبيه لأهل الغفلة بالبهائم، المقصور إدراكاتها من الدنيا على الظواهر الحسية، دون أحوالها التي هي من مبادي العلم بأمور الآخرة، وغفلة المؤمنين: بترك الاستعداد لها، وغفلة الكافرين بالجحود بها، وقال بعضهم: من كان عن الآخرة غافلاً.. كان عن الله أغفل، ومن كان عن الله غافلاً.. فقد سقط عن درجات المتعبدين. انتهى.

والمعنى[1]: أي وهم غافلون عن أن النفوس لها بقاء بعد الموت، وأنها ستلبس ثوباً آخر في حياة أخرى، وستنال إذ ذاك جزاء ما قدمت من خير أو شر، ولو لم تكن النفوس تتوقع هذه الحياة.. لكانت آلام الدنيا ومتاعبها لا تطاق، ولا تجد النفوس لاحتمالها سبيلاً، وهي ما قبلت تلك الآلام واحتملتها، إلا لأنها توقن بسعادة أخرى، وراء ما تقاسي من المتاعب في هذه الحياة، ولله در القائل:

وَمِنَ ٱلْبَلِيَّةِ أَنْ تَرَىٰ لَكَ صَاحِباً ... فِيْ صُوْرَةِ ٱلرَّجُلِ ٱلسَّمِيْعِ ٱلْمُبْصِرِ

---

(١) المراغي.

فَطِنٌ بِكُلِّ مُصِيْبَةٍ فِيْ مَالِهِ   وَإِذَا يُصَابُ بِدِيْنِهِ لَمْ يَشْعُرِ

و﴿الهمزة﴾: في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، و﴿الواو﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، و﴿فِي أَنفُسِهِم﴾: ظرف للتفكر، وذكره مع ظهور استحالة كونه في غيرها، لتصوير حال المتفكر، فهو من بسط القرآن نحو: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم﴾.

والتقدير[1]: أقصر كفار مكة نظرهم على ظاهر الحياة الدنيا، ولم يحدثوا التفكر في قلوبهم فيعلموا أنه تعالى ﴿مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ﴾؛ أي: لم يخلق السماوات والأجرام العلوية ﴿وَالْأَرْضَ﴾؛ أي: الأجرام السفلية ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾؛ أي: وما بين السماوات والأرض من المخلوقات، ملتبسة بشيء من الأشياء ﴿إِلَّا﴾ حالة كونها ملتبسةً ﴿بِالْحَقِّ﴾ والحكمة والمصلحة، ليعتبروا بها، ويستدلوا بها على وجود الصانع ووحدته وقدرته، وإنما جعل متعلق الفكر والعلم هو الخلق دون الخالق، لأن الله تعالى منزه عن أن يوصف بصورة في القلب، ولهذا روي: «تفكروا في آلاء الله تعالى ولا تتفكروا في ذات الله».

﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ معطوف على الحق؛ أي: وإلا بأجل معين، قدره الله تعالى لبقائها، لا بد لها من أن تنتهي إليه، وهو وقت قيام الساعة، وقوله[2]: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إشارة إلى وجه دلالتها على الوحدانية، وقوله: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ إشارة إلى معاد الإنسان، فإن مجازاته بما عمل من الإساءة والإحسان هو المقصود بالذات.

وقيل: إن قوله: ﴿فِي أَنفُسِهِم﴾: مفعول للتفكر، والمعنى عليه؛ أي: أولم يتفكر هؤلاء المكذبون بالبعث من قومك في خلق الله لهم ولم يكونوا شيئاً، ثم تصريفهم أحوالاً وتارات، حتى صاروا كاملي الخلق، كاملي العقل، فيعلموا أن الذي فعل ذلك قادر على أن يعيدهم بعد فنائهم خلقاً جديداً، ثم يجازي المحسن منهم بإحسانه، والمسيء منهم بإساءته، لا يظلم أحداً منهم فيعاقبه بدون جرم

---

(١) روح البيان.

(٢) المراح.

صدر منه، ولا يحرم أحداً منهم جزاء عمله، لأنه العدل الذي لا يجور، فهو ما خلق السماوات والأرض وما بينهما إلا بالعدل، وإقامة الحق إلى أجل مؤقت مسمى، فإذا حل الأجل.. أفنى ذلك كله، وبدل الأرض غير الأرض، وبرزوا للحساب جميعاً.

ثم ذكر أن كثيراً من الناس غفلوا عن الآخرة، وما فيها من حساب وجزاء، فقال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ مع غفلتهم عن الآخرة، وإعراضهم عن التفكر فيما يرشدهم إلى معرفتها ﴿بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: بلقاء حسابه وجزائه بالبعث، و﴿الباء﴾: متعلقة بقوله: ﴿لَكَٰفِرُونَ﴾، و﴿اللام﴾: هي المؤكدة، فلا تمنع تعلق ما قبلها بما بعدها، والمراد بهؤلاء الكفار: مطلق الكفار، أو كفار مكة؛ أي: منكرون جاحدون، يحسبون أن الدنيا أبدية، وأن الآخرة لا تكون بحلول الأجل المسمى، لأنهم لم يتفكروا في أنفسهم، ولو تفكروا فيها، ودرسوا عجائبها.. لأيقنوا بلقاء ربهم، وأن معادهم إليه بعد فنائهم.

ثم نبههم إلى صدق رسله فيما جاؤوا به عنه، بما أيدهم من المعجزات والدلائل الواضحة، من إهلاك من جحد نبوتهم، ونجاة من صدقهم، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ و﴿الهمزة﴾ فيه: للاستفهام التوبيخي، المضمن للتقرير، داخلة على محذوف معلوم من السياق. و﴿الواو﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أقعد هؤلاء المكذبون من كفار مكة في أماكنهم، ولم يسيروا ويمشوا في أقطار الأرض ونواحيها ﴿فَيَنظُرُوا۟﴾ ويشاهدوا ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: كيف كان جزاء الأمم الذين كانوا من قبلهم؛ أي: من قبل أهل مكة، وكيف كان مآلهم حين كذبوا رسلهم، فأهلكوا، كعاد، وثمود، وقوم لوط، وقد ساروا وقت التجارات في أقطار الأرض، وشاهدوا آثارهم، فكيف لا يتعظون.

ثم بين سبحانَهُ مبدأ أحوال تلك الأمم ومآلها، فقال: ﴿كَانُوٓا۟﴾؛ أي: كان الذين من قبلهم ﴿أَشَدَّ﴾ وأقوى ﴿مِنْهُمْ﴾؛ أي: من أهل مكة ﴿قُوَّةً﴾ في الجسم، وأقدر منهم على التمتع بالحياة الدنيا ﴿وَأَثَارُوا۟﴾؛ أي: أثار الذين من قبلهم ﴿ٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: حرثوها وقلبوها للزراعة والغرس، وزاولوا أسباب ذلك، ولم

يكن أهل مكة أهل حرث وزرع ﴿وَعَمَرُوهَآ﴾؛ أي: عمر أولئك الأمم الأرض بفنون العمارات، من الزراعة، والغرس، والبناء، وغيرها مما يعد عمارة ﴿أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾؛ أي: عمارة أكثر كماً وكيفاً وزماناً من عمارة أهل مكة إياها، لأن أولئك كانوا أطول منهم أعماراً، وأقوى أجساماً، وأكثر تحصيلاً لأسباب المعاش، فعمروا الأرض بالأبنية، والزراعة، والغراس، كيف لا، وأهل مكة أهل وادٍ غير ذي زرع، ما لهم إثارة الأرض أصلاً، ولا عمارة لهم رأساً، فما هو إلا تهكم بهم، وتضعيف حالهم في دنياهم.

وقرأ أبو جعفر[1]: ﴿وأثاروا الأرض﴾ بمدة بعد الهمزة. وقال مجاهد: ليس بشيء، وخرجه أبو الفتح على الإشباع. وقرأ أبو حيوه: ﴿وآثروا الأرض﴾ بحذف ألف بين المثلثة والراء، من الأثرة، وهو الاستبداد بالشيء، وقرىء: ﴿وأثروا الأرض﴾؛ أي: أبقوا عنها آثاراً.

﴿وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾؛ أي: بالمعجزات الباهرات، والآيات الواضحات، والحجج القاطعات، فكذبوهم، فأهلكهم الله تعالى، ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه بما فعل بهم من العذاب والإهلاك ﴿لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾ من غير جرم يستدعيه من جانبهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ بالكفر والتكذيب.

والمعنى[2]: أي أولم يسر هؤلاء المكذبون بالله، الغافلون عن الآخرة في البلاد التي يسلكونها تجراً، فينظروا إلى آثار الله فيما كان قبلهم من الأمم المكذبة، كيف كان عاقبة أمرهم في تكذيبهم رسلهم، وقد كانوا أشد منهم قوةً، وحرثوا الأرض وعمروها أكثر مما عمر هؤلاء، ثم أهلكهم الله تعالى بكفرهم وتكذيبهم رسله، وما كان الله بظالم لهم بعقابه إياهم على تكذيبهم رسله، وجحودهم آياته، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون، بمعصيتهم ربَّهم.

والخلاصة[3]: أنه قد كان لكم فيمن قبلكم من الأمم معتبر ومزدجر، فقد

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) المراغي.

كانوا أكثر منكم أموالاً وأولاداً، ومكنوا في الدنيا تمكيناً، لم تبلغوا معشاره، وعمروا فيها أعماراً طوالاً، واستغلوها أكثر من استغلالكم، ولما جاءتهم الرسل بالبينات.. كذبوهم، وفرحوا بما أوتوا، فأخذوا بذنوبهم، ولم تغن عنهم أموالهم شيئاً، ولم تحل بينهم وبين بأس الله تعالى.

ثم أكد ما سلف بقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو: ﴿عاقبة﴾ بالرفع، على أنها اسم ﴿كَانَ﴾، وتذكير الفعل حينئذٍ لكون تأنيثها مجازياً، و﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ خبرها، والمعنى؛ أي: ثم بعد إهلاكهم في الدنيا، كان عاقبة الذين عملوا السيئات في الآخرة الدار السيئة، التي هي نار جهنم، والعقوبة التي هي أسوأ العقوبات وأفظعها، وهي العقوبة بالنار.

وفيه وضع الظاهر، وهو ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مقام المضمر، لأن مقتضى السياق أن يقول: ثم كان عاقبتهم، وقوله: ﴿أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: مفعول لأجله، علة لما أشير إليه من تعذيبهم الدنيوي والأخروي؛ أي: أهلكهم الله سبحانه في الدنيا، ثم كان عاقبتهم في الآخرة الدار السيئة، لأجل أن كذبوا بآيات الله، المنزلة على رسله، ومعجزاته الظاهرة على أيديهم.

﴿وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ معطوف على ﴿كَذَّبُواْ﴾ داخل معه في حكم العلة؛ أي: لأجل تكذيبهم بأيات الله تعالى، واستهزائهم بها، وإيراد الاستهزاء بصيغة المضارع للدلالة على استمراره وتجدده.

وقرأ الكوفيون وابن عامر[1]: ﴿عاقبة﴾ بالنصب، على أنه خبر ﴿كَانَ﴾ مقدم، و﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾: مصدر أساؤوا، كالرجعى، أو صفة لمصدر محذوف، و﴿أَن كَذَّبُواْ﴾: اسمها المؤخر، والتقدير: ثم كان التكذيب والاستهزاء عاقبة الذين عملوا السوأى، أو عملوا الأعمال السيئة، و﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾: تأنيث الأسوأ، كالحسنى، تأنيث الأحسن، أو مصدر كالبشرى والرجعى، وصف به العقوبة مبالغةً، كأنها نفس السوأى، وقيل: السوأىٰ: اسم لجهنم، كما أن الحسنى اسم

---

(١) البحر المحيط.

للجنة، وإنما سميت سوأى، لأنها تسوء صاحبها، وقرأ الأعمش، والحسن: ﴿السوى﴾ بإبدال الهمزة واواً وإدغام الواو فيها، كقراءة من قرأ ﴿بالسو﴾ بالإدغام في يوسف، وقرأ ابن مسعود: ﴿السوء﴾ بالتذكير.

وحاصل معنى الآيات(١): أن الأمم السالفة المكذبة، عذبوا في الدنيا والآخرة، بسبب تكذيبهم واستهزائهم، وسائر معاصيهم، فلم تنفعهم قوتهم، ولم تمنعهم أموالهم من العذاب والهلاك، فما الظن بأهل مكة، وهم دونهم في العدد وقوة الجسد.

فائدة: قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ قاله(٢) هنا وفي فاطر وفي أول المؤمن بالواو، وفي آخر سورة المؤمن قاله بالفاء، حيث قال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ لأن ما هنا موافق لما قبله، وهو: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ ولما بعده، وهو ﴿وَأَثَارُوا الْأَرْضَ﴾ وما في فاطر موافق أيضاً لما قبله، وهو ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ ولما بعده وهو: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ﴾ وما في أول المؤمن موافق لما قبله، وهو ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ وما في آخرها موافق لما قبله، وهو ﴿فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ وما بعده، وهو: ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ فناسب فيه الفاء، وفي الثلاثة قبله الواو.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾(٣) قاله هنا بحذف ﴿كَانُوا﴾ قبل قوله: ﴿مِن قَبْلِهِم﴾ وحذف الواو بعده، وقاله في فاطر بحذف ﴿كَانُوا﴾ أيضاً، وبذكر الواو، حيث قال: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ وفي أوائل غافر بذكر ﴿كَانُوا﴾ دون الواو وزيادة ﴿هُمْ﴾ حيث قال: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً

(١) روح البيان.
(٢) فتح الرحمن.
(٣) فتح الرحمن.

﴾ وفي آخرها بحذف الجميع، لأن ما في أوائلها وقع فيه قصة نوح، وهي مبسوطة فيه، فناسب فيه البسط، وحذف الجميع في أواخرها، اختصاراً لدلالة ذلك عليه، وذكر هنا وفي فاطر موافقة لذكرها قبل وبعد.

﴿ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾؛ أي: ينشئهم ويخلقهم أولاً في الدنيا، وهو الإنسان المخلوق من النطفة ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾؛ أي: يعيدهم بعد الموت أحياء كما كانوا؛ أي: يحييهم في الآخرة، ويبعثهم بعد الموت، وتذكير الضمير وإفراده، باعتبار لفظ الخلق، ﴿ثُمَّ﴾ بعد بعثكم وإعادتكم ﴿إِلَيْهِ﴾؛ أي: إلى موقف حسابه تعالى وجزائه ﴿تُرْجَعُونَ﴾؛ أي: تردون، لا إلى غيره، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، والالتفات إلى الخطاب للمبالغة في الترهيب، والإتيان بضمير الجمع باعتبار معنى الخلق.

وقرأ عبد الله وطلحة[١]: ﴿يبدىء﴾ بضم الياء وكسر الدال، والجمهور: بفتحها، وقرأ أبو بكر، وأبو عمرو، وروح: ﴿يرجعون﴾ بالتحتية على الأصل، والجمهور: بالفوقية على الخطاب.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾؛ أي: القيامة التي هي وقت إعادة الخلق، ورجعهم إليه للجزاء، والساعة[٢]: جزء من أجزاء الزمان، عبر بها عن القيامة تشبيهاً لها بذلك، لسرعة حسابها، كما قال: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ أو لما نبه عليه قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ﴾، ﴿يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾؛ أي: يسكت المشركون سكوت من انقطعت عن الحجة، متحيرين آيسين من الاهتداء إلى الحجة، أو من كل خير حين عاينوا العذاب، وقرأ[٣] الجمهور: ﴿يبلس﴾ بكسر اللام على البناء للفاعل، وقرأ علي، والسلمي: بفتحها على البناء للمفعول، من أبلسه: إذا أسكته.

ومعنى الآيتين: أي[٤] الله سبحانه ينشىء جميع الخلق بقدرته، وهو منفرد

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.
(٣) البحر المحيط.
(٤) المراغي.

بإنشائه من غير شريك ولا ظهير، ثم يعيده خلقاً جديداً بعد إفنائه وإعدامه، كما بدأه خلقاً سوياً ولم يك شيئاً، ثم إليه يردون فيحشرون لفصل القضاء بينهم، فيجزي الذين أساؤوا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى، ثم بين ما سيحدث في ذلك اليوم من الأهوال للأشقياء، والنعيم والحبور للسعداء، فقال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾.. إلخ؛ أي: ويوم تجيء الساعة التي فيها يفصل الله بين خلقه بعد نشرهم من قبورهم، وحشرهم إلى موقف الحساب، يسكت الذين أشركوا بالله، واجترحوا في الدنيا مساوي الأعمال، إذ لا يجدون حجة يدفعون بها عن أنفسهم ما يحل بهم من النكال والوبال.

ولما كان الساكت قد يغنيه غيره عن الكلام.. نفى ذلك بقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم﴾؛ أي: ولا يكون لهؤلاء المشركين ﴿مِّن شُرَكَآئِهِمْ﴾؛ أي: من أوثانهم التي عبدوها رجاء الشفاعة، أو رؤسائهم الذين كانوا يتبعونهم على ما دعوهم إليه من الضلالة ﴿شُفَعَٰٓؤُاْ﴾ يستنقذونهم، ويجيرونهم من عذاب الله، وإذ ذاك يستبين لهم جهلهم وخطؤهم، إذ قالوا هؤلاء شفعاؤنا عند الله، وعبر[1] بالمضارع المنفي بـ﴿لم﴾ الذي كان ماضي المعنى، لتحققه في علم الله، وكذا يقال فيما بعده، وصيغة الجمع في قوله: ﴿شُفَعَٰٓؤُاْ﴾ لوقوعها في مقابلة الجمع؛ أي: لم يكن لكل واحد منهم شفيع أصلاً، وأضاف الشركاء إليهم في قوله: ﴿شُرَكَآئِهِمْ﴾ لأنهم أشركوهم في أموالهم، وقيل: لأنهم اتخذوها بزعمهم شركاء لله.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿وَلَمْ يَكُن﴾ بالياء التحتية، وقرأ خارجة، والأريس كلاهما عن نافع، وابن سنان عن أبي جعفر، والأنطاكي عن شيبة، بتاء التأنيث.

وكتب في المصحف[3]: ﴿شفعوا﴾ بواو قبل الألف كما كتب: ﴿علموا﴾ بني إسرائيل في الشعراء، و﴿السوأى﴾ بالألف قبل الياء إثباتاً للهمزة على صورة الحرف الذي منه حركتها.

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

(٣) روح البيان.

ولما ذكر سبحانه حال الشفعاء معهم.. ذكر حالهم مع الشفعاء بقوله: ﴿وَكَانُوا﴾؛ أي: وكان عبدة الأصنام يومئذٍ ﴿بِشُرَكَآئِهِمْ﴾؛ أي: بآلهتهم ﴿كَٰفِرِينَ﴾؛ أي: جاحدين متبرئين منهم، يقولون: والله ربنا ما كنا مشركين؛ أي: ويكونون يكفرون بآلهتهم حيث يئسوا منهم، وعبر بالماضي أيضاً، إشارةً إلى تحققه في علم الله تعالى، كما سبق.

ثم بين سبحانه أن الله يميز الخبيثين من الطيبين، فقال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾؛ أي: ويوم تجيء الساعة التي يحشر فيها الخلق إلى الله، أعيد لتهويله، وتفظيع ما يقع فيه، وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ توكيد لفظي لما قبله؛ أي: يوم إذ تقوم الساعة ﴿يَتَفَرَّقُونَ﴾؛ أي: يتفرق أهل الإيمان بالله وأهل الكفر به، فأما أهل الإيمان به.. فيؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة وأما أهل الكفر فيؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار، والمراد: تفرق جميع الخلق المدلول عليهم بقوله: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ لا تفرق المجرمين خاصة، والمراد بالتفرق: أن كل طائفة تنفرد، وليس المراد: تفرق كل فرد منهم عن الآخر، ومثل الآية قوله تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ وذلك بعد تمام الحساب، فلا يجتمعون أبداً، قال قتادة: فرقة والله لا اجتماع بعدها، وقال الحسن: لئن كانوا اجتمعوا في الدنيا.. ليتفرقن يوم القيامة، هؤلاء في أعلى عليين، وهؤلاء في أسفل السافلين.

ثم بين سبحانه كيفية تفرقهم، فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسوله ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بامتثال المأمورات واجتناب المنهيات ﴿فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ﴾ عظيمة؛ أي: في رياض الجنة، وهي محاسنها وملاذها، وخص الروضة بالذكر، لأنه لم يكن عند العرب شيء أحسن منظراً، ولا أطيب نشراً من الرياض، ففيه تقريب المقصود من أفهامهم ﴿يُحْبَرُونَ﴾؛ أي: يسرون سروراً تهللت له وجوههم، وبألوان الزهر والسندس الأخضر يتمتعون، ويتلذذون بالسماع والعيش الطيب الهنيء، وقيل: ينعمون، وقيل: يكرمون، والأولى أولى.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالله ورسوله ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ القرآنية التي من جملتها هذه الآيات الناطقة بما فصل ﴿وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾؛ أي: البعث بعد الموت،

والنشور للدار الآخرة، صرح بذلك مع اندراجه في تكذيب الآيات، للاعتناء بأمره ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بالكفر والتكذيب ﴿فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾؛ أي: مدخلون في العذاب على الدوام، لا يغيبون عنه أبداً، قال بعضهم: الإحضار: إنما يكون على إكراه، فيجاء به على كراهة؛ أي: يحضرون العذاب في الوقت الذي يحبر فيه المؤمنون في روضات الجنان، فيكون على عذاب وويل وثبور، كما يكون المؤمنون على ثواب وسماع وحبور، أما من يؤمن ويعمل السيئات.. فليس دائم الحضور في العذاب، وليس من المحبورين غاية الحبور في رياض الجنة، فعلى العاقل أن يجتنب عن القيل والقال، ويكسب الوجد والحال، من طريق صالحات الأعمال، فإن لكل عمل صالح أثراً، ولكل ورع وتقوى ثمرة، فمن حبس نفسه في زاوية العبادة والطاعة، وتخلى في خلوة الذكر والفكر.. تفرج في رياض الجنان بما قاسى الأعضاء والجنان، ومن أغلق باب سمعه عن سماع الملاهي، وصبر عنه.. فتح له باب سماع في الجنة، وإلا فقد حرم من أمثل اللذات، كما أن من شرب الخمر في الدنيا.. لم يشربها في الآخرة.

وأشار بالإحضار: إلى أن جهنم سجن الله تعالى، فكما أن المجرم في الدنيا يساق إلى السجن، وهو كاره له، فكذا المجرم في العقبى يساق ويجر إلى النار بالسلاسل والأغلال، فيذوق وبال كفره وتكذيبه، وحضوره محاضر أهل الهوى من أهل الملاهي، وربما يحضر في العذاب من ليس بمكذب، إلحاقاً له في بعض الأوصاف، وإن كان غير مخلد فيه، وربما تؤدي الجراءة على المعاصي، والإصرار عليها إلى الكفر والعياذ بالله تعالى.

و﴿الفاء﴾: في قوله: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، والتسبيح محمول على حقيقته وظاهره الذي هو تنزيه الله تعالى عن السوء، والثناء عليه بالخير.

والمعنى: إذا علمتم أيها العقلاء المميزون، أن الثواب والنعيم للمؤمنين العاملين، والعذاب والجحيم للكافرين المكذبين، فسبحوا الله؛ أي: نزهوه عن كل ما لا يليق بشأنه تعالى، وقولوا: سبحان الله ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ وتدخلون في

المساء ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ وتدخلون في الصباح، والإمساء: الدخول في المساء، كما أن الإصباح: الدخول في الصباح، كما سيأتي في مبحث اللغة.

والمعنى: وسبحوه تعالى وقت دخولكم في المساء، وساعة دخولكم في الصباح، وجملة قوله: ﴿وَلَهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لا لغيره، يحمده خاصةً أهل السماوات والأرض، ويثنون عليه[1]، معترضة مسوقة للإرشاد إلى الحمد، والإيذان بمشروعية الجمع بينه وبين التسبيح، كما في قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ وقوله: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾.

وفيه لطيفة: وهو أن الله تعالى، لما أمر العباد بالتسبيح.. كأنه بين لهم أن تسبيحهم الله سبحانه لنفعهم، لا لنفع يعود على الله تعالى، فعليهم أن يحمدوا الله إذا سبحوه، لأجل نعمة هدايتهم إلى التوفيق ا هـ. «رازي».

والمعنى: احمدوه على نعمهِ العظام في الأوقات كلها، فإن الإخبار بثبوت الحمد له تعالى، ووجوبه على أهل التمييز، من خلق السماوات والأرض في معنى الأمر على أبلغ وجه، وتقديم التسبيح على التحميد، لأن التخلية بالمعجمة، مقدمة على التحلية بالمهملة، كشرب المسهل مقدم على شرب المصلح، وكالأساس مقدم على الحيطان، وما يبنى عليها من النقوش، والجار والمجرور في قوله: ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ متعلق بنفس الحمد.

وقوله: ﴿وَعَشِيًّا﴾؛ أي: آخر النهار، معطوف على ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾؛ أي: وسبحوه وقت العشي، وتقديمه على قوله: ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾؛ أي: تدخلون في الظهيرة التي هي وسط النهار، لمراعاة الفواصل، وتغيير الأسلوب، لأنه لا يجيء منه الفعل بمعنى الدخول في العشي، كالمساء والصباح والظهيرة.

وإنما خص[2] بعض الأوقات بالأمر بالتسبيح، لأن الإنسان لا يمكنه أن يصرف جميع أوقاته إلى التسبيح، لكونه محتاجاً إلى تحصيل مأكول ومشروب

---

(١) روح البيان.	(٢) المراح.

وملبوس ومركوب، كما أن العبد ينزه الله في أول النهار وآخره ووسطه، فإن الله يطهره في أولِهِ، وهو دنياه، وفي آخره وهو عقباه، وفي وسطه وهو حالة كونه في قبره، وتخصيص[1] التسبيح والتحميد بتلك الأوقات، للدلالة على أن ما يحدث فيها من آيات قدرته، وأنواع رحمته، ونعمته، شواهد ناطقة بتنزهه تعالى، واستحقاقه الحمد موجبة لتسبيحه، وتحميده حتماً.

وعبارة «المراغي» هنا: وتخصيص[2] هذه الأوقات من بين سائرها، لما فيها من التبدل الظاهر في أجزاء الزمن، والانتقال من حال إلى أخرى على صورة واضحة، كالانتقال من الضياء إلى الظلام في المساء، ومن الظلام إلى النور في الصباح، ومن ضياءٍ تامٍ وقت الظهيرة، إلى اضمحلالٍ لذلك الضياء وقت العشي. وهكذا.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن الآية جامعة للصلوات الخمس ومواقيتها: ﴿تُمْسُونَ﴾ صلاة المغرب والعشاء، و﴿تُصْبِحُونَ﴾ صلاة الفجر، ﴿وَعَشِيًّا﴾ صلاة العصر، و﴿تُظْهِرُونَ﴾ صلاة الظهر. فالمعنى عليه: فصلوا لله في هذه الأوقات، الصلاة المشتملة على التسبيح والتحميد، وسائر الأذكار.

والأولى أن يفسر التسبيح بالتنزيه[3]؛ أي: نزهوا الله سبحانه في هذه الأوقات عن صفات النقص، وصفوه بصفات الكمال، لأنه يتضمن الصلاة، لأنَّ التنزيه المأمور به يتناول التنزيه بالقلب، وهو الاعتقاد الجازم، ويتناول التنزيه باللسان، وهو الذكر الحسن، ويتناول التنزيه بالأركان، وهو العمل الصالح، والثاني ثمرة الأول، والثالث ثمرة الثاني، فالإنسان إذا اعتقد شيئاً.. ظهر من قلبه على لسانه، وإذا قال.. ظهر صدقه في مقاله من أحواله وأفعاله، فاللسان: ترجمان الجنان، والأركان: ترجمان اللسان، لكن الصلاة أفضل أعمال الأركان، فهي مشتملة على الذكر باللسان، والتصديق بالجنان، فهو نوع من أنواع التنزيه،

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) الرازي.

والأمر المطلق لا يختص بنوع دون نوع، فيجب حمله على كل ما هو تنزيه، الذي من جملته الصلاة ا هـ. «رازي».

وقدم[1] الإمساء على الإصباح، كما قدم في قوله: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ والظلمات على النور، وقابل بالعشي الإمساء، وبالإظهار الإصباح، لأن كلا منهما يعقب بما يقابله، فالعشي يعقبه الإمساء، والإصباح يعقبه الإظهار، ولما لم يتصرف من العشي فعل لا يقال أعشى، كما يقال: أمسى وأصبح وأظهر.. جاء التركيب ﴿وَعَشِيًّا﴾.

وقرأ عكرمة: ﴿حينا تمسون وحينا تصبحون﴾ بتنوين ﴿حين﴾، والجملة: صفة حذف منها الرابط، تقديره تمسون فيه، وتصبحون فيه.

فصل في ذكر نبذة من الأحاديث الواردة في فضل التسبيح

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «من قال: سبحان الله وبحمده، في كل يوم مئة مرة.. حطت خطاياه، وإن كانت مثل زبد البحر».

وعنه عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «من قال حين يصبح وحين يمسي: سبحان الله وبحمده، مئة مرة.. لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به، إلا أحد قال مثل ما قال، أو زاد عليه». أخرجهما الترمذي، وقال فيهما: حسن صحيح.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمٰن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»، متفق عليه، واللفظ للبخاري.

وعن جويرية رضي الله عنها بنت الحارث زوج النبي ـ ﷺ ـ: أن النبي ـ ﷺ ـ خرج ذات غداة من عندها، وهي في مسجدها، فرجع بعد ما تعالى النهار فقال: «ما زلت في مجلسك هذا منذ خرجت بعد» قالت: نعم، فقال: «لقد قلتُ بعدَك أربعَ كلماتٍ ثلاثَ مرات، لو وزنت بكلماتك لوزنتهن: سبحان الله وبحمده

---

(١) البحر المحيط.

عدد خلقه، ورضاء نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته» أخرجه مسلم.

وعن سعد بن أبي وقاص، قال: كنا عند رسول الله - ﷺ - فقال: «أيعجز أحدكم أن يكتسب كل يوم ألف حسنة؟» فسأله سائل من جلسائه، قال: كيف يكتسب ألف حسنة؟ قال: «يسبح الله مئة تسبيحة، فيكتب له ألف حسنة، ويحط عنه ألف خطيئة». أخرجه مسلم، وفي رواية غير مسلم: «يحط عنه أربعين ألفاً».

وأخرج أبو داود، والطبراني، وابن السني، وابن مردويه: عن ابن عباس عن رسول الله - ﷺ - قال: «من قال حين يصبح ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ أدرك ما فاته في ليلته، ومن قال حين يمسي: أدرك ما فاته في يومه»، وإسناده ضعيف.

وعن النبي - ﷺ -[(١)]: «من سره أن يكال له بالقفيز الأوفى.. فليقل: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾ الآية».

ولما ذكر الإبداء والإعادة.. ناسبه ذكر إخراج الحي من الميت وعكسه، حيث قال: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ كالإنسان من النطفة، والطير من البيضة، وأيضاً المؤمن من الكافر، والمصلح من المفسد، والعالم من الجاهل، وأيضاً القلب الحي بنور الله من النفس الميتة عن صفاتها وأخلاقها الذميمة، إظهاراً للطفه ورحمته. ﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ كالنطفة والبيضة من الحيوان، وأيضاً الكافر والمفسد، والجاهل من المؤمن والمصلح والعالم، وأيضاً القلب الميت عن الأخلاق الحيوانية الشهوانية، من النفس الحية بالأخلاق الحميدة الروحانية.

قيل: ووجه[(٢)] تعلق هذه الآية بالتي قبلها: أن الإنسان عند الصباح يخرج من شبه الموت وهو النوم، إلى شبه الوجود وهو اليقظة، وعند العشاء يخرج من اليقظة إلى النوم، فإحياء الميت عنده تعالى، كتنبيه النائم، وإماتة الحي، كتنويم المنتبه.

---

(١) البيضاوي.
(٢) الشوكاني.

﴿وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ﴾ بالمطر والنبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؛ أي: بعد قحلها ويبسها، وهو شبيه بإخراج الحي من الميت ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثل ذلك الإخراج ﴿تُخْرَجُونَ﴾ من قبوركم أحياءً إلى موقف الحساب، فإنه أيضاً يعقب الحياة الموت.

خلاصته: أن الإبداء والإعادة في قدرته سواء، قال مقاتل: يرسل الله يوم القيامة ماء الحياة من السماء السابعة، من البحر المسجور، بين النفختين، فينشر عظام الموتى، وذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ فكما ينبت النبات من الأرض بالمطر، فكذا ينبت الناس من القبور بمطر البحر المسجور كالمني، ويحيون به.

والمعنى: أي وكما سهل حركة النائم الساكن بالانتباه، وإنماء الأرض بإنباتها بعد موتها، يسهل عليه إحياء الميت وإخراجه من قبره لفصل القضاء.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿تخرجون﴾ بالتاء المضمومة مبنياً للمفعول، وقرأ حمزة والكسائي، وابن وثاب، وطلحة، والأعمش: بفتح تاء الخطاب وضم الراء، مبنياً للفاعل، فأسند الخروج إليهم كقوله: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾.

ثم ذكر سبحانه آياته من بدء خلق الإنسان آيةً آيةً إلى حين بعثه من القبر، فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾؛ أي: ومن آياته سبحانه وتعالى، وعلاماته الدالة على بعثكم ﴿أَنْ خَلَقَكُم﴾ يا بني آدم في ضمن خلق آدم، لأنه خلقه منطوياً على خلق ذرياته انطواءً إجمالياً، أو بوساطة خلق غذائكم ﴿مِن تُرَابٍ﴾ لم يشم رائحة الحياة قط، ولا مناسبة بينه ولا بين ما أنتم عليه في ذاتكم وصفاتكم، وإنما خلق الله[2] الإنسان من التراب، ليكون متواضعاً ذلولاً حمولاً مثله، والأرض وحقائقها دائمة في الطمأنينة والإحسان بالوجود، ولذلك لا تزال ساكنةً وساكتةً، لفوزها بوجود مطلوبها، فكانت أعلى مرتبةً، وتحققت في مرتبة العلو في عين السفل، وقامت بالرضي.

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم﴾ يا بني آدم ﴿بَشَرٌ﴾؛ أي: آدميون من لحم ودم، عقلاء ناطقون ﴿تَنتَشِرُونَ﴾ في الأرض، وتتصرفون فيما هو قوام معايشكم، و﴿إِذَآ﴾ فجائية، والانتشار: التصرف في الحاجات.

والمعنى: أي[1] ثم فاجأتم بعد ذلك وقت كونكم بشراً تنتشرون في الأرض، وتتفرقون فيها لطلب معايشكم، فدل بدء خلقكم على إعادتكم، و﴿إِذَآ﴾ الفجائية[2] وإن كانت أكثر ما تقع بعد الفاء، لكنها وقعت هنا بعد ﴿ثُمَّ﴾ بالنظر إلى ما يليق بهذه الحالة الخاصة، وهي أطوار الإنسان، كما حكاه الله سبحانه في مواضع، من كونه نطفةً، ثم علقةً، ثم مضغةً، ثم عظماً مكسواً لحماً، فاجأ البشرية والانتشار.

وهذا مجمل[3] ما فصل في قوله تعالى في أوائل سورة الحج: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾؛ أي: إن كنتم في شك من البعث بعد الموت.. فانظروا إلى ابتداء خلقكم، وقد خلقناكم بالأطوار، لتظهر لكم قدرتنا على البعث، فتؤمنوا به، وأنشد بعضهم:

خُلِقْتُ مِنَ ٱلتُّرَابِ فَصِرْتُ شَخْصاً ... بَصِيْراً بِٱلسُّؤالِ وَبِٱلْجَوَابِ
وَعُدْتُ إِلَىٰ ٱلتُّرَابِ فَصِرْتُ فِيْهِ ... كَأَنِّيْ مَا بَرِحْتُ مِنَ ٱلتُّرَابِ

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ سبحانه وتعالى، الدالة على البعث والجزاء ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُم﴾؛ أي: لأجلكم ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾؛ أي: من جنسكم في البشرية والإنسانية، لا من جنس آخر.

وقيل: المراد: حواء، فإنه خلقها من ضلع آدم، فإن خلق أصل أزواجكم حواء من ضلع آدم، متضمن لخلقهن من أنفسكم ﴿أَزْوَٰجًا﴾؛ أي: إناثاً، والمعنى

---

(1) روح البيان.

(2) الشوكاني.

(3) روح البيان.

الأول هو الأوفق بقوله: ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ﴾ وتميلوا ﴿إِلَيْهَا﴾؛ أي: إلى تلك الأزواج، وتألفوا بها، فإن المجانسة من دواعي التضام، والتعارف التآنس، كما أن المخالفة من أسباب التفرق والتنافر، فإن الجنسين المختلفين لا يسكن أحدهما إلى الآخر، ولا يميل قلبه إليه، وهذه الحكمة في بعث الرسل من جنس بني آدم.

وقد ذهب بعض العلماء من الفقهاء وغيرهم، إلى جواز المناكحة والعلوق بين الجن والإنس، فقد جعل الله سبحانه أزواجاً من غير الجنس.

والجواب: إن ذلك من النوادر، فلا يعتبر، وليس السكون إلى الجنية كالسكون إلى الإنسية، وإن كانت متمثلة في صورة الإنس.

﴿وَجَعَلَ﴾ سبحانه ﴿بَيْنَكُم﴾ وبين أزواجكم من غير أن يكون بينكم سابقة معرفة، أو رابطة قرابة ورحم ﴿مَّوَدَّةً﴾؛ أي: محبة ﴿وَرَحْمَةً﴾؛ أي: شفقة؛ أي: تواددا وتراحماً، بسبب عصمة النكاح، يعطف به بعضكم على بعض، من غير أن يكون بينكم قبل ذلك معرفة، فضلاً عن مودةٍ ورحمةٍ، وقال[1] مجاهد والحسن، وعكرمة: المودة[2] النكاح، والرحمة الولد، كنى بذلك عنهما، وقيل: مودةً للشابة، ورحمةً للعجوز، وقيل: مودة للكبير، ورحمةً للصغير، قاله ابن عباس، وقيل: هما اشتباك الرحم، وقيل: المودة من الرحمٰن، والبغض من الشيطان.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾؛ أي: إن فيما ذكر من خلقهم من تراب، وخلق أزواجهم من أنفسهم، وإلقاء المودة والرحمة بينهم ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ عظيمةً، ودلائل باهرة على عظمة الله سبحانه، وقدرته على البعث والنشور، ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ويتأملون في صنع الله وفعله، فيعلمون ما في ذلك من الحكم والمصالح، لأنهم الذين يقتدرون على الاستدلال، لكون التفكر مادةً له يتحصل عنه، وأما الغافلون عن التفكر فما هم إلا كالأنعام.

قال في «برهان القرآن»: ختم الآية بقوله: ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ لأن الفكر يؤدي إلى الوقوف على المعاني المذكورة، من التوانس والتجانس بين الأشياء، كالزوجين،

---

(١) البحر المحيط. (٢) البحر المحيط.

وقال في «روح البيان»: لعل الوجه في الختم به: أن إدراك ما ذكر، ليس مما يختص بخواص أهل التفكر، وهم العلماء، بل يدركه من له أدنى شيء من التفكر، والتفكر دون التذكر، ولذا لم يذكر التذكر في القرآن، إلا مع أولي الألباب. انتهى.

وحاصل معنى الآيتين[1]: أي ومن حججه الدالة على أنه القادر على ما يشاء، من إنشاء وإفناء وإيجاد وإعدام، أن خلقكم من تراب بتغذيتكم، إما بلحوم الحيوان وألبانها وأسمانها، وإما من النبات، والحيوان غذاؤه النبات، والنبات من التراب، فإن النواة لا تصير شجرة إلا بالتراب الذي ينضم إليه أجزاء مائية، تجعلها صالحة للتغذية، ثم بعد إخراجكم منه إذا أنتم بشر تنتشرون في الأرض، تتصرفون فيها في أغراضكم المختلفة، وأسفاركم البعيدة، تكدحون وتجدون لتحصيل أرزاقكم من فيض ربكم، وواسع نعمه عليكم.

ومن آياته الدالة على البعث والإعادة: أن خلق لكم أزواجاً من جنسكم، لتأنسوا بها، وجعل بينكم المودة، والرحمة، لتدوم الحياة المنزلية على أتمّ نظام، إن فيما ذكر من خلقكم من تراب، وخلق أزواجكم من أنفسكم، وإبقاء المودة والرحمة، لعبرةً لمن تأمل في تضاعيف تلك الأفعال المبنية على الحكم والمصالح، فهي لم تخلق عبثاً، بل خلقت لأغراضٍ شتى، تحتاج إلى الفكر، حتى يصل إلى معرفتها ذوو الذهن والعقل الراجح.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ ودلائل وجوده وبراهين قدرته على البعث والنشور ﴿خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ على عظمهما وكثافتهما، وكثرة أجزائهما بلا مادة، فهو أظهر قدرة على إعادة ما كان حياً قبل ذلك؛ أي: خلقه السماوات المزدانة بالكواكب، والنجوم الثوابت، والسيارة المرتفعة السموك الواسعة الأرجاء وخلق الأرض ذات الجبال والوديان، والبحار والقفار، والحيوان والأشجار، فإن من خلق هذه الأجرام العظيمة، التي هي أجرام السماوات والأرض، وجعلها باقيةً مادامت هذه

---

(١) المراغي.

الدار، وخلق فيها من عجائب الصنع، وغرائب التكوين، ما هو عبرة للمعتبرين، قادر على أن يخلقكم بعد موتكم، وينشركم من قبوركم.

﴿و﴾ من آياته وقدرته ﴿اختلاف ألسنتكم﴾ ولغاتكم اختلافاً لا حد له، من عربية، وفارسية، وفرنسية، وإنجليزية، وهندية، وصينية، وتركية، ورومية، وأورمية، إلى نحو ذلك، مما لا يعلم حصره إلا خالق اللغات، فمن اطلع على لغات رأى من اختلاف تراكيبها أو قوانينها مع اتحاد المدلول، عجائب وغرائب في المفردات والمركبات.

وعن وهب[1]: إن الألسنة اثنان وسبعون لساناً، منها في ولد حامٍ سبعة عشر، وفي ولد سامٍ تسعة عشر، وفي ولد يافثٍ ستة وثلاثون.

وهذا من قديم الزمان، وأما الآن فقد صارت تعد بالمئات، وقيل: المراد باللغات الأصوات والنغم، قال الراغب: اختلاف الألسنة، إشارة إلى اختلاف اللغات، واختلاف النغمات، فإن لكل لسان نغمةً يميزها السمع، كما أن له صورةً مخصوصةً يميزها البصر، انتهى. فلا تكاد تسمع منطقين متساويين في الكيفية من كل وجهٍ، متفقين في همسٍ واحدٍ، ولا جهارةٍ واحدةٍ، ولا رخاوةٍ ولا فصاحةٍ، ولا لكنةٍ، ولا نظمٍ، ولا أسلوبٍ، ولا غير ذلك من صفات النطق وأحواله، قاله الزمخشري.

﴿و﴾ من آياته اختلاف ﴿ألوانكم﴾ وأشكالكم من البياض والسواد والحمرة، والصفرة والزرقة والخضرة والأدمة مع كونكم أولاد رجل واحد وأم واحدة، ويجمعكم نوع واحد، وهو الإنسانية، وفصل واحد، وهو الناطقية، حتى صرتم متميزين في ذات بينكم، لا يلتبس هذا بهذا، بل في كل فرد من أفرادكم ما يميزه عن غيره من الأفراد، ولولا ذلك الاختلاف.. لوقع الالتباس، وتعطلت مصالح كثيرة من المعاملات وغيرها، وفي هذا من بديع القدرة، وعجيب الحكمة، ما لا يعقله إلا العالمون، ولا يفهمه إلا المتفكرون.

---

(١) البحر المحيط.

فاختلاف الألسنة والأشكال، يحصل به التمييز بين الأشخاص في الأصوات والألوان، وهذا مما لا غنى عنه في منازع الحياة، ومختلف أغراضها، فكثيراً ما نميز الأشخاص بالأصوات، وبذا نعرف الصديق من العدو، فنتخذ ما يلزم من العدة لكل منهما، كما نميزها بلغاتها، فنعرف من أي الأجناس هي.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾؛ أي: إن فيما ذكر من خلق السماوات والأرض، واختلاف الألسنة والألوان ﴿لَآيَٰتٍ﴾ عظيمة، ودلائل واضحة، كثيرة عددها ﴿لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ بكسر اللام؛ أي: لأولي العلم، الذين يفكرون فيما خلق الله تعالى، الذين هم من جنس هذا العالم، من غير فرق بين بر وفاجر، فيعلمون أنه لم يخلق الخلق عبثاً، بل خلقه لحكمة بالغة، فيها عبرة لمن تذكر، وخص[1] العلماء، لأنهم أهل النظر والاستدلال، دون الجهال المشغولين بحطام الدنيا وزخارفها، فلما كان الوصول إلى معرفة ما سبق ذكره إنما يمكن بالعلم ختم الآية بالعالمين، ففيه إشارة إلى كمال وضوح الآيات، وعدم خفائها على أحد من الخلق، من ملك وإنس وجن وغيرهم، وقال في «فتح الرحمن»[2]: ختم الآية به، لأن الكل يظلهم السماء، ويقلهم الأرض، وكل منهم متميز بلطيفة يمتاز بها عن غيره، وهذا يشترك فيه جميع العالمين.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿للعالمين﴾ بفتح اللام، لأنها في نفسها آية منصوبة للعالم، وقرأ حفص، وحماد بن شعيب عن أبي بكر، وعلقمة عن عاصم، ويونس عن أبي عمرو بكسر اللام، إذ المنتفع بها، إنما هم أهل العلم، كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ سبحانه؛ أي: ومن أعلام قدرته تعالى، على مجازاة العباد في الآخرة ﴿مَنَامُكُم﴾ مفعل من النوم؛ أي[4]: نومكم الذي هو راحة لأبدانكم، وقطع لأشغالكم، ليدوم لكم به البقاء إلى آجالكم ﴿بِٱلَّيْلِ﴾ كما هو المعتاد،

---

(١) روح البيان.
(٢) فتح الرحمٰن.
(٣) البحر المحيط.
(٤) روح البيان.

﴿وَٱلنَّهَارِ﴾ أيضاً على حسب الحاجة ﴿وَٱبۡتِغَآؤُكُم﴾؛ أي: وطلبكم معاشكم فيهما، ﴿مِّن فَضۡلِهِۦٓ﴾؛ أي: من رزقه، فإن كلاً من المنام، وطلب القوت، يقع في الليل والنهار، وإن كان الأغلب وقوع المنام في الليل، والطلب في النهار.

والمعنى عليه: ومن آياته العظيمة: أنكم تنامون في الليل، وتنامون بالنهار في بعض الأحوال للاستراحة، كوقت القيلولة، وخصوصاً من كان مشتغلاً في حوائجه في الليل، وابتغاؤكم من فضله فيهما، لأن بعض الناس قد يبتغي الفعل في الليل، كالمسافرين والحراس في الليل وغيرهم، وهذا المعنى هو المناسب للنظم القرآني هاهنا، وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: أي ومن أياته منامكم بالليل، وابتغاؤكم من فضله في النهار، وهذا المعنى هو المناسب لسائر الآيات الواردة في هذا المعنى.

قال الزمخشري: والظاهر هو الأول، لتكرره في القرآن، وأسد المعاني ما دل عليه القرآن. انتهى.

وجعلهما[1] من جملة الأدلة على البعث، أن النوم شبيه بالموت، والتصرف في الحاجات، والسعي في المكاسب شبيه بالحياة بعد الموت.

وقدم[2] الليل على النهار، لأن الليل لخدمة المولى، والنهار لخدمة الخلق، ومعارج الأنبياء ـ عليهم السلام ـ كانت بالليل، ولذا قال الإمام النيسابوري: الليل أفضل من النهار، وقال بعضهم: الليل محل السكون، وهو الأصل، والنهار محل الحركة، وهو الفرع، وقال بعض الكبار: لم يقل تعالى: وبالنهار، ليتحقق لنا أن يريد أننا في منام في حال يقظتنا المعتادة؛ أي: أنتم في منام ما دمتم في هذه الدار، يقظةً ومناماً بالنسبة لما أمامكم، فهذا سبب عدم ذكر الباء في قوله: ﴿وَٱلنَّهَارِ﴾، والاكتفاء بباء الليل. انتهى.

يعني لو قيل: وبالنهار.. كان لا يتعين فيه ذلك، لجواز أن يكون الجار والمجرور معمولاً لمحذوف معطوف على المبتدأ، تقديره: ويقظتكم بالنهار، ثم

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

حذف لدلالة معمولة، أو مقابله عليه، كقوله:

عَـلَـفْـتُـهَـا تِـبْـنـاً وَمَـاءً بَـارِدَا

أي: وسقيتها ماء بارداً.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور، من إيجاد النوم بعد النشاط، والنشاط بعد النوم، الذي هو الموت الأصغر، وإيجاد كل من الملوين بعد إعدامهما، والجد في الابتغاء، مع المفارقة في التحصيل ﴿لَآيَٰتٍ﴾ عديدةً على القدرة والحكم، لاسيما البعث ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ الآيات والمواعظ، سماع متفكر متدبر، فيستدلون بذلك على البعث؛ أي: شأنهم أن يسمعوا الكلام من الناصحين، سماع من انتبه من نومه، فجسمه مستريح نشيط، وقلبه فارغ عن مكدرٍ للنصح، مانع عن قبوله، وفيه إشارة إلى أن من لم يتأمل في هذه الآيات.. فهو نائم، لا مستيقظ، فهو غير مستأهل لأن يسمع.

قال في «برهان القرآن»: ختم الآية بقوله: ﴿يَسْمَعُونَ﴾ لأن من سمع أن النوم من صنع الله الحكيم، لا يقدر أحد على اجتلابه إذا امتنع، ولا على دفعه إذا ورد.. تيقن أن له صانعاً مدبراً.

قال الخطيب: معنى يسمعون هنا: يستجيبون لما يدعوهم إليه الكتاب.

واعلم[1]: أن النوم فضل من الله سبحانه للعباد، ولكن للعباد أن لا يناموا إلا عند الضرورة، وبقدر دفع الفتور المانع من العبادة، ومن آداب النوم: أن ينام على الوضوء، وإذا استطاع الإنسان أن يكون على الطهارة أبداً فليفعل، لأن الموت على الوضوء شهادة، ويستحب أن يضطجع على يمينه، مستقبلاً للقبلة عند أول اضطجاعه، فإن بدا له أن ينقلب إلى جانبه الآخر.. فعل، ويقول حين يضطجع: بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء،وهو السميع العليم، وكان ـ عليه السلام ـ يقول: «باسمك ربي وضعت جنبي وبك

---

(١) روح البيان.

أرفعه، إن أمسكت نفسي.. فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها». ويقول عندما يقوم من نومه: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا، ورد إلينا أرواحنا، وإليه البعث والنشور».

الإعراب

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾﴾.

﴿الٓمٓ ﴿١﴾﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هذا الٓم، إن قلنا: إنه علم للسورة، والجملة مستأنفة، وتقدم البسط في إعرابها مراراً، فراجعه، ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة مستأنفة، ﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿غُلِبَتِ﴾. ﴿وَهُم﴾﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿هم﴾: مبتدأ، ﴿مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿سَيَغۡلِبُونَ﴾، و﴿غَلَبِهِمۡ﴾: مصدر مضاف إلى مفعوله؛ أي: من بعد مغلوبيتهم، وجملة ﴿سَيَغۡلِبُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: معطوفة على الجملة الفعلية، ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿سَيَغۡلِبُونَ﴾. ﴿لِلَّهِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم. ﴿ٱلۡأَمۡرُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة: مستأنفة، كأنه جواب لسؤال مقدر، وهو أي فائدة في ذكر قوله: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ﴾ لأن قوله: ﴿سَيَغۡلِبُونَ﴾ لا يكون إلا بعد الغلبة؟ فأجيب بأن فائدته إظهار تمام القدرة، وبيان أن ذلك بأمر الله تعالى وحده. ﴿مِن قَبۡلُ﴾: دار ومجرور حال من الضمير المستكن في متعلق الخبر، ﴿وَمِنۢ بَعۡدُۚ﴾ معطوف على ﴿مِن قَبۡلُ﴾. وهما ظرفان، بنيا على الضم، لقطعهما عن الإضافة لفظاً، لا معنىً، ثم جرا بمن، وبقيا على ضمهما؛ أي: من قبل غلب الروم ومن بعده، ﴿وَيَوۡمَئِذٖ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿يومئذٍ﴾: ظرف مضاف إلى مثله متعلق بـ﴿يَفۡرَحُ﴾. ﴿يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة.

﴿بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ

﴿غَٰفِلُونَ ۝٧﴾.

﴿بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿يَفۡرَحُ﴾ أيضاً. ﴿يَنصُرُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به، والجملة: مستأنفة. ﴿يَشَآءُۖ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿مَن﴾، والجملة: صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: من يشاء نصره. ﴿وَهُوَ﴾: مبتدأ، ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾: خبر أول، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: خبر ثان، والجملة: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ﴾: مصدر نائب مناب فعله، منصوب بفعله المحذوف، تقديره: وعدهم الله النصر وعداً، والجملة المحذوفة: مستأنفة مسوقة لتأكيد مضمون الجملة التي قبلها، وهي قوله: ﴿سَيَغۡلِبُونَ﴾، و﴿يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾، ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يُخۡلِفُ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، ﴿وَعۡدَهُۥ﴾: مفعول به، والجملة: إما مفسرة مقررة لمعنى المصدر، فلا محل لها من الإعراب، أو حال من المصدر؛ أي: حالة كونه غير مخلف، كما في «الكرخي»، ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ ﴿الواو﴾: حالية، أو استئنافية، ﴿لكن﴾: حرف نصب واستدراك. ﴿أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾: اسمها، وجملة ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾: خبرها، وجملة ﴿لكن﴾ في محل النصب حال من ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ﴾، والرابط محذوف، تقديره: حالة كون أكثر الناس لا يعلمونه، أو مستأنفة. ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة: مستأنفة، ﴿مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿ظَٰهِرٗا﴾، ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾: صفة لـ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ﴾، ﴿وَهُمۡ﴾: مبتدأ، ﴿عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾: متعلق بـ﴿غَٰفِلُونَ﴾، ﴿هُمۡ﴾ تأكيد لـ﴿هُمۡ﴾ الأول، ﴿غَٰفِلُونَ﴾: خبر لـ﴿هُمۡ﴾ الأول، والجملة الاسمية: في محل النصب حال من فاعل ﴿يَعۡلَمُونَ﴾.

﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ۝٨﴾.

﴿أَوَلَمۡ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، و﴿الواو﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أقصر كفار مكة نظرهم على ظاهر الحياة الدنيا، ولم يتفكروا في أنفسهم، والجملة المحذوفة: مستأنفة، ﴿لم

يتفكروا﴾: جازم وفعل وفاعل مجزون بـ﴿لم﴾، والجملة: معطوفة على تلك المحذوفة، ﴿فِىٓ أَنفُسِهِم﴾ متعلق بـ﴿يَتَفَكَّرُواْ﴾. ﴿مَّا﴾: نافية. ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول، ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، والجملة: مستأنفة، لا تعلق لها بما قبلها، أو معلقة للتفكر، فتكون في محل نصب بإسقاط الخافض، كما في «الجمل». ﴿وَمَا﴾: اسم موصول في محل النصب معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. ﴿بَيْنَهُمَآ﴾: ظرف ومضاف إليه صلة لـ﴿مَّا﴾ الموصولة، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿خَلَقَ﴾، أو حال من الجلالة، ﴿وَأَجَلٍ﴾: معطوف على ﴿الحق﴾، ﴿مُّسَمًّى﴾ صفة لـ﴿أجلٍ﴾. ﴿وَإِنَّ﴾ ﴿الواو﴾: حالية، ﴿إن﴾: حرف نصب، ﴿كَثِيرًا﴾ اسمها، ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ صفة لـ﴿كَثِيرًا﴾. ﴿بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿كافرون﴾، و﴿اللام﴾: لا تمنع ذلك، لأنها وقعت في غير موضعها، وهو خبر ﴿إن﴾. ﴿لَكَٰفِرُونَ﴾ ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿كافرون﴾ خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾: في محل النصب حال من فاعل ﴿يَتَفَكَّرُواْ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف دل عليه السياق، ﴿الواو﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أقعد هؤلاء المشركون من أهل مكة في أماكنهم، ولم يسيروا في الأرض، والجملة المحذوفة: مستأنفة، ﴿لم﴾: حرف جزم، ﴿يَسِيرُواْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لم﴾. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق به، والجملة: معطوفة على تلك المحذوفة، ﴿فَيَنظُرُواْ﴾: فعل وفاعل معطوفة على ﴿يَسِيرُواْ﴾. ﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾: مقدم عليها للزومه الصدارة. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، ﴿عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ﴾: اسمها ومضاف إليه، وجملة: ﴿كَانَ﴾ في محل النصب مفعول ﴿ينظروا﴾ معلق عنها باسم الاستفهام، ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾: جار ومجرور صلة الموصول. ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ﴾:

فعل ناقص واسمه وخبره. ﴿مِنْهُمْ﴾: متعلق بـ﴿أَشَدَّ﴾، ﴿قُوَّةً﴾: تمييز محول عن المبتدأ، الذي كان اسم ﴿كان﴾: منصوب باسم التفضيل، وجملة ﴿كان﴾: جملة تفسيرية لما قبلها، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَأَثَارُوا الْأَرْضَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿كَانُوا﴾، ﴿وَعَمَرُوهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿كَانُوا﴾، ﴿أَكْثَرَ﴾: صفة لمصدر محذوف، تقديره: عمارة أكثر، ﴿مِمَّا﴾ ﴿من﴾: حرف جر، ﴿ما﴾: مصدرية، ﴿عَمَرُوهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة: صلة ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿ما﴾ مع صلتها في تأويل مصدر مجرور بـ﴿من﴾، والجار والمجرور: متعلق بـ﴿أَكْثَرَ﴾، والتقدير: عمارة أكثر من عمارتهم. ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ﴾: فعل ومفعول به، وفاعل معطوف على ﴿كَانُوا﴾. ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾: متعلق بـ﴿جاءتهم﴾. ﴿فَمَا كَانَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف، تقديره: فكذبوهم فأهلكهم الله، والجملة المحذوفة: معطوفة على ﴿جاءتهم﴾، ﴿ما﴾: نافية، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، ﴿اللَّهُ﴾ اسمها، ﴿لِيَظْلِمَهُمْ﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر وجحود، ﴿يظلمهم﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر، ومفعول به، منصوب بأن مضمرة بعد لام الجحود، والجملة الفعلية، مع أن المضمرة: في تأويل مصدر مجرور باللام، والجار والمجرور: متعلق بمحذوف خبر ﴿كَانَ﴾ على مذهب البصريين، والتقدير: فما كان الله مريداً لظلمهم، وجملة ﴿كَانَ﴾ معطوفة على تلك المحذوفة. ﴿وَلَكِن﴾ ﴿الواو﴾: حالية، ﴿لكن﴾: حرف استدراك، ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه ﴿أَنفُسَهُمْ﴾: مفعول مقدم لـ﴿يَظْلِمُونَ﴾ وجملة ﴿يَظْلِمُونَ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾، والتقدير: ولكن كانوا ظالمين أنفسهم، والجملة الاستدراكية في محل النصب حال من مفعول ﴿يظلمهم﴾.

﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ (١٠)﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، ﴿عَاقِبَةَ الَّذِينَ﴾: خبرها مقدم ومضاف إليه، ﴿أَسَاءُوا﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، ﴿السُّوأَى﴾: اسم ﴿كَانَ﴾ مؤخراً، أي: ثم كانت ﴿السُّوأَى﴾؛ أي: جهنم، عاقبةَ الذين

أساؤوا، وجملة ﴿كَانَ﴾: معطوفة على الجملة المحذوفة، والتقدير: فأهلكهم الله في الدنيا، ثم كانت ﴿السُّوٓأَىٰٓ﴾ عاقبتهم في الآخرة. ﴿أَن﴾: حرف مصدر، ﴿كَذَّبُوا۟﴾: فعل وفاعل في محل النصب بـ﴿أَن﴾ المصدرية، ﴿بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾: متعلق به، والجملة في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل، تقديره: ثم كانت السوأى: عاقبتهم، لتكذيبهم بآيات الله تعالى، ﴿وَكَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿بِهَا﴾: متعلق بما بعده، وجملة ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾: خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانُوا۟﴾: معطوفة على جملة ﴿كَذَّبُوا۟﴾؛ أي: لتكذيبهم بآيات الله، واستهزائهم بها، وفي المقام أوجه كثيرة من الإعراب، قد تركتها خوفاً من الإطالة.

﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾: خبره، والجملة: مستأنفة، ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ معطوفة على ﴿يَبْدَؤُا۟﴾، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب، ﴿إِلَيْهِ﴾: متعلق، بـ﴿تُرْجَعُونَ﴾، ﴿تُرْجَعُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة: في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿يُعِيدُهُۥ﴾ على كونها خبر المبتدأ، ولكنها خبر سببي، ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، والظرف: متعلق بـ﴿يُبْلِسُ﴾، وجملة ﴿تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يوم﴾، ﴿يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة. ﴿وَلَمْ يَكُن﴾: فعل مضارع ناقص مجزوم بـ﴿لم﴾، ﴿لَّهُم﴾: خبر مقدم لها، ﴿مِّن شُرَكَآئِهِمْ﴾ حال من ﴿شُفَعَـٰٓؤُا۟﴾، لأنه صفة نكرة قدمت عليها، ﴿شُفَعَـٰٓؤُا۟﴾: اسم ﴿يَكُن﴾ مؤخر، وجملة ﴿يَكُن﴾: معطوفة على جملة ﴿يُبْلِسُ﴾، ﴿وَكَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿بِشُرَكَآئِهِمْ﴾: متعلق بـ﴿كَـٰفِرِينَ﴾، ﴿كَـٰفِرِينَ﴾: خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾: معطوفة على جملة ﴿يُبْلِسُ﴾ أيضاً، لأنه في تأويل: ويكونون كافرين بشركائهم، كما سبق في مبحث التفسير، ﴿وَيَوْمَ﴾: منصوب على الظرفية متعلق بـ﴿يَتَفَرَّقُونَ﴾، وجملة ﴿تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾: مضاف إليه للظرف، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: ظرف مضاف لمثله، تأكيد لفظي للظرف قبله، وجملة

﴿يَتَفَرَّقُونَ﴾: مستأنفة.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿فَأَمَّا﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت أنهم يتفرقون يوم القيامة، وأردت بيان مأوى كل فريق، فأقول لك، ﴿أما﴾: حرف شرط وتفصيل، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ، ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿ءَامَنُوا۟﴾، ﴿فَهُمْ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿أما﴾ واقعة في غير موضعها، لأن موضعها موضع ﴿أما﴾، ﴿هم﴾: مبتدأ، ﴿فِى رَوْضَةٍ﴾: متعلق بـ﴿يُحْبَرُونَ﴾ من الفعل المغير، ونائبه: خبر المبتدأ الثاني، والجملة من المبتدأ الثاني، وخبره: خبر للأول، وجملة الأول، مع خبره جواب ﴿أما﴾، وجملة ﴿أما﴾ من فعل شرطها، وجوابها: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة: مستأنفة. ﴿وَأَمَّا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿أما﴾: حرف شرط، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ، ﴿كَفَرُوا۟﴾: صلته ﴿وَكَذَّبُوا۟﴾: معطوف على ﴿كَفَرُوا۟﴾. ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾: متعلق بـ﴿كذبوا﴾، ﴿وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾: معطوف على ﴿آياتنا﴾. ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿أما﴾، ﴿أولئك﴾: مبتدأ ثان، ﴿فِى ٱلْعَذَابِ﴾: متعلق بـ﴿مُحْضَرُونَ﴾. ﴿مُحْضَرُونَ﴾: خبر للمبتدأ الثاني، وجملة الثاني وخبره خبر للأول، وجملة الأول مع خبره: جواب ﴿أما﴾، وجملة ﴿أما﴾ في محل النصب معطوفة على جملة ﴿أما﴾ الأولى.

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم ما ذكرته لكم، من تفرق الناس يوم القيامة فرقتين: فريق في الجنة، وفريق في السعير، وأردتم أن تكونوا من أهل الجنة، فأقول لكم

سبحوا الله سبحاناً، ﴿سبحان الله﴾: منصوب على المفعولية المطلقة بفعل محذوف وجوباً، تقديره: سبحوا الله سبحاناً، والجملة المحذوفة: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة: مستأنفة، ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾: ظرف متعلق بـ﴿سبحان﴾، وجملة ﴿تُمْسُونَ﴾: مضاف إليه لـ﴿حِينَ﴾، ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾: ظرف ومضاف إليه معطوف على ﴿حين تمسون﴾. ﴿وَلَهُ﴾ ﴿الواو﴾: اعتراضية، ﴿له﴾: خبر مقدم، ﴿ٱلْحَمْدُ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: متعلق بـ﴿ٱلْحَمْدُ﴾، كما في «الشوكاني»، ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، والجملة الاسمية: جملة معترضة، لا محل لها من الإعراب، لاعتراضها بين المعطوف والمعطوف عليه، ﴿وَعَشِيًّا﴾: ظرف معطوف على ﴿حِينَ﴾، ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾: ظرف ومضاف إليه معطوف على ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾. ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على الله ومفعول به، والجملة مستأنفة، أو حال من الجلالة في قوله: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾، ﴿مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾: متعلق بـ﴿يُخْرِجُ﴾، و﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾: معطوف على جملة ﴿يُخْرِجُ﴾ الأول. ﴿وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به معطوف على ﴿يُخْرِجُ﴾ أيضاً: ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بـ﴿يُحْىِ﴾. ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿كذلك﴾: صفة لمصدر محذوف، ﴿تُخْرَجُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، والتقدير: وتخرجون من قبوركم إخراجاً مثل ذلك الإخراج، والجملة الفعلية: مستأنفة.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَمِنْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿من آياته﴾: خبر مقدم، ﴿أَنْ﴾: حرف نصب ومصدر ﴿أَنْ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر ومفعول به، في محل النصب بـ﴿أَنْ﴾ ﴿خَلَقَكُم﴾ المصدرية، ﴿مِّن تُرَابٍ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية، في تأويل مصدر مرفوع على الابتدائية، والتقدير: وخلقكم من تراب من آياته، والجملة مستأنفة، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ. ﴿إِذَآ﴾: فجائية ﴿أَنتُم﴾: مبتدأ،

﴿بَشَرٌ﴾: خبره، وجملة ﴿تَنتَشِرُونَ﴾: صفة لـ﴿بَشَرٌ﴾: أو حال منه، والجملة الاسمية: معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾: خبر مقدم والمصدر المؤول من ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُم﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية معطوفة على سابقتها، ﴿أَنْ خَلَقَ﴾ معطوفة على ما سبق ﴿لَكُم﴾: متعلق بـ﴿خَلَقَ﴾. ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾: جار ومجرور حال من أزواجاً، لأنه صفة نكرة قدمت عليها، ﴿أَزْوَٰجًا﴾: مفعول ﴿خلَقَ﴾، ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿تسكنوا﴾: فعل وفاعل منصوب بـ﴿أن﴾ مضمرة بعد لام كي، ﴿إِلَيْهَا﴾: متعلق به، والجملة الفعلية: في تأويل مصدر مجرور بـ﴿اللام﴾؛ أي: لسكونكم إليها، الجار والمجرور: متعلق بـ﴿خلَقَ﴾. ﴿وَجَعَلَ﴾ معطوف على ﴿خَلَقَ﴾ ﴿بَيْنَكُم﴾: ظرف في محل المفعول الثاني لـ﴿جَعَلَ﴾. ﴿مَّوَدَّةً﴾: هو المفعول الأول، ﴿وَرَحْمَةً﴾ معطوف على ﴿مَّوَدَّةً﴾. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، ﴿فِى ذَٰلِكَ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾: مقدم على اسمها، ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿آيات﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخر، ﴿لِّقَوْمٍ﴾: صفة ﴿لَءَايَٰتٍ﴾، وجملة ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ صفة ﴿لِّقَوْمٍ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة مسوقة لتقرير ما قبلها.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾: خبر مقدم، ﴿خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، والجملة: معطوفة على سابقتها أيضاً، ﴿وَٱخْتِلَٰفُ﴾: معطوف على ﴿خَلْقُ﴾، ﴿أَلْسِنَتِكُمْ﴾ مضاف إليه، ﴿وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾: معطوف على ﴿أَلْسِنَتِكُمْ﴾. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿فِى ذَٰلِكَ﴾: خبرها مقدم، ﴿لَءَايَٰتٍ﴾: اسمها مؤخر، و﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ صفة ﴿لَءَايَٰتٍ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾: خبر مقدم. ﴿مَنَامُكُم﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة: معطوفة على سابقتها، ﴿بِٱلَّيْلِ﴾: متعلق بـ﴿مَنَامُكُم﴾ لأنه مصدر ميمي لـ﴿نام﴾، ﴿وَٱلنَّهَارِ﴾: معطوف على ﴿الليل﴾، ﴿وَٱبْتِغَآؤُكُم﴾: معطوف على ﴿مَنَامُكُم﴾. ﴿مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾: متعلق بـ﴿ابتغاؤكم﴾، ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿فِى ذَٰلِكَ﴾: خبرها مقدم،

﴿لَآيَٰتٍ﴾: اسمها مؤخر، ﴿لِّقَوْمٍ﴾ صفة ﴿لَآيَٰتٍ﴾، وجملة ﴿يَسْمَعُونَ﴾ صفة ﴿لِّقَوْمٍ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢﴾ الغلبة: القهر، كما في «المفردات»، والاستعلاء على القرن بما يبطل مقاومته في الحرب، كما في «كشف الأسرار»، والروم: تارة يطلق على الصنف المعروف، وتارة تطلق على جمع رومي، كفارسي وفرس، وهم بنو روم بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم ـ عليهم السلام ـ والروم الأول: منهم بنو روم بن يونان بن يافث بن نوح ـ عليه السلام ـ، والفرس: بنو فارس بن سام بن نوح ـ عليه السلام ـ كما مر.

﴿فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾ وأدنى: ألفه منقلبة عن واو، لأنه من دنا يدنو، وهو يتصرف على وجوه: فتارةً يعبر عن الأقل والأصغر، فيقابل بالأكثر والأكبر، وتارةً عن الأحقر والأذل، فيقابل بالأعلى والأفضل، وتارةً عن الأول، فيقابل بالآخر، وتارةً عن الأقرب، فيقابل بالأبعد، وهو المراد في هذا المقام؛ أي: أقرب أرض العرب من الروم، إذ هي الأرض المعهودة عندهم، وهي أطراف الشام، أو في أقرب أرض الروم من العرب، على أن اللام عوض عن المضاف إليه، وهي أرض جزيرة ما بين دجلة والفرات، انتهى من «الروح».

وليس المراد بها جزيرة العرب، وروى عن الأصمعي: أن حد جزيرة العرب، من أقصى عدن إلى ريف العراق، طولاً، ومن جدة وما والاها، إلى أطراف الشام عرضاً، وسبب تسميتها جزيرةً إحاطة البحار والأنهار العظيمة بها، كبحر الحبشة، وبحر فارس، ودجلة، والفرات ا هـ. «زاده»، وقال ابن جزي في «تفسيره»: الجزيرة هنا: بين الشام والعراق، وهي أول الروم إلى فارس، وفي «الخازن» في أدنى الأرض، يعني: أقرب أرض الشام إلى فارس، وقيل: هي أذرعات، وقيل: الأردن، وقيل: الجزيرة ا هـ.

﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ وفي «القاموس» البضع ما بين الثلاث إلى التسع، وفي

«كشف الأسرار» البضع اسم للثلاث والخمس والسبع والتسع، وفي «تفسير المناسبات»: وذلك من أدنى العدد، لأنه في المرتبة الأولى، وهي مرتبة الآحاد.

وقال المبرد: البضع ما بين العقدين في جمع الأعداد، وعبر بالبضع، وأبهم ولم يعين، وإن كان معلوماً له ـ ﷺ ـ إبقاءً للعباد في ربقة الجهل، تعجيزاً لهم أو لإدخال الرعب والخوف عليهم في كل وقت، كما يؤخذ ذلك من «الرازي».

والبضع بالفتح: قطع اللحم، وبالكسر: العدد المنقطع عن العشرة، ويقال: ذلك لما بين الثلاث إلى العشر، وقيل: بل: هو فوق الخمس دون العشر اهـ. «روح».

قال الراغب: الفرح: انشراح الصدر بلذة عاجلة، وأكثر ما يكون ذلك في اللذات البدنية الدنيوية، ولم يرخص في الفرح إلا في قوله: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ وقوله: ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾.

وفي «كشف الأسرار»: اليوم ترح، وغداً فرح، اليوم عبرة، وغداً خبرة، اليوم أسف، وغدا لطف، اليوم بكاء، وغداً لقاء اهـ.

﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ﴾ والتفكر: تصرف القلب في معاني الأشياء، لدرك المطلوب، وهو، قبل أن يتصفى اللب، والتذكر بعده، ولذا لم يذكر في كتاب الله تعالى مع اللب إلا: التذكر، قال بعض الأدباء: الفكر مقلوب الفرك، ولكن يستعمل الفكر في المعاني، وهو فرك الأمور وبحثها، طلباً للوصول إلى حقيقتها.

﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ والسير: المضي في الأرض.

﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾ والعاقبة: إذا أطلقت تستعمل في الثواب، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ وبالإضافة قد تستعمل في العقوبة، كما في هذه الآية، وهي آخر الأمر.

﴿وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ﴾ يقال: ثار الغبار والسحاب، انتشر ساطعاً، وقد أثرته، فالإثارة: تحريك الشيء حتى يرتفع غباره، والثور: اسم البقر الذي يثار به

الأرض، فكأنه في الأصل: مصدر جعل في موضع الفاعل، والبقر: من بقر: إذا شق، لأنها تشق بالأرض بالحراثة، ومنه قيل لمحمد بن الحسين بن علي: الباقر، لأنه شق العلم ودخل فيه مدخلاً بليغاً، والمعنى: وقلبوا الأرض للزراعة والحراثة واستنباط المياه، واستخراج المعادن، كما سبق ا هـ. من «الروح».

﴿وَعَمَرُوهَآ﴾ والعمارة: ضد الخراب؛ أي: عمروا الأرض، بفنون العمارات من الزراعة، والغرس، والبناء وغيرها.

﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾: تأنيث الأسوأ، كالحسنى تأنيث الأحسن، أو مصدر كالبشرى، وصف به العقوبة مبالغةً، كأنها نفس السوأى، وقيل: السوأى، أي: اسم لجهنم، كما أن الحسنى اسم للجنة، وإنما سميت سوأى، لأنها تسوء صاحبها، كما سبق.

قال الراغب: السوء: كل ما يغم الإنسان من الأمور الدنيوية والأخروية، ومن الأحوال النفسية والبدنية والخارجية من فوات مال، وفقد حميم، وعبر بـ﴿السوأى﴾ عن كل ما يقبح، ولذلك قوبل بالحسنى، قال: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ كما قال: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ انتهى.

﴿يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ قال الراغب: الإبلاس: الحزن المعترض من شدة اليأس.. ومنه اشتق إبليس، ولما كان المبلس كثيراً ما يلزم السكوت، وينسى ما يعينه، قيل: أبلس فلان، إذا سكت وانقطعت حجته ا هـ.

ويقال: أبلس فلان، فهو مبلس: إذا سكت عن يأس، ويقال: أبلس الرجل: انقطعت حجته فسكت، فهو لازم، لا يتعدى.

وفي «الكشاف»: الإبلاس: أن يبقى ساكناً يائساً متحيراً، يقال: ناظرته فأبلس: إذا لم ينبس ويئس من أن يحتج، ومنه الناقة المبلاس: التي لا ترغو.

وفي «القاموس»: وأبلس: يئس وتحير، ومنه إبليس، أو هو أعجمي، فقول صاحب «المنجد»: إنه يقال: أبلسه غلط فظيع، وقد علل علماء التصريف قراءة ﴿يُبْلَسُ﴾ بالبناء للمفعول، بأن القائم مقام الفاعل مصدر الفعل، ثم حذف

المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، إذ الأصل يبلس إبلاس المجرمين.

﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ﴾ والروضة: كل أرض ذات نبات وماء ورونق ونضارة، والمراد بها الجنة، وفي أمثالهم: أحسن من بيضة في روضة، يريدون بيضة النعامة.

وفي «الأساس» و«اللسان»: بأرضه روضة وروضات ورياض، وروض الغيث الأرض، وأراض المكان واستراض؛ أي: كثرت رياضه. ا هـ.

قال الراغب: الروض: مستنقع الماء والخضرة، وقوله: ﴿فِي رَوْضَةٍ﴾ عبارة عن رياض الجنة، وهي: محاسنها وملاذها انتهى.

﴿يُحْبَرُونَ﴾؛ أي: يسرون سروراً، تهللت له وجوههم، وفي «المفردات»: يفرحون حتى يظهر عليهم حبار نعيمهم؛ أي: أثره، يقال: حبره: إذا سره سروراً تهلل له وجهه، ويقال: حبر فلان، إذا بقي بجلده أثر من فرح، والحبر: العالم، لما يبقى من أثر علومه في قلوب الناس، ومن آثار أفعاله الحسنة المقتدى بها، وإلى هذا المعنى، أشار أمير المؤمنين علي ـ رضي الله عنه ـ بقوله: والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وآثارهم في القلوب موجودة، ويقال: التحبير: التحسين الذي يسر به، يقال لعالم: حبر، لأنه يتخلق بالأخلاق الحسنة، وللمداد: حبر، لأنه يحسن به الأوراق، فيكون الحبرة كل نعمة حسنة ا هـ. من «الروح».

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾ والسبح: هو المر السريع في الماء أو الهواء، والتسبيح: تنزيه الله، وأصله: المر السريع في عبادة الله، جعل عاماً في العبادات، قولاً كان أو فعلاً أو نيةً، والسبوح والقدوس: من أسماء الله تعالى، وليس في كلامهم فعول سواهما، وسبحان هنا: مصدر كغفران، موضوع موضع الأمر، مثل ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾. والتسبيح: محمول على حقيقته، وظاهره الذي هو تنزيه الله تعالى عن السوء، والثناء عليه بالخير، والحين: بالكسر وقت مبهم يصلح لجميع الأزمان، طال أو قصر، يتخصص بالمضاف إليه، كما في هذا المقام.

والإمساء: الدخول في المساء، كما أن الإصباح: الدخول في الصباح، والمساء والصباح: ضدان، قال بعضهم: أول اليوم: الفجر، ثم الصباح، ثم الغداة، ثم البكرة، ثم الضحى، ثم الضحوة، ثم الهجير، ثم الظهر، ثم الرواح، ثم المساء، ثم العصر، ثم الأصيل، ثم العشاء الأولى، ثم العشاء الأخيرة عند مغيب الشفق.

﴿وَعَشِيًّا﴾: من عشى العين: إذا نقص نورها، ومنه الأعشى.

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم﴾ والخلق: عبارة عن تركيب الأجزاء، وتسوية الأجسام.

﴿مِّن تُرَابٍ﴾ والتراب: جماد لا حس فيه، ولا حركة.

﴿بَشَرٌ﴾ قال في «المفردات»: البشرة ظاهر الجلد، وعبر عن الإنسان بالبشر، اعتباراً بظهور جلده من الشعر، بخلاف الحيوانات التي عليها الصوف، أو الشعر، أو الوبر، واستوى في لفظ البشر الواحد والجمع، وخص في القرآن كل موضع اعتبر من الإنسان جثته، وظاهره بلفظ البشر.

﴿تَنتَشِرُونَ﴾ قال الراغب: انتشار الناس تصرفهم في الحاجات ا هـ.

﴿أَزْوَٰجًا﴾ والأزواج: جمع زوج وهو: الفرد المزاوج لصاحبه، وكل واحد من القرينين من الذكر والأنثى، وزوجةً لغةً رديئةً، وجمعها زوجات، كما في «المفردات».

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿غُلِبَتِ﴾، ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾.

ومنها: الطباق بين ﴿قَبْلُ﴾ و﴿بَعْدُ﴾.

ومنها: الإبهام في قوله: ﴿فِى بِضْعِ سِنِينَ﴾ للتفخيم، ولإدخال الرعب في

قلوب المشركين في كل وقت، وللتعجيز لهم بإبقائهم في ربقة الجهل.

ومنها: طباق السلب في قوله: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾، ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾.

ومنها: تنكير ﴿ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ﴾ للتحقير والتخسيس؛ أي: يعلمون ظاهراً حقيراً خسيساً من الدنيا، وفائدته: تقليل معلومهم، وتقليله يقربه من النفي، حتى يطابق المبدل منه، وهو وقوله: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾، وهذا ما يرجح البدلية.

ومنها: صيغة المبالغة في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ أي: المبالغ في العزة والمبالغ في الرحمة.

ومنها: التعطف في قوله: ﴿وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ والتعطف: إعادة اللفظة بعينها في الجملة من الكلام، أو البيت من الشعر، فقد وردهم للمبالغة في تأكيد غفلتهم عن الآخرة، حتى كأنهم معدن للغفلة، وفيه إفادة الحصر بتكرير الضمير، وفيه الإيتان بالجملة الاسمية، للدلالة على استمرار غفلتهم ودوامها.

ومنها: الاستفهام الإنكاري التوبيخي في قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ﴾ الآية.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾.

ومنها: إيراد الاستهزاء في قوله: ﴿وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ بصيغة المضارع، للدلالة على استمراره وتجدده.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ وفي قوله: ﴿تُمۡسُونَ﴾ و﴿تُصۡبِحُونَ﴾.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ للمبالغة في الترهيب.

ومنها: الإتيان بلفظ ماضي المعنى في قوله: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ﴾ وماضي اللفظ والمعنى في قوله: ﴿وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ﴾ إشارةً إلى تحققه في علم الله تعالى.

ومنها: الإتيان بصيغة الجمع في قوله: ﴿شُفَعَٰٓؤُاْ﴾ لوقوعها في مقابلة الجمع، مع أن المعنى لم يكن لكل واحد منهم شفيع أصلاً.

ومنها: إعادة قوله: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ إفادةً لتهويله، وتفظيع ما يقع فيه، وفي قوله: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ﴾ تهويل له إثر تهويل.

ومنها: المقابلة بين حال السعداء والأشقياء في قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ١٥ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ١٦﴾

ومنها: التنوين للتعظيم في قوله: ﴿فِي رَوۡضَةٖ﴾؛ أي: في روضة عظيمة.

ومنها: الاستعارة اللطيفة في قوله: ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ﴾ استعار الحي للمؤمن والميت للكافر، وهي استعارة في غاية الحسن والإبداع والجمال.

ومنها: اللف والنشر في قوله: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓ﴾ وترتيبه ومن آياته منامكم وابتغاؤكم من فضله بالليل والنهار، إلا أنه فصل بين القرينين الأولين، بالقرينين الأخيرين، لأنهما زمانان، والزمان والواقع فيه، كشيءٍ واحدٍ، مع إعانة اللف على الاتحاد، ويجوز أن يراد: منامكم في الزمانين، وابتغاؤكم فيهما، والظاهر: هو الأول لتكرره في القرآن وأسد المعاني ما دل عليه القرآن، يسمعونه بالآذان الواعية.

ومنها: التنوين في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ﴾ للدلالة على عظم شأنها؛ أي: لآياتٍ عظيمةً باهرةً.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ
بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ
بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ
لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم
مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَـٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ
ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ
ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا
تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ
إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟
شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ
أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ
تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ
رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ
ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ
ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟
فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ
﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن
ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى
ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ
ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ
لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾
لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه[1] سبحانه لما ذكر ما يعرض للأنفس من الأوصاف.. ذكر ما يعرض للأكوان والآفاق، ونشاهده رأى العين، الفينة بعد الفينة، مما فيه العبرة لمن ادكر، ونظر في العوالم نظرة متأمل معتبر، في بدائع الأكوان، ليتوصل إلى معرفة مدبرها وخالقها، الذي أحسن كل شيء خلقه ثم هدى.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما أقام الأدلة على الوحدانية، وهي الأصل الأول، وعلى القدرة على الحشر، وهي الأصل الثاني.. أعقب ذلك بهاتين الآيتين، وجعلهما كالنتيجة لما سلف.

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ...﴾ الآيات، مناسبتها لم قبلها: أن الله سبحانه لما بين قدرته على الإعادة، بإقامة الأدلة عليها، ثم ضرب لذلك مثلاً.. أعقب ذلك بذكر المثل على الوحدانية، بعد إقامة الدليل عليها.

قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما عدد البينات والأدلة على وحدانيته، وأثبت الحشر، وضرب لذلك المثل، وسلى رسوله، ووطن عزيمته على اليأس من إيمانهم، لأن الله تعالى قد ختم على قلوبهم، فلا مخلص لهم مما هم فيه، ولا ينقذهم من ذلك، لا هو ولا غيره ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾.. أعقب ذلك بأمره بالاهتمام بنفسه، وعدم المبالاة بأمرهم، وإقامة وجهه لهذا الدين غير ملتفت عنه يمنةً ولا يسرةً، فهو فطره الله التي خلق العقول معترفةً بها.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ...﴾ الآيات[2]، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما أرشد إلى التوحيد، وأقام الأدلة عليه، وضرب المثل.. أعقبه بذكر حالٍ للمشركين يعرفون بها، وسيما لا ينكرونها،

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

وهي أنهم حين الشدة يتضرعون إلى ربهم، وينيبون إليه، فإذا خلصوا منها.. رجعوا إلى شنشنتهم الأولى، وأشركوا به الأوثان، والأصنام، فليضلوا ما شاؤوا، فإن لهم يوماً يرجعون فيه إلى ربهم، فيحاسبهم على ما اجترحوا من السيئات، وليتهم اتبعوا ذلك عن دليل، حتى يكون لهم شبه العذر فيما يفعلون، بل هو الهوى المطاع، والرأي المتبع، ثم ذكر حال طائفة من المشركين دون سابقيهم، وهم من تكون عبادتهم لله رهن إصابتهم من الدنيا، فإن آتاهم ربهم منها.. رضوا، وإذا منعوا منها سخطوا وقنطوا، وقد كان عليهم أن يعلموا أن بسط النعمة وإقتارها بيده وحده، وقد جعل لذلك أسباباً، متى سلكها فاعلها.. وصل إلى ما يريد، وليس علينا إلا أن تطمئن نفوسنا إلى ما يكون، فكله بقدر الله وقضائه، وعلينا أن نستسلم له، ونعمل ما طلب إلينا عمله، من الأخذ في العمل جهد الطاقة.

وقوله تعالى: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما بين أنه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر.. أردف ذلك ببيان أنه يحب الإحسان على ذوي القربى وذوي الحاجات من المساكين وأبناء السبيل، فإنه إذا بسط الرزق.. لم ينقصه الإنفاق، وإذا قدر.. لم يزده الإمساك.

إِذَا جَادَتِ ٱلدُّنْيَا عَلَيْكَ فَجُدْ بِهَا   عَلَىٰ ٱلنَّاسِ طُرّاً إِنَّهَا تَتَقَلَّبُ
فَلاَ ٱلْجُودُ يُفْنِيْهَا إِذَا هِيَ أَقْبَلَتْ   وَلاَ ٱلْبُخْلُ يُبْقِيْهَا إِذَا هِيَ تَذْهَبُ

قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر أن المشركين عبدوا مع الله سواه، وأشركوا به غيره، والشرك سبب الفساد، كما يرشد إلى ذلك قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾.. أعقب ذلك ببيان أن الناس قد انتهكوا حرمات الله، واجترحوا المعاصي، وفشا بينهم الظلم والطمع، وأكل القوي مال الضعيف، فصب عليهم ربهم سوط عذابه، فكثرت الحروب، وافتن الناس في أدوات التدمير والإهلاك، فمن غائصات البحار تهلك السفن الماخرة فيها، إلى طائرات قاذفات للحمم والمواد المحرقة إلى مدافع تحصد الناس حصداً إلى دبابات سميكة الدروع تهد

المدن هداً، وما الحرب القائمة الآن إلا مثال الوحشية الإنسانية، والمجازر البشرية التي سلط الله فيها العالم بعضه على بعض، فارتكب المظالم، واجترح المآثم، والإنسان في كل عصر هو الإنسان، وكما أهلك الله الكافرين قبلهم بكفرهم وظلمهم، يهلك الناس بشؤم معاصيهم وفسادهم، فليجعلوا من سبقهم مثلاً لهم، ليتذكروا عقاب الله، وشديد عذابه للمكذبين.

قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[1] نهى الكافر عن بقائه على الحالة التي هو عليها، خيفة أن يحل به سوء العذاب.. أردف ذلك أمر رسوله، ومن تبعه بالثبات على ما هم عليه، بعبادتهم الواحد الأحد، قبل أن يأتي يوم الحساب، الذي يتفرق فيه العباد، فريق في الجنة، وفريق في السعير، فمن كفر.. فعليه وبال كفره، ومن عمل صالحاً.. فقد أعد لنفسه مهاداً يستريح عليه، بما قدم من صالح العمل، وسينال من فضل ربه وثوابه ورضاه عنه، ما لا يخطر له ببال، ولا يدور له في حسبان، والكافر سيلقى في هذا اليوم العذاب والنكال، لأن ربه يبغضه ويمقته، جزاء ما دسى به نفسه من سيىء العمل.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[2]: ما أخرجه ابن أبي حاتم، عن عكرمة قال: تعجب الكفار من إحياء الله الموتى، فنزلت هذه الآية ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَـٰكُمْ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه الطبراني، عن ابن عباس، قال: كان يلبي أهل الشرك: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك تملكه وما

(١) المراغي.
(٢) لباب النقول.

ملك، فأنزل الله هذه الآية. ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم...﴾ الآية.

وأخرج جويبر مثله عن داود بن أبي هند، عن أبي جعفر محمد بن علي عن أبيه.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾؛ أي: ومن دلائل قدرته سبحانه وتعالى ﴿يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾؛ أي: أن يريكم البرق؛ أي: إراءته إياكم البرق، أصله: أن يريكم، فلما حذف (أن) لدلالة الكلام عليه سكن الياء، كما في «برهان القرآن» كما في قول طرفة:

ألا أيهذا اللائمي أحضرَ الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي

والتقدير: أن أحضر، فلما حذف الحرف في الآية والبيت بطل عمله، ومنه المثل المشهور: تسمع بالمعيدي خير من أن تراه، وليس هذا من المواضع التي يحذف منها (أن) قياساً، أو على إنزال الفعل منزلة المصدر من غير ما يسبكه له، فيكون التقدير في هذين الوجهين: ومن آياته إراءته إياكم البرق، فـ﴿من آياته﴾: مقدم على أنه خبر المبتدأ، وقيل: غير ذلك. والبرق: لمعان السحاب كما سيأتي.

وقوله: ﴿خَوْفًا﴾: مفعول لأجله، بمعنى الإخافة، كقوله: فعلته رغماً للشيطان؛ أي: إرغاماً له.

والمعنى[1]: يريكم ضوء السحاب، إخافة من الصاعقة، خصوصاً لمن كان في البرية من أبناء السبيل.

﴿وَطَمَعًا﴾؛ أي: إطماعاً في الغيث، لا سيما لمن كان مقيماً. قاله الضحاك.

---

(١) روح البيان.

فإن قلت: المقيم يطمع لضرورة سقي الزروع والكروم والبساتين ونحوها، وأما المسافر فلا؟

قلت: يطمع المسافر أيضاً في الأرض القفر، لضرورة شربه، وشرب دوابه، وطهارته، وقال يحيى بن سلام: خوفاً من البرد أن يهلك الزرع، وطمعاً في المطر أن يحيي الزرع، وقال ابن بحر: خوفاً أن يكون البرق برقاً خلياً، لا يمطر، وطمعاً أن يكون ممطراً، وأنشد:

لاَ يَكُنْ بَرْقُكَ بَرْقاً خَلَّباً ... إِنَّ خَيْرَ ٱلْبَرْقِ مَا ٱلْغَيْثُ مَعَهْ

ويحتمل انتصاب ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ على أنهما مصدران في موضع الحال من ضمير المخاطبين؛ أي: حالة كونكم خائفين وطامعين.

﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: ومن آياته ودلائل قدرته: أن ينزل من السماء والسحاب. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو[1]: بسكون النون.

﴿مَآءً﴾؛ أي: مطراً ﴿فَيُحْيِۦ بِهِ﴾؛ أي: بسبب ذلك الماء ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ بالنبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾؛ أي: يبسها.

فإن قلت[2]: ما حد المطر؟

قلت: المطر: هو الأجزاء المائية إذا التأم بعضها مع بعض وبردت وثقلت رجعت نحو الأرض.

فإن قلت: ما حد الأرض؟

قلت: الأرض: جسم غليظ، أغلظ ما يكون من الأجسام، واقف في مركز العالم، مبين لكيفية الجهات الست، فالمشرق: حيث تطلع الشمس، والمغرب حيث تغيب، والشمال: حيث مدار الجدي، والجنوب: حيث مدار السهيل،

---

(١) المراح.

(٢) روح البيان.

والفوق: ما يلي المحيط، والأسفل: ما يلي مركز الأرض.

فإن قلت: ما النبات؟

قلت: النبات ما الغالب عليه المائية.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور من إراءة البرق، وإنزال الماء من السماء، وإحياء الأرض به بعد موتها، ﴿لَآيَـٰتٍ﴾؛ أي: لدلالات على قدرة الفاعل المختار، ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾؛ أي: يفهمون عن الله سبحانه حججه وأدلته، فكما أنه تعالى قادر على أن يحيي الأرض بعد موتها، كذلك قادر على أن يحيي الموتى، ويبعث من في القبور.

قال في «برهان القرآن»: ختم الآية بقوله: ﴿يَعْقِلُونَ﴾ لأن العقل ملاك الأمر في هذه الأبواب، وهو المؤدي إلى العلم. انتهى.

قال بعض العلماء: العاقل: من يرى بأول رأيه آخر الأمور، ويهتك عن مهماتها ظلم الستور، ويستنبط دقائق القلوب، ويستخرج ودائع الغيوب.

قال حكيم: العقل والتجربة في التعاون، بمنزلة الماء والأرض، لا يطيق أحدهما بدون الآخر إنباتاً.

ومعنى الآية[1]: أي ومن آياته الدالة على عظيم قدرته: أنه يريكم البرق فتخافون مما فيه من الصواعق، وتطمعون فيما يجلبه من المطر، الذي ينزل من السماء، فيحيي الأرض الميتة التي لا زرع فيها ولا شجر، إن في ذلك المذكور لبرهاناً قاطعاً، ودليلاً ساطعاً على البعث والنشور، وقيام الساعة، فإن أرضاً هامدةً، لا نبات فيها، ولا شجر، يجيئها الماء فتهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج، لهي المثال الواضح، والدليل اللائح، على قدرة من أحياها، على إحياء العالم بعد موته، حين يقوم الناس لرب العالمين.

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ﴾ وحججه الدالة على قدرته على ما يشاء ﴿أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ

---

(١) المراغي.

﴿وَٱلْأَرْضُ﴾؛ أي: قيامهما واستمرارهما على ما هما عليه من الهيئات، إلى الأجل المقدر لقيامهما، وهو يوم القيامة ﴿بِأَمْرِهِۦٓ﴾؛ أي: بإرادته وقدرته سبحانه، بلا عمد يعمدهما، ولا مستقرٍ يستقران عليه، والتعبير[1] عن الإرادة بالأمر، للدلالة على كمال القدرة، والغنى عن المبادىء والأسباب، والأمر: لفظ عام للأفعال والأقوال كلها، كما في «المفردات».

﴿ثُمَّ﴾ بعد موتكم ومصيركم في القبور ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ وناداكم أيها العباد، ﴿دَعْوَةً﴾ واحدةً بالنفخة الأخيرة ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ متعلق بدعاكم؛ أي: دعاكم من الأرض التي أنتم فيها، كما يقال: دعوته من أسفل الوادي، فطلع إلي، ولا يجوز أن يتعلق بـ﴿تَخْرُجُونَ﴾، لأن ما بعد إذا، لا يعمل فيما قبلها.

والمعنى: ثم إذا دعاكم بعد انقضاء الأجل، وأنتم في قبوركم دعوةً واحدةً، بأن قال: أيها الموتى أخرجوا، والداعي في الحقيقة هو إسرافيل - عليه السلام - فإنه كما قيل: يدعو الخلق على صخرة بيت المقدس، حين ينفخ النفخة الأخيرة من النفختين.

﴿إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ من الأرض. إذا للمفاجأة، ولذلك ناب مناب الفاء في الجواب، فإنهما يشتركان في إفادة التعقيب، أي: فاجأتم الخروج منها بلا توقف ولا إباء، وذلك لقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ﴾.

وقال الزمخشري[2]: قوله: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ بمنزلة قوله: ﴿يُرِيكُمُ﴾ في إيقاع الجملة موقع المفرد على المعنى، كأنه قال: ومن آياته قيام السماوات والأرض، ثم خروج الموتى من القبور إذا دعاهم دعوةً واحدةً، يا أهل القبور اخرجوا، وإنما عطف هذا على قيام السماوات والأرض بـ﴿ثُمَّ﴾ بياناً لعظم ما يكون من ذلك الأمر واقتداره على مثله، وهو أن يقول: يا أهل القبور قوموا، فلا تبقى نسمة من الأولين والآخرين إلا قامت تنظر، انتهى.

---

(١) روح البيان.

(٢) الكشاف.

وقرأ حمزة والكسائي[1]: ﴿تَخْرُجُونَ﴾ بفتح التاء وضم الراء، وباقي السبعة بضمها وفتح الراء. وقال الشوكاني: وقد أجمع القراء على فتح التاء في ﴿تخرجون﴾ هنا، وغلط من قال: إنه قرىء هنا بضمها على البناء للمفعول وإنما قرىء بضمها في الأعراف. انتهى.

والمعنى[2]: أن إمساك هذه العوالم وإقامتها، وتدبيرها وإحكامها، من الآيات التي ترشد إلى إله مدبر لها، ولا يزال الأمر هكذا حتى ينتهي أجل الدنيا، ويختل نظام العالم، فتبدل الأرض غير الأرض، وتدك الجبال دكاً، وحينئذٍ تخرجون من قبوركم سراعاً، حينما يدعوكم الداعي، ونحو الآية قوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾، وقوله: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾. وقوله: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿وَلَهُ﴾ سبحانه خاصةً، لا لغيره ﴿مَن فِي السَّمَاوَاتِ﴾ من الملائكة ﴿و﴾ من في ﴿الأرض﴾ من الإنس والجن خلقاً وملكاً وتصرفاً، ليس لغيره شركة في ذلك بوجه من الوجوه ﴿كُلٌّ﴾؛ أي: كل من فيهما وفي غيرهما ﴿لَّهُ﴾ سبحانه وتعالى وهو متعلق بقوله: ﴿قَانِتُونَ﴾ من القنوت، وهو الطاعة، والمراد: طاعة الإرادة، لا طاعة العبادة؛ أي: منقادون لما يريده بهم من حياة وموت وبعث وصحة وسقم وعز وذل وغنى وفقر وغيرها، لا يمتنعون عليه تعالى في شأن من شؤونه، فهم مسخرون تحت حكمه على كل حال، وقال الحسن[3]: ﴿قَانِتُونَ﴾؛ أي: قائمون بالشهادة على وحدانيته، كما قال الشاعر:

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ

وقيل: قائمون يوم القيامة، يوم يقوم الناس لرب العالمين.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ بمعنى المخلوق؛ أي: ينشئهم

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) البحر المحيط.

في الدنيا ابتداءً، فإنه أنشأ آدم وحواء، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً، ثم يميتهم عند انتهاء آجالهم ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾؛ أي: يعيد الخلق بعد موتهم بالبعث من القبور، فيحييهم الحياة الدائمة، وإفراد الضمير باعتبار لفظ الخلق؛ أي: ثم يعيدهم في الآخرة بنفخ صور إسرافيل، فيكونون أحياءً كما كانوا.

﴿وَهُوَ﴾؛ أي: الإعادة، وذكر الضمير نظراً للخبر أو لأن التاء فيه تاء المصدر، أو نظراً للمعنى، لأنه بمعنى العود، كما في قوله تعالى: ﴿لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةً مَّيۡتًا﴾؛ أي: مكاناً ميتاً. ﴿أَهۡوَنُ﴾؛ أي: أسهل وأيسر ﴿عَلَيۡهِۚ﴾ سبحانه وتعالى من البدء[1] بالنسبة إلى قدرتكم أيها الآدميون، وبالقياس على قوانينكم، وإلا فهما عليه تعالى سواء: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ سواء هناك مادة أم لا، يعني: إن ابتداء الشيء، أشد عند الخلق من إعادته، وإعادته أهون من ابتدائه، فتكون الآية واردةً على ما يزعمون فيما بينهم، ويعتقدون عندهم، وإلا فما شق على الله ابتداء الخلق، فيكون إعادتهم أهون عليه.

وقال بعضهم: أفعل هنا ليس للتفضيل، بل هو بمعنى فعيل، فيكون أهون بمعنى هين، مثل الله أكبر بمعنى كبير، قال الفرزدق:

إِنَّ ٱلَّذِيْ سَمَكَ ٱلسَّمَاءَ بَنَىٰ لَنَا ... بَيْتاً دَعَائِمُهُ أَعَزُّ وَأَطْوَلُ

أي: عزيزة طويلة، وقيل: الضمير في عليه للخلق، وهو؛ أي: العود أهون؛ أي: أيسر أو أسرع عليهم؛ أي: على الخلق، لأنه يصاح بهم صيحة واحدة، فيقومون دفعةً، ويقال لهم: كونوا فيكونون، فذلك أهون عليهم من أن يكونوا نطفةً، ثم علقةً ثم مضغةً إلى النشأة، وقرأ[2] عبد الله بن مسعود: ﴿وهو عليه هين﴾.

وقال الزمخشري: فإن قلت[3]: لم أخر الصلة في قوله: ﴿وَهُوَ أَهۡوَنُ

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) الكشاف.

﴿عَلَيۡهِۚ﴾ وقدمت في قوله: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ﴾؟

قلت: هنالك قصد الاختصاص، وهو تجبره، فقيل: و﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ﴾، وإن كان مستصعباً عندك أن يولد بين هرم وعاجز، وأما هنا: فلا معنى للاختصاص، كيف والأمر مبني على ما يعقلون، من أن الإعادة أسهل من الابتداء، فلو قدمت الصلة لتغير المعنى. انتهى.

﴿وَلَهُ﴾ سبحانه وتعالى، لا لغيره ﴿ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ﴾؛ أي[1]: الوصف الأعلى، العجيب الشأن، من القدرة العامة، والحكمة التامة، وسائر صفات الكمال، التي ليست لغيره تعالى ما يدانيها، فضلاً عما يساويها، فالمثل بمعنى الصفة، كما في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي﴾ وقوله: ﴿مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ﴾؛ أي: صفتها وصفتهم، قاله الخليل، وقال مجاهد: المثل الأعلى: قول لا إله إلا الله، وبه قال قتادة، أراد به الوصف بالوحدانية، يعني له الصفة العليا، وهي: أنه لا إله إلا هو، ولا رب سواه: وقيل: المثل الأعلى: هو أنه ليس كمثله شيء، وقيل: هو أنه ما أراده كان بقول: كن.

وقوله: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ متعلق[2] بمضمون الجملة المتقدمة، على معنى أنه تعالى قد وصف بالمثل الأعلى، وعرف به فيهما على ألسنة الخلائق؛ أي: نطقاً، وألسنة الدلائل؛ أي: دلالةً، ويجوز أن يتعلق بمحذوف على أنه حال من ﴿ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾، أو من ﴿ٱلۡمَثَلُ﴾، أو من الضمير في ﴿ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ في ملكه القادر الذي لا يغالب، أو القادر الذي لا يعجز عن بدء ممكن ما، وإعادته ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله الذي يجري الأفعال على سنن الحكمة والمصلحة.

قال بعضهم[3]: دلت الآية على أن السماوات والأرض مشحونة بشواهد وحدته، ودلائل قدرته تعالى، والعجب منك، أنك إذا دخلت بيت غني.. فتراه

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) روح البيان.

مزيناً بأنواع الزين، فلا ينقطع تعجبك عنه، ولا تزال تذكره وتصف حسنه طول عمرك، وأنت تنظر أبداً إلى الآفاق والأنفس، وهي بيوت الله المزينة بأسمائه وصفاته، وآثاره المتجلية بقدرته، وعجيب آياته، ثم أنت فيما شاهدته أعمى عن حقيقته لعمى باطنك، وعدم دخولك في بيت القلب، الذي بالتفكر المودع فيه يستخرج الحقائق، وبالتذكر الموضوع فيه يرجع الإنسان إلى ما هو بالرجوع لائق، وبالشهود الذي فيه يرى الآيات، ويدرك البينات، ولولا هداية الملك المتعالي.. لبقي الخلق في ظلمات الضلال، فعليك بتوحيد الله تعالى في الليل والنهار، فإنه خير أوراد وأذكار، قال تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ وذكر الله سبب الحضور، وموصل إلى مشاهدة المذكور، ولكن الكل بعناية الله الملك الغفور. ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾.

يَا ذَا ٱلَّذِيْ أَنِسَ ٱلْفُؤَادُ بِذِكْرِهِ ... أَنْتَ ٱلَّذِيْ مَا إِنْ سِوَاكَ أُرِيْدُ
تَفْنَىٰ ٱللَّيَالِيْ وَٱلزَّمَانُ بِأَسْرِهِ ... وَهَوَاكَ غَضٌّ فِيْ ٱلْفُؤَادِ جَدِيْدُ

وحاصل معنى الآية(١): أي وهو الذي يبدأ الخلق من غير أصل له، فينشئه بعد أن لم يكن شيئاً، ثم يفنيه بعد ذلك، ثم يعيده كما بدأ، وذلك أسهل عليه على حسب ما يدور في عقول المخاطبين، من أن من فعل شيئاً مرةً كانت الإعادة أسهل عليه.

والخلاصة: أن الإعادة أسهل على الله من البدء، بالنظر لما يفعله البشر، مما يقدرون عليه، فإن إعادة شيء من مادته الأولى، أهو عليهم من إيجاده ابتداءً، والمراد بذلك: التقريب لعقول الجهلة المنكرين للبعث، وإلا فكل الممكنات بالنظر إلى قدرته سواء، وقصارى ذلك: أنه أهون عليه بالإضافة إلى أعمالكم، وبالقياس إلى أقداركم.

روي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ يقول الله تعالى: «كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما

---

(١) المراغي.

تكذيبه إياي، فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته، وأما شتمه إياي، فقوله: اتخذ الله ولداً، وأنا الأحد الصمد، الذي لم يلد، ولو يولد، ولم يكن له كفواً أحد».

﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾؛ أي: وله الوصف البديع في السماوات والأرض، وهو أنه لا إله إلا هو، ليس كمثله شيء، تعالى عن الشبيه والنظير، وهو العزيز الذي لا يغالب ولا يغلب، الحكيم في تدبير خلقه، وتصريف شؤونه، فيما أراد على وفق الحكمة والسداد.

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا﴾؛ أي: بين الله سبحانه وتعالى لكم أيها المشركون، شبهاً لما تشركون به، مأخوذاً ذلك المثل ﴿مِّنْ﴾ أحوال ﴿أَنفُسِكُمْ﴾ التي هي أقرب الأمور إليكم، وأعرفها عندكم، بين به بطلان شرككم، فمن ابتدائية، والمثل تشبيه شيء خفي بشيء جلي، قال أبو الليث: نزلت في كفار قريش، كانوا يعبدون الآلهة، ويقولون في إحرامهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك. ثم صور المثل، فقال: ﴿هَل لَّكُم﴾ والاستفهام فيه للإنكار، و﴿من﴾ في قوله: ﴿مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ وأيديكم من العبيد والإماء: تبعيضية، وفي قوله: ﴿مِّن شُرَكَآءَ﴾ زائدة، لتأكيد النفي المستفاد من الاستفهام.

﴿فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ من الأموال والأسباب؛ أي: هل ترضون لأنفسكم شركة في ذلك، والمعنى: هل لكم شركاء فيما رزقناكم من الأموال، كائنون من النوع الذي ملكت أيمانكم، وهم العبيد والإماء، وجملة قوله: ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ﴾؛ أي: فيما رزقناكم ﴿سَوَآءٌ﴾؛ أي: مستوون يتصرفون فيه كتصرفكم، من غير فرق بينكم وبينهم، جواب للاستفهام الإنكاري الذي بمعنى النفي، ومحققة لمعنى الشركة بينهم وبين العبيد والإماء المملوكين لهم في أموالهم، وجملة قوله: ﴿تَخَافُونَهُمْ﴾ خبر آخر لـ﴿أنتم﴾ داخل تحت الاستفهام الإنكاري، كما في «الإرشاد»؛ أي: تخافون مماليككم أن يستقلوا وينفردوا بالتصرف فيه، و﴿الكاف﴾ في قوله: ﴿كَخِيفَتِكُمْ﴾ نعت لمصدر محذوف، ومعنى قوله: ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ ههنا أمثالكم من الأحرار، كقوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾؛ أي: بعضكم بعضاً.

والمعنى: خيفةً كائنةً مثل خيفتكم من أمثالكم من الأحرار المشاركين لكم فيما ذكر من الحرية، وملك الأموال وجواز التصرف، والمقصود: نفي الأشياء الثلاثة: الشركة بينهم وبين المملوكين، والاستواء معهم وخوفهم، وليس المراد ثبوت الشركة، ونفي الاستواء والخوف، كما قيل في قولهم: ما تأتينا فتحدثنا. والمراد: نفي مضمون ما فصل من الجملة الاستفهامية.

والمعنى(١): أي لا ترضون بأن يشارككم فيما بأيديكم من الأموال المستعارة مماليككم، وهم عندكم أمثالكم في البشرية، غير مخلوقين لكم، بل الله تعالى، فكيف تشركون به سبحانه في المعبودية ـ التي هي من خصائصه الذاتية ـ مخلوقه، بل مصنوع مخلوقه، حيث تصنعونه بأيديكم، ثم تعبدونه.

والمراد: إقامة الحجة على المشركين، فإنهم لا بد أن يقولوا: لا نرضى بذلك، فيقال لهم: فكيف تنزهون أنفسكم عن مشاركة المملوكين لكم، وهم أمثالكم في البشرية، وتجعلون عبيد الله شركاء له، فإذا بطلت الشركة بين العبيد وساداتهم فيما يملكه السادة.. بطلت الشركة بين الله وبين أحد من خلقه، والخلق كلهم عبيد الله تعالى، ولم يبق إلا أنه الرب وحده لا شريك له.

وقرأ الجمهور(٢): ﴿أنفسكم﴾ بالنصب، على أنه معمول المصدر المضاف إلى فاعله، وقرأ ابن أبي عبلة، وابن أبي عبيدة: بالرفع على إضافة المصدر إلى مفعوله، وهما وجهان حسنان، ولا قبح في إضافة المصدر إلى المفعول، مع وجود الفاعل، وفي الآية دليل على أن العبد لا ملك له، لأنه أخبر: أن لا مشاركة للعبيد فيما رزقنا الله سبحانه من الأموال.

﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثل ذلك التفصيل الواضح المذكور في هذا المثل ﴿نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾؛ أي: نبين ونوضح دلائل الوحدة، تفصيلاً واضحاً، وبياناً جلياً، لا تفصيلاً أدنى منه، فإن التمثيل: تصوير للمعاني المعقولة بصورة المحسوس، فيكون في غاية البيان والإيضاح.

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

وقرأ الجمهور: ﴿نُفَصِّلُ﴾ بالنون، حملاً على رزقناكم. وقرأ عباس عن ابن عمر: بياء الغيبة، مراعياً لضرب إذ هو مسند للغائب ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾؛ أي: يستعملون عقولهم في تدبر الأمور والأمثال، لأنهم الذين ينتفعون بالآيات التنزيلية والتكوينية، باستعمال عقولهم في تدبرها والتفكر فيها.

وحاصل معنى الآية[١]: أي بين الله تعالى إثبات وحدانيته، بما يكشفها من ذلك المثل المنتزع من أحوال أنفسكم وأطوارها، التي هي أقرب الأمور إليكم، وبه يستبين مقدار ما أنتم فيه من الضلال بعبادة الأوثان والأصنام، فتسرعون إلى الإقلاع عن عبادة من لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً.

وهذا مثل ضربه الله للمشركين به، العابدين معه غيره، الجاعلين له شركاء، وهم معترفون بأن شركاءه من الأصنام والأوثان عبيده وملكه، إذ كانوا يقولون في التلبية والدعاء حين أداء مناسك الحج: لبيك اللهم لبيك، لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك.

وخلاصة المثل: أن أحدكم يأنف أن يساويه عبيده في التصرف في أمواله، فيكف تجعلون لله الأنداد من خلقه.

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾؛ أي: مثل هذا التفصيل البديع، بضرب الأمثال الكاشفة للمعاني، المقربة لها إلى العقول، إذ تنقل المعقول إلى المحسوس، التي هي به ألصق، ولإدراكه أقرب، نفصل حججنا وآياتنا لقوم يستعملون عقولهم في تدبر الأمثال، واستخراج مغازيها ومراميها للوصول إلى الأغراض، التي لأجلها ضربت، ولمثلها استعملت، فيستبين الرشد من الغي، والحق من الباطل، ولأمرٍ ما كثرت الأمثال في جلاء الحقائق، وإيضاح ما أشكل منها على الناظرين.

ثم بين أن المشركين إنما عبدوا غيره سفهاً من أنفسهم، وجهلاً، لا ببرهان قد لاح لهم؛ أي: أعرض عن مخاطبتهم، وبين استحالة تبعيتهم للحق، فقال: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ أنفسهم بالشرك، وكفروا بالله؛ أي[٢]: لم يعقلوا شيئاً

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

من الآيات، بل اتبعوا ﴿أَهْوَآءَهُم﴾ وشهواتهم للتسجيل عليهم، ففي الكلام إضراب مع الالتفات، ووضع الظاهر، أعني: الموصول موضع المضمر، للتسجيل عليهم، بأنهم في ذلك الاتباع ظالمون، لأن مقتضى: السياق أن يقال: بل اتبعتم أهواءكم بغير علم، وقوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ حال من الموصول؛ أي: بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم الزائغة، وآراءهم الفاسدة، حال كونهم جاهلين، ما أتوا به من الضلالة، لا يكفهم عنه شيء، فإن العالم إذا اتبع هواه.. ربما ردعه علمه.

والاستفهام في قوله: ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾؛ أي: خلق فيه الضلالة بصرف اختياره إلى كسبها: إنكاري؛ أي: لا أحد يقدر على هدايته، لأن الرشاد والهداية، بتقدير الله تعالى وإرادته ﴿وَمَا لَهُم﴾؛ أي: لمن أضله الله تعالى، والجمع باعتبار المعنى، والمراد بهم المشركون ﴿مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يخلصونهم من الضلال، ويحفظونهم من آفاته؛ أي: ليس لأحدٍ منهم ناصر واحد على ما هو قاعدة مقابلة الجمع بالجمع؛ أي: ما لهؤلاء الذين أضلهم الله من ناصرين ينصرونهم، ويحولون بينهم وبين عذاب الله سبحانه؛ أي: هؤلاء ممن أضلهم الله فلا هادي لهم.

ومعنى الآية[1]: أي ولكن الذين ظلموا أنفسهم، فكفروا بالله، اتبعوا أهواءهم جهلاً منهم لحق الله عليهم، فأشركوا الآلهة والأوثان في عبادته، ولو قلبوا وجوه الرأي، واستعملوا الفكر والتدبر.. لربما ردهم ذلك إلى معرفة الحق، ووصلوا إلى سبيل الرشد، ولكن أنى لهم ذلك.

فمن يهدي من خلق الله فيه الضلال، وجعله كاسباً له باختياره، لسوء استعداده، وميله بالفطرة إليه، وعلم الله فيه ذلك، وليس لهم ناصر ينقذهم من بأس الله، وشديد انتقامه إذا حل بهم، لأنه ما شاء.. كان، وما لم يشأ لم يكن.

وفي الآية إشارة إلى[2] أن العمل بمقتضى العقل السليم هدى، والميل إلى

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

التقليد للجهلة هوى، فكما أن أهل الهدى منصورون أبداً، فكذا أهل الهوى، مخذولون سرمداً وإلى أن الخذلان واتباع الهوى من عقوبات الله المعنوية في الدنيا، فلا بد من قرع باب العفو بالتوبة، والسلوك إلى طريق التحقيق، والإعراض عن الهوى والبدعة، فإنهما شر رفيق.

ثم أمر الله سبحانه رسوله - ﷺ بتوحيده وعبادته فقال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾؛ أي: قوم ذاتك وعدلها واصرفها ﴿لِلدِّينِ﴾ الحنيفي، وأقبل بكليتك عليه، غير ملتفت عنه يميناً وشمالاً، أو أخلص عملك لله تعالى، وهذا تمثيل[1] لإقباله على الدين، واستقامته عليه، واهتمامه بأسبابه، فإن من اهتم بالشيء.. عقد عليه طرفه، وسدد إليه نظره، وقوم له وجهه.

و﴿الفاء﴾ فيه: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا كان[2] حال المشركين اتباع الهوى، والإعراض عن الهدى.. فقوم وجهك يا محمد للدين الحق، الذي هو دين الإسلام، وعدله غير ملتفت يميناً وشمالاً، أو سدد وجهك نحو الوجه الذي وجهك إليه ربك لطاعته، وهو الدين القيم دين الفطرة.

وقوله: ﴿حَنِيفًا﴾ حال من فاعل ﴿أقم﴾؛ أي: حال كونك مائلاً إليه عن سائر الأديان، مستقيماً عليه لا ترجع عنه إلى غيره، ويجوز أن يكون حالاً من ﴿الدين﴾؛ أي: حال كون ذلك الدين قويماً لا اعوجاج فيه، وقال بعضهم: في الآية الوجه، ما يتوجه إليه، وعمل الإنسان ودينه مما يتوجه الإنسان إليه، لتسديده وإقامته، والمعنى عليه: أخلص دينك، وسدد عملك مائلاً إليه عن جميع الأديان المحرفة المنسوخة.

والخطاب عام للنبي - ﷺ - ولجميع الأمة، والإفراد في ﴿أقم﴾ لما أن الرسول إمام الأمة، فأمره مستتبع لأمرهم، وقوله: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ منصوب على الإغراء؛ أي: الزموا أيها الناس فطرت الله سبحانه؛ أي: دينه وتوحيده، وترسم

---

(١) النسفي. (٢) روح البيان.

﴿التاء﴾ فيه مجرورةً وليس في القرآن غيرها. ا هـ. «الفتوحات».

﴿ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾؛ أي: خلق جميع الناس، مؤمنهم وكافرهم عليها في بطون أمهاتهم، وحيث أخذهم الله من ظهر آدم، وسألهم: ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ﴾ فقالوا: ﴿بَلَىٰ﴾ والموصول صفة لـ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ﴾ مؤكدة لوجوب الامتثال بالأمر، فإن خلق الله الناس على فطرته التي هي عبارة عن قبولهم للحق، وتمكنهم من إدراكه، أو عن ملة الإسلام، من موجبات لزومها، والتمسك بها قطعاً.

المعنى: أنه خلقهم قابلين للتوحيد والإسلام، غير نائين عنه ولا منكرين له، لكونه مجاوباً للعقل، مساوقاً للنظر الصحيح، حتى لو تركوا وما خلقوا عليه ما اختاروا عليه ديناً آخر، ومن غوى منهم فبإغواء شياطين الإنس والجن.

ومنه قوله ـ ﷺ ـ فيما يرويه عن ربه: «كل عبادي خلقت حنفاء، فاجتالتهم ـ استخفتهم وأضلتهم ـ الشياطين عن دينهم، وأمروهم أن يشركوا بي غيري».

ومنه قوله ـ ﷺ ـ في الحديث المتفق عليه، الذي رواه عنه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ، قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمةً جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء» يعني تكونون أنتم تجدعونها؛ أي: تقطعون أنفها أو أذنها، ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ...﴾ الآية.

ومعناه: كل مولود إنما يولد في مبدأ الخلقة، وأصل الجبلة على الفطرة السليمة، والطبع المتهيء لقبول الدين، فلو ترك عليها.. استمر على لزومها، ولم يفارقها إلى غيرها، لأن هذا الدين حسنه العقل السليم، وإنما يعدل عنه لآفة من الآفات البشرية والتقليد، فمن سلم من تلك الآفات لم يعتقد غيره.

وحكي عن عبد الله بن المبارك(١): أنه قال في معنى الحديث: «إن كل مولود يولد على فطرته»؛ أي: خلقته التي خلقه الله عليها في علمه، من السعادة

---

(١) روح البيان.

والشقاوة، فكل منهم صائر في العاقبة إلى ما فطر عليه، وعامل في الدنيا بالعمل المشاكل لها، فمن أمارات الشقاوة للطفل: أن يولد بين يهوديين، أو نصرانيين، فيحملانه على اعتقاد دينهما.

فإن قلت: الحديث الذي ورد عنه ـ ﷺ ـ: «إن الغلام الذي قتله الخضر طبع كافراً» يعارضه حديث أبي هريرة: «كل مولود يولد على الفطرة» فما وجه الجمع بينهما؟

قلت: يجمع بينهما بأن المراد بالفطرة: استعداده لقبول الإسلام، كما مر، وذلك لا ينافي كونه شقياً في جبلته، أو يراد بالفطرة قولهم: ﴿بَلَىٰ﴾ حين قال الله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾. قال النووي: لما كان أبواه مؤمنين.. كان هو مؤمناً أيضاً، فيجب تأويله بأن معناه ـ والله أعلم ـ: إن ذلك الغلام لو بلغ لكان كافراً. انتهى.

ثم لا عبرة بالإيمان الفطري في أحكام الدنيا، وإنما يعتبر الإيمان الشرعي، المأمور به المكتسب بالإرادة والفعل، ألا ترى أنه يقول: «فأبواه يهودانه» فهو مع وجود الإيمان الفطري فيه، محكوم له بحكم أبويه الكافرين، كما في «كشف الأسرار».

والمعنى: أي الزموا خلقة الله، التي خلق الناس عليها، فقد جعلهم بفطرتهم جانحين للتوحيد، وموقنين به، لكونه موافقاً لما يهدي إليه العقل، ويرشد إليه صحيح النظر، كما ورد في الحديث المتفق عليه، لأبي هريرة الذي سبق آنفاً، وقوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: لدينه وتوحيده تعليل للأمر بلزوم فطرته تعالى لوجوب الامتثال به؛ أي: لا صحة ولا استقامة لتبديله بالإخلال بموجبه، وعدم مقتضاه عليه بقبول الهوى، واتباع وسوسة الشيطان، أو هذه الفطرة التي فطر الله الناس عليها، لا تبديل لها من جهة الخالق سبحانه.

وقال ابن عباس: لا تبديل لقضاء الله بسعادتهم وشقاوتهم.

وفي «التأويلات النجمية»: لا تحويل لما له خلقهم، فطر الناس كلهم على التوحيد، فأقام قلب من خلقه للتوحيد والسعادة، وأزاغ قلب من خلقه للإلحاد

والشقاوة. انتهى.

وقيل: هو نفي معناه النهي؛ أي: لا تبدلوا خلق الله ودينه بالشرك، بيان[1] هذا: أن العقل الإنساني كصحيفة بيضاء، قابلة لنقش ما يراد أن يكتب فيها، كالأرض تقبل كل ما يغرس فيها، فهي تنبت حنظلاً وفاكهةً ودواءً وسماً، والنفس ترد عليها الديانات والمعارف فتقبلها، والخير أغلب عليها من الشر، كما أن أغلب نبات الأرض يصلح للرعي، والقليل منه سم لا ينتفع به، ولا تغير بالآراء الفاسدة، إلا بمعلم يعلمها ذلك، كالأبوين اليهوديين أو النصرانيين، ولو ترك الطفل وشأنه.. لعرف أن الإلٰه واحد، ولم يسقه عقله إلى غير ذلك، فإن البهيمة لا تجدع إلا بمن يجدعها من الخارج، هكذا صحيفة العقل، لا تغير إلا بمؤثر خارجي يضلها بعد علم.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي أمرتكم به من التوحيد، أو ذلك الدين المأمور بإقامة الوجه له، أو لزوم فطرة الله المستفاد من الإغراء، أو الفطرة إن فسرت بالملة، والتذكير بتأويل المذكور، أو باعتبار الخبر ﴿ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾؛ أي: المستوي الذي لا عوج فيه ولا انحراف، وهو وصف بمعنى المستقيم المستوي.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: كفار مكة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ استقامته حتى يفعلوه، ويعملوا به، فينحرفون عنه انحرافاً، وذلك لعدم تدبرهم وتفكرهم في البراهين الواضحة الدالة عليه، ولو علموا ذلك حق العلم.. لاتبعوه، وما صدوا الناس عن الاقتباس من نوره، وما سدلوا الحجب التي تحجب عنهم ضياءه.

وقوله: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ تعالى؛ أي: راجعين إليه بالتوبة والإخلاص، ومطيعين له في أوامره ونواهيه: حال من الضمير في الناصب المقدر لـ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ أو في ﴿أقم﴾ لعمومه للأمة، وما بينهما اعتراض، وقيل: منصوب على أنه خبر لكان المحذوفة؛ أي: وكونوا منيبين إليه، لدلالة: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ

---

(١) المراغي.

﴿ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ على ذلك، وهو من أناب إذا رجع مرةً بعد أخرى.

والمعنى: الزموا فطرة الله، أو فأقيموا وجوهكم للدين، حال كونكم راجعين إليه وإلى كل ما أمر به، مقبلين عليه بالطاعة. ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ سبحانه وتعالى باجتناب معاصيه، وهو معطوف على الزموا المقدر الناصب لـ﴿مُنِيبِينَ﴾.

والمعنى: أي فأقم وجهك أيها الرسول، أنت ومن اتبعك حنفاء لله منيبين إليه، وخافوه وراقبوا أن تفرطوا في طاعته، وترتكبوا معصيته ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الخمس؛ أي: أدوها في أوقاتها على شرائطها وحقوقها.

قال الراغب: إقامة الشيء: توفية حقه، ولم يأمر الله بالصلاة حيث أمر، ولا مدح بها حيثما مدح، إلا بلفظ الإقامة، تنبيهاً على أن المقصود منها توفية شرائطها، لا الإتيان بهيئاتها.

والمعنى: أي وداموا على إقامتها، فهي عمود الدين، وهي التي تذكر المؤمن ربه، وتجعله يناجيه في اليوم خمس مرات، وتحول بينه وبين الفحشاء والمنكر، لأنها تعوِّد النفس الخضوع والإخبات له، ومراقبته في السر والعلن، كما جاء في الحديث: «اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ به غيره المبدلين لفطرة الله تبديلاً، بل أخلصوا له العبادة، ولا تريدوا بها سواه، وحافظوا على امتثال أوامره واجتناب نواهيه.

وقوله: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾ بدل من ﴿ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بإعادة الجار، وتفريقهم لدينهم: اختلافهم فيما يعبدون على اختلاف أهوائهم، وفائدة[1] الإبدال: التحذير عن الانتماء إلى ضرب من أضراب المشركين ببيان أن الكل على الضلال المبين. وكانوا شيعاً؛ أي: فرقاً مختلفة يشايع كل منها - أي يتابع - إمامها الذي هو أصل دينها.

وقرأ حمزة والكسائي[2]: ﴿فارقوا دينهم﴾ ورويت هذه القراءة عن علي بن

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.

أبي طالب؛ أي: فارقوا دينهم الذي يجب اتباعه، وهو التوحيد؛ أي: ولا تكونوا من المشركين، الذين بدلوا دين الفطرة وغيروه، وكانوا في ذلك فرقاً مختلفة، كلها جانبت الحق، وركنت إلى الباطل، كاليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأوثان وسائر الأديان الباطلة.

والخلاصة: أن أهل الأديان قبلنا، اختلفوا فيما بينهم على مذاهب ونحل باطلة، كل منها تزعم أنها على شيء.

﴿كُلُّ حِزْبٍ﴾ وطائفة وجماعة من هؤلاء الذين فارقوا دينهم الحق وأحدثوا من البدع ما أحدثوا، ﴿بما لديهم﴾؛ أي: بما عندهم من الدين المعوج، المؤسس على الزيغ والزعم الباطل ﴿فَرِحُونَ﴾؛ أي: مسرورون راضون، ظناً منهم أنه الحق والصواب لا يعدوهم إلى غيرهم من النحل، والمذاهب الأخرى.

﴿وَإِذَا مَسَّ﴾ وأصاب ﴿ٱلنَّاسَ﴾؛ أي: أهل مكة ﴿ضُرٌّ﴾؛ أي: ضرر وشدة وسوء حال، كجوع ووباء وقحط وفقر وغير ذلك من أنواع البلاء ﴿دَعَوۡاْ رَبَّهُم﴾ أن يرفع ذلك عنهم، واستغاثوا به حال كونهم ﴿مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: راجعين إليه من دعاء غيره، ملتجئين به، لا يعولون على غيره، لعلمهم أنه لا فرج عند الأصنام، ولا يقدر على كشف ذلك عنهم غير الله، وقيل: مقبلين إليه بكل قلوبهم.

والمعنى[1]: أي وإذا مس هؤلاء المشركين الذين يجعلون مع الله إلٰهاً آخر ضر، فأصابهم جدب وقحط مثلاً.. أخلصوا لربهم التوحيد، وأفردوه بالتضرع إليه، واستغاثوا به منيبين إليه، تائبين من شركهم وكفرهم.

﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم﴾ ومنحهم ﴿مِّنۡهُ﴾؛ أي: من عنده سبحانه ﴿رَحۡمَةً﴾؛ أي: خلاصاً وعافيةً من الضر النازل بهم بإجابة دعائهم، وذلك بالخصب والغنى والعافية مثلاً ﴿إِذَا﴾: فجائية، وقعت في جواب الشرط، لأنها كالفاء في إفادة

---

(١) المراغي.

التعقيب. ﴿فَرِيقٌ﴾ وجماعة ﴿مِّنْهُم﴾؛ أي: من أولئك المشركين ﴿بِرَبِّهِمْ﴾ الذي كشف عنهم الضر ﴿يُشْرِكُونَ﴾ غيره؛ أي: فاجأ فريق منهم بالعود إلى الإشراك بربهم، الذي عافاهم وخلصهم من ذلك الضر. وتخصيص[1] هذا الفعل ببعضهم: لما أن بعضهم ليسوا كذلك، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّنٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾؛ أي: مقيم على الطريق القصد، أو متوسط في الكفر، لانزجاره في الجملة.

وهذا كلام مسوق للتعجيب من أحوالهم، وما صاروا عليه من الاعتراف بوحدانية الله تعالى عند نزول الشدايد، والرجوع إلى الشرك عند رفع ذلك عنهم؛ أي: ثم إذا كشف ربهم عنهم ذلك الضر، وفرجه عنهم، وأصابهم برخاء وخصب وسعةٍ.. إذا جماعة منهم يشركون به، فيعبدون معه الآلهة والأوثان.

والخلاصة: أنهم حين الضرر يدعون الله وحده لا شريك له، وإذا أسبغ عليهم نعمه.. إذا فريق منهم يشركون به سواه، ويعبدون معه غيره.

و﴿اللام﴾: في قوله: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾؛ أي: أعطيناهم من نعمة الخلاص والعافية: هي لام كي، وقيل: لام الأمر، أمرهم أمر تهديد، كما يقول السيد لعبده متوعداً، إذا راه قد خالف أمره، اعصني ما شئت، وقيل: هي لام العاقبة؛ أي: ليكون عاقبة أمرهم كفران ما آتيناهم بنسبته إلى الأصنام، أو إلى النجم الفلاني، والمعنى على الأمر؛ أي: فليجحدوا[2] نعمي عليهم، وإحساني إليهم كيف شاؤوا، فإن لهم يوماً نحاسبهم فيه، يوم يؤخذون بالنواصي، ويجرون بالسلاسل والأغلال، ويقال لهم: ذوقوا ما كنتم تعملون.

ثم خاطب سبحانه هؤلاء الذين وقع منهم ما وقع، فقال: ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ بكفركم قليلاً إلى وقت آجالكم، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب، والأمر فيه: للتهديد أيضاً؛ أي: فتمتعوا بما آتيناكم من الرخاء، وسعة النعمة في الدنيا فما هي إلا أوقات قصيرة تمضي كلمح البصر، ثم هددهم أشد التهديد بقوله:

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ في الآخرة إذا وردتم علي عاقبة تمتعكم، وما يصيبكم من شديد عذابي، وعظيم عقابي على كفركم بي في الدنيا.

روي عن بعض السلف أنه قال: والله لو توعدني حارس درب.. لخفت فيه، فكيف والمتوعد هو الله، الذي يقول للشيء: كن فيكون.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ بالتاء فيهما، وقرأ أبو العالية: ﴿فيمتعوا﴾ بالياء مبنياً للمفعول، وهو معطوف على ﴿لِيَكْفُرُوا۟﴾ ﴿فسوف يعلمون﴾ بالياء على التهديد لهم، وعن أبي العالية: بياء قبل التاء عطف أيضاً على ﴿ليكفروا﴾؛ أي: لتطول أعمارهم على الكفر، وعنه عن عبد الله: ﴿فليتمتعوا﴾ باللام. وقال هارون: وفي مصحف عبد الله: ﴿يُمتعوا﴾.

ثم أنكر على المشركين ما اختلقوه من عبادة غيره تعالى بلا دليل، فقال: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنًا﴾ و﴿أَمْ﴾: منقطعة تقدر ببل الإضرابية، وهمزة الاستفهام الإنكاري المضمن لتوبيخ؛ أي: بل: أأنزلنا على هؤلاء المشركين حجة واضحة كالكتاب ﴿فَهُوَ﴾؛ أي: ذلك السلطان ﴿يَتَكَلَّمُ﴾ تكلم دلالة ﴿بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ﴾ تعالى ﴿يُشْرِكُونَ﴾؛ أي[2]: بإشراكهم به تعالى، وصحته على أن ﴿ما﴾ مصدرية، أو بالأصنام التي يشركون به تعالى في ألوهيته على أنها موصولة، وهي أولى من جعلها مصدرية، لوجود العائد، والمراد بالاستفهام، النفي والإنكار؛ أي: لم ننزل عليهم ذلك، ويجوز أن تكون الباء سببية؛ أي: بالأمر الذي بسببه يشركون.

والمعنى[3]: أي أأنزلنا على هؤلاء الذين يشركون في عبادتنا الآلهة والأصنام، كتاباً فيه تصديق لما يقولون، وإرشاد إلى حقيقة ما يدعون، وإجمال القصد: أنه لم ينزل بما يقولون كتاباً، ولا أرسل به رسولاً، وإنما هو شيء افتعلوه اتباعاً لأهوائهم.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

ثم ذكر طبيعة الإنسان وجبلته، إلا من عصمه الله فقال: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ﴾؛ أي: إذا منحنا ورزقنا جنس الإنسان ﴿رَحْمَةً﴾؛ أي: خصباً ونعمةً وعافيةً ﴿فَرِحُواْ بِهَا﴾؛ أي: بتلك الرحمة فرح بطر وأشر لا فرح شكر بها وحمد عليها، وابتهاج بوصولها إليهم، وغرتهم الحياة الدنيا، وأعرضوا عن عبودية المولى.

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ﴾؛ أي: شدة من بلاء وضيق مثلاً. ﴿بِمَا قَدَّمَتْ﴾؛ أي: بسبب شؤم ما قدمته واقترفته ﴿أَيْدِيهِمْ﴾ من المعاصي والذنوب، ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ وييئسون من رحمة الله تعالى؛ أي: فاجأهم القنوط واليأس من رحمة الله تعالى، والقنوط: اليأس من رحمة الله، كذا قال الجمهور، وقال الحسن: القنوط: ترك فرائض الله سبحانه، وقرأ الجمهور[1]: ﴿يقنطون﴾ بضم النون. وقرأ أبو عمرو، والكسائي ويعقوب: بكسرها.

أي: إن الإنسان قد ركب في طبيعته الفرح والبطر حين تصيبه النعمة، كما حكى الله سبحانه عنه ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ وإذا أصابته شدة بجهله بسنن الحياة، وعصيانه أوامر الدين.. قنط من رحمة الله، وآيس منها، فهو كما قيل:

كَحِمَارِ ٱلسُّوْءِ إِنْ أَعْلَفْتَهُ ... رَمَحَ ٱلنَّاسَ وَإِنْ جَاعَ نَهَقْ

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فإنهم راضون بما قسمه لهم من خير أو شر، علماً منهم أن الله حكيم لا يفعل إلا ما فيه خير للعبد، وفي الحديث الصحيح: «عجباً للمؤمن، لا يقضي الله قضاءً إلا كان خيراً له، إن أصابته سراء.. شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء.. صبر فكان خيراً له».

ثم أنكر عليهم ما يلحقهم من اليأس والقنوط لدى الضراء فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، و﴿الواو﴾: عاطفة على ذلك المحذوف والتقدير: ألم يشاهد الناس؛ أي: أهل مكة، ولم يعلموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ الرزاق ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ ويوسعه ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ أن يوسع عليه من

---

(١) الشوكاني.

عباده ويمتحنه بالشكر؛ أي: يوسع لمن يرى صلاحه في ذلك ﴿وَيَقۡدِرُ﴾؛ أي: ويضيق الرزق على من يرى نظام حاله في ذلك، ويمتحنه بالصبر ليستخرج منهم بذلك معلومه من الشكر والكفران والصبر والجزع، فما لهم لا يشكرون في السراء، ولا يتوقعون الثواب بالصبر في الضراء كالمؤمنين.

والمعنى: ألم يشاهدوا ويعلموا أن الأمرين من الله، فما بالهم لم يشكروا في السراء، ويحتسبوا في الضراء، كما يفعل المؤمنون، فإن من فطر هذا العالم لا ينزل الشدة بعباده إلا لما لهم فيها الخير، كالتأديب والتذكير والامتحان، فهو كما يربي عباده بالرحمة، يربيهم بالتعذيب، فلو أنهم شكروه حين السراء، وتضرعوا إليه في الضراء.. لكان خيراً لهم.

والخلاصة: أنه يجب عليهم أن ينيبوا إليه في الرخاء والشدة، ولا يعوقهم عن الإنابة إليه نعمة تبطرهم، ولا شدة تحدث في قلوبهم اليأس، بل يكونون في السراء والضراء منيبين إليه، قال شقيق رحمه الله تعالى: كما لاتستطيع أن تزيد في خلقك ولا في حياتك، كذلك لا تستطيع أن تزيد في رزقك، فلا تتعب نفسك في طلب الرزق.

فإن قلت: قال هنا[1]: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ بلفظ الرؤية، وفي الزمر ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ﴾ بلفظ العلم، فما الفرق بين الموضعين؟

قلت: الفرق بينهما: أن بسط الرزق مما يرى، فناسبه ذكر الرؤية، وما في الزمر تقدمة ﴿أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍۚ﴾ فناسبه ذكر العلم.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور من القبض والبسط ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾؛ أي: لدلالات على قدرته التامة، وحكمته البالغة ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ بها فيستدلون بها على وجود الصانع الحكيم، قال أبو بكر محمد بن سابق:

فَكَمْ قَوِيٍّ قَوِيٍّ فِيْ تَقَلُّبِهِ ... مُهَذَّبِ ٱلرَّأْيِ عَنْهُ ٱلرِّزْقُ يَنْحَرِفُ

---

(١) فتح الرحمن بتصرف.

وَكَمْ ضَعِيْفٍ ضَعِيْفٍ فِيْ تَقَلُّبِهِ   كَأَنَّهُ مِنْ خَلِيْجِ ٱلْبَحْرِ يَغْتَرِفُ
هَـٰذَا دَلِيْـلٌ عَلَـىٰ أَنَّ ٱلإِلٰـهَ لَـهُ   فِيْ ٱلْخَلْقِ سِرٌّ خَفِيٌّ لَيْسَ يَنْكَشِفُ

وحكي[1]: أن بعض العلماء سئل فقيل له: ما الدليل على أن للعالم صانعاً واحداً؟

قال: ثلاثة أشياء: ذل اللبيب، وفقر الأديب، وسقم الطبيب.

قال في «التأويلات النجمية»: الإشارة فيه إلى أن لا يعلق العباد قلوبهم إلا بالله سبحانه، لأن ما يسوءهم ليس زواله إلا من الله، وما يسرهم ليس وجوده إلا من الله، فالبسط الذي يسرهم ويؤنسهم منه وجوده، والقبض الذي يسوءهم ويوحشهم منه حصوله، فالواجب لزوم بابه سبحانه بالإسرار، وقطع الأفكار عن الأغيار. انتهى.

إذ لا يفيد للعاجز طلب مراده من عاجز مثله، فلا بد من الطلب من القادر المطلق، الذي هو الحق سبحانه، نسأل الله سبحانه أن يوقظنا من سنة الغفلة، ولا يجعلنا من المعذبين بعذاب الجهالة، إنه الجواد الكريم، البر الرؤوف الرحيم.

و﴿الفاء﴾: في قوله: ﴿فَئَاتِ﴾: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت أيها المكلف: أن البسط والقبض كليهما بيد الله سبحانه، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول لك آت؛ أي: أعط يا من بسط الله عليه الرزق ﴿ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾؛ أي: صاحب القرابة لك ﴿حَقَّهُۥ﴾؛ أي: ما يستحقه عليك، إما على سبيل الوجوب، أو الندب من الصلة والصدقة وسائر المبرات.

والخطاب فيه[2] للنبي ـ ﷺ ـ وأمته أسوته، أو لكل مكلف له مال واسع، وقدم الإحسان إلى القرابة، لأن خير الصدقة ما كان على قريب، فهو صدقة مضاعفة، وصلة رحم مرغب فيها.

---

(١) روح البيان.   (٢) الشوكاني.

وبهذه الآية يحتج أبو حنيفة على وجوب النفقة لذوي الأرحام المحارم عند الاحتياج، ويقيسهم الشافعي على ابن العم، فلا يوجب النفقة إلا على الولد والوالدين، لوجود الولادة.

﴿و﴾ آت ﴿المسكين﴾ سواء كان ذا قرابة أم لا ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ أي: المسافر ما يستحقانه من الصدقة والإعانة والضيافة، فإن ابن السبيل هو الضيف، كما في «كشف الأسرار»، والمراد بحقه: الصدقة المندوبة، ولا يصح حملها على الواجبة، وهي الزكاة، لأن السورة مكية، والزكاة ما فرضت إلا في السنة الثانية من الهجرة بالمدينة. ا هـ. «شيخنا».

ووجه تخصيص الأصناف الثلاثة بالذكر[1]: أنهم أولى من سائر الأصناف بالإحسان، ولكون ذلك واجباً لهم على كل من له مال فاضل عن كفايته وكفاية من يعول.

وقد اختلف في هذه الآية، هل هي محكمة أو منسوخة؟ فقيل: هي منسوخة بآية الميراث، وقيل: محكمة، وللقريب في مال قريبه الغني حق واجب، وبه قال مجاهد وقتادة، قال مجاهد: لا تقبل صدقة من أحد ورحمه محتاج، وقال الحسن: إن الأمر في إيتاء ذي القربى للندب، وقيل: المراد بالقربى: قرابة النبي ﷺ، قال القرطبي: والأول: أصح، لأن حقهم مبين في كتاب الله سبحانه في قوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾.

والمعنى: أي[2] أعط أيها الرسول أنت ومن تبعك من المؤمنين الأقارب الفقراء، جزءاً من مالك، صلةً للرحم، وبراً بهم، لأنهم أحق الناس بالشفقة، وكذا المسكين الذي لا مال له، إذا وقع في ورطة الحاجة.. فيجب على من عنده مقدرة دفع حاجته، وسد عوزه.

ومثله: المسافر البعيد عن ماله الذي لا يستطيع إحضار شيء منه، لانقطاع السبل به، فيجب مساعدته بما يدفع خصاصته، حتى يصل إلى مأمنه، وسرعة

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

طرق المواصلات الآن تدفع هذه الضرورة.

﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: إيتاء الحق وإخراجه من المال ﴿خَيْرٌ﴾ من الإمساك ﴿لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ تعالى؛ أي: يقصدون بمعروفهم إياه تعالى، خالصاً، فيكون الوجه[1] بمعنى الذات، أو جهة التقرب إليه، لا جهة أخرى من الأغراض والأعواض فيكون بمعنى الجهة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المعطون حقوق من ذكر، لمن ذكر، لوجه الله تعالى، وطلب رضاه سبحانه ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾؛ أي: الفائزون بالمطلوب في الآخرة، حيث حصلوا بما بسط لهم النعيم المقيم.

والمعنى: لهم في الدنيا خير، وهو البركة في أموالهم، لأن إخراج الزكاة يزيد في المال، وفي الآخرة خير، وهو الجزاء الجميل، والثواب الجزيل على إخراجهم المال لطاعة الله تعالى.

ومعنى الآية[2]: أي ذلك الإعطاء لمن تقدم ذكرهم من فعل الخير الذي يتقبله الله تعالى، ويرضى عن فاعليه، ويعطيهم جزيل الثواب، وأولئك قد ربحوا في صفقتهم، فأعطوا ما يغني، وحصلوا على ما يبقى من النعيم المقيم، والخير العميم، وإنما كان هذا العمل خيراً لما فيه من تكافل الأسرة الخاصة، وتعاونها في السراء والضراء، وتعاون الأسرة العامة، وهي الأمة الإسلامية جمعاء، كما جاء في الحديث: «المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشد بعضه بعضاً»، ولا يخفى ما لذلك من أثرٍ في تولد المحبة والمودة، وفي التكاتف لدفع عوادي الأيام، ومحن الزمان.

ثم ذكر سبحانه وتعالى من يتصرف في ماله على غير الجهة المرضية فقال: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا﴾؛ أي: وما أعطيتم من عطية خالية من العوض، أو ما[3] أعطيتم من زيادةٍ محرمة في المعاملة، أو عطية يتوقع بها مزيد مكافأة ﴿لِّيَرْبُوَا۟﴾؛ أي: ليزيد لكم ذلك المعطى، ويتسبب لكم ﴿فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: في أخذكم

---

(1) روح البيان.

(2) المراغي.

(3) البيضاوي.

من أموال الناس؛ أي: ليحصل لكم شيئاً أكثر منه، بأن تعطوا شيئاً وتطلبوا ما هو أفضل منه ﴿فَلَا يَرْبُواْ﴾ ذلك المعطى ولا يزيد لكم ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه فائدةً، ولا يبارك الله لكم فيه، فليس لكم فيه أجر، وليس عليكم فيه إثم إن كانت في غير المعاملة؛ أي: وما أعطيتم من عطية بلا مقابل ليربح لكم في أموال الناس، بتحصيل مكافأةٍ زائدةٍ عليه.. فلا يربح لكم عند الله سبحانه، فليس لكم عليه أجر.

وقيل: الآية في الرجل، يعطي صديقه أو قريبه، ليكثر ماله لا يريد به وجه الله، وقيل: هو الرجل يلتزق بالرجل، فيخدمه ويسافر معه، فيجعل له ربح ماله، لالتماس عونه، لا لوجه الله تعالى، فلا يربو عند الله تعالى، لأنه لم يرد بعمله وجه الله تعالى.

قرأ الجمهور[1]: ﴿ءَاتَيْتُم﴾ بالمد، بمعنى أعطيتم، وقرأ مجاهد، وحميد، وابن كثير: ﴿أتيتم﴾ بالقصر، بمعنى: ما فعلتم على وجه الإعطاء، فهي راجعة إلى قراءة المد، وأجمعوا على القراءة بالمد في قوله الآتي: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ﴾. ﴿من ربوا﴾ كتب[2] بالواو للتفخيم على لغة من يفخم في أمثاله من الصلاة والزكاة، أو للتنبيه على أصله، لأنه من ربا يربو: إذا زاد، وزيدت الألف تشبيهاً بواو الجمع، وقرأ الجمهور: ﴿ليربو﴾ بالياء وإسناد الفعل إلى الربا، وقرأ ابن عباس، والحسن، وقتادة، وأبو رجاء، والشعبي، ونافع، وأبو حيوة: بالتاء مضمومةً ﴿لتربوا﴾ وإسناد الفعل إليهم؛ أي: لتأخذوا الربا من أموال الناس، أو لتكونوا ذوي زيادات، وقرأ أبو مالك: ﴿ليربوها﴾ بضمير المؤنث.

والربا لغةً: مطلق الزيادة، وشرعاً: عقد مخصوص، مشتمل على الزيادة في المقدار، بأن يباع أحد مطعوم بمطعوم، أو نقدٍ بنقد بأكثر منه من جنسه، ويقال له: ربا الفضل، أو في الأجل بأن يباع أحدهما إلى أجل، ويقال له: ربا النساء، وكلاهما محرم، والمعنى عليه: وما أعطيتم من زيادة خالية من العوض عند

---

(١) البحر المحيط.　　(٢) روح البيان.

المعاملة، ليربو ويزيد في أموال الناس، فلا يربو عند الله؛ أي: لا يزيد عنده، ولا يبارك لكم فيه، كما قال تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟﴾.

وقال بعضهم: المراد بالربا في الآية: هو أن يعطي الرجل العطية، أو أن يهدي الهدية ويثاب ما هو أفضل منها، فهذا رباً حلال جائز، ولكن لا يثاب في القيامة، لأنه لم يرد به وجه الله تعالى.

والمعنى على هذا القول: أي ومن أهدى هديةً يريد أن ترد بأكثر منها.. فلا ثواب له عند الله تعالى، وقد حرم الله ذلك على رسوله - ﷺ - على الخصوص، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦﴾؛ أي: ولا تعط العطاء تريد أكثر منه.

روي عن ابن عباس أنه قال: الربا ربوان.. رباً لا يصح، وهو ربا بالبيع، وربا لا بأس به، وهو هدية الرجل يريد فضلها وإضعافها، ثم تلا هذه الآية.

وقال عكرمة: الربا ربوان: رباً حلال، ورباً حرام، فأما الربا الحلال: فهو الذي يهدي يلتمس ما هو أفضل منه، وعن الضحاك في هذه الآية: هو الربا الحلال الذي يهدي ليثاب ما هو أفضل منه، لا له ولا عليه، ليس له أجر، وليس عليه فيه إثم.

ومعنى الآية: أنه لا يزكو عند الله، ولا يثاب عليه، لأنه لا يقبل إلا ما أريد به وجهه خالصاً له.

واختلف[1] العلماء فيمن وهب هبة يطلب عوضها، وقال: إنما أردت العوض، فإن كان مثله ممن يطلب العوض من الموهوب له.. فله ذلك عند مالك، وذلك كهبة الفقير للغني، وهبة الخادم لصاحبه، وهبة الشخص لمن فوقه، ولأميره، وقال أبو حنيفة: لا يكون له عوض إذا لم يشترط، وهذان القولان جاريان للشافعي.

---

(١) المراح.

قال صاحب «روح البيان»: تشير الآية على القول الأول، إلى أنه لو قال المعطي للآخذ: أنا لا أعطي هذا المال إياك على أنه ربا، وجعله في حل.. لا يكون حلالاً، ولا يخرج عن كونه رباً، لأن ما كان حراماً بتحريم الله تعالى، لا يكون حلالاً بتحليل غيره، وإلى أن المعطي والآخذ سواء في الوعيد، إلا إذا كانت الضرورة قويةً في جانب الآخر، فلم يجد بداً من الأخذ بطريق الربا، بأن لا يقرضه أحد بغير معاوضةٍ.

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم﴾ وأعطيتم ﴿مِّن زَكَوٰةٍ﴾؛ أي: من صدقة تطوع إلى المساكين، سميت[1] زكاة لأنها تزكو وتنمو حالة كونكم ﴿تُرِيدُونَ﴾ بها ﴿وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه، وتقصدون ثوابه ورضاه، لا ثواب غيره من المكافأة، ولا رضاه بأن يكون رياءً وسمعةً ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المعطون على الصفة المذكورة ﴿هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾؛ أي: الذين أضعفت صدقاتهم في الآخرة بكثرة الثواب من عشرة أمثالها إلى سبع مئة ضعف، وبحفظ أموالهم في الدنيا، وبالبركة لها، و﴿ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ بكسرالعين على قراءة الجمهور: جمع مضعف، والمضعف: ذو الإضعاف في الأجر، كالمقوي لذي القوة، والموسر لذي اليسار، وقرأ أبيّ: ﴿المضعفون﴾ بفتح العين اسم مفعول، وفي عدوله عن الخطاب إلى الإخبار إيماء إلى أنه لم يخص به المخاطبون، بل هو عام في جميع المكلفين إلى قيام الساعة.

واعلم: أن المال عارية مستردة في يد الإنسان، ولا أحد أجهل ممن لا ينقذ نفسه من العذاب الدائم بما لا يبقى في يده، وقد تكفل الله سبحانه بإعواض المنفق.

ولما بين أنه لا زيادة، إلا فيما يزيده، ولا خير إلا فيما يختاره.. أكد ذلك بقوله: ﴿ٱللَّهُ﴾ الذي لا تصح العبادة إلا له، ولا ينبغي أن تكون لغيره هو ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ وأوجدكم من العدم، ولم تكونوا شيئاً؛ أي: خلقكم في بطون أمهاتكم أطواراً، ثم أخرجكم وفيكم الروح ﴿ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ ما به قوام شؤونكم في هذه

---

(١) روح البيان.

الحياة، وأطعمكم ما عشتم ودمتم في الدنيا، ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ في الدنيا وقت انقضاء آجالكم ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ يوم القيامة بالنفخة الأخيرة، ليجازيكم بما عملتم في الدنيا من الخير والشر، فهو سبحانه المختص بهذه الأشياء.

ثم وبخ هؤلاء المشركين، الذين يعبدون الآلهة والأصنام، التي لا تخلق ولا ترزق، ولا تحيي ولا تميت بقوله: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ التي زعمتم أنها شركاء لله، وأضاف الشركاء إليهم لأنهم كانوا يسمونهم آلهة، ويجعلون لهم نصيباً من أموالهم. ﴿مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم﴾ المذكور من الخلق والرزق والإماتة والإحياء.

﴿مِن شَيْءٍ﴾؛ أي[1]: لا يفعل أحد قط شيئاً من تلك الأفعال، والاستفهام فيه: للإنكار بمعنى النفي، و﴿مِّن﴾ الأولى والثانية، تفيدان شيوع الحكم في جنس الشركاء والأفعال، والثالثة مزيدة لتعميم المنفي، وكل منها مستعملة للتأكيد، لتعجيز الشركاء، والتقدير: من الذي يفعل شيئاً من ذلكم من شركائكم؟ ومعلوم أنهم يقولون: ليس فيهم من يفعل شيئاً من ذلك، فتقوم عليهم الحجة.

والمعنى: أي هل من آلهتكم وأوثانكم الذين جعلتموهم شركاء لي في العبادة من يخلق أو يرزق أو ينشر الميت يوم القيامة؟ وإجمال المعنى: أن شركاءكم لا يفعلون شيئاً من ذلك، فكيف يعبدون من دون الله تعالى.

ثم برأ سبحانه نفسه من هذه الفرية التي افتروها فقال: ﴿سُبْحَانَهُ﴾؛ أي: تنزه الله، أو نزهوه تنزيهاً بليغاً ﴿وَتَعَالَىٰ﴾ تعالياً كبيراً ﴿عما يشركون﴾؛ أي: عن إشراك المشركين؛ أي: تنزه عن الشريك، فهو الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿يشركون﴾ بياء الغيبة، والأعمش، وابن وثاب: بتاء الخطاب.

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

قيل[1]: الشرك على أقسام: أعظمها اعتقاد شريك لله في الذات، ويليه اعتقاد شريك لله في الفعل، كقول من يقول: العباد خالقون أفعالهم الاختيارية، ويليه الشرك في العبادة، وهو الرياء، وهذا هو المراد بحديث: «من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري.. تركته وشركَه» بفتح الكاف؛ أي: مع شريكه، والضمير في «تركته» لمن، يعني أن المرائي في طاعته آثم، لا ثواب له فيها.

قال الشيخ أبو حامد رحمه الله: إذا كان مع الرياء قصد الثواب راجحاً.. فالذي نظنه ـ والعلم عند الله ـ أن لا يحبط أصل الثواب، ولكن ينقص منه، فيكون الحديث محمولاً على ما إذا تساوى القصدان، أو يكون قصد الرياء أرجح.

قال الكلاباذي رحمه الله: العمل إذا صح في أوله.. لم يضره فساد بعد، ولا يحبطه شيء دون الشرك، لأن الرياء: هو ما يفعل العبد من أوله ليرائي به الناس، ويكون ذلك قصده ومراده عند أهل السنة والجماعة، لقوله تعالى: ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ ولو كان الأمر على ما زعم المعتزلة: من إحباط الطاعات بالمعاصي.. لم يجز اختلاطها واجتماعها، كذا في «شرح المشارق» لابن الملك.

قال في «الأشباه»: لو افتتح الصلاة خالصاً لله تعالى، ثم دخل في قلبه الرياء، فهو على ما افتتح، والرياء: أن يكون الشخص بحيث لو خلا عن الناس لا يصلي، وإذا كان معهم يصلي، فأما لو صلى مع الناس يحسنها، ولو صلى وحده.. لا يحسن، فله ثواب أصل الصلاة دون الإحسان، ولا يدخل الرياء في الصوم. انتهى.

فعلى العاقل أن يجتهد في طريق المراقبة والمشاهدة، حتى يلاحظ الله تعالى في كل فعل باشره من مأموراته، ولا يلاحظ غيره من مخلوقاته، حتى إن الراعي إذا صلى عند الأغنام، لا يلتفت إليها، إذ وجودها وعدمها سواء، فالرياء

(١) روح البيان.

لها هواء، والله تعالى خلق العبد، وخلق القدرة على الحركة، ورزقه القيام بأمره، فما معنى الشركة، نسأل الله سبحانه وتعالى الخلاص من الأغيار، وإخراج الملاحظات والأفكار من القلب الذي خلق للتوجه إليه، والحضور لديه.

﴿ظَهَرَ﴾؛ أي: كثر وشاع ﴿ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ﴾[1] كالجدب، وقلة النبات والربح في التجارات، والريع في الزراعات، والدر والنسل في الحيوانات، ومحق البركات من كل شيء، ووقوع الموتان بضم الميم كبطلان، الموت الشائع في الماشية، وظهور الوباء والطاعون في الناس، وكثرة الحرق ـ بفتحتين ـ اسم من الإحراق، وغلبة الأعداء، ووجود الفتن والحرب، ونحو ذلك من المضار.

﴿و﴾ في ﴿البحر﴾ كالغرق بفتحتين ـ اسم من الإغراق ـ وعمي دواب البحر، بانقطاع المطر، فإن المطر لها كالكحل للإنسان، وإخفاق الغواصين؛ أي: خيبتهم من اللؤلؤ، فإنه يتكون من مطر نيسان، فإذا انقطع.. لم ينعقد.

والظاهر من الآية[2]: ظهور ما يصح إطلاق اسم الفساد عليه، سواء كان راجعاً إلى أفعال بني آدم من معاصيهم، واقترافهم السيئات، وتقاطعهم وتظالمهم وتقاتلهم، أو راجعاً إلى ما هو من جهة الله سبحانه، بسبب ذنوبهم، كالقحط وكثرة الخوف، والبر والبحر: هما المعروفان المشهوران، وقيل: البر: الفيافي، والبحر: القرى التي على ماء، قاله عكرمة، والعرب تسمي الأمصار: البحار، قال مجاهد: البر: ما كان من المدن والقرى على غير نهر، والبحر: ما كان على شط نهر، والأول أولى.

والباء في قوله: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ للسببية، و﴿ما﴾ إما موصولة أو مصدرية؛ أي: بسبب شؤم المعاصي، التي كسبها الناس في البر والبحر، بمزاولة الأيدي غالباً، أو بسبب كسبهم، ففيه إشارة إلى أن الكسب من العبد، والتقدير والخلق من الله تعالى، فالطاعة كالشمس المنيرة، تنتشر أنوارها في الآفاق، فكذا الطاعة، تسري بركاتها إلى الأقطار، فهي من تأثيرات لطفه تعالى، والمعصية

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.

كالليلة المظلمة، فكما أن الليلة تحيط ظلمتها بالجوانب، فكذا المعصية تتفرق شآمتها إلى الأقارب والأجانب، فهي من تأثيرات قهره تعالى.

قيل[1]: أول فساد ظهر في البر قتل قابيل أخاه هابيل، وفي البحر أخذ الجلندي الملك كل سفينة غصباً، وفي المثل: أظلم من ابن الجلندي، بزيادة ابن كما في «إنسان العيون»، وكان من أجداد الحجاج، بينه وبينه سبعون جدّاً، وكانت الأرض خضرةً معجبة بنضارتها، لا يأتي ابن آدم شجرة إلا وجد عليها ثمرةً، وكان ماء البحر عذباً، وكان لا تقصد الأسود البقر، فلما وقع القتل المذكور.. تغير ما على الأرض، وشاكت الأشجار؛ أي: صارت ذات شوك، وصار ماء البحر ملحاً مراً جداً، وقصد بعض الحيوان بعضاً، وتعلقت شوكة بنبي، فلعنها، فقالت: لا تلعني فإني ظهرت من شؤم ذنوب الآدميين.

و﴿اللام﴾ في قوله: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ للعلة، والذوق: وجود الطعم بالفم، وكثر استعماله في العذاب، يعني: أفسد أسباب دنياهم بسوء صنيعهم، ليذيقهم بعض جزاء ما عملوا، واقترفوا من الذنوب، والإعراض عن الحق، ويعذبهم بالبأساء والضراء والمصائب، وإنما[2] قال: ﴿بَعْضَ﴾ لأن تمام الجزاء في الآخرة، ويجوز أن تكون اللام للعاقبة؛ أي: كان عاقبة ظهور الشرور منهم ذلك، نعوذ بالله من سوء العاقبة. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عما كانوا عليه من الشرك والمعاصي والغفلات، وتتبع الشهوات، وتضييع الأوقات إلى التوحيد والطاعة، وطلب الحق والجهد في عبوديته، وتعظيم الشرع والتأسف على ما فات.

ففيه تنبيه على أن الله تعالى إنما يقضي بالجدوبة، ونقص الثمرات والنبات، لطفاً من جنابه في رجوع الخلق عن المعصية.

وقرأ الجمهور: ﴿ليذيقهم﴾ بالياء، وقرأ السلمي، والأعرج، وأبو حيوة، وسلام، وسهل، وروح، وابن حسان، وقنبل من طريق مجاهد، وابن الصباح،

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

وأبو الفضل الواسطي عنه، ومحبوب عن أبي عمرو: ﴿لنذيقهم﴾ بالنون، ذكره أبو حيان.

ومعنى الآية[1]: أي ظهر الفساد في العالم، بالحروب والغارات والجيوش والطائرات والسفن الحربية والغواصات، بما كسبت أيدي الناس، من الظلم وكثرة المطامع وانتهاك الحرمات، وعدم مراقبة الخلاق، وطرح الأديان وراء ظهورهم، ونسيان يوم الحساب، وأطلقت النفوس من عقالها، وعاثت في الأرض فساداً إذ لا رقيب من وازع نفسي، ولا حسيب من دين يدفع عاديتها، ويمنع أذاها، فأذاقهم الله جزاء بعض ما عملوا من المعاصي والآثام، لعلهم يرجعون عن غيهم، ويثوبون إلى رشدهم، ويتذكرون أن هناك يوماً يحاسب الناس فيه على أعمالهم، إنْ خيراً.. فخير، وإن شراً.. فشر، فيخيم العدل على المجتمع البشري،ويشفق القوي على الضعيف، ويكون الناس سواسية في المرافق العامة وحاجِّ المجتمع بقدر الطاقة البشرية.

واعلم: أن الله تعالى[2] غيَّر بشؤم المعصية أشياء كثيرة، غير صورة إبليس واسمه، وكان اسمه الحارث وعزازيل فسماه: إبليس، وغير لون حام بن نوح، بسبب أنه نظر إلى سوأة أبيه فضحك، وكان أبوه نوح نائماً، فأخبر بذلك فدعا عليه، فسوده الله تعالى فتولد منه الهند والحبشة، وغير الصورة على قوم موسى فصيرهم قردة، وعلى قوم عيسى فصيرهم خنازير، وغير ماء القبط ومالهم فصيرهما دماً وحجراً، وغير العلم على أمية بن أبي الصلت، وكان من بلغاء العرب ـ حيث كان نائماً فأتاه طائر، وأدخل منقاره في فيه، فلما استيقظ نسي جميع علومه، وغير اللسان على رجل بسبب العقوق، حيث نادته والدته، فلم يجب فصار أخرس، وغير الإيمان على برصيصا، بسبب شرب الخمر والزنا بعد ما عبد الله تعالى مئتين وعشرين سنة إلى غير ذلك.

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة[1]: أن ظهور الفاحشة في قوم وإعلانها سبب لفشو الطاعون والأوجاع، ونقص الميزان، والمكيال سبب القحط وشدة المؤونة وجور السلطان، ومنع الزكاة سبب لانقطاع المطر، ولولا البهائم.. لم يمطروا، ونقض عهد الله وعهد رسوله سبب لتسلط العدو، وأخذ الأموال من أيدي الناس، وعدم حكم الأئمة بكتاب الله سبب لوقوع السيف والقتال بين الناس، وأكل الربا سبب للزلزلة والخسف، فضرر البعض يسري إلى الجميع، ولذا يقال: من أذنب ذنباً فجميع الخلق من الإنس والدواب والوحوش والطيور والذر خصماؤه يوم القيامة، فلا بد من الرجوع إلى الله تعالى بالتوبة والطاعة والإصلاح، فإن فيه الفوز والفلاح.

وبعد أن بين[2]: أن ظهور الفساد كان نتيجة أفعالهم، أرشدهم إلى أن من كان قبلهم، وكانت أفعالهم كأفعالهم، أصابهم بعذاب من عنده، وصاروا مثلاً لمن بعدهم، وعبرةً لمن خلفهم فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لأهل مكة: ﴿سِيرُوا﴾ أيها المشركون وسافروا ﴿فِي﴾ نواحي ﴿الْأَرْضِ﴾ وأرجائها؛ أي: في أرض الأمم المكذبة المهلكة ﴿فَانْظُرُوا﴾ بأعينكم ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ﴾؛ أي: كيف صار آخر آمر الذين كذبوا رسلهم من قبلهم، حين أهلكوا فكانوا كأمس الدابر، فإن منازلهم كانت خاويةً، وأراضيهم مقفرةً، موحشةً، كعاد وثمود وقوم لوط من طوائف الكفار.

والنظر على وجهين[3]: يقال: نظر إليه، إذا نظر بعينه، ونظر فيه: إذا تفكر بقلبه، وههنا قال: فانظروا، ولم يقل: إليه أو فيه، ليدل على مشاهدة الآثار ومطالعة الأحوال.

﴿كَانَ أَكْثَرُهُمْ﴾؛ أي: كان أكثر الذين من قبل ﴿مُشْرِكِينَ﴾ فأهلكوا بشركهم، وهو استئناف للدلالة على أن ما أصابهم لفشو الشرك فيما بينهم، أو كان الشرك

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

في أكثرهم وما دونه من المعاصي في قليل منهم فإذا أصابهم العذاب بسبب شركهم ومعاصيهم.. فليحذر من كان على صفتهم من مشركي قريش وغيرهم، أن يصيبهم العذاب إن أصروا على ذلك.

والمعنى: قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين من قومك: سيروا في البلاد، فانظروا إلى مساكن الذين كفروا بالله من قبلكم، وكذبوا رسله، كيف أهلكناهم بعذاب منا، وجعلناهم عبرةً لمن بعدهم.

ثم بين سبب ما حاق بهم من العذاب، فقال: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ فما حل بهم من العذاب، كان جزاء وفاقاً لكفرهم بآيات ربهم، وتكذيبهم رسله.

ولما بين[1] الله تعالى أن المعاصي والشرك سبب لسخط الله سبحانه.. أمر رسوله بأن يستقيم على الدين القويم، تثبيتاً للمؤمنين على ما هم عليه، إلا أنه خاطب به سيدهم تعظيماً له، ولكونه واسطةً بين الله وبين الأمة، فقال: ﴿فَأَقِمْ﴾ يا محمد واصرف وحول ﴿وَجْهَكَ﴾؛ أي: ذاتك قلباً وقالباً ﴿لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾؛ أي: إلى الدين البليغ الاستقامة، الذي ليس فيه عوج أصلاً، وهو دين الإسلام، والخطاب هنا: للنبي - ﷺ - ولكن المراد أمته، والفاء فيه: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت أنه قد ظهر الفساد في الأرض بسبب ما كسبت أيدي الناس، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول لك: فأقم أنت وأمتك وجوهكم للدين القيم، واثبتوا عليه.

وقيل المعنى: أوضح الحق وبالغ في الإعذار ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ هو يوم القيامة ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُ﴾؛ أي: لذلك اليوم، وهو مصدر بمعنى الرد ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ إما[2] متعلق بيأتي؛ أي: من قبل أن يأتي من الله يوم لا يرده أحد؛ أي: لا يقدر أحد على رده ودفعه، كقوله تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ ولا ينفع نفساً إيمانها حينئذٍ، أو متعلق بمرد، لأنه مصدر؛ أي: لا يرده الله تعالى بعد أن يجيء به، لتعلق إرادته القديمة بمجيئه، وقد وعد ولا خلف في وعده ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم إذ

---

(١) زادة. (٢) النسفي.

جاء ذلك اليوم ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾؛ أي: يتفرقون بعد محاسبة الله تعالى أهل الموقف، فريق في الجنة، وفريق في السعير، كما قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ﴾ بالله ورسوله في الدنيا ﴿فَعَلَيْهِ﴾ لا على غيره ﴿كُفْرُهُۥ﴾؛ أي: وبال كفره وجزاؤه، وهو النار المؤبدة، ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾؛ أي: وحد الله سبحانه، وعمل بالطاعة الخالصة بعد التوحيد ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ﴾ وحدها ﴿يَمْهَدُونَ﴾؛ أي: يسوون منزلاً في الجنة، ويفرشون ويهيئون له، وأصل[1] المهد: إصلاح المضجع للصبي، ثم استعير لغيره، كما في «كشف الأسرار» ومن التمهيد: تمهيد المضاجع في القبور، فإنه بالعمل الصالح يصلح منزل القبر ومأوى الجنة، وتقديم الظرف في الموضعين: للدلالة على الاختصاص.

ثم بين العلة في تفرقهم، فقال: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ الله سبحانه ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وصدقوا به وبرسوله في الدنيا، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بامتثال المأمورات، وهي ما أريد به وجه الله تعالى ورضاه الجزاء الجميل، والأجر الجزيل ﴿مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ وكرمه وإحسانه لا وجوباً عليه، وهو متعلق بـ﴿يجزي﴾، وهو متعلق بيصدعون؛ أي: يتفرقون بتفريق الله تعالى فريقين، ليجزي كلاً منهما بحسب أعمالهم، فيجازي المؤمنين بالحسنى من فضله، فيكافىء الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبع مئة ضعف إلى ما شاء الله من المنح والعطايا.

وقال ابن عطية: ومقابله محذوف لدلالة ما بعده عليه، تقديره: ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله، والكافرين بعدله.

وحيث كان جزاء المؤمنين هو المقصود بالذات، أبرز ذلك في معرض الغاية، وعبر عنه بالفضل، لما أن الإثابة عند أهل السنة بطريق التفضل، لا بطريق الوجوب، كما عند المعتزلة.

وأشار إلى جزاء الفريق الآخر بقوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ به وبرسوله؛ أي: إنه يبغضهم ولا يرضى أعمالهم، وذلك يستدعي

---

(١) روح البيان.

عقابهم، ولا يخفى ما في ذلك من تهديد ووعيد.

وروي أن الله سبحانه، أوحى إلى موسى عليه السلام: «ما خلقت النار بخلاً مني، ولكن أكره أن أجمع أعدائي وأوليائي في دار واحدة». نسأل الله سبحانه وتعالى أن ينزلنا دار أوليائه، ونستعيذ به أن يدخلنا دار أعدائه، مع أحبابنا وأحبائنا، وجميع المسلمين. آمين.

الإعراب

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾﴾:

﴿وَمِنْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مِنْ آيَاتِهِ﴾: جار ومجرور خبر مقدم ﴿يُرِيكُمُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول أول مرفوع لتجرده عن الناصب والجازم. ﴿ٱلْبَرْقَ﴾: مفعول ثان، لأن الرؤية هنا بصرية تعدت بالهمزة إلى مفعولين، والجملة الفعلية، مع أن المصدرية المحذوفة ـ لأن أصله أن يريكم ـ: في تأويل مصدر مرفوع على كونه مبتدأ مؤخراً، تقديره: وإراءته إياكم البرق من آياته تعالى، والجملة الاسمية: معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾: منصوبان على أنهما مفعولان لأجله، وقد اعترض على هذا الإعراب، بأن من حق المفعول له أن يكون فعلاً لفاعل الفعل المعلل، والخوف والطمع ليسا كذلك؟ والجواب عن هذا الاعتراض بأن يقال: بأنه على حذف مضاف؛ أي: يريكم إراءة خوف وإراءة طمع، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، وانتصب انتصابه، ويجوز أن يكونا حالين من كاف يريكم؛ أي: خائفين وطامعين. ﴿وَيُنَزِّلُ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ينزل﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: متعلق بـ﴿ينزل﴾. ﴿مَآءً﴾: مفعول به، والجملة: في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿يُرِيكُمُ﴾. ﴿فَيُحْىِۦ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿يحيي﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر معطوف على ﴿ينزل﴾، ﴿بِهِ﴾ متعلقان بـ﴿يحيي﴾ ﴿ٱلْأَرْضَ﴾: مفعول به، ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بمحذوف حال من الأرض. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب. ﴿فِى ذَٰلِكَ﴾: جار

ومجرور خبر مقدم لـ﴿إنّ﴾. ﴿لَآيَٰتٍ﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخر، واللام: حرف ابتداء، ﴿لِّقَوۡمٍ﴾: صفة ﴿لَآيَٰتٍ﴾، وجملة ﴿يَعۡقِلُونَ﴾: صفة لـ﴿قوم﴾.

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمۡ دَعۡوَةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ إِذَآ أَنتُمۡ تَخۡرُجُونَ ٢٥﴾.

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾: جار ومجرور خبر مقدم، ﴿أَن﴾: حرف مصدر، ﴿تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ﴾: فعل وفاعل منصوب بأن المصدرية، ﴿وَٱلۡأَرۡضُ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾. والجملة الفعلية: في تأويل مصدر مرفوع على كونه مبتدأ مؤخراً، والتقدير: وقيام السماء والأرض بأمره كائن من آياته، والجملة الاسمية: معطوفة على الجمل التي قبلها، ﴿بِأَمۡرِهِۦۚ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿تَقُومَ﴾. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿دَعَاكُمۡ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به. ﴿دَعۡوَةً﴾: مفعول مطلق، ﴿مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾: متعلق بـ﴿دَعَاكُمۡ﴾. والجملة الفعلية: في محل الخفض بـ﴿إِذَا﴾ على كونها فعل شرط لها. ﴿إِذَآ﴾: فجائية قائمة مقام الفاء في ربط الجواب بالشرط، حرف لا محل لها من الإعراب. ﴿أَنتُمۡ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿تَخۡرُجُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: جواب إذا لا محل لها من الإعراب. وجملة ﴿إِذَآ﴾: في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿أَن تَقُومَ﴾ على كونها مبتدأ مؤخراً، والتقدير: وقيام السماء والأرض بأمره، ثم خروجكم من الأرض وقت دعوته إياكم كائن من آياته.

﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ٢٦﴾

﴿وَلَهُۥ﴾: خبر مقدم، ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة: معطوفة على الجمل التي قبلها، ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، ﴿وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. ﴿كُلّٞ﴾: مبتدأ، وسوغ الابتداء به العموم، ﴿لَّهُۥ﴾: متعلق بـ﴿قَٰنِتُونَ﴾. ﴿قَٰنِتُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: في محل النصب حال من الضمير المستكن في الجار والمجرور في قوله: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ

﴿وَٱلْأَرْضِۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢٧﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾: مبتدأ وخبر، والجملة: معطوفة على الجمل التي قبلها، ﴿يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة: صلة الموصول، ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به معطوف على ﴿يَبْدَؤُا۟﴾. ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ﴾: مبتدأ وخبر. ﴿عَلَيْهِۚ﴾: متعلق بـ﴿أَهْوَنُ﴾، والجملة الاسمية: في محل النصب حال من الإعادة المفهومة من ﴿يعيد﴾؛ أي: حالة كون الإعادة أهون عليه من البدء بالنظر إلى ما نعرفه. ﴿وَلَهُ﴾: خبر مقدم، ﴿ٱلْمَثَلُ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿ٱلْأَعْلَىٰ﴾: صفة لـ﴿ٱلْمَثَلُ﴾، والجملة: معطوفة على ما قبلها، ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: حال من ﴿ٱلْمَثَلُ﴾، أو من ﴿ٱلْأَعْلَىٰ﴾، أو من الضمير فيه، ﴿وَٱلْأَرْضِۚ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة: معطوفة على ما قبلها، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: خبر ثان.

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٢٨﴾.

﴿ضَرَبَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر، والجملة: مستأنفة. ﴿لَكُم﴾: جار ومجرور في محل المفعول الثاني لـ﴿ضَرَبَ﴾، ﴿مَّثَلًا﴾: مفعول أول له، ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾: صفة لـ﴿مَّثَلًا﴾، ﴿هَل﴾: حرف استفهام للاستفهام الإنكاري، ﴿لَّكُم﴾: خبر مقدم. ﴿مِّن مَّا﴾: جار ومجرور حال من ﴿شُرَكَآءَ﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها، ﴿مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾: فعل وفاعل صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد: محذوف، تقديره: مما ملكته أيمانكم، ﴿مِّن﴾: زائدة، ﴿شُرَكَآءَ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿فِى مَا﴾: متعلق بشركاء، ﴿رَزَقْنَٰكُمْ﴾: صلة الموصول، والعائد: محذوف، تقديره: فيما رزقناكموه، والجملة الاسمية: جملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب، مبينة لضرب المثل. ﴿فَأَنتُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة واقعة في جواب الاستفهام، ﴿أنتم﴾: مبتدأ، ﴿فِيهِ﴾: متعلق بـ﴿سَوَآءٌ﴾. ﴿سَوَآءٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: معطوفة على الجملة الاستفهامية، وجملة ﴿تَخَافُونَهُمْ﴾: في

محل الرفع خبر ثان لـ﴿أنتم﴾، أو في محل النصب حال من الضمير المستكن في ﴿سَوَآءٌ﴾؛ أي: فأنتم متساوون فيه حالة كون بعضكم خائفاً من بعض مشاركته له في المال، ﴿كَخِيفَتِكُمْ﴾: صفة لمصدر محذوف؛ أي: خيفةً مثل خيفتكم، وهو مصدر مضاف إلى فاعله، و﴿أَنفُسَكُمْ﴾: مفعوله. ﴿كَذَٰلِكَ﴾: صفة لمصدر محذوف، ﴿نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول به، ﴿لِقَوْمٍ﴾: متعلق بـ﴿نُفَصِّلُ﴾، وجملة: ﴿يَعْقِلُونَ﴾: صفة لـ﴿قوم﴾، والتقدير: نفصل الآيات لقوم يعقلون، تفصيلاً مثل ذلك التفصيل المذكور هنا.

﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿بَلِ﴾: حرف إضراب وابتداء، ﴿ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة، وجملة ﴿ظَلَمُوٓا۟﴾: صلة الموصول. ﴿أَهْوَآءَهُم﴾: مفعول ﴿ٱتَّبَعَ﴾، ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: جار ومجرور حال من الموصول، ﴿فَمَن﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿مَن﴾: اسم استفهام للاستفهام الإنكاري، في محل الرفع مبتدأ، وجملة ﴿يَهْدِى﴾: في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: معطوفة على جملة ﴿ٱتَّبَعَ﴾، ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿يَهْدِى﴾، ﴿أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾: صلة الموصول، والعائد: محذوف، تقديره: من أضله الله. ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: نافية، ﴿لَهُم﴾: خبر مقدم، ﴿مِّن نَّٰصِرِينَ﴾: مبتدأ مؤخر، و﴿مِّن﴾: زائدة. ويجوز أن تجعل ﴿ما﴾: حجازية عند من يجيز تقديم خبرها على اسمها، والجملة الاسمية: معطوفة على الجملة قبلها.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿فَأَقِمْ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا كان حال المشركين اتباع الهوى، والإعراض عن الهدى، وأردت

بيان ما هو اللازم لك.. فأقول لك: أقم وجهك للدين القيم، ﴿أقم﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد وأمته أسوة له. ﴿وَجْهَكَ﴾: مفعول به، ﴿لِلدِّينِ﴾: متعلق بـ﴿أقم﴾، ﴿حَنِيفًا﴾: حال من فاعل ﴿أقم﴾، أو من مفعوله، أو من الدين، والجملة الفعلية: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة: مستأنفة. ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾: منصوب على الإغراء بفعل محذوف وجوباً، تقديره: الزموا ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾. والجملة المحذوفة: مقول لجواب إذا المقدرة ﴿ٱلَّتِى﴾ في محل النصب صفة لـ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾، ﴿فَطَرَ ٱلنَّاسَ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به ﴿عَلَيْهَا﴾: متعلق بـ﴿فَطَرَ﴾، والجملة: صلة الموصول، ﴿لَا﴾: نافية للجنس ﴿تَبْدِيلَ﴾: اسمها ﴿لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾: خبرها وجملة ﴿لا﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة على كونها مسوقة لتعليل ما قبلها، ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ﴾: مبتدأ وخبر، ﴿ٱلْقَيِّمُ﴾: صفة لـ﴿ٱلدِّينُ﴾، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة. ﴿وَلَٰكِنَّ﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿لكن أكثر الناس﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾: خبره، والجملة الاستدراكية: في محل النصب حال من ﴿ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾، ولكنها على تقدير رابط بينها وبين صاحب الحال؛ أي: والحال أن أكثر الناس لا يعلمون كونه ديناً قيماً، ﴿مُنِيبِينَ﴾: حال من فاعل الزموا المضمر، وهو أحسن من جعله حالاً من فاعل ﴿أقم﴾. ﴿إِلَيْهِ﴾: متعلق بـ﴿مُنِيبِينَ﴾، ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على الزموا المضمر، ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾، ﴿وَلَا تَكُونُوا۟﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: ناهية جازمة، ﴿تَكُونُوا۟﴾: فعل مضارع ناقص واسمه مجزوم بـ﴿لا﴾: الناهية، ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: خبره، والجملة: معطوفة على جملة ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾.

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور بدل من قوله: ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بإعادة الجار، ﴿فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة: صلة الموصول، ﴿وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾: فعل ناقص واسمه وخبره معطوف على جملة الصلة، ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ﴾: مبتدأ

ومضاف إليه، ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿فَرِحُونَ﴾، ﴿لَدَيْهِمْ﴾: ظرف ومضاف إليه متعلق بمحذوف صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، ﴿فَرِحُونَ﴾: خبر للمبتدأ، والجملة: مستأنفة مقررة لما قبلها.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة: في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذَا﴾، والظرف: متعلق بالجواب الآتي، ﴿دَعَوْاْ رَبَّهُم﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة: جواب ﴿إِذَا﴾، وجملة ﴿إِذَا﴾: مستأنفة، ﴿مُّنِيبِينَ﴾: حال من فاعل ﴿دَعَوْاْ﴾، ﴿إِلَيْهِ﴾: متعلق بـ﴿مُنِيبِينَ﴾. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف، ﴿إِذَآ﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿أَذَاقَهُم﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول أول، ﴿مِّنْهُ﴾: حال من ﴿رَحْمَةً﴾، ﴿رَحْمَةً﴾: مفعول ثان لـ﴿أَذَاقَهُم﴾، والجملة: في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذَا﴾ على كونها فعل شرط لها، ﴿إِذَا﴾: فجائية رابطة لجواب ﴿إِذَا﴾، ﴿فَرِيقٌ﴾: مبتدأ، ﴿مِّنْهُم﴾: صفة لـ﴿فَرِيقٌ﴾، ﴿بِرَبِّهِمْ﴾: متعلق بـ﴿يُشْرِكُونَ﴾. وجملة ﴿يُشْرِكُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: جواب ﴿إِذَا﴾، وجملة ﴿إِذَا﴾: معطوفة على جملة ﴿إِذَآ﴾ الأولى.

﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿لِيَكْفُرُواْ﴾: ﴿اللام﴾: لام كي، أو لام العاقبة، وقيل: هي لام الأمر، والمراد بالأمر، التهديد والوعيد، ﴿يكفروا﴾: فعل مضارع منصوب بأن المضمرة بعد ﴿اللام﴾: و﴿الواو﴾: فاعله، ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية، مع أن المضمرة: في تأويل مصدر مجرور بـ﴿اللام﴾: تقديره: لكفرهم بما آتيناهم. والجار والمجرور متعلق بـ﴿يُشْرِكُونَ﴾، ﴿ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، والمفعول الثاني: محذوف، تقديره: بما آتيناهموه، والجملة: صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿تمتعوا﴾: فعل أمر، و﴿الواو﴾: فاعل، والجملة: معطوفة على ﴿يكفروا﴾، ولكن فيه التفات عن

الغيبة إلى الخطاب للمبالغة، فكأنه قال: ليكفروا بما آتيناهم فيتمتعوا به، ﴿فَسَوْفَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿سوف﴾: حرف استقبال، ﴿تَعْلَمُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿تمتعوا﴾.

﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿أَمْ﴾: منقطعة بمعنى بل الإضرابية، و﴿همزة﴾: الاستفهام الإنكاري، ﴿أَنزَلْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة، ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق بـ﴿أَنزَلْنَا﴾، وفيه التفات عن الخطاب إلى الغيبة، للإيذان بالإعراض عنهم، وبعدهم عن ساحة الخطاب. ا هـ. «شيخنا». كما سيأتي في مبحث البلاغة، ﴿سُلْطَانًا﴾: مفعول به، ﴿فَهُوَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿هو﴾: مبتدأ. وجملة ﴿يَتَكَلَّمُ﴾: خبره، والجملة الاسمية: معطوفة على جملة ﴿أَنزَلْنَا﴾، ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَتَكَلَّمُ﴾، ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿بِهِ﴾ متعلق بـ﴿يُشْرِكُونَ﴾، وجملة ﴿يُشْرِكُونَ﴾: خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾: صلة الموصول.

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَإِذَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿أَذَقْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿النَّاسَ﴾: مفعول أول، ﴿رَحْمَةً﴾: مفعول ثان، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، ﴿فَرِحُوا﴾: فعل وفاعل، ﴿بِهَا﴾: متعلق به، والجملة: جواب ﴿إذا﴾، وجملة ﴿إذا﴾: معطوفة على جملة ﴿إذا﴾ الأولى، وما بينهما اعتراض. ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿تُصِبْهُمْ﴾: فعل مضارع ومفعول به مجزوم بـ﴿إن﴾: الشرطية. ﴿سَيِّئَةٌ﴾: فاعل، ﴿بِمَا﴾: ﴿الباء﴾: حرف جر وسبب، ﴿ما﴾: اسم موصول في محل الجر بالباء، والجار والمجرور متعلق بـ﴿تُصِبْهُمْ﴾. ﴿قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: بما قدمته أيديهم، ﴿إِذَا﴾: فجائية رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية، ﴿هُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَقْنَطُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية: في محل الجزم على كونها جواب

﴿إن﴾: الشرطية، وجملة ﴿إن﴾: الشرطية معطوفة على جملة ﴿إذا﴾ الشرطية.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف معلوم من السياق، و﴿الواو﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، ﴿لم﴾: حرف جزم، ﴿يَرَوْا﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لم﴾، والجملة: معطوفة على تلك المحذوفة، والتقدير: ألم يشاهد هؤلاء المشركون، ولم يعلموا أن الله يبسط الرزق، ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾: خبره، ﴿لِمَن﴾: متعلق بـ﴿يَبْسُطُ﴾، وجملة ﴿يَشَاءُ﴾: صلة ﴿من﴾ الموصولة، ﴿وَيَقْدِرُ﴾ معطوف على ﴿يَبْسُطُ﴾، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ﴿يَرَوْا﴾، ﴿إِنَّ﴾ حرف نصب، ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ خبرها مقدم، ﴿لَآيَاتٍ﴾: اسمها مؤخر، و﴿اللام﴾: حرف ابتداء. ﴿لِّقَوْمٍ﴾: صفة ﴿لَآيَاتٍ﴾. وجملة ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: صفة قوم. وجملة ﴿إن﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿فَآتِ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره، إذا عرفت أن القبض والبسط كليهما بيد الله سبحانه، وأردت بيان ما هو اللازم لك فأقول لك أيها المكلف: آت. ﴿آت﴾: فعل أمر وفاعل مستتر مبني على حذف حرف العلة، ﴿ذَا الْقُرْبَىٰ﴾: مفعول به أول، والجملة: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة: مستأنفة. ﴿حَقَّهُ﴾: مفعول ثان ومضاف إليه، ﴿وَالْمِسْكِينَ﴾: معطوف على ﴿ذَا الْقُرْبَىٰ﴾، ﴿وَابْنَ السَّبِيلِ﴾: معطوف عليه أيضاً. ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة. ﴿لِّلَّذِينَ﴾: متعلق بـ﴿خَيْرٌ﴾. وجملة: ﴿يُرِيدُونَ﴾: صلة الموصول. ﴿وَجْهَ اللَّهِ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿وَأُولَٰئِكَ﴾: مبتدأ أول، ﴿هُمُ﴾: مبتدأ ثان، ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾: خبر للمبتدأ الثاني، وجملة الثاني: خبر للأول، وجملة الأول: مقول لجواب إذا.

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة أو استئنافية، ﴿ما﴾: اسم شرط جازم في محل النصب مفعول مقدم وجوباً، ﴿ءَاتَيْتُم﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿ما﴾: الشرطية على كونها فعل شرط لها، والمفعول الثاني لـ﴿آتِ﴾ محذوف، تقديره: وما آتيتموه ﴿مِّن رِّبًا﴾: حال من الضمير المحذوف، ﴿لِّيَرْبُوَاْ﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿يربو﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي، ﴿يربو﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿ما﴾ أو على ﴿رِّبًا﴾. ﴿فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾: متعلق بـ﴿يربو﴾. والجملة في تأويل مصدر مجرور بـ﴿اللام﴾: تقديره لربائه في أموال الناس، والجار والمجرور متعلق بـ﴿ءَاتَيْتُم﴾، ﴿فَلَا يَرْبُواْ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب بالشرط وجوباً لاقترانه بـ﴿لا﴾ النافية. ﴿يربوا﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر. ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل الجزم بـ﴿ما﴾: الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿ما﴾: الشرطية في محل النصب معطوف على جملة قوله: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾: على كونها مقولاً لجواب إذا المقدرة، أو مستأنفة. ﴿وَمَآ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: الشرطية، ﴿ءَاتَيْتُم﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿ما﴾: الشرطية. ﴿مِّن زَكَوٰةٍ﴾: حال من الضمير المحذوف، ﴿تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة: في محل النصب حال من فاعل ﴿ءَاتَيْتُم﴾. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة للجواب ﴿أولئك﴾: مبتدأ ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل ﴿ٱلْمُضْعِفُونَ﴾: خبره. والجملة الاسمية: في محل الجزم على كونها جواباً لـ﴿ما﴾: الشرطية، وجملة ﴿ما﴾: الشرطية: معطوفة على جملة ﴿ما﴾ الأولى.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿ٱلَّذِى﴾: خبر. ﴿خَلَقَكُمْ﴾: صلة الموصول، والجملة الاسمية، متسأنفة، ﴿ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾: معطوف على ﴿خَلَقَكُمْ﴾. ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾:

معطوف على ﴿رَزَقَكُمْ﴾. ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾: معطوف على ﴿يُمِيتُكُمْ﴾. ﴿هَلْ﴾: حرف استفهام للاستفهام الإنكاري. ﴿مِن شُرَكَآئِكُم﴾: جار ومجرور خبر مقدم، و﴿مَن﴾: للتبعيض. ﴿مَّن﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية: جملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿يَفْعَلُ﴾: صلة الموصول، ﴿مِن ذَٰلِكُم﴾: حال من ﴿شَيْءٍ﴾، لأنه كان في الأصل صفة له، ﴿مِن﴾: زائدة. ﴿شَيْءٍ﴾: مفعول به لـ﴿يَفْعَلُ﴾. ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾: مفعول مطلق لفعل محذوف وجوباً؛ أي: سبحوه سبحاناً، أو أسبحه سبحاناً، والجملة: مستأنفة، ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر معطوف على جملة ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾. ﴿عَمَّا﴾: متعلق بـ﴿تعالى﴾. و﴿ما﴾: مصدرية أو موصولة، وجملة ﴿يُشْرِكُونَ﴾: صلة لها؛ أي: عن إشراكهم، أو عن الشريك الذي يشركونه به.

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة مسوقة لتقرير ما عم في مختلف الأنحاء من البر والبحر، من مفسدة وظلم ولهو ولعب وسائر ما يطلق عليه الفساد الذي هو ضد الصلاح، ﴿فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾: متعلق بـ﴿ظَهَرَ﴾ أو حال من الفساد، ﴿بِمَا﴾: متعلق بـ﴿ظَهَرَ﴾ أيضاً، ﴿ما﴾: مصدرية أو موصولة، ﴿كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾: فعل وفاعل. والجملة: صلة لـ﴿ما﴾: المصدرية؛ أي: بسبب كسبهم، أو صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف؛ أي: بسبب الذي كسبوه. ﴿لِيُذِيقَهُم﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل متعلقة بمحذوف، تقديره: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ وعاقبهم ﴿لِيُذِيقَهُم﴾. وقيل: ﴿اللام﴾: لام العاقبة والصيرورة، لأن ذلك هو مآلهم وعاقبتهم، وأجاز أبو البقاء تعلق ﴿اللام﴾ بـ﴿ظَهَرَ﴾. ﴿يذيقهم﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول أول منصوب بأن مضمرة بعد ﴿اللام﴾، ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى﴾: مفعول ثان ومضاف إليه، والجملة الفعلية مع أن المضمرة: في تأويل مصدر محرور بـ﴿اللام﴾ تقديره: لإذاقته إياهم بعض الذين عملوا؛ أي: جزاءه في الدنيا، ﴿عَمِلُوا۟﴾: فعل وفاعل

صلة الموصول. ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿يَرْجِعُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿لعل﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ (٤٢)﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة: مستأنفة، ﴿سِيرُوا﴾: فعل أمر وفاعل. ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية: في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿فَانْظُرُوا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿انظروا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿سِيرُوا﴾. ﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام في محل النصب خبر ﴿كان﴾ مقدم. ﴿كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ﴾: فعل ناقص واسمه ومضاف إليه، ﴿مِنْ قَبْلُ﴾: جار ومجرور صلة الموصول. وجملة ﴿كان﴾: في محل النصب مفعول ﴿انظروا﴾: معلق عنها باسم الاستفهام، ﴿كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾: فعل ناقص واسمه وخبره، والجملة: مستأنفة مسوقة لبيان أن ما أصابهم كان لفشو الشرك في أكثرهم والفساد والمعاصي في أقلهم.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (٤٣) مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٤٥)﴾.

﴿فَأَقِمْ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت أنه قد ظهر الفساد في الأرض، بسبب ما كسبت أيدي الناس، وأردت بيان ما هو اللازم لك ولأمتك.. فأقول لك: ﴿أقم وجهك﴾ الخ، ﴿أقم﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد، ﴿وَجْهَكَ﴾: مفعول به، ﴿لِلدِّينِ﴾: متعلق بـ﴿أقم﴾. ﴿الْقَيِّمِ﴾: صفة ﴿لِلدِّينِ﴾، والجملة الفعلية: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة. ﴿مِنْ قَبْلِ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿أقم﴾، أو من ﴿الدين﴾. ﴿أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾: فعل وفاعل منصوب بـ﴿أن﴾ المصدرية، والجملة: في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه، تقديره: من

قبل إتيان يوم لا مرد له من الله، ﴿لَّا﴾: نافية للجنس، ﴿مَرَدَّ﴾: اسمها. ﴿لَهُۥ﴾: خبرها، والجملة: في محل الرفع صفة لـ﴿يَوۡمٌ﴾، ﴿مِنَ ٱللَّهِۖ﴾: إما متعلق بـ﴿يَأۡتِيَ﴾ أو بمحذوف دل عليه المصدر؛ أي: لا يرده من الله أحد، ولا يجوز تعلقه بـ﴿مَرَدَّ﴾، لأنه حينئذٍ يكون شبيهاً بالمضاف فيعرب بالفتحة الظاهرة، ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾: ظرف مضاف لمثله متعلق بـ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾. ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة. ﴿مَن كَفَرَ﴾: ﴿مَن﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر: جملة الشرط، أو الجواب، أو هما، ﴿كَفَرَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر في محل الجزم بـ﴿مَن﴾: على كونه فعل شرط لها، ﴿فَعَلَيۡهِ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿مَن﴾: الشرطية وجوباً، ﴿عليه﴾: خبر مقدم، ﴿كُفۡرُهُۥۖ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة: في محل الجزم جواب ﴿مَن﴾: الشرطية، وجملة ﴿مَن﴾: لشرطية، وجملة مفسرة لقوله: ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾: فلا محل لها من الإعراب، ﴿وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَن﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، أو فعل الشرط خبره. ﴿عَمِلَ صَٰلِحٗا﴾: فعل ماض وفاعل مستتر ومفعول به في محل الجزم بـ﴿مَن﴾: الشرطية، على كونها فعل شرط لها. ﴿فَلِأَنفُسِهِمۡ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب جوازاً. مشاكلة للجواب الماضي ﴿لأنفسهم﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَمۡهَدُونَ﴾. ﴿يَمۡهَدُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة: في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية: معطوفة على جملة ﴿مَن﴾ الأولى. ﴿لِيَجۡزِيَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل. ﴿يجزي﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، منصوب بأن مضمرة بعد لام كي. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مفعول به، الجار والمجرور متعلق بـ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾، أو بـ﴿يَمۡهَدُونَ﴾، أو خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: ذلك كائن لجزائه الذين آمنوا الخ. ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: معطوف عليه. ﴿مِن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾: متعلق بـ﴿يجزي﴾. ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر ﴿إن﴾. وجملة ﴿إن﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل جملة محذوفة معلومة من السياق، تقديره: ويعاقب الكافرين بعدله، لأنه لا يحب الكافرين.

التصريف ومفردات اللغة

﴿يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾ البرق: لمعان السحاب. وفي «إخوان الصفا»: البرق: نار وهواء. ﴿خَوْفًا﴾؛ أي: إخافةً من الصاعقة، خصوصاً لمن كان في البرية، كقولهم: فعلته رغماً للشيطان؛ أي: إرغاماً له.

﴿وَطَمَعًا﴾؛ أي: إطماعاً في الغيث، لا سيما لمن كان مقيماً.

﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾؛ أي: مطراً، قال في «إخوان الصفا»: المطر: هو الأجزاء المائية، إذا التأم بعضها مع بعض وبردت وثقلت رجعت إلى الأرض.

﴿فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾: والأرض: جسم غليظ أغلظ ما يكون من الأجسام، واقف في مركز العالم مبين لكيفية الجهات الست كما مر.

﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾: من القنوت، وهو الطاعة، والمراد: طاعة الإرادة، لا طاعة العبادة؛ أي: منقادون لما يريده بهم من حياة وموت وبعث وصحة وسقم وعز وذل، لا يمتنعون عليه تعالى في شأن من شؤونه.

﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾؛ أي: أسهل وأيسر بالنظر إلى ما نعرفه، قال في «القاموس»: هان هوناً، بالضم، وهواناً ومهانةً: ذل، وهوناً: سهل، فهو هين، بالتشديد والتخفيف وأهون. ا هـ.

﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾؛ أي: الوصف الأعلى: العجيب الشأن من القدرة العامة، والحكمة التامة، وسائر صفات الكمال التي ليس لغيره ما يدانيها، فضلاً عما يساويها.

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا﴾: يقال: ضرب الدرهم اعتباراً بضربه بالمطرقة، وقيل له: الطبع اعتباراً بتأثير السكة فيه، وضرب المثل: هو من ضرب الدرهم، وهو ذكر شيء أثره يظهر في غيره، والمثل: عبارة عن قول في شيء يشبه قولاً في شيء آخر، بينهما مشابهة، لتبيين أحدهما بالآخر وتصويره.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ وأقم من أقام العود وقومه، إذا عدله، والمراد:

الإقبال على دين الإسلام والثبات عليه، والوجه في الأصل: الجارحة المخصوصة، سميت وجهاً لأن بها تحصل المواجهة، وقد يعبر به عن الذات، كما في قوله: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥ﴾ وهذا المعنى هو المراد هنا، والدين: في الأصل الطاعة والجزاء، واستعير هنا للشريعة، والفرق بينه وبين الملة اعتباري، فإن الشريعة من حيث إنها يطاع لها وينقاد: دين، ومن حيث إنها تملى وتكتب: ملة، والإملاء: كالإملال، هو حكاية القول لمن يكتبه.

﴿حَنِيفًاۚ﴾: وفي «المفردات» الحنف: ميل عن الضلال إلى الاستقامة، وتحنف فلان: تحرى طريق الاستقامة، وسمت العرب كل من اختتن أو حج: حنيفاً، تنبيهاً على أنه على دين إبراهيم ـ عليه السلام ـ.

﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ والفطرة: الخلقة وزناً ومعنىً، وقولهم: صدقة الفطرة؛ أي: صدقة إنسانٍ مفطورٍ؛ أي: مخلوق فيؤول إلى قولهم: زكاة الرأس، والمراد بالفطرة ههنا: هي الحالة التي خلق الله الناس عليها، من القابلية للتوحيد ودين الإسلام، والتهيؤ لإدراكه عن غير إباء عنه وإنكار له. قال الراغب: فطرة الله ما فطر؛ أي: أبدع وركز في الناس من قوتهم على معرفة الإيمان.

﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ﴾: هو فطرته المذكورة أولاً.

﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾؛ أي: المستوي الذي لا عوج فيه ولا انحراف.

﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾: هو من أناب الرباعي إذا رجع مرةً بعد أخرى، ويقال: ناب نوبةً ونوباً: إذا رجع مرة بعد أخرى؛ أي: راجعين إليه بالتوبة وإخلاص العمل.

﴿وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾؛ أي: فرقاً تشايع كل فرقة إمامها الذي مهد لها دينها. وقرره ووضع أصوله.

﴿كُلُّ حِزْبٍۭ﴾: الحزب: الجماعة من الناس، والسلاح، وجند الرجل، وأصحابه الذين على رأيه، والنصيب والقسم من القرآن أو غيره، والجمع أحزاب، وكل قوم تشاكلت قلوبهم وأعمالهم فهم أحزاب، وإن لم يلق بعضهم بعضاً.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ﴾ قال في «المفردات»: المس: يقال في كل ما ينال الإنسان من أذى.

﴿سُلْطَٰنًا﴾: والسلطان: الحجة، تقول: له سلطان مبين؛ أي: حجة واضحة، وعبارة «القاموس»: والسلطان: الحجة وقدرة الملك. ا هـ.

والسلطان: يذكر؛ لأنه بمعنى الدليل، ويؤنث، لأنه بمعنى الحجة. وقيل: هو جمع سليط للدهن، كرغيف ورغفان.

﴿يَقْنَطُونَ﴾؛ أي: ييئسون من الرحمة، وفي «المصباح»: هو بفتح النون وكسرها سبعيتان، وبابه ضرب وتعب. وفي «القاموس»: قنط كنصر وضرب وحسب وكرم قنوطاً، وكفرح قنطاً وقناطةً، كمنع وحسب، وهاتان على الجمع بين اللغتين، يئس فهو قنط كفرح، وقنطه تقنيطاً آيسة، والقنط: المنع، وزبيب الصبي. انتهى.

﴿حَقَّهُۥ﴾: هو صلة الرحم والبر به.

﴿وَٱلْمِسْكِينَ﴾: هو المعدم الذي لا مال له.

﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾: هو المسافر، احتاج إلى مال وعز عليه إحضاره من بلده، ووسائل المواصلات الحديثة الآن تدفع مثل هذه الحاجة.

﴿رِّبًا﴾؛ أي: زيادة، والمراد بها هنا: الهدية التي يتوقع بها مزيد مكافأة.

﴿فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: فلا يبارك فيه.

﴿ٱلْمُضْعِفُونَ﴾؛ أي: الذين يضاعف الله لهم الثواب، جمع مضعف، وهو اسم فاعل من أضعف، إذا صار ذا ضعف بكسر فسكون، كأن يضاعف له ثواب ما أعطاه، كأقوى وأيسر، إذا صار ذات قوةٍ ويسار فهو لصيرورة الفاعل، ذا أصلهُ.

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ﴾ في «القاموس»: فسد كنصر وكرم فساداً: ضد صلح، فهو فاسد، والفساد أخذ المال ظلماً، والجدب والمفسدة: ضد المصلحة. ا هـ.

﴿يَصَّدَّعُونَ﴾: أصله يتصدعون، فأدغمت التاء في الصاد وشددت، والصدع: الشق في الأجسام الصلبة كالزجاج والحديد ونحوهما، ومنه استعير صدع الأمر؛ أي: فصله، والصداع وهو: الانشقاق في الرأس من الوجع، ومنه الصديع للفجر، لأنه ينشق من الليل، والمعنى: يتفرقون فريق في الجنة وفريق في السعير، وفي «المصباح»: صدعته صدعاً من باب نفع، شققته فانصدع، وصدعت القوم صدعاً فتصدعوا، أي فرقتهم فتفرقوا، وقوله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾، قيل: مأخوذ من هذا؛ أي: شق جماعاتهم بالتوحيد، وقيل: افرق بذلك بين الحق والباطل. وقيل: أظهر ذلك، وصدعت بالحق تكلمت به جهاراً، وصدعت الفلاة: قطعتها. ا هـ.

﴿يَمْهَدُونَ﴾: وفي «المختار»: ومهد الفراش بسطه ووطأهُ. ا هـ؛ أي: يتخذون ويهيئون منازلهم، ولتسببهم في تهيئة المنازل لهم وتمهيدها واتخاذها نسب إليه. ا هـ. «شيخنا».

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الطباق بين قوله: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ وبين ﴿يَبْسُطُ﴾، ﴿وَيَقْدِرُ﴾ وبين ﴿يُمِيتُكُمْ﴾، و﴿يُحْيِيكُمْ﴾ وبين ﴿يَبْدَؤُا﴾، و﴿يُعِيدُهُۥ﴾.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ وقوله: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ﴾ وفي قوله: ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾.

ومنها: وضع الظاهر موضع المضمر في قوله: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم﴾ للتسجيل عليهم بوصف الظلم؛ أي: بأنهم في ذلك الاتباع ظالمون، وفيه أيضاً الالتفات من الخطاب إلى الغيبة إهانةً لهم، وإيذاناً بأنهم لايتسحقون الخطاب.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ شبه إقباله على الدين واستقامته واهتمامه بترتيب أسبابه، بحال من اهتم بشيء محسوس بالبصر، عقد عليه طرفه، ومد إليه نظره، وقوم له وجهه مقبلاً عليه، وفيه المجاز المرسل أيضاً في قوله: ﴿وَجْهَكَ﴾: حيث أطلق الجزء وأراد الكل؛ أي: توجه إلى الله بكليتك، وفيه أيضاً الاستعارة التصريحية حيث استعار الدين، الذي هو بمعنى الجزاء للشريعة للمجازاة عليها.

ومنها: المقابلة بين قوله: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا﴾ وبين قوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾.

ومنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ كما تقول كتابه ناطق بكذا، وهذا مما نطق به القرآن، ومعناه الدلالة والشهادة، فهو يشهد بشركهم، أو بالذي يشركون به.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾، وفيه الكناية أيضاً لأن قوله: ﴿لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ كناية، لأن الزيادة التي يأخذها المرابي من أموال الناس، لا يملكها أصلاً، فالظرفية: هي موضع الكناية.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ ففيه التفات من الخطاب إلى الغيبة للتعظيم، فهو أمدح من أن يقول لهم: فأنتم المضعفون، وفيه حذف المفعول به؛ أي: ثوابهم.

ومنها: المقابلة بين قوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا﴾ وقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ﴾.

ومنها: الطباق بين البر والبحر في قوله: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ بإطلاق الجزء وإرادة الكل.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن

﴿ذَٰلِكُمْ﴾.

ومنها: جناس المناسبة اللفظي؛ لأن الجناس أصلين: وهما: جناس المزاوجة، وجناس المناسبة.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ حيث استعار الصدع بمعنى: الشق في الأجسام الصلبة، للصدع بمعنى التفريق، فاشتق من الصدع بمعنى التفريق ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾ بمعنى يتفرقون على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

ومنها: الاستعارة اللطيفة في قوله: ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ شبه من قدم الأعمال الصالحة بمن يمهد فراشه ويوطئه للنوم عليه، لئلا يصيبه في مضجعه ما يؤذيه، وينغص عليه مرقده.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فإن عدم محبته تعالى، كناية عن بغضه الموجب لغضبه، المستتبع للعقوبة لا محالة.

ومنها: الحذف والزيادة في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن
فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ
أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ
كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ
يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ
رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾
وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ
ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ
بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ
جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ
يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ
لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾
فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا
ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾
كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ
ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[١] ظهور الفساد والهلاك بسبب الشرك.. ذكر ظهور الصلاح، والكريم لا يذكر لإحسانه عوضاً، ويذكر لعقابه سبباً، لئلا يتوهم به الظلم، فذكر من أعلام القدرة: إرسال الرياح مبشرات

(١) البحر المحيط.

بالمطر لأنها متقدمة.

وعبارة «المراغي» هنا: لما ذكر سبحانه أن الفساد ظهر في البر والبحر، بسبب الشرك والمعاصي.. نبّههم إلى دلائل وحدانيته، بما يُشاهدونه أمامهم، من إرسال الرياح بالأمطار فتحيا به الأرض بعد موتها، وجري الفلك حاملةً لما هم في حاجة إليه، مما فيه غذاؤهم، وعليه مدار حياتهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه تعالى لما ذكر[1] البراهين الساطعة، الدالة على الوحدانية والبعث والنشور، ولم يرعوِ بها المشركون، بل لجوافي طغيانهم يعمهون.. سلى رسوله ـ ﷺ ـ فذكر له أنك لست أول من كُذب، فكثير ممن قبلك جاؤوا أقوامهم بالبينات، فلم تغنهم الآيات والنذر، فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر، ونصرنا رسلنا ومن آمن بهم، فلا تبتئس بما كانوا يعملون، ولنجرين عليك وعلى قومك سنّتنا، ولننتقمن منهم، ولننصرنك عليهم فالعاقبة للمتقين.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما[2] سلى رسوله ـ ﷺ ـ على ما يلاقيه من أذى قومه، ببيان أنه ليس ببدع في الرسل، فكأين من رسول قبله قد كُذب، ثم دالت الدولة على المكذبين، ونصر الله رسوله والمؤمنين.. أعاد الكرة مرة أخرى، فأتبع البرهان بالبرهان، لإثبات الوحدانية، وإمكان البعث والنشور، بما يشاهد من الأدلة في الآفاق، مرشدةً إلى قدرته وعظيم رحمته، ثم بما يرى في الأرض الموات من إحيائها بالمطر، وهو دليل لائح يشاهدونه ولا يغيب عنهم الحين بعد الحين، والفينة بعد الفينة، أفليس فيه حجة لمن اعتبر ومقنع لمن ادكر.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر صنوف الأدلة، ثم ضرب المثل على توحيده،

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

ووجوب إرسال الرسل مبشرين ومنذرين، وصحة بعث الأجسام يوم القيامة، ووعد وأوعد بما لم يبق بعده مستزاد لمستزيد، ثم ما زادهم دعاء الرسول إلا إعراضاً، ولا تكرار النصح إلا إصراراً، وعناداً.. أردف هذا تسليته على ما يراه من التمادي في الإعراض، وكثرة العناد، واللجاج، فأبان أن هؤلاء كأنهم موتى، فأنى لك أن تُسمعهم، وكأنهم صم، فكيف يسمعون دعاءَك حتى يستجيبوا لك، إنما الذي يستجيب من يؤمن بآيات الله، فهو إذا سمع كتابه.. تدبره وفهمه، فيخضع لك بطاعته، ويتذلل بمواعظ كتابه.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه(١) لما ذكر دلائل الآفاق على وحدانيته.. أردفها دلائل الأنفس، فذكر خلق الأنفس في أطوارها المختلفة، من ضعف إلى قوة، ثم انتكاسها وتغيير حالها من قوة إلى ضعف، ثم إلى شيخوخة وهرم، وبين أنه العليم بها في مختلف أحوالها، القدير على تغييرها، واختلاف أشكالها.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أنه تعالى لما ذكر فيما سلف بدء النشأة الأولى، وذكر الإعادة والبعث، وأقام عليه الأدلة في شتى السور، وضرب له الأمثال.. أردف ذلك بذكر أحوال البعث، وما يجري فيه من الأفعال والأقوال، من الأشقياء والسعداء، ليكون في ذلك عبرة لمن يذكر.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أنه تعالى لما ذكر(٢) من الأدلة على الوحدانية والبعث ما ذكر، وأعاد وكرر بشتى البراهين، وبديع الأمثال.. أردف ذلك بأنه لم يبق بعد هذا زيادةً لمستزيد، وأن الرسول - ﷺ - قد أدى واجبه، وأن من طلب شيئاً بعد ذلك.. فهو معاند مكابر، فإن من كذب الدليل الواضح اللائح، لا يصعب عليه تكذيب غيره من الدلائل، ولقد أجاد من قال:

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

قَدْ تُنْكِرُ ٱلْعَيْنُ ضَوْءَ ٱلشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ ... وَيَنْكِرُ ٱلْفَمُ طَعْمَ ٱلْمَاءِ مِنْ سَقَمِ

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: ومن الدلائل الدالة على وحدانيته وعظيم قدرته، وهو خبر مقدم لقوله: ﴿أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ﴾؛ أي: إرساله سبحانه وتهييجه وتحريكه الرياح؛ أي: رياح الرحمة لمنفعة الخلق، وهي ريح الشمال والصبا والجنوب، فإنها رياح الرحمة، وأما الدبور، فإنها ريح العذاب، ومنه قوله عليه السلام: «اللهم اجعلها رياحاً، ولا تجعلها ريحاً». قال في «القاموس»[1]: الشمال بالفتح ويكسر، ما مهبه بين مطلع الشمس وبنات نعش، أو من مطلع الشمس إلى مسقط النسر الطائر، ولا تكاد تهب ليلاً، والجنوب: ريح تخالف الشمال، مهبه من مطلع سهيل إلى مطلع الثريا، والصبا: ريح تهب من مطلع الشمس إذا استوى الليل والنهار، ومقابلتها الدبور، والصبا: موصوفة بالطيب والروح، لانخفاضها عن برد الشمال، وارتفاعها عن حر الجنوب، وفي الحديث: «الريح من روح الله تأتي بالرحمة، وتأتي بالعذاب فلا تسبوها، وسلوا الله خيرها، واستعيذوا بالله من شرها».

وقرأ الجمهور: ﴿ٱلرِّيَاحَ﴾ بالجمع، وقرأ[2] ابن كثير، وحمزة، والكسائي، والأعمش: ﴿الريح﴾ بالإفراد على إرادة الجنس.

حالة كونها ﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾؛ أي: حالة كون تلك الرياح مبشرات للخلق بالمطر ونحوه، قوله: ﴿وَلِيُذِيقَكُم﴾ الله سبحانه ﴿مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ ونعمته، معطوف على ﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾ على المعنى، والمراد بالرحمة: المنافع التابعة لنزول المطر، كالخصب المتسبب عن المطر، والروح: الذي يحصل بهبوب الريح، وزكاء الأرض وتصفية الهواء من العفونة، فكأنه قال: ومن آياته: إرسال الرياح ليبشركم بها وليذيقكم من رحمته.

---

(١) القاموس.

(٢) البيضاوي.

﴿وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ﴾ والسفن في البحر عند هبوبها ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾؛ أي: بإرادته وتدبيره ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟﴾؛ أي: ولتطلبوا ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ ورزقه بالتجارة في البحر، فالسفن تجري بالرياح، والرياح بأمر الله، فهي في الحقيقة جارية بأمره وقدرته، وفي «الأسرار المحمدية»: لا تعتمد على الريح في استواء السفينة وسيرها، وهذا شرك في توحيد الأفعال، وجهل بحقائق الأمور، ومن انكشف له أمر العالم كما هو عليه.. علم أن الريح لا يتحرك بنفسه، بل له محرك إلى أن ينتهي إلى المحرك الأول، الذي لا محرك له، ولا يتحرك هو في نفسه أيضاً، بل هو منزه عن ذلك، وعما يضاهيه سبحانه وتعالى. ا هـ.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذه النعم، فتفردون الله بالعبادة، وتستكثرون من الطاعة.

ومعنى الآية(١): أي ومن الأدلة على وحدانيته تعالى، والحجج القائمة على أنه رب كل شيء: أنه يرسل الرياح من حين إلى آخر، مبشرات بالغيث، الذي به تحيا الأرض، وينبت الثمر والزرع، فتأكلون منه ما لذّ وطاب، وتعيشون أنتم ودوابكم وأنعامكم فضلاً من ربكم، وتجري السفن ماخرة للبحار، حاملةً للأقوات وأنواع الثمار، متنقلةً من قطر إلى قطر، فتأتي بما في أقصى المعمور من الشرق، إلى أقصاه في الغرب، والعكس بالعكس، فلا تحتجب الثمرات والأقوات في أماكنها، وتكون وقفاً على قوم بأعيانهم، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ أي: وليعدكم لشكره كفاء ما أسدى إليكم من نعمه الوفيرة، وخيراته العميمة، التي لا تحصى، كما قال: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾.

تنبيه: فإن قلت(٢): لم أسقط هنا لفظة ﴿فِيهِ﴾ حيث قال: ﴿وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ﴾، وزادها في الجاثية حيث قال: ﴿لِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ﴾ فما الفرق بين الموضعين؟.

قلت: الفرق بينهما: أن ما هنا لم يتقدمه مرجع الضمير وهو البحر، وهناك

---

(١) المراغي. (٢) فتح الرحمٰن بتصرف.

تقدم مرجعه حيث قال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ﴾.

ولما بين سبحانه الأصلين: المبدأ والمعاد.. بين الأصل الثالث، وهو النبوة، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد بعثنا ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ يا محمد ﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾؛ أي: إلى أقوامهم الكافرين، كما أرسلناك إلى قومك عابدي الأوثان، من دون الله ﴿فَجَآءُوهُم﴾؛ أي: فجاءت الرسل أقوامهم ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؛ أي: بالحجج الواضحة، والبراهين القاطعة، الدالة على صدقهم، وعلى أنها من عند الله، و﴿الباء﴾: تصلح[1] للتعدية وللملابسة؛ أي: جاء كل رسول قومه بما يخصه من الدلائل الواضحة على صدقه في دعوى الرسالة، كما جئت قومك بالبراهين النيرة، الدالة على صدقك.

وقوله: ﴿فَٱنتَقَمْنَا﴾ معطوف على محذوف، تقديره: فآمن بهم قوم، وكفر بهم قوم ﴿فَٱنتَقَمْنَا﴾ ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾؛ أي: كفروا، والنقمة: العقوبة، ومنها الانتقام، والإجرام: تكذيب الأنبياء، والإصرار عليه، وإنما وضع الموصول موضع ضميرهم للتنبيه على مكان المحذوف، والإشعار بكونه علةً للانتقام؛ أي: عاقبناهم وأهلكناهم، ونجينا الذين آمنوا بالله، وصدقوا رسله، ونحن فاعلو ذلك بمجرمي قومك، وبمن آمن بك، سنة الله التي شرعها لعباده، ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

﴿وَكَانَ حَقًّا﴾؛ أي: واجباً ﴿عَلَيْنَا﴾ وجوب[2] كرم، لا وجوب إلزام. وفي «الوسيط» واجباً وجوب من أوجبه على نفسه. ﴿نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وإنجاؤهم من شر أعدائهم، ومما أصابهم من العذاب نصر عزيز، وإنجاء عظيم، وهذا تأكيد لبشارة المؤمنين، لأن كلمة على تفيد معنى اللزوم، فإذا قال ﴿حَقًّا﴾ أكد ذلك المعنى، والنصر هو الغلبة التي لا تكون عاقبتها وخيمة، والكافر إن هزم المسلم في بعض الأوقات، لا يكون ذلك نصرةً، إذ لا عاقبة له. اهـ. من «المراح».

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

وفيه[1]: إخبار من الله سبحانه: بأن نصره لعباده المؤمنين حق عليه، وهو لا يخلف الميعاد، أخرج الطبراني وابن أبي حاتم وابن مردويه والترمذي، عن أبي الدرداء، قال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «ما من مسلم يرد عن عرض أخيه إلا كان حقاً على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة» ثم تلا ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ولفظ الترمذي: «من رد عن عرض أخيه.. رد الله عن وجهه النار يوم القيامة». وقال: حديث حسن.

ووقف[2] بعض القراء على ﴿حَقًّا﴾ وجعل اسم ﴿كان﴾ ضميراً فيها وخبرها ﴿حَقًّا﴾. قال ابن عطية: وهذا ضعيف، والصحيح: أن ﴿نصر المؤمنين﴾ اسمها، و﴿حَقًّا﴾ خبرها، و﴿عَلَيْنَا﴾ متعلق بـ﴿حَقًّا﴾ أو بمحذوف هو صفة له.

﴿ٱللَّهُ﴾: الذي يستحق منكم العبادة هو ﴿ٱلَّذِى يُرْسِلُ﴾ ويحرك ويبعث ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾؛ أي: رياح الرحمة كالصبا ونحوها ﴿فَتُثِيرُ﴾؛ أي: تزعج وترفع ﴿سَحَابًا﴾ ثقالاً بالمطر من حيث هو، وأضاف الإثارة إلى ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾، وإنما المثير هو الله تعالى، لأنه سَببها، والفعل قد ينسب إلى سببه كما ينسب إلى فاعله.

وقرأ حمزة والكسائي وابن كثير وابن محيصن: ﴿يرسل الريح﴾ بالإفراد، وقرأ الباقون: ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾ بالجمع. قال أبو عمرو: كل ما كان بمعنى الرحمة، فهو جمع، وما كان بمعنى العذاب فهو مفرد، وهذه الجملة: مستأنفة مسوقة لبيان ما سبق من أحوال الرياح، فتكون على هذا جملة قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ إلى قوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ معترضةً.

﴿فَيَبْسُطُهُۥ﴾؛ أي: يمد السحاب وينشره سبحانه وتعالى ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: في سمتها، ﴿كيف يشاء﴾؛ أي: على كيفية وهيئة شاءها سبحانه وتعالى، سائراً وواقفاً، مسيرة يوم أو يومين، أو أقل أو أكثر من جانب الجنوب أو ناحية الشمال، أو سمت الدبور، أو جهة الصبا إلى غير ذلك؛ أي: يجعله متصلاً تارةً ﴿وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾؛ أي: قطعاً تارةً أخرى، أو يجعله بعد بسطه قطعاً متفرقة: جمع

---

(1) المراغي. (2) الشوكاني.

كسفه، وهي قطعة من السحاب، أو القطن أو غير ذلك من الأجسام، كما سيأتي.

﴿فَتَرَى﴾ يا محمد، أو يا من يتأتى منه الرؤية ﴿ٱلْوَدْقَ﴾؛ أي: المطر ﴿يخرج﴾ بالأمر الإلٰهي ﴿مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾؛ أي: من خلال السحاب ووسطه وفرجه وشقوقه وثقبه في التارتين، قيل[1]: السحاب كالغربال، ولولا ذلك.. لأفسد المطر الأرض: روي عن وهب بن منبه: أن الأرض شكت إلى الله عز وجل أيام الطوفان، لأن الله تعالى أرسل الماء بغير وزن ولا كيل، فخرج الماء غضباً لله تعالى، فخدش الأرض وخددها فقالت: يا رب إن الماء خددني وخدشني، فقال الله تعالى فيما بلغني، والله أعلم: إني سأجعل للماء غربالاً، كيلا يخددك ولا يخدشك، فجعل السحاب غربال المطر.

والضمير[2] في ﴿خِلَٰلِهِۦ﴾ الظاهر أنه عائد على السحاب، إذ هو المحدث عنه، وذكر الضمير، لأن السحاب اسم جنس، يجوز تذكيره وتأنيثه، قيل: ويحتمل أن يعود على ﴿كسفاً﴾ في قراءة من سكن العين، وقرأ أبو العالية والضحاك: ﴿يخرج من خلله﴾؛ أي: من ثقبه.

﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ﴾؛ أي: بذلك الودق ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾؛ أي: أرض من يشاء إصابتها من عباده وبلادهم ﴿إذا﴾ فجائية واقعة في جواب الشرط ﴿هُمْ﴾؛ أي: عباده ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾؛ أي: يفرحون بذلك المطر،؛ أي: فاجؤوا الاستبشار والفرح بمجيء الخصب، وزوال القحط، لحاجتهم إليه أشد الحاجة.

﴿وَإِن﴾ مخففة من الثقيلة؛ أي: وإن الشأن، وقيل: إن بمعنى قد؛ أي: وقد كانوا، وتكون الجملة حينئذٍ حالاً من فاعل ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾، ﴿كَانُوا۟﴾؛ أي: أهل المطر ﴿مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم﴾ المطر ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾؛ أي: من قبل التنزيل، كرره للتأكيد والدلالة على تطاول عهدهم بالمطر، واستحكام يأسهم منه، وقيل: الضمير لإرسال الرياح، أو للسحاب فلا تكرار، ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾؛ أي: آيسين من

---

(1) روح البيان.

(2) البحر المحيط.

نزوله، خبر ﴿كَانُوا﴾، واللام فارقة، وقد سبق معنى الإبلاس في أول السورة.

أي: وقد كانوا[1] من قبل أن ينزل عليهم قانطين يائسين من نزوله، فلما جاءهم على فاقة وحاجة.. وقع منهم موقعاً عظيماً.

والخلاصة: أنهم كانوا محتاجين إليه قبل نزوله، ومن قبل ذلك أيضاً، إذ هم ترقبوه في إبانة فتأخر، ثم مضت فترة فترقبوه فيها، فتأخر ثم جاء بغتة بعد اليأس والقنوط، وبعد أن كانت أرضهم هامدةً، أصبحت وقد اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج.

﴿فَٱنظُرْ﴾ يا محمد نظر اعتبارٍ واستبصارٍ ﴿إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، وفوائد المطر، لتستدل بذلك على توحيد الله وتفرده بهذا الصنع العجيب.

والمراد برحمة الله[2]: المطر، لأنه أنزله برحمته على خلقه، وآثارها: فوائدها ونتائجها من النبات والأشجار والأزهار والثمار والحبوب. و﴿الفاء﴾: للدلالة على سرعة ترتب هذه الأشياء على تنزيل المطر، والخطاب فيه، وإن توجه إلى النبي - ﷺ - فالمراد به جميع المكلفين.

والمعنى: فانظروا إلى آثار المطر من النبات والأشجار، وأنواع الثمار والأزهار والزرائع التي بها يكون الخصب.

﴿كَيْفَ يُحْيِ﴾ الله سبحانه وتعالى ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ بالآثار والنبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾؛ أي: بعد يبسها. قال في «الإرشاد»: ﴿كيف..﴾ إلخ. في حيز النصب بنزع الخافض، وكيف معلق لانظر؛ أي: فانظروا إلى كيفية الإحياء البديع للأرض بعد موتها، والمراد بالنظر: التنبيه على عظيم قدرته، وسعة رحمته مع ما فيه من تمهيد أمر البعث.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الإله العظيم الشأن، الذي قدر على إحياء الأرض بعد موتها

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

﴿لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۖ﴾؛ أي: لقادر على إحيائهم في الآخرة، وبعثهم ومجازاتهم، فإنه إحداث لمثل ما كان في مواد أبدانهم من القوى الحيوانية، كما أن إحياء الأرض بالمطر إحياء لمثل ما كان فيها من القوى النباتية.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ أراده، ﴿قَدِيرٌ﴾؛ أي: قادر تام القدرة؛ أي: مبالغ في القدرة على جميع الأشياء التي من جملتها إحياء قالب الإنسان بعد موته في الحشر، وإحياء قلبه بعد موته في الدنيا، لأن نسبة قدرته إلى جميع الممكنات على حدّ سواء، رجع كل شيء إلى قدرته فلم يعظم عليه شيء، فقدرة الله سبحانه هي الكاملة، بخلاف قدرة العبد، فإنها مستفادة من قدرة الله تعالى.

وقرأ الحرميان[1] - نافع وابن كثير - وأبو بكر وأبو عمرو: ﴿إلى أثر﴾ بالإفراد وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائي: ﴿آثار﴾ بالجمع. وقرأ سلام: ﴿إثر﴾ بكسر الهمزة وإسكان الثاء، وقرأ الجحدري وابن السميقع وأبو حيوة: ﴿تحي﴾ بالتاء للتأنيث، والضمير عائد على الرحمة أو على الآثار على قراءة من قرأ بالجمع، وقرأ زيد بن علي: ﴿نحي﴾ بنون العظمة، والجمهور: ﴿يحيي﴾ بياء الغيبة والضمير لله.

ومعنى الآية: أي فانظر[2] أيها الرسول أثر الغيث، الذي أنبت به ما أنبت، من الزرع والأشجار والثمار، وفيه الدليل الكافي على عظيم القدرة، وواسع الرحمة، وإذ قد ثبتت قدرته على إحياء الأجسام بعد موتها، وتفرقها وتمزقها إرباً إرباً، ومن ثم قال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۖ﴾؛ أي: إن ذلك الذي قدر على إحياء الأرض، قادر على إحياء الأجسام حين البعث، ثم أكد هذا بقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ فلا يعجزه شيء، فإحياؤكم من قبوركم هين عليه، ونحو الآية قوله: ﴿قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ﴾ ثم ذمهم على تزلزلهم، وسوء اضطرابهم، فإذا أصابهم الخير.. فرحوا به، وإن أصابهم

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

السوء.. يئسوا وأبلسوا، وانقطع رجاؤهم من الخير، فقال: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لئن أرسلنا ﴿رِيحًا﴾ مضرة حارةً أو باردةً كالدبور ونحوها، فأفسدت زرع الكفار ﴿فَرَأَوْهُ﴾ ذلك الزرع ﴿مُصْفَرًّا﴾ متغيراً بتأثير الريح بعد خضرته؛ أي: قد اصفر بعد خضرته، وقرب من الجفاف والهلاك.

وقال ﴿مُصْفَرًّا﴾، لأن ذلك صفرة حادثة، وقيل: المعنى فرأوا السحاب مصفراً، لأن السحاب الأصفر لا يمطر، والريح التي تصفر النبات: صر حرور، وهما مما يصبح به النبات هشيماً، والحرور جنب الشمال إذا عصفت، وقرأ صباح بن حبيش ﴿مصفاراً﴾ بألف بعد الفاء، ذكره أبو حيان.

و﴿الفاء﴾: في قوله: ﴿فَرَأَوْهُ﴾ عاطفة على محذوف كما قدرنا، و﴿اللام﴾[1] في قوله: ﴿لَّظَلُّوا۟﴾ لام جواب القسم الساد مسد الجوابين، ولذلك فسر الماضي بالاستقبال؛ أي: يظلون ويصيرون ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾؛ أي: من اصفرار وتغير الزرع والنبات ﴿يَكْفُرُونَ﴾ من غير توقف ولا تأخر.

والمعنى: ولئن أرسلنا ريحاً حارةً أوباردةً فضرب زرعهم بالصفار.. لظلوا من بعد ذلك يكفرون بالله، ويجحدون نعمه، يعني يقيمون على الكفر بالله وبنعمته، وفي هذا دليل على سرعة تقلبهم، وعدم صبرهِم، وضعف قلوبهم، وليس كذا حال أهل الإيمان.

يعني[2]: أن الكفار لا اعتماد لهم على ربهم، فإن أصابهم خير وخصب.. لم يشكروا الله، ولم يطيعوه، وأفرطوا في الاستبشار، وإن نالهم أدنى شيء يكرهونه.. جزعوا ولم يصبروا، وكفروا سالف النعم، ولم يلتجئوا إليه بالاستغفار، وليس كذلك حال المؤمن، فإنه يشكر عند النعمة، ويصبر عند المحنة، ولا ييئس من روح الله، ويلتجيء إليه بالطاعة والاستغفار، ليستجلب الرحمة في الليل والنهار.

وحاصل المعنى: أي ولئن أرسلنا ريحاً حارةً أو باردةً على الزرع الذي

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

زرعوه، ونما واستوى على سوقه، فرأوه قد اصفر بعد خضرته ونضرته.. لظلوا من بعد ذلك الاستبشار والرجاء يجحدون نعم الله السابقة عليهم، ولا يخفى ما في ذلك من المبالغة في احتقارهم، لتزلزلهم في عقيدتهم، إذ كان الواجب عليهم أن يتوكلوا على الله في كل حال، ويلجؤوا إليه بالاستغفار إذا احتبس عنهم المطر، ولا ييئسوا من روح الله، ويبادروا إلى الشكر والطاعة إذا أصابهم - جلّ وعلا - برحمته، ويصبروا على بلائه إذا اعترى زرعهم آفة، ولا يكفروا بنعمائه، لكنهم قد عكسوا الأمر، وأبوا ما يجديهم، وأتوا بما يؤذيهم.

ثم شبههم بالموتى وبالصم فقال: ﴿فَإِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ الدعاء إذا دعوتهم، فكذا هؤلاء لا يسمعون دعاءَك إلى الحق، لعدم فهمهم للحقائق، ومعرفتهم للصواب.

وهذه الجملة تعليل[1] لمحذوف، تقديره؛ أي: لا تجزع يا محمد ولا تحزن على عدم إيمانهم، فإنهم موتى صم عمي، ومن كان كذلك لا يهتدي. ا هـ. «شيخنا».

فالكفار في التشبيه كالموتى، لانسداد مشاعرهم عن الحق، وهم الذين علم الله قبل خلقهم أنهم لا يؤمنون به ولا برسله، وفي الآية دليل على أنّ الأحياء قد يسمون أمواتاً إذا لم يكن لهم منفعة الحياة، قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -: مات خزان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أجسادهم مفقودة، وآثارهم بين الورى موجودة.

واعلم: أن الكفر موت القلب، كما أن العصيان مرضه، فمن مات قلبه بالكفر.. بطل سمعه بالكلية، فلا ينفعه النصح أصلاً، ومن مرض قلبه بالعصيان، فيسمع سمعاً ضعيفاً كالمريض.. فيحتاج إلى المعالجة في إزالته، حتى يعود سمعه إلى الحالة الأولى.

ثم أشار إلى تشبيه آخر بقوله: ﴿وَلَا تُسْمِعُ﴾ يا محمد ﴿ٱلصُّمَّ﴾ جمع أصم

---

(١) الفتوحات.

وهو فاقد السمع ﴿ٱلدُّعَآءَ﴾ إذا دعوتهم إلى الحق، ووعظتهم بمواعظ الله وذكرتهم الآخرة وما فيها ﴿إِذَا وَلَّوۡاْ﴾ وأعرضوا عن الداعي حال كونهم ﴿مُدۡبِرِينَ﴾؛ أي: تاركين له وراء ظهرهم، فارين منه، وتقييد[١] الحكم بإذا إلخ، لبيان كمال سوء حال الكفرة، والتنبيه على أنهم جامعون لخصلتي السوء، بنبوّ أسماعهم عن الحق، وإعراضهم عن الإصغاء إليه، ولو كان فيهم إحداهما.. لكفتهم، فكيف وقد جمعوهما، فإن الأصم المقبل إلى المتكلم، ربما يتفطن منه بوساطة أوضاعه، وحركات فمه، وإشارات يده ورأسه شيئاً من كلامه، وإن لم يسمعه أصلاً، وأما إذا كان معرضاً عنه.. فلا يكاد يفهم منه شيئاً.

ومعنى الآية: أي[٢] إنك لا تقدر يا محمد أن تفهم هؤلاء المشركين، الذين قد ختم الله على أسماعهم، فسلبهم فَهْمَ ما يتلى عليهم من مواعظ تنزيله كما لا تقدر أن تفهم الموتى، الذين سلبوا أسماعهم، بأن تجعل لهم أسماعاً، ولا تقدر أن تهدي من تصاموا عن فهم آيات كتابه، فتجعلهم يسمعونها ويفهمونها، كما لا تقدر أن تسمع الصم الدعاء إذا ولوا عنك مدبرين هاربين منك.

ثم أشار إلى تشبيهٍ آخر بقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ﴾ يا محمد ﴿بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ﴾ وصارفهم، جمع أعمى، وهو: فاقد البصر ﴿عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ﴾ وخطئهم، متعلق بالهداية، باعتبار تضمنها معنى الصرف سماهم عمياً إما لفقدهم المقصود والحقيقي من الإبصار، أو لعمى قلوبهم كما في «الإرشاد»، فإنهم ميتون، والميت لا يبصر شيئاً، كما لا يسمع شيئاً، فكيف يهتدي؟ أي: ليس في طوقك أن تهدي من أضله الله، فترده عن ضلالته، بل ذلك إليه وحده، فإنه يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وليس ذلك لأحد سواه، ففيه بيان أن الهداية والضلالة بيده تعالى لا بيد الرسول.

والخلاصة: أن هذا ليس من عملك، ولا بعثت لأجله.

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

﴿إِن تُسْمِعُ﴾؛ أي[1]: ما تسمع مواعظ القرآن ولا نصائحه ﴿إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ التنزيلية والتكوينية، فإن إيمانهم يدعوهم إلى التدبر فيها، وتلقيها بالقبول؛ أي: ما تسمع إلا هؤلاء، لكونهم أهل التفكر والتدبر والاستدلال بالآثار على المؤثر، يعني أن الإيمان حياة القلب، فإذا كان القلب حياً.. يكون له السمع والبصر واللسان، ويجوز أن يراد بالمؤمن: المشارف للإيمان؛ أي: إلا من يشارف الإيمان بها، ويقبل عليها إقبالاً حقيقياً، وقوله: ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ تعليل لإيمانهم؛ أي: منقادون لما تأمرهم به من الحق متبعون له.

والمعنى: أي لا تسمع السماع الذي ينتفع به سامعه، فيتبعه، إلا من يؤمن بآياتنا، لأنه هو الذي إذا سمع كتاب الله.. تدبره وفهمه وعمل بما فيه، وانتهى إلى حدوده التي حدها، فهو مستسلم خاضع له، مطيع لأوامره، تارك لنواهيه.

ثم ذكر سبحانه دليلاً آخر على كمال قدرته، وهو خلق الإنسان نفسه على أطوار مختلفة، فقال: ﴿ٱللَّهُ﴾ الذي يستحق منكم العبادة مبتدأ وخبره قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم﴾؛ أي: أوجدكم أيها الإنسان ﴿مِّن ضَعْفٍ﴾؛ أي: من أصل ضعيف هو النطفة أو التراب على تأويل المصدر باسم الفاعل، والضعف خلاف القوة ﴿ثُمَّ﴾ للتراخي في الزمان ﴿جَعَلَ﴾؛ أي: خلق لأنه عدي لمفعول واحد.

﴿مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ﴾ آخر، وهو الضعف الموجود في الجنين والطفل ﴿قُوَّةً﴾ هي القوة التي تجعل للطفل من التحرك، واستدعائه اللين، ودفع الأذى عن نفسه بالبكاء، ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ أخرى، هي التي بعد البلوغ، وهي قوة الشباب ﴿ضَعْفًا﴾ آخر، وهو ضعف الشيخوخة والكبر، ﴿وَشَيْبَةً﴾؛ أي: شيبة الهرم، والشيب والمشيب بياض الشعر، ويدل[2] على أن كل واحد من قوله ﴿ضَعْفٍ﴾ و﴿قُوَّةً﴾ إشارة إلى حالة غير الحالة الأولى، ذكره منكراً، والمنكر متى أعيد ذكره معرفاً أريد به ما تقدم، كقولك: رأيت رجلاً فقال لي الرجل كذا، ومتى أعيد منكراً أريد به غير الأول، ولذلك قال ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.

تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾: لن يغلب عسر يسرين، هكذا حققه الإمام الراغب، وتبعه أجلاء المفسرين، وهو الموافق للقاعدة المشهورة عندهم، التي نظمها السيوطي في «عقود الجمان» بقوله:

ثُمَّ مِنَ ٱلْقَوَاعِدِ ٱلْمُشْتَهِرَه إِذَا أَتَتْ نَكِرَةٌ مُكَرَّرَه
تَغَايَرَتْ وَإِنْ يُعَرَّفْ ثَانِيْ تَوَافَقَا كَذَا ٱلْمُعَرَّفَانِ

يقول[1] سبحانه وتعالى محتجاً على المشركين المنكرين للبعث: إن الذي خلقكم من نطفة وماء مهين، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة، ثم جعل لكم قوةً على التصرف، من بعد ضعف الصغر والطفولة، ثم أحدث لكم الضعف بالهرم والكبر، بعد أن كنتم أقوياء في شبابكم، قادر أن يعيدكم مرةً أخرى بعد البلى، وبعد أن تكونوا عظاماً نخرةً.

والخلاصة: أن تنقل الإنسان في أطوار الخلق، حالاً بعد حال، من ضعف إلى قوة، ثم من قوة إلى ضعف، دليل على قدرة الخالق الفعال لما يشاء، الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا يعجزه أن يعيدكم مرة أخرى.

﴿يَخْلُقُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مَا يَشَآءُ﴾ من ضعفٍ وقوةٍ وشبابٍ وشيبةٍ؛ أي: يخلق الأشياء كلها، التي من جملتها الضعف والقوة والشباب والشيبة، فليس هذا كله طبعاً، بل بمشيئة الله سبحانه وتعالى ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بتدبير خلقه ﴿ٱلْقَدِيرُ﴾ على ما يشاء، لا يمتنع عليه شيء أراده، وهو كما يفعل هذا، قادر على أن يميت خلقه ويحييهم إذا شاء.

فائدة: فإن قلت[2]: كيف قال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ مع أن الضعف صفة ومعنى من المعاني، والمخاطبون لم يخلقوا من صفة، بل من عين وهي الماء، أو التراب؟

قلت: المراد بالضعف: الضعيف، من إطلاق المصدر على اسم الفاعل،

---

(١) المراغي.
(٢) فتح الرحمٰن.

كقولهم رجل عَدْلٌ؛ أي: عادل، فمعناه من ضعيف وهو النطفة.

وقرأ الجمهور[١]: بضم الضاد في ﴿ضَعْفٍ﴾ في المواضع الثلاثة، وقرأ عاصم وحمزة: بفتحها فيها، وهي قراءة عبد الله وأبي رجاء، وروي عن أبي عبد الرحمٰن الجحدري والضحاك: الضم والفتح في الثاني، وقرأ عيسى: بضمتين فيهما، والظاهر: أن الضم والفتح بمعنى واحد، قال كثير من اللغويين: الضم في البدن، والفتح في العقل.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾؛ أي: توجد وتحصلت القيامة، سميت[٢] بها لأنها تقوم في آخر ساعة من ساعات الدنيا، أو لأنها تقع بغتةً وبداهةً، وصارت علماً لها بالغلبة، كالنجم للثريا، والكوكب للزهرة، وفي «فتح الرحمٰن»: ويوم تقوم الساعة التي فيها القيامة ﴿يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾؛ أي: يحلف الكافرون، ﴿مَا لَبِثُوا۟﴾؛ أي: ما أقاموا في القبور و﴿مَا﴾ نافية ﴿غَيْرَ سَاعَةٍ﴾؛ أي: إلا ساعة واحدة، وهي جزء من أجزاء الزمان، واستقلوا مدة لبثهم نسياناً أو كذباً أو تخميناً، ويقال: ما لبثوا في الدنيا، والأول هو الأظهر، لأن لبثهم مغيٌّ بيوم البعث، كما سيأتي، وليس لبثهم في الدنيا كذلك.

﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثل ذلك الصرف الواقع منهم يوم القيامة ﴿كَانُوا۟﴾؛ أي: كان المشركون في الدنيا، بإنكار البعث، والحلف على بطلانه، كما أخبر سبحانه في قوله: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ ﴿يُؤْفَكُونَ﴾؛ أي: يصرفون عن الحق والصدق، فيأخذون في الباطل والإفك والكذب، يعني: كذبوا في الآخرة، كما كانوا يكذبون في الدنيا.

والمعنى[٣]: أي ويوم تجيء ساعة البعث، فيبعث الله الخلق من قبورهم، يقسم المجرمون الذين كانوا يكفرون بالله في الدنيا، ويكتسبون فيها الآثام، إنهم ما أقاموا في قبورهم إلا قليلاً من الزمان، وهذا استقلال منهم لمدة لبثهم في

---

(١) البحر المحيط بتصرف.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

البرزخ على طولها، وهم قد صرفوا في الآخرة عن معرفة مدة مكثهم في ذلك الحين.

﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾؛ أي: كذبوا في قولهم: ما لبثنا غير ساعة، كما كانوا في الدنيا يحلفون على الكذب، وهم يعلمون، والكلام مسوق للتعجب من اغترارهم بزينة الدنيا وزخرفها، وتحقير ما يتمتعون به من مباهجها ولذاتها، كي يقلعوا عن العناد، ويرجعوا إلى سبل الرشاد، وكأنه قيل: مثل ذلك الكذب العجيب كانوا يكذبون في الدنيا، اغتراراً بما هو قصير الأمد من اللذات وزخارف الحياة.

ثم ذكر توبيخ المؤمنين لهم، وتهكمهم بهم بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ بكتاب الله، ﴿وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ بالله في الدنيا من الملائكة والإنس لأولئك المنكرين، رداً لقولهم، وإنكاراً لكذبهم، والله ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾؛ أي[1]: في علمه وقضائه الأزلي في أم الكتاب؛ أي: بحسب ما في علم الله تعالى في قبوركم من يوم مماتكم ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ وهو مدة مديدة، وغاية بعيدة لا ساعة حقيقة، وفي الحديث: «ما بين فناء الدنيا والبعث أربعون»، وهو محتمل للساعات والأيام والأعوام، والظاهر أربعون سنة، أو أربعون ألف سنة.

ثم أخبروا بوقوع البعث تبكيتاً لهم، لأنهم كانوا ينكرونه فقالوا: ﴿فَهَٰذَا﴾ اليوم، (الفاء): واقعة في جواب شرط محذوف؛ أي: إن كنتم منكرين البعث.. فهذا اليوم الحاضر هو ﴿يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ والحشر الذي أنكرتموه وكنتم توعدون في الدنيا؛ أي: فقد تبين بطلان إنكاركم.

وقرأ الحسن[2]: ﴿البعث﴾ بفتح العين في الموضعين، وقرىء: بكسرها، وهو اسم، والمفتوح: مصدر. ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ﴾ من فرط الجهل، وتفريط النظر ﴿كُنتُمْ﴾ في الدنيا ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾ أنه حق سيكون فتستعجلون به استهزاءً.

والمعنى: أي فهذا اليوم الحاضر، هو اليوم الذي أنكرتموه في الدنيا،

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

وزعمتم أنه لن يكون، لتفريطكم في النظر وغفلتكم عن الأدلة المتظاهرة عليه.

ولما كانت الأدلة تترى على أن الدنيا دار عمل، وأن الآخرة دار جزاء.. ذكر أن المعاذير لا تجدي في هذا اليوم، فلا يجابون إلى ما طلبوا من الرجوع إلى الدنيا، لإصلاح ما فسد من أعمالهم فقال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم إذ تقوم القيامة أو يوم، إذ يقع ذلك من إقسام الكفار، وقول أولي العلم لهم ﴿لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾؛ أي: أشركوا ﴿مَعْذِرَتُهُمْ﴾؛ أي: عذرهم، وهو فاعل ينفع؛ أي: لا ينفعهم اعتذارهم من ذنوبهم.

وقرأ الجمهور وابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر[١]: ﴿لا تنفع﴾ بالتاء الفوقية، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي: بالياء التحتية هنا، وفي الطول، ووافقهم نافع في الطول، لأن التأنيث غير حقيقي. ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾؛ أي: لا يطلبون بإرضاء الله سبحانه وتعالى بالتوبة الصادقة عن الشرك والمعاصي، ولا يدعون إلى ما يقتضي إعتابهم؛ أي: إزالة عتبهم وغضبهم من التوبة والطاعة، كما دعوا إليه في الدنيا، إذ لا يقبل حينئذ توبة ولا طاعة، وكذلك لا يصح رجوع إلى الدنيا، لإدراك فائت من الإيمان والعمل؛ أي: لا يقال لهم: أرضوا ربكم بتوبة وطاعة؛ أي: لا يطلب منهم الإعتاب؛ أي: الرجوع إلى الله تعالى بالتوبة.

فإن قلت[٢]: كيف قال هنا ذلك مع قوله في فصلت: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ حيث جعلهم هنا مطلوباً منهم الإعتاب، وجعلهم ثم طالبين له؟

قلت: معنى قوله هنا: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾؛ أي: ولا هم يقالون عثراتهم بالرد إلى الدنيا، ومعنى قوله: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾؛ أي: إن يستقيلوا.. فما هم من المقالين، فلا تنافي.

والمعنى[٣]: ففي هذا اليوم لاتنفع هؤلاء المجرمين معاذيرهم عما فعلوا، كقولهم: ما علمنا أن هذا اليوم كائن، ولا أنا نبعث فيه، ولا هم يرجعون إلى

---

(١) البحر المحيط.
(٢) فتح الرحمٰن.
(٣) المراغي.

الدنيا ليتوبوا، لأن التوبة لا تقبل حينئذ، فالوقت وقت جزاءٍ، لا وقت عمل، وقد حقت عليهم كلمة ربهم: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

والخلاصة: أنهم لا يعاتبون على سيئاتهم، بل يعاقبون عليها، ولا يطلب منهم الرجوع إلى ما يرضى الله سبحانه من التوبة والعمل الصالح، وذلك لانقطاع التكليف في ذلك اليوم.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد ضربنا وبينا، وأوضحنا للناس ﴿فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ الكريم ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾؛ أي[1]: من كل صفة كأنها في غرابتها كالأمثال، وذلك كالتوحيد والحشر وصدق الرسل وسائر ما يحتاجون إليه، من أمر الدين والدنيا، مما يهتدي به المتفكر، ويعتبر به الناظر المتدبر، أو المعنى: ولقد[2] وصفنا لهم فيه بأنواع الصفات التي هي في الغرابة، كالأمثال مثل صفة المبعوثين يوم القيامة، وما يقولون وما يقال لهم، وما لا يكون لهم من الانتفاع بالمعذرة والاستعتاب، أو بينا لهم من كل مثل من الأمثال التي تدلهم على توحيد الله تعالى وعلى البعث وصدق الرسل، واحتججنا عليهم بكل حجة تدل على بطلان الشرك.

ففيه[3]: إشارة إلى إزالة الأعذار وقطعها عنهم والإتيان بما فوق الكفاية من الإنذار وكلمة من في قوله: ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ للتبعيض، كما في «الكرخي».

والمعنى: أي ولقد أوضحنا لهم الحق، وضربنا لهم الأمثال الدالة على وحدانية الخالق الرازق، وعلى البعث وصدق الرسول، ليستبينوا الحق ويتبعوه، لكنهم أعرضوا عن ذلك استكباراً وعناداً، كما أشار إلى ذلك بقوله: ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لئن جئت كفار مكة ﴿بِـَٔايَةٍ﴾ تنزيلية من آيات القرآن الناطقة بذلك، أو بآية تكوينية تدل على صدق الرسل، كالعصا واليد والناقة ﴿لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ من أهل مكة وغيرهم من فرط عنادهم وقساوة

---

(١) روح البيان.
(٢) البيضاوي.
(٣) الخازن.

قلوبهم مخاطبين للنبي - ﷺ - والمؤمنين ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾؛ أي: ما أنتم أيها المؤمنون ﴿إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾؛ أي: مزورون؛ أي: ما أنت وأصحابك يا محمد إلا أصحاب أباطيل، تتبعون السحر وما هو مشاكل له في البطلان.

والمعنى: أي والله لئن جئتهم بكل الآيات لا يؤمنون بها، بل يعتقدون أنها سحر مفترىً، وما هي إلا أساطير الأولين، ونحو هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾.

فإن قلت: لم[1] أفرد الخطاب في قوله: ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم﴾ وجمعه في قوله: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾؟

قلت: في ذلك لطيفة، وهي كأن الله تعالى قال: ولئن جئتهم بكل آية جاءت بها الرسل.. أجابوا بقولهم: أنتم كلكم أيها المدعون الرسالة مبطلون.

﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثل ذلك الطبع الفظيع، الذي طبع على هؤلاء المشركين ﴿يَطْبَعُ اللَّهُ﴾ سبحانه؛ أي: يختم الله بسبب اختيارهم الكفر على الإيمان. ﴿عَلَىٰ قُلُوبِ﴾ كل الجهلة ﴿الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ توحيد الله تعالى، ولا يطلبون العلم النافع الذي يهتدون به إلى الحق، وينجون به من الباطل، ويصرون على خرافات اعتقدوها، وترهات ابتدعوها، فإن الجهل المركب يمنع إدراك الحق، ويوجب تكذيب المحق.

والمعنى[2]: أي كذلك يختم الله على قلوب الذين لا يعلمون حقيقة ما تأتيهم به من العبر والعظات، والآيات البينات، فلا يفقهون الأدلة ولا يفهمون ما يتلى عليهم من آي الكتاب، لسوء استعدادهم، ولما دسوا به أنفسهم من سوء القول والفعل، فهم في طغيانهم يعمهون.

ثم ختم السورة بأمر الرسول بالصبر على أذاهم، وعدم الالتفات إلى

---

(١) الفخر الرازي بتصرف.
(٢) المراغي.

عنادهم، فقال: ﴿فَٱصْبِرْ﴾ أيها الرسول على ما ينالك من أذى المشركين، قولاً وفعلاً، وبلغهم رسالة ربك فـ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه الذي وعدك من النصر عليهم، والظفر بهم، وتمكينك وتمكين أصحابك وأتباعك في الأرض ﴿حَقٌّ﴾ لا شك فيه ولا بد من إنجازه والوفاء به ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾ لا يحملنك على الخفة والقلق جزعاً مما يقولون ويفعلون، فإنهم ضلال شاكون، فلا تستغرب منهم ذلك أو لا يستفزنك عن دينك وما أنت عليه من الحق، أو لا يستحمقنك ولا يستجهلنك، أو لا يحملنك على العجلة في الدعاء عليهم بالعذاب ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ بالله، ولا يصدقون أنبياءه، ولا يؤمنون بكتبه، ولا يعتقدون البعث بعد الموت فيثبطوك عن أمر الله تعالى، والقيام بما كلفك به من تبليغ رسالته.

وفي هذا إرشاد لنبيه - ﷺ - وتعليم له بأن يتلقى المكاره بصدر رحب، وسعة حلم، روي[1]: أنه لما مات أبو طالب عم النبي - ﷺ - بالغت قريش في أذاه، حتى إن بعض سفهائهم نثر على رأسه الشريف التراب، فدخل عليه السلام بيته، والتراب على رأسه فقام إليه بعض بناته، وجعلت تزيله عن رأسه وتبكي ورسول الله - ﷺ - يقول لها: «لا تبكي يا بنية، فإن الله مانع أباك» وكذا أوذي الأصحاب كلهم فصبروا، وظفروا بالمراد، فكانت الدولة لهم ديناً ودنيا وآخرةً.

يقال: استخف فلان فلاناً؛ أي: استجهله حتى حمله على اتباعه في الغي.

وقرأ الجمهور: ﴿يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾ بالخاء المعجمة والفاء، من الاستخفاف، وقرأ ابن أبي إسحاق ويعقوب: بالحاء المهملة والقاف ﴿يستحقنك﴾ من الاستحقاق؛ أي: لا يزيغنك، فيكونوا أحق بك من المؤمنين، وسكن النون ابن أبي عبلة ويعقوب: ﴿يستخفنك﴾ والنهي في الآية من باب لا أرينك ها هنا.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر والحاكم والبيهقي: أن رجلاً من الخوارج نادى علياً، وهو في صلاة الفجر فقال: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ فأجابه وهو في

---

(١) روح البيان.

الصلاة ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾ ولا عجب من صدور مثل هذا الجواب على البديهة من علي ـ كرم الله وجهه ـ وهو مدينة العلم.

فائدة[١]: واعلم أن الله سبحانه وتعالى خلق الصدق، فظهر من ظله الإيمان والإخلاص، وخلق الكذب، فظهر من ظله الكفر والنفاق، فأنتج الإيمان المتولد من الصدق، أو يقول المؤمنون يوم القيامة: الحمد لله الذي صدقنا وعده، وهذا ما وعد الرحمٰن وصدق المرسلون، ونحوه، وأنتج الكفر المتولد من الكذب أن يقول الكافرون يومئذ: والله ما كنا مشركين، وما لبثوا غير ساعة، ونحوه من الأكاذيب.

الإعراب

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿من آياته﴾: خبر مقدم. ﴿أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ﴾: ناصب وفعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله ومفعول به. ﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾: حال من ﴿ٱلرِّيَاحَ﴾، والمصدر المؤول من الجملة الفعلية: في محل الرفع مبتدأ مؤخر؛ أي: وإرساله تعالى الرياح مبشرات كائن من آياته ودلائل قدرته، والجملة الاسمية: مستأنفة مسوقة لبيان الآيات. ﴿وَلِيُذِيقَكُم﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل. ﴿يذيقكم﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به منصوب بأن مضمرة بعد لام كي. ﴿مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية مع أن المضمرة: معطوفة على جملة مأخوذة من ﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾ تقديرها: ومن آياته: أن يرسل الرياح ليبشركم برحمته، وليذيقكم من رحمته، وقيل: ﴿الواو﴾: زائدة، و﴿اللام﴾: متعلقة بـ﴿يُرْسِلَ﴾. وعبارة الزمخشري هنا: فإن قلت:[٢] بما يتعلق ﴿وَلِيُذِيقَكُم﴾؟

---

(١) روح البيان. (٢) الكشاف.

قلت: فيه وجهان: أن يكون معطوفاً على ﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾ على المعنى، كأنه قيل: ليبشركم وليذيقكم، وأن يتعلق بمحذوف، تقديره: وليذيقكم، وليكون كذا وكذا أرسلناها، انتهت. ﴿وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ﴾: ناصب وفعل مضارع وفاعل معطوف على ﴿وَلِيُذِيقَكُم﴾، ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾: جار ومجرور حال من ﴿ٱلْفُلْكُ﴾، ﴿وَلِتَبْتَغُواْ﴾: فعل وفاعل منصوب بأن مضمرة بعد ﴿اللام﴾ معطوف عليه أيضاً، ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿تبتغوا﴾، ﴿وَلَعَلَّكُمْ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿تَشْكُرُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿لعل﴾: معطوفة على جملة محذوفة مماثلة لها، معللة لمعلول محذوف، تقديره: أكرمكم بهذه النعم المذكورة، لعلكم تفردوه بالعبادة والطاعة، ولعلكم تشكرون نعمه.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. و﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿أَرْسَلْنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿مِن قَبْلِكَ﴾: حال من ﴿رُسُلًا﴾. و﴿رُسُلًا﴾: مفعول به، ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾: متعلق بـ﴿أَرْسَلْنَا﴾، والجملة الفعلية جواب القسم، وجملة القسم: مستأنفة مسوقة لتسليته - ﷺ - وتأنيسه وإيذاناً بنصره، ﴿فَجَآءُوهُم﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿أَرْسَلْنَا﴾، ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: متعلق بـ﴿جاءوهم﴾. ﴿فَٱنتَقَمْنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ﴾: متعلق به، والجملة معطوفة على محذوف، تقديره: فكذبوهم ﴿فَٱنتَقَمْنَا﴾ منهم، ﴿أَجْرَمُواْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، ﴿وَكَانَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿كان﴾: فعل ماض ناقص، ﴿حَقًّا﴾: خبرها مقدم على اسمها، ﴿عَلَيْنَا﴾: متعلق بـ﴿حَقًّا﴾ أو صفة له، ﴿نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: اسمها مؤخر، والجملة: مستأنفة.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى﴾: مبتدأ وخبر، والجملة: مستأنفة، ﴿يُرْسِلُ﴾: فعل وفاعل

مستتر، ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾: مفعول به، والجملة: صلة الموصول. ﴿فَتُثِيرُ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿تثير﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر، ﴿سَحَابًا﴾: مفعول به، والجملة: معطوفة على جملة ﴿يُرْسِلُ﴾، ﴿فَيَبْسُطُهُۥ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به معطوف على ﴿تثير﴾، ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾: متعلق بـ﴿يبسط﴾، ﴿كَيْفَ﴾: اسم شرط غير جازم في محل النصب على الحال بالفعل بعده، مبني على الفتح لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً. ﴿يشاء﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول المشيئة محذوف، تقديره: كيف ﴿يَشَآءُ﴾ بسطه، وجملة ﴿يَشَآءُ﴾: فعل شرط لـ﴿كَيْفَ﴾ لا محل لها من الإعراب، وجواب ﴿كَيْفَ﴾ محذوف دل عليه ما قبلها، تقديره: كيف يشاء بسطه يبسطه، وجملة ﴿كَيْفَ﴾ معترضة، لاعتراضها بين المعطوف والمعطوف عليه.

فائدة: قال ابن هشام: وتستعمل ﴿كَيْفَ﴾ على وجهين(1):

أحدهما: أن تكون شرطاً فتقتضي فعلين متفقي اللفظ والمعنى غير مجزومين، نحو كيف تصنع أصنع، ولا يجوز كيف تجلس أذهب باتفاق من النحاة، ولا كيف تجلس أجلس بالجزم عند البصريين، إلا قطرباً، لمخالفتهما لأدوات الشرط بوجوب موافقة جوابها لشرطها كما مر.

والثاني: قيل: يجوز مطلقاً، وإليه ذهب قطرب والكوفيون، وقيل: يجوز بشرط اقترانها بما قالوا، ومن ورودها شرطاً: ﴿يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ ﴿يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ ﴿فَيَبْسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾: وجوابها في ذلك كله: محذوف لدلالة ما قبلها عليه. ﴿وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعولان معطوف على ﴿يبسط﴾، ﴿فَتَرَى﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿ترى﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر، وهي بصرية، ﴿ٱلْوَدْقَ﴾: مفعول به، والجملة: معطوفة على جملة ﴿يجعله﴾، وجملة ﴿يَخْرُجُ﴾: حال من ﴿ٱلْوَدْقَ﴾، ﴿مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿يَخْرُجُ﴾. ﴿فَإِذَآ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿أَصَابَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله، ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿أَصَابَ﴾،

---

(1) المغني.

والجملة: في محل الخفض بإضافة إذا إليها، على كونها فعل شرط لها. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿أَصَابَ﴾، وجملة ﴿يَشَآءُ﴾: صلة من الموصولة، والعائد محذوف، ﴿مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾: حال من ﴿مَن﴾ الموصولة، أو من العائد ﴿إِذَا﴾: فجائية، رابطة لجواب ﴿إِذَآ﴾ الشرطية، ﴿هُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية: جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾: معطوفة على جملة ﴿ترى﴾.

﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿وَإِن﴾: ﴿الواو﴾: حالية أو عاطفة، ﴿إن﴾: مخففة من الثقيلة، واسمها: ضمير الشأن، ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿مِن قَبْلِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿مبلسين﴾، ﴿أَن يُنَزَّلَ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول منصوب ب بـ﴿أن﴾، ونائب فاعله: ضمير يعود على ﴿ٱلْوَدْقَ﴾، ﴿عَلَيْهِم﴾: متعلق بـ﴿يُنَزَّلَ﴾، والجملة الفعلية: في تأويل مصدر مجرور بإضافة ﴿قَبْلِ﴾ إليه، ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾: جار ومجرور مؤكد للجار والمجرور في قوله: ﴿مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم﴾، ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿مبلسين﴾: خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾: في محل الرفع خبر لـ﴿إن﴾ المخففة، وجملة ﴿إن﴾ المخففة في محل النصب حال من فاعل ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أو معطوفة على جملة ﴿إذا﴾.

﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿فَٱنظُرْ﴾: ﴿الفاء﴾؛ فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت أن من آياته تعالى أن يرسل الرياح مبشرات، وأردت معرفة ما يترتب عليه من الآثار.. فأقول لك انظر، ﴿انظر﴾: فعل وفاعل مستتر، والجملة: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة. ﴿إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿انظر﴾، ﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام في محل النصب حال من الأرض، وهي معلقة لـ﴿انظر﴾ عن العمل في ما بعدها. ﴿يُحْىِ ٱلْأَرْضَ﴾: فعل ومفعول به وفاعل مستتر يعود على الله، ﴿بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾: متعلق

بـ﴿يُحۡيِ﴾، والجملة الفعلية: بدل من ﴿ءَاثَرِ﴾، فهي في حيز النصب بنزع الخافض. والمعنى: بعد كل هذا فانظر إلى إحيائه البديع للأرض بعد موتها، والمراد التنبيه على عظم قدرته وسعة رحمته. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾: ناصب واسمه، ﴿لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓ﴾: خبره، و﴿اللام﴾: حرف ابتداء، والجملة: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها، ﴿وَهُوَ﴾: مبتدأ، ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾: متعلق بـ﴿قَدِيرٌ﴾، ﴿قَدِيرٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: في محل النصب حال من الضمير المستكن في ﴿محي﴾.

﴿وَلَئِنۡ أَرۡسَلۡنَا رِيحٗا فَرَأَوۡهُ مُصۡفَرّٗا لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ يَكۡفُرُونَ ٥١﴾.

﴿وَلَئِنۡ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. و﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿إن﴾: حرف شرط، ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط بها، ﴿رِيحٗا﴾: مفعول به، ﴿فَرَأَوۡهُ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿رأوه﴾: فعل وفاعل ومفعول به في محل الجزم معطوف على ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾، ﴿مُصۡفَرّٗا﴾: حال من مفعول ﴿رأوه﴾، لأن الرؤية هنا بصرية، ﴿لَّظَلُّواْ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، مؤكدة للأولى، ﴿ظلوا﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿يَكۡفُرُونَ﴾، وجملة ﴿يَكۡفُرُونَ﴾: خبر ﴿ظل﴾، وجملة ﴿ظل﴾: جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجواب الشرط محذوف دل عليه جواب القسم، تقديره: وإن أرسلنا ريحاً، فرأوه مصفراً.. يكفرون على القاعدة المشهورة:

وَٱحْذِفْ لَدَىٰ ٱجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَمْ   جَوَابَ مَا أَخَّرْتَ فَهْوَ مُلْتَزَمْ

﴿فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ٥٢﴾.

﴿فَإِنَّكَ﴾: ﴿الفاء﴾: تعليلية. ﴿إنك﴾: ناصب واسمه. ﴿لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة: في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، والجملة الاسمية: في محل الجر بلام التعليل المقدرة، المدلول عليها بـ﴿الفاء﴾ التعليلية المعللة لمحذوف، تقديره: لا تجزع ولا تحزن على عدم إيمانهم، فإنهم موتى صم عمي، ﴿وَلَا تُسۡمِعُ﴾: فعل وفاعل مستتر، ﴿ٱلصُّمَّ﴾: مفعول أول، ﴿ٱلدُّعَآءَ﴾: مفعول ثان، والجملة: في محل الرفع معطوفة على الجملة التي

قبلها، ﴿إِذَآ﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مجرد عن معنى الشرط، ﴿وَلَّوۡاْ﴾: فعل وفاعل، ﴿مُدۡبِرِينَ﴾: حال من الواو، والجملة الفعلية: في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذا﴾، والظرف متعلق بـ﴿تُسۡمِعُ﴾.

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿وَمَآ أَنتَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: حجازية، ﴿أنت﴾: في محل الرفع اسمها، ﴿بِهَٰدِ﴾: خبر ﴿ما﴾ الحجازية، و﴿الباء﴾: زائدة، ﴿ٱلۡعُمۡيِ﴾: مضاف إليه، ﴿عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ﴾: متعلق بـ﴿هادي﴾: على تضمين هادي معنى صارف. وجملة ﴿ما﴾: الحجازية معطوفة على جملة ﴿إن﴾، ﴿إن﴾: نافية، ﴿تُسۡمِعُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة: مستأنفة، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿تُسۡمِعُ﴾. ﴿يُؤۡمِنُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر. ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾: متعلق به، والجملة الفعلية: صلة ﴿مَن﴾: الموصولة، ﴿فَهُم﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿هم مسلمون﴾: مبتدأ وخبر، والجملة الاسمية: معطوفة على جملة ﴿يُؤۡمِنُ﴾: عطف اسمية على فعلية.

﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي﴾: مبتدأ وخبر، والجملة: مستأنفة. ﴿خَلَقَكُم﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة: صلة الموصول. ﴿مِّن ضَعۡفٖ﴾: متعلق بـ﴿خلق﴾، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ، ﴿جَعَلَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر، ﴿مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ﴾: متعلق بـ﴿جَعَلَ﴾. لأنه بمعنى خلق، ﴿قُوَّةٗ﴾: مفعول به لـ﴿جَعَلَ﴾. والجملة: معطوفة على جملة ﴿خَلَقَكُم﴾. ﴿ثُمَّ جَعَلَ﴾: فعل وفاعل مستتر معطوف على جملة ﴿جَعَلَ﴾، ﴿مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ﴾: متعلق بـ﴿جَعَلَ﴾، ﴿ضَعۡفٗا﴾: مفعول به لـ﴿جَعَلَ﴾، ﴿وَشَيۡبَةٗۚ﴾: معطوف على ﴿ضَعۡفٗا﴾، ﴿يَخۡلُقُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر، ﴿ما﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به لـ﴿يَخۡلُقُ﴾، وجملة ﴿يَشَآءُۚ﴾: صلته، وجملة ﴿يَخۡلُقُ﴾: في محل النصب حال من فاعل ﴿خَلَقَكُم﴾ أو مستأنفة ﴿وَهُوَ﴾: مبتدأ، ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾: خبر أول له، ﴿ٱلۡقَدِيرُ﴾: خبر ثان، والجملة

الاسمية: في محل النصب حال من فاعل ﴿يَخْلُقُ﴾.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿يوم﴾: منصوب على الظرفية متعلق بـ﴿يُقْسِمُ﴾، ﴿تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾: فعل وفاعل، والجملة: في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يوم﴾، ﴿يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة. ﴿ما﴾: نافية، ﴿لَبِثُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة: لا محل لها من الإعراب، لأنها واقعة في جواب القسم، ﴿غَيْرَ سَاعَةٍۚ﴾: منصوب على الظرفية متعلق بـ﴿لَبِثُواْ﴾، ﴿كَذَٰلِكَ﴾: صفة لمصدر محذوف، ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿يُؤْفَكُونَ﴾: فعل مغير ونائب فاعل، والجملة: في محل النصب خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾: مستأنفة؛ أي: يصرفون عن الحق، وهو الصدق، كما صرفوا عن الحق، وهو البعث.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة. ﴿أُوتُواْ﴾: فعل ونائب فاعل، ﴿ٱلْعِلْمَ﴾: مفعول ثان لـ﴿آتى﴾، لأنه بمعنى أعطى، ﴿وَٱلْإِيمَٰنَ﴾: معطوف على ﴿ٱلْعِلْمَ﴾، والجملة الفعلية: صلة الموصول، ﴿لَقَدْ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿لَبِثْتُمْ﴾: فعل وفاعل، ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾: حال من فاعل ﴿لَبِثْتُمْ﴾ ولكنه على تقدير مضاف؛ أي: حالة كون مدة لبثكم محسوبة في كتاب الله وعلمه. ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِۖ﴾: متعلق بـ﴿لَبِثْتُمْ﴾، والجملة الفعلية: جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم: في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿فَهَٰذَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿هذا﴾: مبتدأ. ﴿يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾: خبره، والجملة الاسمية: معطوفة على جملة ﴿لَبِثْتُمْ﴾. وفي «البيضاوي»: و﴿الفاء﴾: في قوله: ﴿فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾: واقعة في جواب شرط محذوف، تقديره: إن كنتم منكرين للبعث.. فهذا يومه؛ أي: فقد تبين بطلان إنكاركم. ا هـ. ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿لكنكم﴾: ناصب واسمه، ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه،

وجملة ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿كان﴾: في محل الرفع خبر ﴿لكن﴾، وجملة ﴿لكن﴾: في محل النصب حال من ﴿يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾. ولكنه على تقدير رابط، والتقدير: فهذا يوم البعث، والحال أنكم لا تعلمونه.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت ما أقسم عليه المجرمون، وما رد به عليهم أهل العلم والإيمان، وأردت بيان حال ذلك اليوم.. فأقول لك ﴿يومئذ﴾: ظرف مضاف لمثله متعلق بـ﴿يَنفَعُ﴾، ﴿لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ﴾: فعل ومفعول، ﴿ظَلَمُواْ﴾: صلة الموصول، ﴿مَعْذِرَتُهُمْ﴾: فاعل ﴿يَنفَعُ﴾، وجملة ﴿يَنفَعُ﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة: مستأنفة. ﴿وَلَا هُمْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: نافية. ﴿هُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يُسْتَعْتَبُونَ﴾: من الفعل المغير ونائبه: في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: في محل النصب معطوفة على جملة ﴿يَنفَعُ﴾ على كونها مقولاً لجواب إذا المقدرة.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. و﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿ضَرَبْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة: جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم: مستأنفة، ﴿لِلنَّاسِ﴾: متعلق بـ﴿ضَرَبْنَا﴾، ﴿فِى هَٰذَا﴾: جار ومجرور، ﴿ٱلْقُرْءَانِ﴾: بدل منه الجار والمجرور حال من ﴿كُلِّ مَثَلٍ﴾ لأنه صفة نكرة قدمت عليها أو متعلق بـ﴿ضَرَبْنَا﴾، ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾: صفة لمفعول محذوف؛ أي: ضربنا موعظة أو قصة من كل مثل، أو مفعول به لـ﴿ضَرَبْنَا﴾. ﴿وَلَئِن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿إن﴾: حرف شرط، ﴿جِئْتَهُم﴾: فعل وفاعل ومفعول به في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿بِـَٔايَةٍ﴾: متعلق به، والجملة: جواب القسم، وجملة القسم: معطوفة على جملة القسم قبله، ﴿لَّيَقُولَنَّ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم مؤكدة

للأولى، ﴿يقولن﴾: فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: فاعل، وجملة ﴿كَفَرُوٓاْ﴾: صلة الموصول، وجملة ﴿يقولن﴾: جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجواب الشرط: محذوف، تقديره: وإن جئتهم بآية. . يقول الذين كفروا، وجملة الشرط مع جوابه: جملة معترضة، لا محل لها من الإعراب، لاعتراضها بين القسم وجوابه. ﴿إِنْ﴾: نافية، ﴿أَنتُمْ﴾: مبتدأ، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿مُبْطِلُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: في محل النصب مقول ﴿ليقولن﴾.

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿كَذَٰلِكَ﴾: صفة لمصدر محذوف؛ أي: مثل ذلك الطبع، ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة. ﴿عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَطْبَعُ﴾، وجملة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾: صلة الموصول. ﴿فَٱصْبِرْ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت أن حالهم بهذه المثابة، وأردت بيان ما هو اللازم لك. . فأقول لك: اصبر، ﴿اصبر﴾: فعل أمر وفاعل مستتر، والجملة: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة: مستأنفة. ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾: ناصب واسمه، ﴿حَقٌّ﴾: خبره، وجملة ﴿إن﴾: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، على كونها مسوقة لتعليل ما قبلها، ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: ناهية، ﴿يستخفن﴾: فعل مضارع في محل الجزم بـ﴿لا﴾ الناهية، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، و﴿الكاف﴾: ضمير المخاطب في محل النصب مفعول به، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: فاعل، والجملة الفعلية: في محل النصب معطوفة على جملة ﴿اصبر﴾، وجملة ﴿لَا يُوقِنُونَ﴾: صلة الموصول.

التصريف ومفردات اللغة

﴿ٱلرِّيَاحَ﴾: أحد جموع الريح، والريح: مؤنثة، وتجمع أيضاً على أرواح وأرياح وريح، كفيل وفيلة، وجمع الجمع: أراويح وأراييح، والرياح أربع:

الجنوب وهي القبلية، والشمال: وهي الشمالية، والصبا: وهي الشرقية، والدبور: وهي الغربية، والثلاثة الأول: رياح الرحمة، والرابعة: هي ريح العذاب.

قال وكيع: لولا الريح والذباب.. لأنتنت الدنيا، قيل: الريح تموج الهواء بتأثير الكواكب، وسيلانه إلى إحدى الجهات، والصحيح عند أهل الشرع: ما ذكر في الحديث من أنها من روح الله تعالى.

﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾: يقال: ثار الغبار والسحاب، انتشر ساطعاً، وقد أثرته، والسحاب: اسم جنس يصح إطلاقه على سحابة واحدة وما فوقها، قال في «المفردات»: أصل السحب: الجر، ومنه السحاب: إما لجر الريح له، أو لجره الماء.

والمعنى: فتنشره تلك الرياح وتزعجه، وتخرجه من أماكنه.

﴿فَيَبْسُطُهُ﴾؛ أي: ينشره متصلاً بعضه ببعض؛ أي: ينشره كمال الانتشار، وإلا فأصل الانتشار موجود في السحاب دائماً.

﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: في جهتها؛ أي: في جهة العلو، وليس المراد حقيقة السماء المعروفة.

﴿كِسَفًا﴾: بكسر ففتح، ويجوز تسكين السين: جمع كسفة، وهي قطعة من السحاب والقطن، ونحو ذلك من الأجسام المتخلخلة، كما في «المفردات» وفي «القاموس»: الكسفة بالكسر: القطعة من الشيء، والجمع: كسف بكسر فسكون، وجمع الجمع.. أكساف وكسوف، وكسفه يكسفه: قطعه.

﴿ٱلْوَدْقَ﴾: المطر، قيل: الودق في الأصل: ما يكون خلال المطر، كأنه غبار، وقد يعبر به عن المطر.

﴿مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾؛ أي: من فرج السحاب وشقوقه، قال الراغب: الخلل فرجة بين الشيئين، وجمعه خلال، نحو خلل الدار والسحاب. ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾؛ أي: آيسين، في «المصباح»: أبلس الرجل إبلاساً: سكت، وأبلس: أيس، وفي

التنزيل: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾. ا هـ.

﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾؛ أي: قد اصفر بعد خضرته، وقرب من الجفاف، والاصفرار، الاتصاف بالصفرة، والصفرة: لون من الألوان التي بين السواد والبياض، وهو إلى البياض أقرب.

﴿لَّظَلُّوا﴾: من ظل يظل بالفتح، أصله: العمل، بالنهار، ويستعمل في موضع صار كما في هذا المقام.

﴿الصُّمَّ﴾: جمع الأصم، والصم: فقدان حاسة السمع، وبه شبه من لا يصغي إلى الحق ولا يقبله، كما في «المفردات».

﴿الْعُمْيِ﴾: جمع الأعمى، وهو: فاقد البصر.

﴿مِّن ضَعْفٍ﴾: الضعف: بالفتح والضم: خلاف القوة، وفرقوا بأن الفتح لغة تميم، واختاره عاصم وحمزة في المواضع الثلاثة، والضم: لغة قريش، واختاره الباقون، ولذا لما قرأه ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ على رسول الله ـ ﷺ ـ بالفتح أقرأه بالضم، وفي «المصباح»: الضعف بفتح الضاد في لغة تميم، وبضمها في لغة قريش: خلاف القوة والصحة، فالمضموم مصدر ضعف، مثال قرب قرباً، والمفتوح: مصدر ضعف ضعفاً من باب قتل، ومنهم من يجعل المفتوح في الرأي، والمضموم في الجسد، وهو ضعيف، والجمع: ضعفاء وضعاف أيضاً. ا هـ.

﴿قُوَّةً﴾: قال بعض العلماء: أول ما يوجد في الباطن حول، ثم ما يجريه في الأعضاء قوة، ثم ظهور العمل بصورة البطش والتناول قدرة.

﴿ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾؛ أي: شيباً، وهو بياض الشعر الأسود، ويحصل أوله في الغالب في السنة الثالثة والأربعين، وهو أول سن الاكتهال، والأخذ في النقص بالفعل بعد الخمسين إلى أن يزيد النقص في الثالثة والستين، وهو أول سن الشيخوخة، ويقوى الضعف إلى ما شاء الله تعال. ا هـ. «الخطيب».

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾؛ أي: توجد وتحصل الساعة؛ أي: القيامة، وهي

النفخة الثانية، وسميت القيامة ساعةً، لحصولها في آخر ساعة من ساعات الدنيا، أو لأنها تقع بغتةً وبديهةً، كما مر، وصارت علماً لها بالغلبة، كالنجم للثريا، وفي «القاموس»: والساعة: جزء من أجزاء الجديدين، والوقت الحاضر، والجمع: ساعات وساع، والقيامة أو الوقت الذي تقوم فيه القيامة، والهالكون كالجاعة للجياع، والساعة أيضاً: آلة يعرف بها الوقت بحسب الساعات.

مُولّدة: ومنها الساعة الرملية، والساعة المائية، والساعة الشمسية.

﴿يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾؛ أي: يحلف الكافرون، يقال: أقسم: إذا حلف، أصله من القسامة، وهي أيمان تقسم على المتهمين في الدم، ثم صار اسماً لكل حلف.

﴿مَا لَبِثُوا۟﴾: يقال: لبث بالمكان: إذا أقام به ملازماً له.

﴿يُؤْفَكُونَ﴾: أفك فلان: إذا صرف عن الصدق والخير.

﴿مَعْذِرَتُهُمْ﴾؛ أي: عذرهم، والعذر تحري الإنسان ما يمحو به ذنوبه، بأن يقول: لم أفعل، أو فعلت لأجل كذا، فيذكر ما يخرجه عن كونه مذنباً، أو فعلت ولا أعود، ونحو ذلك، وهذا الثالث هو التوبة، فكل توبة عذر، وليس كل عذر توبةً، وأصل الكلمة من العذرة، وهي الشيء النجس، تقول: عذرت الصبي: إذا طهرته وأزلت عذرته وكذا عَذرت فلاناً: إذا أزلت نجاسة ذنبه بالعفو عنه، كذا في «المفردات»، وقال في «كشف الأسرار»: أخذ من العذار وهو الستر.

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾: الإعتاب: إزلة العتب؛ أي: الغضب والغلظة، والاستعتاب: طلب ذلك من قولهم: استعتبني فلان فأعتبته؛ أي: استرضاني فأرضيته، وذلك إذا كنت جانياً عليه، وحقيقة أعتبته: أزلت عتبه، ألا ترى إلى قوله:

غضبت تميم أن تقتل عامراً   يوم النسار فأعتبوا بالصيلم

كيف جعلهم غضاباً ثم قال: فأعتبوا؛ أي: أزيل غضبهم، والغضب في معنى العتب، والصيلم: ماء لبني عامر، والصيلم: الداهية والسيف كما في «الصحاح».

وفي «المصباح»: عتب عليه عتباً من بابي ضرب وقتل، ومعتباً أيضاً: إذا لامه في سخط، فهو عاتب وعتاب مبالغة، وبه سمي، ومنه عتاب بن أسيد، وعاتبه معاتبة وعتاباً، قال الخليل: حقيقة العتاب: مخاطبة الإدلال ومذاكرة الموجدة، وأعتبني الهمزة للسلب؛ أي: أزال الشكوى، والعتاب واستعتب طلب الإعتاب. والعتبى كالرجعى وزناً ومعنى، اسم مصدر من أعتب إعتاباً.

﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾؛ أي: مزورون، يقال: أبطل الرجل: إذا جاء بالباطل، وأكذب: إذا جاء بالكذب، وفي «المفردات»: الإبطال: يقال في إفساد الشيء وإزالته، حقاً كان ذلك الشيء أو باطلاً، قال تعالى: ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾. وقد يقال فيمن يقول شيئاً لا حقيقة له، قال تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾.

وقوله: ﴿لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: (اللام): فيه: مؤكدة، واقعة في جواب القسم، و﴿يقولن﴾: فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، فـ(اللام): مفتوحة باتفاق القراء، والفاعل: هو الاسم الموصول الذي هو من قبيل الظاهر، وهو ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: إذا علمت هذا فقد علمت أن ما وقع هنا في «الجلالين» من أنه حذف منه نون الرفع لتوالي النونات، والواو: ضمير الجمع لالتقاء الساكنين سبق قلم، فليس بصواب.

﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ﴾: واعلم أن الطبع أن يصور الشيء بصورة ما، كطبع السكة وطبع الدراهم، وهو أعم من الختم، وأخص من النقض، والطابع والخاتم: ما يطبع به ويختم، والطابع: فاعل ذلك، وبه اعتبر الطبع والطبيعة، التي هي السجية، فإن ذلك هو نقش النفس بصورة ما، إما من حيث الخلقة أو من حيث العادة، وهو فيما ينقش به من جهة الخلقة أغلب.

﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾ قال في «المفردات»: لا يزعجنك ولا يزيلنك عن اعتقادك ودينك بما يوقعون من الشبه.

﴿الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾: الإيقان واليقين: أخذ من اليقين، وهو الماء الصافي، كما في «كشف الأسرار».

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: أسلوب الإطناب في قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ الآية. وذلك لتعداد النعم الكثيرة، وكان يكفي أن يقول: ﴿لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ ولكنه أسهب تذكيراً للعباد بالنعم.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ لأنه مجاز مرسل علاقته الحالية، لأن الرحمة تحل في الخصب والمطر، فأطلق الحال وأريد المحل، وفسر بعضهم الرحمة بقوله؛ أي: من نعمته من المياه العذبة والأشجار الرطبة وصحة الأبدان وما يتبع ذلك من أمور لا يحصيها إلا الله.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا﴾.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا﴾ حذف منه فكذبوهم واستهزؤوا بهم.

ومنها: وضع الظاهر موضع المضمر في قوله: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ﴾ لأن مقتضى السياق أن يقال: فانتقمنا منهم، فوضع الموصول الذي هو من قبيل الظاهر، موضع الضمير، للتنبيه على مكان المحذوف، وللإشعار بكونه علة للانتقام.

ومنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ فأسند الإثارة إلى الرياح، مع أن المثير حقيقةً هو الله تعالى، لأنه سببها، والفعل قد ينسب إلى سببه، كما ينسب إلى فاعله. ا هـ. «روح».

ومنها: التكرار في قوله: ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ للتأكيد، والدلالة على تطاول عهدهم بالمطر، واستحكام يأسهم منه.

ومنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾؛ أي: بعد

يبسها.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ الخ. شبه الكفار بالموتى وبالصم والعمي في عدم إحساسهم وسماعهم للمواعظ والبراهين، بطريق الاستعارة التصريحية، لانسداد مشاعرهم عن الحق.

ومنها: إطلاق المصدر وإرادة اسم الفاعل في قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾؛ أي: من أصل ضعيف.

ومنها: الطباق بين ﴿ضَعْفٍ﴾ و﴿قُوَّةً﴾.

ومنها: صيغة المبالغة في قوله: ﴿ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ لأن معناه المبالغ في العلم والقدرة.

ومنها: الجناس التام في قوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ المراد بالساعة أولاً: القيامة، وبالثانية: الجزء من الزمان، فبينهما جناس كامل.

ومنها: الاستعارة التمثيلية التبعية في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ﴾ الخ. شبه إحداث الله تعالى في نفوس الكفار هيئة تمرنهم وتعودهم على استحباب الكفر والمعاصي، واستقباح الإيمان والطاعات، بسبب إعراضهم عن النظر الصحيح، بالختم والطبع على الأواني، ونحوها في أنهما مانعان، فإن هذه الهيئة مانعة من نفوذ الحق في قلوبهم، كما أن الختم على الأواني ونحوها مانع من التصرف فيها، ثم استعير الطبع لتلك الهيئة، ثم اشتق منه ﴿يَطْبَعُ﴾ فيكون استعارةً تبعية. ا هـ. «روح».

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما احتوت عليه هذه السورة من الموضوعات

١ ـ إثبات النبوة بالإخبار بالغيب.

٢ ـ البراهين الدالة على الوحدانية.

٣ ـ الاعتبار بما حدث للمكذبين من قبلهم.

٤ ـ الأدلة التي في الآفاق، شاهدة على وحدانية الله سبحانه وعظيم قدرته.

٥ ـ الأدلة على صحة البعث.

٦ ـ ضرب الأمثال على أن الشركاء لا يجدونهم فتيلاً، ولا قطميراً يوم القيامة.

٧ ـ الأمر بعبادة الله وحده، وهي الفطرة التي فطر الناس عليها.

٨ ـ النهي عن اتباع المشركين، الذين فرقوا دينهم بحسب أهوائهم.

٩ ـ من طبيعة المشرك: الإنابة إلى الله إذا مسه الضر، والإشراك به حين الرخاء.

١٠ ـ من دأب الناس: الفرح بالنعمة والقنوط حين الشدة، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

١١ ـ الأمر بالتصدق على ذوي القربى والمساكين وابن السبيل.

١٢ ـ الدلائل التي وضعها سبحانه في الأنفس شاهدة على وحدانيته.

١٣ ـ للخير والشر فائدة تعود إلى المرء يوم تجزى كل نفس بما كسبت.

١٤ ـ في النظر في آثار المكذبين عبرة لمن اعتبر.

١٥ ـ تسلية الرسول على عدم إيمان قومه، بأنهم صم عمي لايسمعون ولا يبصرون.

١٦ ـ بيان أن الكافرين يكذبون في الآخرة، كما كانوا يكذبون في الدنيا.

١٧ ـ الإرشاد إلى أن الرسول قد بلغ الغاية في الإعذار والإنذار، وأن قومه قد بلغوا الغاية في التكذيب والإنكار.

١٨ ـ أمره ـ ﷺ ـ بإدامة التبليغ، مهما لاقى من الأذى، فإن العاقبة والنصر له، والخذلان لمن كذب به[١].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) تم تفسير سورة الروم وما يتعلق بها من العلوم، بعون الله ذي الإمداد على كافة العباد، أوائل يوم الأربعاء، السابع عشر من شهر الله رمضان المبارك، المنتظم في شهور سنة ثلاث عشرة وأربع مئة وألف من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية.

سورة لقمان

سورة لقمان مكية، إلا ثلاث[1] آيات: أولاهن قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ إلى تمام الآيات الثلاث.. قاله ابن عباس فيما أخرجه النحاس عنه، وحكى القرطبي عن قتادة: أنها مكية إلا آيتين: أولاهما: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ﴾ إلى آخر الآيتين. وأخرج ابن الضريس وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عنه أنها مكية ولم يستثن، وأخرج النسائي وابن ماجه عن البراء قال: كنا نصلي خلف النبي - ﷺ - الظهر نسمع منه الآية بعد الآية من سورة لقمان والذاريات.

آياتها: أربع وثلاثون آية، وقيل[2]: ثلاث وثلاثون آية. وكلماتها: خمس مئة وثمان وأربعون كلمة. وحروفها: ألفان ومئة وعشرة أحرف.

التسمية: سميت سورة لقمان، لاشتمالها على قصة لقمان الحكيم، التي تضمنت فضيلة الحكمة، وسر معرفة الله تعالى وصفاته، وذم الشرك، والأمر بمكارم الأخلاق، والنهي عن القبائح والمنكرات، وما تضمنته كذلك من الوصايا الثمينة، التي أنطقه الله بها، وكانت من الحكمة والرشاد بمكان.

فضلها: ومن فضائلها: ما روي عن النبي - ﷺ - أنه قال[3]: «من قرأ سورة لقمان.. كان لقمان رفيقاً له يوم القيامة، وأعطي من الحسنات عشراً، بعدد من عمل بالمعروف، ونهى عن المنكر، ولكن فيه مقال.

وعن الزهري[4] - رحمه الله -: أكثروا قراءة سورة لقمان، فإن فيها أعاجيب، والله أعلم.

---

(١) الشوكاني.

(٢) البيضاوي.

(٣) البيضاوي.

(٤) النسفي.

المناسبة: مناسبتها لما قبلها من وجوه[1]:

١ ـ أنه تعالى قال في السورة السالفة: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ وأشار إلى ذلك في مُفْتَتِحِ هذه السورة بقوله: ﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾.

٢ ـ أنه قال في آخر ما قبلها: ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ وقال في هذه: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾.

٣ ـ أنه قال في السورة السالفة: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ وقال في هذه: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ ففي كلتيهما إفادة سهولة البعث.

٤ ـ أنه ذكر في السابقة قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ۝٣٣﴾. وقال في هذه: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾، فذكر في كل من الآيتين قسماً لم يذكره في الآخر.

٥ ـ أنه ذكر في السورة التي قبلها محاربة ملكين عظيمين لأجل الدنيا، وذكر في هذه السورة قصة عبد مملوك زهد في الدنيا، وأوصى ابنه بالصبر والمسالمة، وذلك يقتضي ترك المحاربة، وبين الأمرين التقابل، وشاسع البون، كما لا يخفى.

الناسخ والمنسوخ منها: وجميع[2] هذه السورة محكم، إلا آيةً واحدة وهي قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ الآية (٢٣).

سبب نزولها: سبب نزول هذه السورة إلا ما استثني منها[3]: أن قريشاً سألت النبي ـ ﷺ ـ عن قصة لقمان مع ابنه، وعن بره والديه، فنزلت: وأما

(١) المراغي.

(٢) ابن حزم.

(٣) المراغي.

الآيات المدنية منها: (٢٨ ـ ٢٩ ـ ٣٠) فسبب نزولها: أن النبي ـ ﷺ ـ لما هاجر إلى المدينة.. قال له أحبار اليهود: بلغنا أنك تقول: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ اعنيتنا أم قومك؟ قال: «كلا عنيت». فقالوا: إنك تعلم أنا أوتينا التوراة، وفيها بيان كل شيء، فقال النبي ـ ﷺ ـ: «ذلك في علم الله قليل»، فأنزل الله سبحانه هؤلاء الآيات ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ...﴾ الآيات الثلاث.

والله أعلم

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ (١) تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ (٢) هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ (٣) ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ
ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ (٤) أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلۡمُفۡلِحُونَ (٥) وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا
هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ (٦) وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ
أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٧) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ (٨)
خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ (٩) خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي
ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ
كَرِيمٍ (١٠) هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ
(١١) وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ
ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ (١٢) وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ
عَظِيمٞ (١٣) وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ
لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ (١٤) وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ
وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ
تَعۡمَلُونَ (١٥) يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي
ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ (١٦) يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ
ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ (١٧) وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي
ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ (١٨) وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ
أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ (١٩) أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ
عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ
(٢٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ
يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ (٢١)﴾.

المناسبة

قد تقدم لك ذكر مناسبة السورة للسورة، هنا نذكر مناسبة الآيات بعضها لبعض، قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ . . .﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[1]: أن الله سبحانه لما بين حال السعداء الذين يهتدون بكتاب الله تعالى، وينتفعون بسماعه، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾. . أردف ذلك بذكر حال الأشقياء، الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماع كلام الله تعالى، وأقبلوا على استماع كلام المزامير والغناء بالألحان وآلات الطرب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ. . .﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر حال من أعرض عن الآيات، وبين مآله. . عطف على ذلك ذكر مآل من قبل تلك الآيات، وأقبل على تلاوتها والانتفاع بها.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا. . .﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما بين فيما سلف كمال قدرته وعلمه، وإتقان عمله. . أردف ذلك بالاستشهاد لما سلف بخلق السماوات والأرض، وما بعده، مع تقرير وحدانيته، وإبطال أمر الشرك، وتبكيت أهله.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ . . .﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما بين[2] فساد اعتقاد المشركين، بإشراك من لا يخلق شيئاً بمن خلق كل شيء، ثم بين أن المشرك ظالم ضال. . أعقب ذلك ببيان أن نعمه الظاهرة في السماوات والأرض، والباطنة من العلم والحكمة، ترشد إلى وحدانيته، وقد آتاها لبعض عباده، كلقمان الذي فطر عليها دون نبي أرشده، ولا رسول بعث إليه.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ. . .﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما

(١) المراغي. (٢) المراغي.

قبلها: أن الله سبحانه لما بين أن لقمان أوتي الحكمة، فشكر ربه على نعمه الظاهرة عليه، وهو يرى آثارها في الآفاق والأنفس آناء الليل وأطراف النهار.. أردف ذلك ببيان: أنه وعظ ابنه بذلك أيضاً، ثم استطرد في أثناء هذه المواعظ إلى ذكر وصايا عامةً، وصى بها سبحانه الأولاد في معاملة الوالدين رعايةً لحقوقهم، ورداً لما أسدوه من جميل النعم إليهم، وهم لا يستطيعون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، على أن لا يتعدى ذلك إلى حقوقه تعالى، ثم رجع إلى ذكر بقية المواعظ التي يتعلق بعضها بحقوقه، وبعضها يرجع إلى معاملة الناس بعضهم مع بعض.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما[1] أقام الأدلة على التوحيد، وذكر أن لقمان فهمه بالحكمة دون أن يرسل إليه نبي.. عاد إلى خطاب المشركين، وتوبيخهم على إصرارهم على ما هم عليه من الشرك، مع مشاهدتهم لدلائل التوحيد لائحةً للعيان، يشاهدونها في كل آن في السماوات والأرض، وتسخيرهم لما فيها مما فيه مصالحهم في المعاش والمعاد، وإنعامه عليهم بالنعم المحسوسة والمعقولة، المعروفة لهم وغير المعروفة، ثم أبان أن كثيراً من الناس يجادلون في توحيد الله وصفاته بدون دليل عقلي على ما يدعون، ولا رسول أرسل إليهم بما عنه يناضلون، ولا كتاب أنزل إليهم يؤيد ما يعتقدون، وإذا هم أفحموا بالحجة والسلطان المبين.. لم يجدوا جواباً إلا تقليد الآباء والأجداد، بنحو قولهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ وما ذاك إلا من نزغات الشيطان، والشيطان لا يدعو إلا إلى الضلال الموصل إلى النار وبئس القرار.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ...﴾ الآيتين، سبب نزولهما: ما روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: نزلتا في النضر بن الحارث، اشترى قينة ـ مغنية ـ وكان لا يسمع بأحد يريد الإسلام إلا انطلق بها

---

(١) المراغي.

إليه، فيقول: أطعميه واسقيه وغنيه، ويقول: هذا خير مما يدعوك إليه محمد من الصلاة والصيام، وأن تقاتل بين يديه.

وروي عن مقاتل: أنه كان يخرج تاجراً إلى فارس، فيشتري كتب الأعاجم، فيرويها ويحدث بها قريشاً، ويقول لهم: إن محمداً يحدثكم حديث عاد وثمود، وأنا أحدثكم حديث رستم واسفنديار وأخبار الأكاسرة، فيستملحون حديثه، ويتركون سماع القرآن.

التفسير وأوجه القراءة

﴿الٓمٓ ۝١﴾؛ أي: هذه[1] سورة ﴿ألم﴾. قال بعضهم: الحروف المقطعات مبادىء السور ومفاتيح كنوز العبر، والإشارة هنا بهذه الحروف الثلاثة إلى قوله: أنا الله ولي جميع صفات الكمال، ومني الغفران والإحسان، وقال بعضهم الألف إشارة إلى ألفة العارفين، واللام إلى لطف صنعه مع المحسنين، والميم إلى معالم محبة قلوب المحبين، وقال بعضهم: يشير بالألف إلى آلائه، وباللام إلى لطفه وعطائه، وبالميم إلى مجده وثنائه، فبآلائه رفع الحجاب عن قلوب الأولياء، وبلطف عطائه أثبت المحبة في أسرار أصفيائه، وبمجده، وثنائه مستغن عن جميع خلقه بوصف كبريائه.

﴿تِلْكَ﴾؛ أي: هذه السورة وآياتها ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾؛ أي: آيات من الكتاب المحكم المحروس من التغيير والتبديل، والممنوع من الفساد والبطلان، فهو فعيل بمعنى المفعل، وإن كان قليلاً في كلامهم، كما قالوا: أعقدت اللبن فهو عقيد؛ أي: معقداً، أو ذي الحكمة لاشتماله عليها، أو الحاكم بين عباده ببيان الأحكام من الحلال والحرام مثلاً.

وقوله: ﴿هُدًى﴾ من الضلالة ﴿وَرَحْمَةً﴾ من العذاب بالنصب على الحالية من الآيات، والعامل فيها ما في الإشارة من معنى الفعل؛ أي: حالة كون تلك

---

(١) روح البيان.

الآيات هاديةً من الضلالة إلى الرشاد، وذات رحمة ﴿لِّلْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي: العاملين للحسنات، وبالرفع: خبران آخران لاسم الإشارة.

وقال بعضهم[1]: سماه هدىً لما فيه من الدواعي إلى الفلاح، والألطاف المؤدية إلى الخيرات، فهو هدى ورحمة للعابدين، ودليل وحجة للعارفين. ا هـ.

وفي «التأويلات النجمية»: هدى يهدي إلى الحق، ورحمة لمن اعتصم به، يوصله بالجذبات المودعة فيه إلى الله تعالى، وفي تخصيص كتابه بالهدى والرحمة للمحسنين: دليل على أنه ليس يهدي غيرهم، والمحسن لا يقع مطلقاً إلا مدحاً للمؤمنين، والمحسن: العامل للحسنات، أو من يعبد الله تعالى كأنه يراه، كما ثبت في الحديث الصحيح: أنه - ﷺ - لما سأله جبريل عن الإحسان.. قال: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

وقرأ الجمهور[2]: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ بالنصب على الحال من الآيات، وقرأ حمزة والأعمش والزعفراني، وطلحة وقنبل من طريق أبي الفضل الواسطي: بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أو خبر بعد خبر على مذهب من يجيز ذلك.

ثم بين عمل المحسنين فقال: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ﴾ المفروضة وغيرها؛ أي: يؤدونها بحقوقها وشروطها في أوقاتها، وعبر عن الأداء بالإقامة، إشارةً إلى أن الصلاة عماد الدين، وفي «المفردات»: إقامة الصلاة: توفية شرائطها لا الإتيان بهيئتها، ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ﴾؛ أي: يعطونها بشرائطها إلى مستحقيها المذكورين في آية ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ﴾ الآية. ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ﴾؛ أي: بمجيء الدار الآخرة بما فيها من الحساب والميزان، والجزاء على الأعمال، سميت آخرة لتأخرها عن الدنيا ﴿هُمْ يُوقِنُونَ﴾؛ أي: يصدقون فلا يشكون في البعث والحساب والجزاء، وإعادة لفظة ﴿هم﴾ للتوكيد في الإيقان بالبعث والحساب، ولما حيل بينه وبين خبره بقوله: ﴿بِالْآخِرَةِ﴾. وخص هذه العبادات الثلاث، لأنها عمدة العبادات.

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

والمعنى[1]: أي هذه آيات الكتاب الهادي من الزيغ، الشافي من الضلال، لمن أحسنوا العمل واتبعوا الشريعة، فأقاموا الصلاة على الوجه الأكمل، الذي رسمه الدين في أوقاتها، وآتوا الزكاة المفروضة عليهم إلى مستحقيها، وأيقنوا بالجزاء في الدار الآخرة، ورغبوا إلى الله في ثواب ذلك، لم يراؤوا به ولا أرادوا به جزاءً ولا شكوراً، ولما كان المتصفون بهذه الخصال هم الغاية في الهداية والفلاح.. قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المحسنون المتصفون بتلك الصفات الجليلة كائنون ﴿عَلَىٰ هُدٗى﴾ وبيان كائن ﴿مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ بين لهم طريقهم ووفقهم، وفي الآية[2] دليل على أن العبد لا يهتدي بنفسه إلا بهداية الله تعالى، ألا ترى أنه قال: ﴿عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ وهو رد على المعتزلة، فإنهم يقولون: العبد يهتدي بنفسه، قال بعضهم: ثلاث من علامات الهدى: الاسترجاع عند المصيبة، والاستكانة عند النعمة، وترك الامتنان عند العطية.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: المذكورون ﴿هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾؛ أي: الفائزون بكل مطلوب، والناجون من كل مهروب، لاستجماعهم العقيدة الحقة والعمل الصالح، وكرر اسم الإشارة تنبيهاً على عظم قدرهم، قال في «المفردات»: الفلاح: الظفر وإدراك البغية، وذلك ضربان: دنيوي وأخروي، فالدنيوي: الظفر بالسعادات التي تطيب بها حياة الدنيا، والأخروي: أربعة أشياء: بقاء بلا فناء، وغنىً بلا فقر، وعز بلا ذل، وعلم بلا جهل، ولذلك قيل: لا عيش إلا عيش الآخرة، ألا ترى إلى قوله عليه السلام: «المؤمن لا يخلو عن قلة أو علة أو ذلة» يعني: ما دام في الدنيا، فإنها دار البلايا والمصائب والأوجاع.

ولما ذكر[3] من صفات القرآن الحكمة وأنه هدى ورحمة، وأن متبعه فائز.. ذكر حال من بدل الحكمة باللهو، وذكر مبالغته في ارتكابه، حتى جعله مشترياً له وباذلاً فيه رأس عقله، وذكر علته وأنها الإضلال عن طريق الله سبحانه

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) البحر المحيط.

وتعالى فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: وبعض الناس، فهذا مبتدأ، وخبره قوله: ﴿مَن يَشۡتَرِي﴾؛ أي: وبعض الناس يشتري ويستبدل ويختار ﴿لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ وسفاسفه على ذكر الله وعبادته، و﴿من﴾[1] مفرد لفظاً، جمع معنى، وروعي لفظها أولاً في ثلاثة ضمائر: ﴿يشتري﴾ و﴿يضل﴾ و﴿يتخذ﴾. وروعي معناها ثانياً في موضعين: وهما: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ ﴿لَهُمۡ﴾ ثم رجع إلى مراعاة اللفظ في خمسة ضمائر: وهي: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ﴾.. إلخ. ا هـ. «شيخنا».

والاشتراء: دفع الثمن وأخذ المثمن، والبيع: دفع المثمن وأخذ الثمن، وقد يتجوز بالشراء والاشتراء في كل ما يحصل به شيء.

والمعنى هٰهنا: يستبدل ويختار ما يشغله عن مهماته، وليس بمهم بدل مهماته، وقال الحسن: لهو الحديث: كل ما يشغل عن عبادة الله وذكره، من السمر والأضاحيك والخرافات والمغنيات، والمزامير والمعازف والملاهي، والإضافة في لهو الحديث على معنى من، لأن اللهو يكون حديثاً وغيره، فهو كثوب خز.

وقال القرطبي: إن أول ما قيل في هذا الباب هو تفسير لهو الحديث بالغناء، قال: وهو قول الصحابة والتابعين. ا هـ. «شيخنا»

أي: يختار ويأخذ لهو الحديث بدل ما ينفعه في الآخرة، وهو استماع القرآن والعمل به، وعبارة «الروح» ههنا[2]: ولهو الحديث: كل ما يلهي ويشغل صاحبه عما يعني من المهمات، كالأحاديث التي لا أصل لها، والأساطير التي لا اعتداد بها، والأضاحيك، وسائر ما لا خير فيه من الكلام، والحديث: يستعمل في قليل الكلام وكثيره، لأنه يحدث شيئاً فشيئاً.

وقال أبو عثمان النهدي: كل كلام سوى كتاب الله، أو سنة رسوله، أو سيرة الصالحين فهو لهو، وفي «التأويلات النجمية»: كل ما يشغل عن الله ذكره ويحجب عن الله سماعه، فهو لهو الحديث، والإضافة فيه بمعنى من البيانية، كما مر، إن أريد بالحديث المنكر، لأن اللهو يكون من الحديث ومن غيره، فأضيف

---

(١) الفتوحات.

(٢) روح البيان.

العام إلى الخاص للبيان، كأنه قيل: من يشتري اللهو الذي هو الحديث، وبمعنى من التبعيضية إن أريد به الأعم من ذلك، كأنه قيل: من يشتري بعض الحديث الذي هو اللهو منه، وأكثر أهل التفسير على أن الآية نزلت في النضر بن الحارث بن كلدة، قتله رسول الله - ﷺ - صبراً، حين فرغ من وقعة بدر.

أي: كان يشتري بماله كتباً فيها لهو الحديث، وباطل الكلام من فارس، ويحدث بها قريشاً في أنديتهم، ولعلها كانت مترجمة بالعربية. ﴿لِيُضِلَّ﴾ الناس ويصرفهم ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه؛ أي: عن دينه الحق الموصل إليه، أو ليضلهم ويمنعهم بتلك الكتب المزخرفة عن قراءة كتاب الله الهادي إليه، وإذا أضل غيره فقد ضل هو أيضاً، واللام فيه للتعليل.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿لِيُضِلَّ﴾ بضم الياء؛ أي: ليضل غيره عن طريق الهدى ومنهج الحق، وإذا أضل غيره فقد ضل في نفسه، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن محيصن وحميد وورش وابن أبي إسحاق: بفتح الياء، أي: ليضل هو في نفسه، قال الزجاج: من قرأ بضم الياء.. فمعناه ليضل غيره، فإذا أضل غيره.. فقد ضل هو، ومن قرأ بفتح الياء.. فمعناه ليصير أمره إلى الضلال، وهو وإن لم يكن يشتري للضلالة فإنه يصير أمره إلى ذلك، فأفاد هذا التعليل أنه إنما يستحق الذم من اشترى لهو الحديث لهذا المقصد، ويؤيده سبب نزول الآية.

حال كونه ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾؛ أي: حال كونه جاهلاً بحال ما يشتريه ويختار، هل ينفعه أو يضره، أو بالتجارة حيث استبدل اللهو بقراءة القرآن؛ أي: أو جاهلاً بحال تجارته هل تخسره أو تربح له، فلهذا استبدل الخير بما هو شر محض ﴿وَيَتَّخِذَهَا﴾ بالنصب عطفاً على ﴿لِيُضِلَّ﴾، والضمير المنصوب لـ﴿سَبِيلِ﴾، فإنه مما يذكر ويؤنث؛ أي: وليتخذها ﴿هُزُوًا﴾؛ أي: مهزوءاً بها ومستهزأةً، وبالرفع عطفاً على يشتري فهو من جملة الصلة، وقيل: الرفع على الاستئناف، والضمير المنصوب في يتخذها إلى الآيات المتقدم ذكرها، والأول أعني العطف على

(١) الشوكاني.

يشتري أولى من الاستئناف.

والمعنى: ومن الناس من يشتري لهو الحديث، ويتخذ آيات الله هزواً ليضل عن سبيل الله.

وقرأ حمزة والكسائي والأعمش وحفص[1]: ﴿ويتخذها﴾ بالنصب عطفاً، على ﴿لِيُضِلَّ﴾. وقرأ باقي السبعة: بالرفع عطفاً على ﴿يَشْتَرِي﴾.

وحاصل معنى الآية: أي[2] ومن الناس فريق يتخذ ما يتلهى به عن الحديث النافع للإنسان في دينه، فيأتي بالخرافات والأساطير والمضاحيك، وفضول الكلام، كالنضر بن الحارث، الذي كان يشتري الكتب ويحدث بها الناس، وربما اشترى الفتيات وأمرهن بمعاشرة من أسلم، ليحملهم على ترك الإسلام، وما مقصده من ذلك إلا الإضلال والصد عن دين الله، وقراءة كتابه واتخاذه هزواً ولعباً.

وعن نافع قال: كنت أسير مع عبد الله بن عمر في الطريق، فسمع مزماراً فوضع إصبعيه في أذنيه، وعدل عن الطريق، فلم يزل يقول: يا نافع أتسمع؟ قلت: لا، فأخرج إصبعيه من أذنيه، وقال: هكذا رأيت رسول الله - ﷺ - صنع. وعن ابن عوف أن رسول الله - ﷺ - قال: «إنما نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين: صوت عند نغمة لهو ومزامير شيطان، وصوت عند مصيبة خمش وجوه وشق جيوب ورنة شيطان».

والخلاصة: أن سماع الغناء الذي يحرك النفوس، يبعثها على اللهو والمجون، بكلام يشبب فيه بذكر النساء، ووصف محاسنهن، وذكر الخمور والمحرمات، لا خلاف في تحريمه، أما ما سلم من ذلك فيجوز القليل منه في أوقات الفرح، كالعرس والعيد، وحين التنشيط على الأعمال الشاقة، كما كان في حفر الخندق، وحدو أنجشة - عبد أسود - كان يقود راحلة نساء النبي - ﷺ - عام حجة الوداع، وأما طبل الحرب فلا حرج فيه، لأنه يقيم النفوس ويرهب العدو،

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

فقد ضرب بين يدي النبي - ﷺ - يوم دخل المدينة، فهم أبو أبكر بالزجر فقال رسول الله - ﷺ -: «دعهن يا أبا بكر، حتى تعلم اليهود أن ديننا فسيح» فكن يضربن ويقلن:

نَحْنُ بَنَاتُ النَّجَّارِ   حَبَّذَا مُحَمَّدٌ مِنْ جَارِ

ولا بأس في استعمال الطبل والدف في النكاح، وكذا الآلات المشهرة به، والغناء بما يحسن من الكلام مما لا رفث فيه، وسماع الغناء من المرأة التي ليست بمحرم لا يجوز.

ثم بين عاقبة أمرهم، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر من الاشتراء والإضلال ﴿لَهُمْ عَذَابٌ﴾ شديد ﴿مُّهِينٌ﴾؛ أي: ذو إهانة وإذلال لهم، لإهانتهم الحق بإيثار الباطل عليه، وترغيب الناس فيه؛ أي: إنه كتب لهم العذاب والخزي يوم القيامة، لأنهم لما أهانوا الحق باختيارهم الباطل.. جوزوا بإهانتهم يوم الجزاء بعذاب يفضحهم ويخزيهم أمام الخلائق.

ثم أشار سبحانه إلى أن هذا داء قد استشرى في نفسه، فكلما تليت عليه آية.. ازداد إباءً ونفوراً، فقال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾؛ أي: على هذا المشتري المستهزىء[1]، أفرد الضمير فيه وفيما بعده، كالضمائر الثلاثة الأولى باعتبار لفظ من وجمع في ﴿أولئك﴾ باعتبار معناه كما مر، قال في «كشف الأسرار»: وهذا دليل على أن الآية السابقة نزلت في النضر بن الحارث.

﴿ءَايَٰتُنَا﴾؛ أي: آيات كتابنا القرآنية ﴿وَلَّىٰ﴾؛ أي: أعرض هذا المستهزىء عنها غير معتد بها حال كونه ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾؛ أي: مبالغاً في التكبر ودفع النفس عن الطاعة والإصغاء، وجملة قوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ حال من ضمير ﴿وَلَّىٰ﴾ أو من ضمير ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾، والأصل: كأنه، فحذف ضمير الشأن، وخففت المثقلة؛ أي: كأن ذلك المعرض المتكبر لم يسمعها مع أنه قد سمعها، ولكن أشبهت حاله حال من لم يسمع؛ أي: حال كونه مشابهاً حاله حال من ﴿لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ وهو

---

(١) روح البيان.

سامع، وفيه رمز إلى أن من سمعها لا يتصور منه التولية والاستكبار، لما فيها من الأمور الموجبة للإقبال عليها والخضوع لها.

وجملة قوله: ﴿كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾[1] حال ثانية أو بدل من التي قبلها، أو حال من ضمير ﴿لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾؛ أي: حال كونه مشابهاً حاله حال من في أذنيه، وقر؛ أي: ثقل مانع من السماع، ﴿فَبَشِّرْهُ﴾؛ أي: فبشر ذلك المعرض ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؛ أي: مؤلم؛ أي: فأخبره بأن العذاب لمفرط في الإيلام، لاحق به لا محالة، وذكر البشارة للتهكم.

أي[2]: وإذا تتلى آيات الكتاب الكريم على هذا الذي اشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله.. يعرض عن سماعها ويولي مستكبراً، كأن في أذنيه ثقلاً فلا يصيخ لها، ولا يأبه لتلقفها وتأملها، ونحو الآية قوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ ولما تسبب عن ذلك استحقاقه لما يزيل كبره وعظمته قال: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؛ أي: فبشر هذا المعرض وأوعده بالعذاب الذي يؤلمه ويقض مضجعه يوم القيامة.

فإن قلت[3]: لم زاد هنا ﴿كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ وحذفه في الجاثية حيث قال هنا: ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾﴾ مع أنهما نزلا في النضر بن الحارث، حيث كان يعدل عن سماع القرآن إلى اللهو وسماع الغناء؟

قلت: لأنه تعالى بالغ في ذمه هنا، فناسب زيادة ذلك بخلاف ما في الجاثية.

ولما بين سبحانه حال من يعرض عن الآيات بين حال من يقبل عليها، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بآياتنا ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: عملوا بموجبها، قال في «كشف الأسرار»: الإيمان التصديق بالقلب، وتحقيقه بالأعمال الصالحة،

---

(1) الشوكاني.

(2) المراغي.

(3) فتح الرحمٰن.

ولذلك قرن بينهما، وجعل الجنة مستحقة بهما، قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾؛ أي: إن الذين آمنوا بالله وبآياته، ولم يعرضوا عنها بل قبلوها وعملوا بها ﴿لهم﴾ بمقابلة إيمانهم وأعمالهم ﴿جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾؛ أي: نعيم الجنات، فعكسه للمبالغة. وقيل: جنات النعيم: اسم لإحدى الجنات الثمانية، وهي دار الجلال، ودار السلام، ودار القرار، وجنة عدن، وجنة المأوى، وجنة الخلد، وجنة الفردوس، وجنة النعيم. كما روى وهب بن منبه عن ابن عباس - رضي الله عنهما - فجعل لهم جنات النعيم، كما جعل للفريق الأول العذاب المهين.

وقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حال من الضمير في ﴿لَهُمْ﴾. وقرأ زيد بن علي: خالدون[1] فيها على أنه خبر ثان لـ﴿إن﴾. وقرأ الجمهور بالياء. ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: وعدهم الله سبحانه جنات النعيم وعداً، فهو مصدر مؤكد لنفسه، لأن معنى ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ وعدهم بها ﴿حَقًّا﴾؛ أي: حق ذلك الوعد حقاً، فهو تأكيد لقوله: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ أيضاً، لكنه مصدر مؤكد لغيره، لأن قوله: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ وعد، وليس كل وعد حقاً.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لايغلب به غالب فيمنعه من إنجاز وعده أو تحقيق وعيده ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ في كل أفعاله وأقواله، الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

ومعنى الآية[2]: أي إن الذين آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين، وعملوا الأعمال الصالحة، فأتوا بما أمرهم به ربهم في كتابه، على لسان رسله، وانتهوا عما نهاهم عنه، لهم جنات ينعمون فيها بأنواع اللذات والمسار، من المآكل والمشارب والملابس والمراكب، ومما لم يخطر لأحدهم ببال، وهم فيها مقيمون دائماً، لا يظعنون ولا يبغون عنها حولاً ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾؛ أي: ما أخبرنا به كائن لا محالة، لأنه وعد الله الذي لا يخلف وعده، وهو الكريم المنان على عباده ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾؛ أي: وهو الشديد في انتقامه من أهل الشرك به،

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

الصادين عن سبيله الحكيم، في تدبير خلقه، فلا يفعل إلا ما فيه الحكمة والمصلحة لهم.

ثم بين سبحانه عزته وحكمته بقوله: ﴿خَلَقَ﴾ الله سبحانه وتعالى وأوجد ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ السبع وكذا الكرسي والعرش ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾؛ أي: بغير دعائم وسواري، على أن الجمع لتعدد السماوات، والعمد، بفتحتين: جمع عماد، كأهب وإهاب، وهو ما يعمد به؛ أي: يسند، والأولى أن تكون جملة ﴿تَرَوْنَهَا﴾ مستأنفة، جيء بها للاستشهاد على ما ذكر من خلقه تعالى إياها غير معمودة بمشاهدتهم لها كذلك، ويحتمل أن تكون في محل جر صفة لعمد؛ أي: خلقها بغير عمد مرئية على أن التقييد للرمز، على أنه تعالى عمدها بعمدٍ لا ترى، هي عمد القدرة.

واعلم: أن وقوف السماوات وثبات الأرض على هذا النظام، من غير اختلال، إنما هو بقدرة الله الملك المتعال. ﴿وَأَلْقَىٰ﴾ سبحانه وتعالى وطرح ﴿فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾؛ أي: جبالاً ثوابت في نفسها، وثبت بها الأرض، شبه الجبال الرواسي استحقاراً لها، واستقلالاً لعددها، وإن كانت خلقاً عظيماً بحصيات قبضهن قابض بيده، فنبذهن في الأرض، وما هو إلا تصوير وتمثيل لقدرته، وإن كل فعل عظيم يتحير فيه الأذهان، فهو هين عليه، والمراد: قال لها: كوني، فكانت فأصبحت الأرض قد أرسيت بالجبال، بعد أن كانت تمور موراً؛ أي: تضطرب اضطراباً، فلم يدر أحد مم خلقت.

وقوله: ﴿أَن تَمِيدَ﴾ الأرض، تتحرك وتضطرب ﴿بِكُمْ﴾ في محل نصب على العلة؛ أي: ألقى فيها رواسي كراهية أن تميد بكم، والكوفيون يقدرونه لئلا تميد بكم.

والمعنى[1]: أنه خلقها وجعلها مستقرةً ثابتةً لا تتحرك، بجبال جعلها عليها وأرساها على ظهرها، والميد[2]: اضطراب الشيء العظيم كاضطراب الأرض، والمعنى: كراهية أن تميل بكم، فإن بساطة أجزائها تقتضي تبدل أحيازها

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

وأوضاعها لامتناع اختصاص كل منها لذاته، أو لشيء من لوازمه بحيز معين ووضع مخصوص.

﴿وَبَثَّ فِيهَا﴾؛ أي: وفرق الله سبحانه في الأرض ﴿مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾؛ أي: من كل نوع من أنواع الدواب مع كثرتها واختلاف أجناسها، وبث الشيء: تفريقه، كبث الريح التراب، فبث كل دابة في الأرض إشارة إلى إيجاده تعالى، ما لم يكن موجوداً وإظهاره إياه، والدب والدبيب: مشي خفيف ـ كما سيأتي ـ ويستعمل ذلك في الحيوان وفي الحشرات أكثر.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: من السحاب، لأن السماء في اللغة: ما علاك وأظلك، ﴿مَآءً﴾ هو المطر ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا﴾؛ أي: في الأرض بسبب ذلك الماء، والالتفات إلى نون العظمة في الفعلين لإبراز مزيد الاعتناء بأمرهما ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾؛ أي: صنف ﴿كَرِيمٍ﴾؛ أي: كثير المنفعة، ووصفه بكونه كريماً لحسن لونه وكثرة منافعه، وقيل المراد بذلك: الناس، فالكريم منهم من يصير إلى الجنة، واللئيم من يصير إلى النار، قاله الشعبي وغيره، والأول أولى.

واعلم: أن كل ما في العالم فهو زوج، من حيث إن له ضداً ما، أو مثلاً ما، أو تركباً ما، من جوهر وعرض مادة وصورة، وفيه تنبيه على أنه لا بد للمركب من مركب، وهو الصانع الفرد.

ومعنى الآية(١): أي ومن الأدلة على قدرته البالغة، وحكمته الظاهرة: أن خلق السماوات السبع بغير عمد تستند إليه، بل هي قائمة بقدرة الحكيم الفعال لما يشاء، وقد تقدم تفصيل ذلك في سورة الرعد، وأن ألقى في الأرض، وجعل على ظهرها ثوابت الجبال، لئلا تضطرب بكم وتميد بالمياه المحيطة بها الغامرة لأكثرها، وأن بث فيها من كل دابة؛ أي: وأن ذرأ فيها من أصناف الحيوان ما لا يعلم عددها، ومقادير أشكالها وألوانها، إلا الذي فطرها، وأن أنزلنا من السماء ماء، فكان ذلك سبباً لإنبات كل صنف كريم من النبات ذي المنافع الكثيرة، ثم

---

(١) المراغي.

بكتهم بأن هذه الأشياء العظيمة مما خلقه الله وأنشأه، فأروني ماذا خلقته آلهتكم حتى استوجبوا عندكم العبادة فقال: ﴿هَٰذَا﴾ الذي ذكر من السماوات والأرض والجبال والحيوان والنبات ﴿خَلْقُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: مخلوقة، كضرب الأمير؛ أي: مضروبه، فأقيم المصدر مقام المفعول توسعاً؛ أي: هذا الذي تشاهدونه من السماوات والأرض وما فيهما من الخلق، مخلوق الله وحده، دون أن يكون له شريك في ذلك.

﴿فَأَرُونِى﴾؛ أي[1]: فأخبروني أيها المشركون الذين يعبدون هذه الأصنام والأوثان ﴿مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ تعالى؛ أي: أي شيء خلق الذين من دونه تعالى مما اتخذتموه شركاء له سبحانه في العبادة، حتى استحقوا به العبودية، كما استحق ذلك عليكم خالقكم وخالق هذه الأشياء التي عددتها لكم، و﴿مَاذَا﴾ بمنزلة اسم واحد بمعنى: أي شيء، نصب بـ﴿خَلَقَ﴾، أو ما مرفوع بالابتداء وخبره ذا وصلته، و﴿أروني﴾: معلق عنه على كلا التقديرين، والاستفهام: للتقريع والتوبيخ، والمعنى: فأروني أي شيء خلقوا مما يحاكي خلق الله أو يقاربه، وهذا الأمر لهم لقصد التعجيز والتبكيت.

ثم انتقل من توبيخهم بما ذكر إلى تسجيل الضلال عليهم، المستدعي للإعراض عنهم، وعدم مخاطبتهم بالمعقول من القول، لاستحالة أن يفهموا منه شيئاً فيهتدوا إلى بطلان ما هم عليه فقال: ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ أي: بل المشركون بالله، العابدون معه غيره من أهل مكة وغيرهم ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: في خطأ واضح ظاهر لا اشتباه فيه لمن تأمله ونظر فيه، فأنى لهم أن يرعووا عن غي أو يهتدوا إلى رشد وحق.

فقرر ظلمهم أولاً، وضلالهم ثانياً، ووصف ضلالهم بالوضوح والظهور، ومن كان هكذا فلا يعقل الحجة، ولا يهتدي إلى الحق.

---

(١) المراغي.

قصة لقمان الحكيم

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان بطلان الشك. ا هـ. «أبو السعود». واختلف في لقمان هل هو عجمي أم عربي، مشتق من اللقم، مرتجلاً إذ لا يعلم له وضع في النكرات، فمن قال: إنه عجمي.. منعه للتعريف والعجمة، ومن قال: إنه عربي.. منعة للتعريف وزيادة الألف والنون، واختلفوا أيضاً هل هو نبي أم رجل صالح، فذهب أكثر أهل العلم أنه ليس بنبي، وحكى الواحدي عن عكرمة والسدي والشعبي: أنه كان نبياً، والأول أرجح، وقيل: لم يقل بنبوته إلا عكرمة فقط، مع أن الراوي لذلك عنه جابر الجعفي، وهو ضعيف جداً، وهو لقمان بن باعورا بن ناحور بن تارخ، وهو آزر أبو إبراهيم، فعلى هذا هو ابن أخي إبراهيم عليه السلام، وقيل: هو لقمان بن عنقا بن سرون، كان عبداً نوبياً من أهل أيلة، ذكره السهيلي، أسود اللون ولا ضير، فإن الله تعالى لا يصطفي عباده اصطفاء نبوة أو ولاية وحكمة على الحسن والجمال، وإنما يصطفيهم على ما يعلم من غائب أمرهم، وقيل: كان ابن أخت أيوب، وقيل: كان ابن خالته، وقيل: إنه عاش ألف سنة حتى أدرك داود وأخذ عنه العلم، كان يفتي قبل مبعث داود، فلما بعث داود قطع الفتوى، فقيل له: فقال: ألا أكتفي إذ كفيت.

وفي بعض الكتب: قال لقمان: خدمت أربعة آلاف نبي، واخترت من كلامهم ثماني كلمات: إن كنت في الصلاة.. فاحفظ قلبك، وإن كنت في الطعام.. فاحفظ حلقك، وإن كنت في بيت الغير.. فاحفظ عينيك، وإن كنت بين الناس.. فاحفظ لسانك، واذكر اثنين، وأنس اثنين، أما اللذان تذكرهما: فالله والموت، وأما اللذان تنساهما: إحسانك في حق الغير، وإساءة الغير في حقك.

وقيل: كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً، وقيل: كان خياطاً، وقيل: كان راعي غنم، فروي أنه لقيه رجل وهو يتكلم بالحكمة، فقال: ألست فلاناً الراعي؟ قال: بلى، قال: فبم بلغت ما بلغت، قال: بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وترك مالا

يعنيني. وقيل: كان عبداً أسود عظيم الشفتين مشقق القدمين، وقيل: خير السودان بلال بن رباح، ومهجع مولى عمر، ولقمان، والنجاشي رابعهم، وأوتي الحكمة والعقل والفهم.

واتفق العلماء على أنه كان حكيماً، ولم يقل نبياً إلا عكرمة والشعبي، فقالا بنبوته، وعلى هذا تكون الحكمة هي النبوة، ويؤيد كونه حكيماً لا نبياً كونه أسود اللون، لأنه تعالى لم يبعث نبياً إلا حسن الشكل حسن الصوت، وما روي أنه قيل له: ما أقبح وجهك يا لقمان، فقال: أتعيب بهذا على النقش أم على النقاش، وما قال عليه السلام: «حقاً أقول لم يكن لقمان نبياً، ولكن كان عبداً كثير التفكر حسن اليقين، أحب الله فأحبه، فمنّ عليه بالحكمة» وهي إصابة الحق باللسان، وإصابة الفكر بالجنان، وإصابة الحركة بالأركان، إن تكلم.. تكلم بحكمة، وإن تفكر.. تفكر بحكمة، وإن تحرك.. تحرك بحكمة.

أي: وعزتي وجلالي لقد أعطينا لقمان الحكمة؛ أي: العقل والفطنة والإصابة في القول، وقيل: الحكمة: توفيق العمل بالعلم، فكل من أوتي توفيق العمل بالعلم فقد أوتي الحكمة، وقد نسب إليه من المقالات الحكيمة شيء كثير، كقوله لابنه: أي بني إن الدنيا بحر عميق، وقد غرق فيها ناس كثيرون، فاجعل سفينتك فيها تقوى الله تعالى، وحشوها الإيمان، وشراعها التوكل على الله، لعلك تنجو ولا أراك ناجياً وقوله: من كان له من نفسه واعظ كان له من الله حافظ، ومن أنصف الناس من نفسه.. زاده الله بذلك عزاً، والذلّ في طاعة الله، أقرب من التعزز بالمعصية وقوله: يا بني، لا تكن حلواً فتبتلع، ولا مراً فتلفظ. وقوله: يا بني إذا أردت أن تؤاخي رجلاً.. فأغضبه قبل ذلك، فإن أنصفك عند غضبه.. فآخه، وإلا فاحذره.

ولما كانت الحكمة من إنعام الله تعالى على لقمان، ونعمة من نعمه.. طالبه بشكره فقال: وقلنا له: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ﴾ سبحانه وتعالى على ما أعطاك من الحكمة، إذ آتاك الله إياها وأنت نائم غافل عنها جاهل بها، والشكر لله: هو الثناء عليه في مقابلة النعمة، وطاعته فيما أمر به.

والظاهر: أن ﴿أَنِ﴾: زائدة على هذا التفسير؛ أي: قلنا له: اشكر لله على ما أعطاك، وقيل: هي مفسرة، لأن إيتاء الحكمة في معنى القول، لأنه تعليم أو وحي.

والمعنى عليه: ولقد أعطينا لقمان الحكمة ووفقناه إياها، وهي شكره وحمده على ما آتاه من فضله، بالثناء عليه بما هو أهل له، وحب الخير للناس، وتوجيه الأعضاء إلى ما خلقت له.

ثم بين سبحانه أن الشكر لا ينتفع به إلا الشاكر، فقال: ﴿وَمَن يَشْكُرْ﴾ له تعالى على نعمه ﴿فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ لأن منفعة شكره التي هي دوام النعمة واستحقاق مزيدها، عائدة إليها مقصورة عليها، ولأن الكفران من الوصف اللازم للإنسان، فإنه ظلوم كفار، والشكر من صفة الحق تعالى، فإن الله شاكر عليم، فمن شكر.. فإنما يشكر لنفسه بإزالة صفة الكفران عنها، واتصافها بصفة شاكرية الحق تعالى، فيفوز بالثواب الجزيل على شكره، وينجو من العذاب الأليم، كما قال: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾.

﴿وَمَن كَفَرَ﴾ نعمة ربه فعليه وبال كفره ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه ﴿غَنِيٌّ﴾ عنه وعن شكره ﴿حَمِيدٌ﴾؛ أي: محمود في ذاته وصفاته وأفعاله، سواء حمده العباد وشكروه، أم كفروه، ولا يحصي عليه أحد ثناء كما يثني هو على نفسه، وعدم التعرض لكونه تعالى شكوراً، لما أن الحمد متضمن للشكر، وهو رأسه، كما قال عليه السلام: «الحمد رأس الشكر، لم يشكر الله عبد لم يحمده» فإثبات الحمد له تعالى إثبات للشكر، قال في «كشف الأسرار»: رأس الحكمة: الشكر لله ثم المخافة منه، ثم القيام بطاعته. ولا شك أن لقمان امتثل أمر الله في الشكر وقام بعبوديته.

والمعنى: أي ومن كفر نعم الله عليه.. فإلى نفسه أساء، لأن الله معاقبه على كفرانه إياها، والله غني عن شكره، لأن شكره لا يزيد في سلطانه، وكفرانه لا ينقص من ملكه، وهو محمود على كل حال كفر العبد أو شكر. وقال يحيى بن سلام: غني عن خلقه، حميد في فعله.

وعن عبد الله بن دينار: أن لقمان قدم من سفر، فلقي غلامه في الطريق فقال: ما فعل أبي؟ قال: مات، قال: الحمد لله، ملكت أمري، قال: وما فعلت أمي؟ قال: قد ماتت، قال: ذهب همي، قال: ما فعلت امرأتي؟ قال: ماتت، قال: جدد فراشي، قال: ما فعلت أختي: قال: ماتت، قال: سترت عورتي، قال: ما فعل أخي؟ قال: مات، قال: انقطع ظهري، وانكسر جناحي، ثم قال: ما فعل ابني؟ قال: مات، قال انصدع قلبي.

وقال في «فتح الرحمٰن»: وقبر لقمان بقرية صرفند، ظاهر مدينة الرملة من أعمال فلسطين - بكسر الفاء وفتح اللام وسكون السين - وهي البلاد التي بين الشام وأرض مصر، منها الرملة وغزة وعسقلان، وعلى قبره مشهد، وهو مقصود بالزيارة، وقال قتادة: قبره بالرملة ما بين مسجدها وسوقها، وهناك قبور سبعين نبياً ماتوا بعد لقمان جوعاً في يوم واحد، أخرجهم بنو إسرائيل من القدس، فألجؤوهم إلى الرملة، ثم أحاطوهم هنا. انتهى.

وجملة قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ﴾ قيل: معطوفة على ما تقدم، والتقدير: ولقد آتينا لقمان الحكمة حين جعلناه شاكراً في نفسه، وحين جعلناه واعظاً لغيره، والأولى أن تكون ﴿وَإِذْ﴾ معمولة لـ: اذكر محذوفاً؛ أي: واذكر يا محمد لقومك قصة وقت قول لقمان ﴿لابنه﴾ قيل: اسمه أنعم، فهو أبو أنعم؛ أي: يكنى به، كما قالوا. وقال السهيلي: اسم ابنه ثاران، في قول ابن جرير والقتيبي، وقال الكلبي: اسمه مكشم، وقال النقاش: أنعم، وقيل: ماتان، قال القشيري: كان ابنه وامرأته كافرين، فما زال يعظهما حتى أسلما، قيل: وضع لقمان جراباً من خردل إلى جنبه، وجعل يعظ ابنه موعظةً موعظةً، ويخرج خردلةً خردلةً، فنفذ الخردل، فقال: يا بني وعظتك موعظةً، لو وعظتها جبلاً. لتفطر، فتفطر ابنه ومات.

﴿وَهُوَ﴾؛ أي: والحال أن لقمان ﴿يَعِظُهُۥ﴾؛ أي: يعظ الابن، والوعظ: زجر يقترن بتخويف؛ أي: يخاطبه بالمواعظ التي ترغبه في التوحيد، وتصده عن الشرك. ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ بالتصغير والإضافة إلى ياء المتكلم - بالفتح والكسر - وهو تصغير

رحمة وشفقة وعطوفة، ولهذا أوصاه بما فيه سعادته إذا عمل بذلك.

وقرأ البزي وابن كثير[1]: ﴿يا بنيْ﴾ بإسكان الياء، ﴿ويا بني إنها﴾ بكسر الياء. ﴿ويا بني أقم﴾ بفتحها. وقيل: بالسكون في الأولى والثالثة. والكسر في الوسطى، وقرأ حفص والمفضل عن عاصم بالفتح في الثلاثة على تقدير يا بنيا، والاجتزاء عن الألف، وقرأ باقي السبعة بالكسر في الثلاثة.

﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: لا تعدل بالله شيئاً في العبادة، ونهيه عن الشرك يدل على أنه كان كافراً، كما تقدم، وجملة قوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ تعليل لما قبلها؛ أي: أنه تسوية من لا نعمة إلا منه ومن لا نعمة منه، وبدأ في وعظه بنهيه عن الشرك، لأنه أهم من غيره، وأما عظمه، فلأنه لا يغفر أبداً، قال الشاعر:

أَلْحَمْدُ لِلَّهِ لاَ شَرِيْكَ لَهُ وَمَنْ أَبَاهَا فَنَفْسَهُ ظَلَمَا

وكان ابنه وامرأته كافرين، فما زال بهما حتى أسلما، بخلاف ابن نوح وامرأته، فإنهما لم يسلما، وبخلاف ابنتي لوط وامرأته، فإنه ابنتيه أسلمتا دون امرأته، ولذا ما سلمت فكانت حجراً، كما في بعض الروايات، كما سبق، قيل: وعظ لقمان ابنه في ابتداء وعظه على مجانبة الشرك، والوعظ: زجر النفس عن الاشتغال بما دون الله، وهو التفريد للحق بالكل نفساً وقلباً وروحاً، فلا تشتغل بالنفس إلا بخدمته، ولا تلاحظ بالقلب سواه، ولا تشاهد بالروح غيره، وهو مقام التفريد بالتوحيد.

وقد اختلف في هذه الجملة[2]، فقيل: هي من كلام لقمان، وقيل: من كلام الله تعالى، فتكون منقطعةً عما قبلها، ويؤيد هذا ما ثبت في الحديث الصحيح: أنها لما نزلت ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ شق ذلك على الصحابة، وقالوا: أينا لم يظلم نفسه فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ فطابت أنفسهم. أخرجه البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه.

---

(١) البحر المحيط. (٢) الشوكاني.

ومعنى الآية[1]: أي واذكر أيها الرسول الكريم لقومك موعظة لقمان لابنه، وهو أشفق الناس عليه وأحبهم لديه، حين أمره أن يعبد الله وحده، ونهاه عن الشرك، وبين له أنه ظلم عظيم، أما كونه ظلماً فلما فيه من وضع الشيء في غير موضعه، وأما أنه عظيم، فلما فيه من التسوية بين من لا نعمة إلا منه، وهو سبحانه وتعالى، ومن لا نعمة لها، وهي الأصنام والأوثان.

وبعد أن ذكر سبحانه ما أوصى به لقمان ابنه، من شكر المنعم الأول، الذي لم يشركه أحد في إيجاده إياه، وذكر ما في الشرك من الشناعة.. أتبعه بوصيته الولد بالوالدين، لكونهما السبب في وجوده، فقال: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ إلى قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: اعتراض في أثناء وصية لقمان، تأكيداً لما فيها من النهي عن الشرك؛ أي: وأمرنا[2] الإنسان ببر والديه وطاعتهما، والقيام بحقوقهما وبالإحسان إليهما، وكثيراً ما يقرن القرآن بين طاعة الله وبر الوالدين، كقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ وفسر الوصية بقوله الآتي: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ وما بينهما: اعتراض بين المفسَّر والمفسِّر، وفي جعل الشكر لها مقترناً بالشكر لله، دلالة على أن حقهما من أعظم الحقوق على الولد، وأكبرها وأشدها وجوباً.

ومعنى ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ﴾ في بطنها ﴿وَهْنًا﴾؛ أي: حالة كونها ذات وهن وضعف بحمله، أو تهن وهناً ﴿عَلَىٰ وَهْنٍ﴾؛ أي: تضعف ضعفاً فوق ضعف، فإنها لا تزال يتضاعف ضعفها؛ أي: حملته وهي في ضعف بتزايد بازدياد ثقل الحمل إلى حين الطلق، ثم مدة النفاس، وقيل: المعنى: إن المرأة ضعيفة الخلقة، ثم يضعفها الحمل، وهذه منة خاصة بالوالدة لما فيها من كبير المشقة.

وقرأ الجمهور: ﴿وهناً﴾ بسكون الهاء في الموضعين، وقرأ عيسى الثقفي - وهي رواية عن أبي عمرو: بفتحهما وهما لغتان، ثم أردفها بمنة أخرى، وهي الشفقة عليه، وحسن كفالته حين لا يملك لنفسه شيئاً، فقال: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ﴾: مبتدأ

---

(١) المراغي.
(٢) المراغي.

خبره ﴿فِي عَامَيْنِ﴾؛ أي[1]: وفطام الإنسان مِن اللبن يقع في تمام عامين من وقت الولادة، وهي مدة الرضاع عند الشافعي، فلا يثبت حرمة الرضاع بعدها، فالإرضاع عنده واجب إلى الاستغناء، ويستحب إلى الحولين، وجائز إلى حولين ونصفٍ، قال في «الوسيط»: المقصود ذكر مشقة الوالدة، بإرضاع الولد بعد الوضع عامين.

وقرأ الجمهور: ﴿وفصاله﴾ بالألف، وقرأ الحسن وأبو جعفر وقتادة والجحدري ويعقوب ﴿وفصله﴾ ومعناه الفطام، وهما لغتان.

والمعنى: أي وفطامه من الرضاع بعد وضعه في تمام عامين، تقاسي فيها الأم في رضاعه وشؤونه في تلك الحقبة جم المصاعب والآلام، التي لا يقدر قدرها إلا العليم بها، ومن لا يخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

وقد وصى[2] بالوالدين، لكنه ذكر السبب في جانب الأم فحسب، لأن المشقة التي تلحقها أعظم، فقد حملته في بطنها ثقيلاً، ثم وضعته وربته ليلاً ونهاراً، ومن ثم قال ﷺ لمن سأله من أبر: أمك، ثم أمك، ثم أمك، ثم قال بعد ذلك: ثم أباك، ثم فسر هذه الوصية بقوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ والأولى أن تكون ﴿أَنِ﴾ مفسرة؛ أي: قلنا له: اشكر لي حيث أوجدتك وهديتك بالإسلام، واشكر لوالديك حيث ربياك صغيراً، وقاسا فيك ما قاسا من المشقة، حتى استحكمت قواك، وشكر الحق بالتعظيم والتكبير، وشكر الوالدين بالإشفاق والتوقير، وقال الزجاج: هي مصدرية، والمعنى: بأن اشكر لي، وقال النحاس: وأجود منه أن تكون ﴿أَنِ﴾ مفسرة، وفي «شرح الحكم»: قرن شكرهما بشكره، إذ هما أصل وجودك المجازي، كما أن أصل وجودك الحقيقي فضله وكرمه، فله حقيقة الشكر، كما له حقيقة النعمة، ولغيره مجازه، كما لغيره مجازها.

وفي الحديث: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس» فجعل شكر الناس شرطاً

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

في صحة شكره تعالى. ثم حق المعلم[1] في الشكر فوق حق الوالدين، سئل الاسكندر، قيل له: ما بالك تعظم مؤدبك أشد من تعظيمك لأبيك؟ فقال: أبي حطني من السماء إلى الأرض، ومؤدبي رفعني من الأرض إلى السماء: وقيل لبعضهم: ما بالك تعظيمك لمعلمك أشد من تعظيمك لأبيك؟ قال: لأن أبي سبب حياتي الفانية، ومعلمي سبب حياتي الباقية.

ثم علل الأمر بشكره محذراً إياه بقوله: ﴿إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾؛ أي: إلي الرجوع لا إلى غيري، فأجازيك على شكرك وكفرك، ومعنى الرجوع إلى الله: الرجوع إليه، حيث لا حاكم ولا مالك سواه.

والمعنى: إليّ رجوعك بالبعث بعد الموت، لا إلى غيري، فأجازيك على ما صدر منك مما يخالف أمري، وسائلك عما كان من شكرك لي، على نعمي عليك، وعلى ما كان من شكرك لوالديك وبرك بهما.

قال سفيان بن عيينة ـ رحمه الله تعالى ـ: من صلى الصلوات الخمس.. فقد شكر الله تعالى، ومن دعا لوالديه في أدبار الصلوات الخمس.. فقد شكر والديه. وفي الحديث: «من أحب أن يصل أباه في قبره.. فليصل إخوان أبيه من بعده، ومن مات والداه وهو غير بار لهما، وهي حي.. فليستغفر لهما ويتصدق لهما حتى يكتب باراً لوالديه، ومن زار قبر أبويه أو أحدهما في كل جمعة.. كان باراً».

فإن قلت[2]: كيف وقعت الآيتان في أثناء وصية لقمان لابنه؟.

قلت: هما من الجمل الاعتراضية التي لا محل لها من الإعراب، اعترض بها بين كلامين متصلين معنىً، تأكيداً لما في وصية لقمان لابنه من النهي عن الشرك.

فإن قلت: لم فصل بين الوصية ومفعولها بقوله: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ

(١) روح البيان.
(٢) فتح الرحمٰن.

﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ﴾؟.

قلت: تخصيصاً للأم بزيادة التأكيد في الوصية، لما تكابده من المشاق.

وبعد أن ذكر سبحانه وصيته بالوالدين، وأكد حقهما ووجوب طاعتهما، استثنى من ذلك حقوقه تعالى؛ فإنه لا يجب طاعتهما فيما يغضبه، فقال: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ﴾؛ أي: وإن كلفك الولدان أيها الإنسان وحملاك ﴿عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي﴾ في العبادة ﴿مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ﴾؛ أي: بشركته إياي في استحقاق العبادة ﴿عِلۡمٞ﴾[1] أراد بنفي العلم به نفيه من أصله؛ أي: لا تشرك بي ما ليس بشيء، يريد الأصنام ﴿فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ﴾ في الشرك، يعني أن خدمة الوالدين وطاعتهما ـ وإن كانت عظيمة ـ فلا يجوز للولد أن يطيعهما في معصية الله تعالى، أياً كانت شركاً أو غيره؛ أي: فلا تطعهما فيما أمراك به، وإن أدى الأمر إلى السيف فجاهدهما به.

روي أن هذه الآية نزلت في سعد بن أبي وقاص، قال: لما أسلمت.. حلفت أمي لا تأكل طعاماً، ولا تشرب شراباً، فناشدتها أول يوم فأبت، وصبرت، فلما كان اليوم الثاني ناشدتها فأبت، فلما كان اليوم الثالث ناشدتها، فأبت، فقلت: والله لو كانت لك مئة نفس، فخرجت واحدة واحدة.. لم أدع ديني هذا، فلما رأت ذلك مني وعرفت أنني لست تاركاً له أكلت.

﴿وَصَاحِبۡهُمَا﴾؛ أي: وصاحب الوالدين، وعاشرهما أيها الولد ﴿فِي﴾ أمور ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ وشؤونها صحاباً ﴿مَعۡرُوفٗاۖ﴾؛ أي: صحبةً معروفةً في الشرع، يرتضيها الدين ويقتضيها الكرم والمروءة، بإطعامهما وكسوتهما وعدم جفائهما، وعيادتهما إذا مرضاً، ومواراتهما في القبر إذا ماتا، وفي «الخطيب»؛ أي: صاحبهما في أمور الدنيا التي لا تتعلق بالدين ما دمت حياً ببرهما، إن كانا على دين يقران عليه، ومعاملتهما بالحلم والاحتمال، وما يقتضيه مكارم الأخلاق ومعالم الشيم. اهـ.

وقوله: ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ إشارة[2] إلى تهوين أمر الصحبة، لأنها في أيام قلائل

---

(١) النسفي.　　(٢) المراغي.

وشيكة الانقضاء، فلا يصعب عليك تحمل مشقتها، وفي الحديث: «حسن المصاحبة: أن يطعمهما إذا جاعا، وأن يكسوهما إذا عريا» فيجب على المسلم نفقة الوالدين ولو كانا كافرين، وبرهما وخدمتهما وزيارتهما، إلا أن يخاف أن يجلباه إلى الكفر، وحينئذ يجوز أن لا يزورهما، ولا يقودهما إلى البيعة، ويقودهما منها إلى المنزل، وقال بعضهم: المعروف ههنا: أن يعرفهما مكان الخطأ والغلط في الدين عند جهالتهما بالله تعالى.

ولما كان ذلك قد يجر إلى نوع وهن في الدين ببعض محاباة فيه.. نفى ذلك بقوله: ﴿وَٱتَّبِعۡ﴾ في الدين ﴿سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ﴾ ورجع ﴿إِلَيَّ﴾ بالتوحيد والإخلاص في الطاعة، وهم المؤمنون الكاملون من النبي ـ ﷺ ـ وأصحابه، ومن اتبعه إلى يوم الدين؛ أي: واسلك سبيل من تاب من شركه ورجع إلى الإسلام، واتبع محمد ﷺ.

والخلاصة: واتبع سبيلي بالتوحيد والإخلاص والطاعة لا سبيلهما ﴿ثُمَّ﴾ بعد انقضاء حياتكم الدنيا ﴿إِلَيَّ﴾ لا إلى غيري ﴿مَرۡجِعُكُمۡ﴾؛ أي: مرجعك ومرجعهما ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾؛ أي: فأخبركم وسائر العباد عند رجوعكم ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ في الدنيا، فأجازي كلاً منكم بما صدر منه من الخير والشر، المحسن منكم بإحسانه، والمسيء بإساءته.

نبذة في ذكر أحاديث وآثار وردت في الحث على بر الوالدين

روي أن رجلاً قال: يا رسول الله، إن أمي هرمت، فأطعمها بيدي وأسقيها وأحملها على عاتقي، فهل جازيتها حقها؟ قال عليه السلام: «لا ولا واحداً من مئة» قال: ولم يا رسول الله؟ قال: «لأنها خدمتك في وقت ضعفك، مريدة حياتك، وأنت تخدمها مريداً مماتها، ولكنك أحسنت، والله يثيبك على القليل كثيراً».

وعن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «لولا أن أخاف عليكم تغير الأحوال عليكم بعدي.. لأمرتكم أن تشهدوا

لأربعة أصناف بالجنة: أولهم امرأة وهبت صداقها لزوجها لأجل الله وزوجها راضٍ، والثاني: ذو عيال كثير، يجتهد في المعيشة لأجلهم حتى يطعمهم الحلال، والثالث: التائب من الذنب على أن لا يعود إليه أبداً كاللبن لا يعود إلى الثدي، والرابع: البار بوالديه». ثم قال ـ ﷺ ـ: «طوبى لمن بر بوالديه، وويل لمن عقهما».

وعن عطاء بن يسار: إن قوماً سافروا فنزلوا بريةً فسمعوا نهيق حمار حتى أسهرهم طول الليل، فلما أصبحوا.. نظروا فرأوا بيتاً من شعر فيه عجوز، فقالوا: سمعنا نهيق حمار وليس عندك حمار؟ فقالت: ذاك ابني كان يقول لي: يا حمارة، فدعوت الله أن يصيره حماراً، فذاك منذ مات ينهق كل ليلة حتى الصباح.

وعن وهب: لما خرج نوح عليه السلام من السفينة.. نام فانكشف عورته، وكان عنده حام ولده فضحك ولم يستره، فسمع سام ويافث صنع حام، فألقيا عليه ثوباً، فلما سمعه نوح عليه السلام.. قال: غير الله لونك، فجعل السودان من نسل حام، فصار الذل لأولاده إلى يوم القيامة.

ثم إن الآية قد تضمنت النهي عن صحبة الكفار والفساق، والترغيب في صحبة الصالحين، فإن المقارنة مؤثرة، والطبع جذاب، والأمراض سارية، وفي الحديث: «لا تساكنوا المشركين، ولا تجامعوهم، فمن ساكنهم أو جامعهم.. فهو منهم، وليس منا»؛ أي: لا تسكنوا مع المشركين في المسكن الواحد، ولا تجتمعوا معهم في المجلس الواحد، حتى لا تسري إليكم أخلاقهم الخبيثة، وسيرهم القبيحة بحكم المقارنة، قال إبراهيم الخواص ـ رحمه الله تعالى ـ: دواء القلب خمسة: قراءة القرآن بالتدبر، وإخلاء البطن، وقيام الليل، والتضرع إلى الله تعالى عند السحر، ومجالسة الصالحين. كذا في «البستان».

ثم عاد سبحانه إلى ذكر بقية وصايا لقمان لابنه، بعد أن نهى في مطلعها عن الشرك، وأكده بالاعتراض الذي ذكره بقوله: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ﴾ قال مقاتل: إن ابن لقمان قال لأبيه: يا أبتاه، إن عملت الخطيئة حيث لا يراني أحد كيف

يعلمها الله تعالى؟ فرد عليه لقمان، فقال: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ﴾؛ أي: إن الخطيئة أو إن القصة كما قاله المولى الجامي، أو إن الفعلة من الإساءة، أو الإحسان إن تك تلك الخطيئة أو الفعلة ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾؛ أي: وزن حبة واحدة من خردل؛ أي: مقدار ما هو أصغر المقادير التي توزن بها الأشياء من جنس الخردل، الذي هو أصغر الحبوب المقتاتة ﴿فَتَكُن﴾ تلك الخطيئة مع كونها في أقصى غايات الصغر ﴿فِى صَخْرَةٍ﴾ تحت الأرضين، وهي التي عليها الثور كما قيل، وهي لا في الأرض ولا في السماء؛ أي: في أخفى مكان وأحرزه، كجوف صخرة ماء، وقال المولى الجامي: في صخرة، هي أصلب المركبات، وأشدها منعاً لاستخراج ما فيها، انتهى.

وقال بعضهم: المراد بالصخرة[1]: أية صخرة كانت، لأنه قال بلفظ النكرة. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: الأرض على الحوت، والحوت في الماء، والماء على صفاة، والصفاة على ظهر ملك، والملك على صخرةٍ، والصخرة التي ذكر لقمان ليست في السماوات ولا في الأرض، كذا في «التكملة». هذا ضعيف ليس له أصل، ﴿أَوْ﴾ تكن ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مع ما بعدها، وفي بعض التفاسير: في العالم العلوي كمحدب السماوات ﴿أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مع طولها وعرضها، وفي بعض التفاسير: في العالم السفلي كمقعر الأرض ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾؛ أي: يحضرها فيحاسب عليها، لأنه من يعمل مثقال ذرة خيراً.. يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً.. يره.

والمعنى: أي[2] يا بني، إن الفعلة من الإساءة والإحسان، إن تك وزن حبة من خردل، فتكن في أخفى مكان وأحرزه، كجوف الصخرة أو في أعلى مكان، كالسماوات أو في أسفله كباطن الأرض، يحضرها الله يوم القيامة، حين يضع الموازين القسط، ويجازي عليها، إن خيراً.. فخير، وإن شراً.. فشر، كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾.

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

وقرأ نافع: ﴿مثقال﴾ بالرفع على أن ﴿تَكُ﴾ تامة، وتأنيثها لإضافة المثقال إلى الحبة. وهي قراءة الأعرج وأبي جعفر، وباقي السبعة بالنصب على أن ﴿تَكُ﴾ ناقصة، واسمها: ضمير يفهم من سياق الكلام، تقديره: هي؛ أي: التي سألت عنها، وقرأ عبد الكريم الجزري: ﴿فتكن﴾ بكسر الكاف وشد النون وفتحها من الكن، وهو الشيء المغطى، وقراءة محمد بن أبي فجة البعلبكي: ﴿فتكن﴾ بضم التاء وفتح الكاف والنون مشددة، وقرأ قتادة: ﴿فتكن﴾ بفتح التاء وكسر الكاف وسكون النون، من وكن الطائر يكن: إذا استقر في وكنته، ورويت هذه القراءة عن عبد الكريم الجزري أيضاً؛ أي: تستقر.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى من قول لقمان ﴿لَطِيفٌ﴾ يصل علمه إلى كل خفي، فإن أحد معاني اللطيف هو العالم بخفيات الأمور، ومن عرف أنه العالم بالخفيات.. يحذر أن يطلع عليه فيما هو فيه، ويثق به في علم ما يجهله، ﴿خَبِيرٌ﴾؛ أي: عالم بكنهه يعلم ظواهر الأمور وخوافيها.

قال في «شرح حزب البحر»: الخبير: هو العليم بدقائق الأمور، التي لا يتوصل إليها غيره إلا بالاختيار والاحتيال، ومن عرف أنه الخبير.. ترك الرياء والتصنع لغيره بالإخلاص له، فالله تعالى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ويحيط بأسرار الضمائر وبطون الخواطر ويحاسب عليها، سواء كانت في صخرة النفوس أو في سماء الأرواح، أو في أرض القلوب، وفيه تنبيه لأهل المراقبة، وتحذير من الملاحظات لاطلاع الحق على نوادر الخطرات وبطون الحركات.

ولما[1] نهاه أولاً عن الشرك، وأخبره ثانياً بعلمه تعالى وباهر قدرته.. أمره بما يتوسل به إلى الله تعالى من الطاعات، فبدأ بأشرفها، وهو الصلاة، حيث يتوجه إليه بها، ثم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم بالصبر على ما يصيبه من المحن جميعها، أو على ما يصيبه بسبب الأمر بالمعروف، ممن يبعثه عليه، والنهي عن المنكر ممن ينكره عليه، فكثيراً ما يؤذى فاعل ذلك، وهذا إنما يريد

(١) البحر المحيط.

به بعد أن يمثل هو في نفسه فيأتي بالمعروف فقال:

﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ التي[1] هي أكمل العبادات، تكميلاً لنفسك من حيث العمل بعد تكميلها من العلم والاعتقادات، لأن النهي عن الشرك فيما سبق قد تضمن الأمر بالتوحيد، الذي هو أول ما يجب على الإنسان؛ أي[2]: أدّها كاملةً على النحو المرضي لما فيها من رضا الرب بالإقبال عليه والإخبات له، ولما فيها من النهي عن الفحشاء والمنكر، وإذا تم ذلك.. صفت النفس وأنابت إلى بارئها في السراء والضراء، كما جاء في الحديث: «اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

وبعد أن أمره بتكميل نفسه توفيةً لحق الله عليه، عطف على ذلك تكميله لغيره فقال: ﴿وَأۡمُرۡ﴾ غيرك بقدر استطاعتك ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾؛ أي: بالمستحسن شرعاً وعقلاً، وحقيقته: ما يوصل العبد إلى الله تعالى. ﴿وَٱنۡهَ﴾ الناس ﴿عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾؛ أي: عن المستقبح شرعاً وعقلاً وتكميلاً لغيرك، وحقيقته: ما يشغل العبد عن الله؛ أي: وانْهَهُمْ بقدر استطاعتك عن معاصي الله ومحارمه، التي توبق من اكتسبها، وتلقي به في عذاب السعير، في جهنم وبئس المصير.

﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ﴾ من أذى الناس في ذات الله، إذا أنت أمرتهم بالمعروف أو نهيتهم عن المنكر، أو على ما أصابك من الشدائد والمحن، كالأمراض والفقر والهم والغم، والصبر: حبس النفس عما يقتضي الشرع أو العقل والكف عنه، وقد بدأ هذه الوصية بالصلاة وختمها بالصبر، لأنهما عمادا الاستعانة إلى رضوان الله تعالى، كما قال: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾.

ثم ذكر علة ذلك فقال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الذي أوصيك به ﴿مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾؛ أي: من الأمور التي جعلها الله تعالى محتومة واجبةً على عباده، لا محيص عنها لما لها من جزيل الفوائد وعظيم المنافع في الدنيا والآخرة، كما دلت على ذلك تجارب الحياة، وأرشدت إليه نصوص الدين.

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

ففيه[1] إطلاق المصدر؛ أي: العزم على المفعول؛ أي: المعزوم.

والمعنى: من معزومات الأمور ومقطوعاتها ومفروضاتها، بمعنى مما عزمه الله؛ أي: قطعه قطع إيجاب، وأمر به العباد أمراً حتماً، ويجوز أن يكون بمعنى الفاعل؛ أي: من عازمات الأمور وواجباتها ولازماتها من قوله: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾؛ أي: جد. وفي هذا[2] دليل على قدم هذه الطاعات والحث عليها في شريعة من تقدمنا، وبيان لهذه الأمة من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر، ينبغي أن يكون صابراً على ما يصيبه في ذلك، إن كان أمره ونهيه لوجه الله، لأنه قد أصابه ذلك في ذات الله وشأنه.

وبعد أن أمره بأشياء، حذّره من أخرى فقال:

١ - ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾؛ أي: ولا تعرض بوجهك، ولا تمل خدك عمن تكلمه من الناس، تكبراً واحتقاراً له، بل أقبل عليه بوجهك كله، متهللاً مستبشراً من غير كبرٍ ولا عتوٍ، ومن هذا ما رواه مالك عن ابن شهاب عن أنس بن مالك أن رسول الله - ﷺ - قال: «لا تباغضوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث».

وقرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم وزيد بن علي[3]: ﴿تصعر﴾ بفتح الصاد وشد العين، وباقي السبعة: بألف. والجحدري: ﴿يصعر﴾ مضارع أصعر.

والمعنى: أقبل على الناس بجملة وجهك عند السلام والكلام واللقاء، تواضعاً، ولا تحول وجهك عنهم، ولا تغط شق وجهك وصفحته، كما يفعله المتكبرون استحقاراً للناس، خصوصاً الفقراء، وليكن الغني والفقير عندك على السوية في حسن المعاملة.

٢ - ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ حال كونك ﴿مَرَحًا﴾؛ أي: ذا مرح وخيلاء وفرح

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

(٣) البحر المحيط.

شديد ونشاط وعجب وخفةً؛ أي: مشياً كمشي المرح من الناس، كما يرى من كثيرهم، لا سيما إذا لم يتضمن مصلحة دينية أو دنيوية؛ أي: ولا تمش في الأرض مختالاً متبختراً، لأن تلك مشية الجبارين المتكبرين الذين يبغون في الأرض، ويظلمون الناس، بل امش هوناً، فإن ذلك يفضي إلى التواضع، وبذا تصل إلى كل خير.

روى[1] يحيى بن جابر الطائي عن غضيف بن الحارث قال: جلست إلى عبد الله بن عمرو بن العاص، فسمعته يقول: إن القبر يكلم العبد إذا وضع فيه فيقول: يا ابن آدم، ما غرك بي، ألم تعلم أني بيت الوحدة، ألم تعلم أني بيت الظلمة، ألم تعلم أني بيت الحق، يا ابن آدم، ما غرك بي لقد كنت تمشي حولي فداداً ـ ذا خيلاء وكبر ـ. وفي الحديث: «من جرّ ثوبه خيلاء.. لا ينظر الله إليه يوم القيامة».

ثم ذكر علة النهي بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَا يُحِبُّ﴾ ولا يرضى ﴿كُلَّ مُخْتَالٍ﴾ ومتبختر في مشيه ﴿فَخُورٍ﴾ على الناس، والمختال من الاختيال، وهو التكبر عن تخيل فضيلة فيه، كما سيأتي؛ أي: لا يرضى عن المتكبر المتبختر في مشيته، بل يسخط عليه، وهو بمقابلة الماشي مرحاً، والفخور: هو الذي يفتخر على الناس بما لَهُ من المالِ أو الشرف أو القوة أو غير ذلك، وليس منه التحدث بنعم الله عليه، فإن الله يقول: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ وهو بمقابلة المصعر خده، وتأخيره لرعاية الفواصل.

وفي الحديث: «خرج رجل يتبختر في الجاهلية، عليه حلّة، فأمر الله الأرض فأخذته، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة».

قال بعض الحكماء[2]: إذا افتخرت بفرسك.. فالحسن والفراهة له دونك، وإن افتخرت بثيابك وآلاتك.. فالجمال لها دونك، وإن افتخرت بآبائك.. فالفضل فيهم لا فيك، ولو تكلمت هذه الأشياء.. لقالت: هذه محاسننا فما لك

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

من الحسن شيء، فإن افتخرت.. فافتخر بمعنى فيك غير خارج عنك.

وإذا أعجبك شيء من الدنيا.. فاذكر فناءك وبقاءه، أو بقاءك وزواله، أو فناءكما جميعاً، فإذا راقك ما هو لك.. فانظر إلى قرب خروجه من يدك، وبعد رجوعه إليك، وطول حسابه عليك، إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر.

حكي: أنه حمل إلى بعض الملوك قدح من فيروزج مرصع بالجوهر، لم ير له نظير، ففرح به الملك فرحاً شديداً، فقال لمن عنده من الحكماء: كيف ترى هذا؟ فقال: أراه فقراً حاضراً ومصيبةً عاجلةً، قال: وكيف ذلك؟ قال: إن انكسر.. كانت مصيبة لا جبر لها، وإن سرق.. صرت فقيراً إليه، وقد كنت قبل أن يحمل إليك في أمن من المصيبة والفقر، فاتفق أنه انكسر القدح يوماً، فعظمت المصيبة على الملك، وقال: صدق الحكيم ليته لم يحمل إلينا.

إِنَّمَا ٱلدُّنْيَا كَرُؤْيَا فَرَّحَتْ ... مَنْ رَآهَا سَاعَةً ثُمَّ ٱنْقَضَتْ

٣ ـ ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾؛ أي: توسط[1] فيه، والقصد: ما بين الإسراع والبطء، يقال: قصد فلان في مشيته: إذا مشى مستوياً، لا يدب دبيب المتماوتين، ولا يثب وثوب الشياطين.

وقد ثبت أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان إذا مشى.. أسرع، فلا بد أن يحمل القصد هنا على ما جاوز الحد في السرعة، وقال مقاتل: معناه: لا تختل في مشيتك، وقال عطاء: امش بالوقار والسكينة، كقوله: ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾.

والمعنى[2]: توسط بين الدبيب والإسراع، فلا تمش كمشي المظهرين الضعف في المشي، فكأنهم أموات، وهم المراؤون الذين ضل سعيهم، ولا كمشي الشطار ووثوبهم، وعليك بالسكينة والوقار.

وفي الحديث: «سرعة المشي تذهب بهاء المؤمن». قال بعضهم: إن للشيطان من آدم نزغتين، بأيتهما ظفر قنع: الإفراط والتفريط، وذلك في كل شيء

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

يتصور فيه ذلك.

وقرىء[1]: ﴿وأقصد في مشيك﴾ بهمزة القطع.

والخلاصة: أي وامش مشياً مقتصداً، ليس بالبطيء المتثبط، ولا بالسريع المفرط، بل امش هوناً بلا تصنع، ولا مراءة للخلق بإظهار التواضع أو التكبر، روي عن عائشة أنها نظرت إلى رجل كاد يموت تخافتاً فقالت: ما لهذا؟ فقيل: إنه من القراء ـ الفقهاء العالمين بكتاب الله ـ قالت: كان عمر سيد القراء، وكان إذا مشى أسرع، وإذا قال أسمع، وإذا ضرب أوجع.

ورأى عمر رجلاً متماوتاً فقال له: لا تمت علينا ديننا ـ أماتك الله ـ. ورأى رجلاً مطأطئاً رأسه فقال له: ارفع رأسك فإن الإسلام ليس بمريض.

﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ﴾؛ أي: وانقص من صوتك واخفضه واقصر على قدر الحاجة، ولا تتكلف رفعه في محل الخطاب، والكلام خصوصاً عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعند الدعاء والمناجاة، فإن الجهر بأكثر من الحاجة يؤذي السامع، والخفض أوقر للمتكلم، وأبسط لنفس السامع وفهمه، والصوت هو الهواء المنضغط عند قرع جسمين، كما سيأتي بسطه في مبحث المفردات.

ثم علل النهي وبينه بقوله: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ﴾؛ أي: إن أبشع الأصوات وأقبحها، الذي ينكره العقل الصحيح، ويحكم بقبحه برفعها فوق الحاجة بلا داعٍ ﴿لـ﴾ هو ﴿صوت الحمير﴾ وغاية من يرفع صوته أنه يجعله شبيهاً بصوت الحمار في علوه، ورفعه، وهو البغيض إلى الله تعالى. وفي ذلك ما لا يخفى من الذم وتهجين رفع الصوت، والترغيب عنه، ومن جعل الرافع صوته كأنه حمار مبالغةً في التنفير من عمله، وهذا أدب من الله لعباده بترك الصياح عند وجوه الناس تهاوناً بهم، أو بترك الصياح جملةً، وقد كانت العرب تفخر بجهارة الصوت، فمن كان منهم أشد صوتاً.. كان أعز، وكان أخفض.. كان أذل، قال شاعرهم:

---

(١) البحر المحيط.

جَهِيْرُ ٱلْكَلَامِ جَهِيْرُ ٱلْعُطَاسْ جَهِيْرُ ٱلرُّوَاءِ جَهِيْرُ ٱلنِّعَمْ
وَيَعْدُوْ عَلَىٰ ٱلأَيْنِ عَدْوَ ٱلظَّلِيْمِ وَيَعْلُو ٱلرِّجَالَ بِخَلْقٍ عَمِمْ[1]

وقال قتادة: أقبح الأصوات صوت الحمير، أوله زفير وآخره شهيق، قال المبرد: تأويله: إن الجهر بالصوت ليس بمحمود، وإنه داخل في باب الصوت المنكر. ا هـ.

وأفرد الصوت مع إضافته إلى الجمع، لما أن المراد ليس بيان حال صوت كل واحد من آحاد هذا الجنس حتى يجمع، بل بيان حال صوت هذا الجنس من بين أصوات سائر الأجناس، فإن كل حيوان يفهم من صوته أنه يصيح من ثقل أو تعب، كالبعير أو لغير ذلك، والحمار لو مات تحت الحمل لا يصيح، ولو قتل لا يصيح، وفي بعض أوقات عدم الحاجة يصيح وينهق بصوت أوله زفير وآخره شهيق، وهما فعل أهل النار.

قال أبو الليث: صوت الحمار كان هو المعروف عند العرب وسائر لناس بالقبح، وإن كان قد يكون ما سواه أقبح منه في بعض الحيوان، وإنما ضرب الله المثل بما هو معروف عند الناس بالقبح، لأن أوله زفير وآخره شهيق، كصوت أهل النار، يتوحش من يسمعه ويتنفر منه كل التنفر.

والمعنى: أن أنكر أصوات الناس حين يصوتون ويتكلمون، لصوت من يصوت صوت الحمار؛ أي: يرفع صوته عند التصويت كما يرفع الحمار صوته.

قال سفيان الثوري: صوت كل شيء تسبيح إلا صوت الحمير، فإنها تصيح لرؤية الشيطان، ولذلك سماه منكراً. وفي الحديث: «إذا سمعتم نهاقة الحمير - وهو بالضم صوتها - فتعوذوا بالله من الشيطان، فإنها رأت شيطاناً، وإذا سمعتم صياح الديكة، بفتح الياء جمع ديك.. فاسألوا من فضله، فإنها رأت ملكاً». وفي الحديث دلالة على نزول الرحمة عند حضور أهل الصلاح، فيستحب الدعاء في ذلك الوقت، وعلى نزول الغضب عند أهل المعصية، فيستحب التعوذ، كما في

(١) **الرواء** - بالضم -: المنظر الحسن، **والنعم**: الإبل، **والأين**: الإعياء، **والخلق**: العمم التام.

«شرح المشارق» لابن الملك.

ومن هنا قال النبي - ﷺ -: «يقطع الصلاة المرأة والحمار والكلب»؛ أي: يقطع كمالها وينقصها مرور هذه الأشياء بين يدي المصلي، أما المرأة فلكونها أحب الشهوات إلى الناس، وأشد فساداً للحال من الوسواس، وأما الكلب الأسود فلكونه شيطاناً، كما قال النبي - ﷺ -: «الكلب الأسود شيطان» سمي شيطاناً لكونه أعقر الكلاب وأخبثها وأقلها نفعاً وأكثرها نعاساً، ومن هذا قال الإمام أحمد بن حنبل: لا يحل الصيد به، وأما الحمار فلكون الشيطان قد تعلق بذنبه حين دخل سفينة نوح عليه السلام، فهو غير مفارق عنه في أكثر الأوقات، وهو السر في اختصاص الحمار برؤية الشيطان. والله أعلم.

كما أن وجه اختصاص الديك برؤية الملك، كون صياحه تابعاً لصياح ديك العرش، كما ثبت في بعض الروايات الصحيحة، فالملك غير مفارق عنه في غالب الحالات، وفي الحديث: «إن الله يبغض ثلاثة أصواتها، نهقة الحمير، ونباح الكلب، والداعية بالحرب».

ولما فرغ الله سبحانه من قصة لقمان.. رجع إلى توبيخ المشركين على إصرارهم على ما هم عليه مع مشاهدتهم لدلائل التوحيد، وتبكيتهم، وإقامة الحجج عليهم فقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾؛ أي: ألم تعلموا يا بني آدم ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿سَخَّرَ﴾ وذلل ﴿لَكُم﴾؛ أي: لمنافعكم، والتسخير سوق الشيء إلى الغرض المختص به قهراً ﴿مَّا فِي السَّمَٰوَٰتِ﴾ من[1] الكواكب السيارة، مثل الشمس والقمر وغيرهما، والملائكة المقربين، بأن جعلها أسباباً محصلة لمنافعكم، ومراداتكم، فتسخير الكواكب بأن الله تعالى سيرها في البروج على الأفلاك التي دبر لكل واحد منها فلكاً، وقدر لها القرانات والاتصالات، وجعلها مدبرات العالم السفلي من الزماني، مثل الشتاء والصيف والخريف والربيع، ومن المكاني مثل المعدن والنبات والحيوان والإنسان، وظهور الأحوال المختلفة بحسب

---

(١) روح البيان.

الكواكب على الدوام لمصالح الإنسان ومنافعهم منها، وتسخير الملائكة بأن الله تعالى من كمال قدرته وحكمته، جعل كل صنف من الملائكة موكلين على نوع من المدبرات وعوناً لها، كالملائكة الموكلين على الشمس والقمر والنجوم وأفلاكها، والموكلين على السحاب والمطر، وقد جاء في الخبر: «إن على كل قطرة من المطر موكلاً من الملائكة لينزلها حيث أمر». والموكلين على البحور والفلوات والرياح والملائكة الكتاب للناس الموكلين عليهم.

ومنها المعقبات من بين أيديهم ومن خلفهم، يحفظونهم من أمر الله، حتى جعل على الأرحام ملائكةً، فإذا وقعت نطفة الرجل في الرحم. يأخذها الملك بيده اليمنى، وإذا وقعت نطفة المرأة.. يأخذها الملك بيده اليسرى، وإذا أمر بمشجها.. يمشج النطفتين، وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ والملائكة الموكلون على الجنة والنار، كلهم مسخرون لمنافع الإنسان ومصالحهم، حتى الجنة والنار مسخرتان لهم تطميعاً وتخويفاً، لأنهم يدعون ربهم خوفاً وطمعاً.

﴿و﴾ سخر لكم ﴿ما في الأرض﴾ من الجبال والصحارى والبحار والأنهار والحيوانات والنباتات والمعادن، بأن مكنكم من الانتفاع بها بوسط أو بغير وسط، فيدخل في ذلك جميع مخلوقات الأرض المسخرة لبني آدم، من الأحجار والتراب والزرع والشجر، والثمر والحيوانات التي ينتفعون بها، والعشب الذي يرعون فيه دوابهم، وغير ذلك مما لا يحصى كثرةً.

فالمراد بالتسخير: جعل المسخر بحيث ينتفع به المسخر له، سواء كان منقاداً له وداخلاً تحت تصرفه أم لا، ﴿و﴾ أن الله ﴿أسبغ﴾ وأتم وأكمل ﴿عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ﴾ يقال: سبغت النعمة: إذا تمت وكملت وكثرت.

وقرأ ابن عباس ويحيى بن عمارة[1]: ﴿وأصبغ﴾ بالصاد، وهي لغة لبني كلب يبدلونها من السين إذا جامعت الغين أو الخاء أو القاف صاداً، وباقي

(١) البحر المحيط.

القراء: بالسين على الأصل، وقرأ الحسن والأعرج وأبو جعفر وشيبة ونافع وأبو عمرو وحفص ﴿نِعَمَهُ﴾ جمعاً مضافاً للضمير، وباقي السبعة وزيد بن علي: ﴿نعمةً﴾ على الإفراد.

حالة كون تلك النعم ﴿ظَٰهِرَةً﴾؛ أي[1]: محسوسةً مشاهدة، مثل حسن الصورة وامتداد القامة، والحواس الظاهرة من السمع والبصر والشم والذوق واللمس والنطق، وذكر اللسان والرزق والمال والجاه والخدم والأولاد والصحة والعافية والأمن، ووضع الوزر ورفع الذكر، والأدب الحسن، ونفس بلا ذلة، وقدم بلا زلة، والإقرار والإسلام من نطق الشهادتين، والصلاة والصوم والزكاة، والحج وتعلم القرآن وحفظه، ومتابعة الرسول إلى غير ذلك.

﴿و﴾ حالة كونها ﴿باطنه﴾؛ أي: معقولةً غير مشاهدة بالحس، كنفخ الروح في البدن، وإشراقه بالعقل والفهم والفكر والمعرفة، وتزكية النفس عن الرذائل، وتحلية القلب بالفضائل، ولذا قال عليه السلام: «اللهم كما حسنت خَلقي، فحسن خُلقي» ومحبة الرسول وزينه في قلوبكم، واتصال الذكر على الدوام والرضى والغفران وقلب بلا غفلة، وتوجهٍ بلا علةٍ، وفيض بلا قلةٍ».

والمعنى[2]: أي ألم تروا أيها الناس، أن الله هو الذي سخر لكم ما في السماوات من شمس وقمر ونجوم، تستضيئون بها ليلاً ونهاراً، وتهتدون بها في ظلمات البر والبحر، وسحاب ينزل لكم الأمطار لسقي الناس والحيوان والمزارع المختلفة، وما في الأرض من الدواب والأشجار والمياه والبحار والسفن والمعادن التي في باطنها إلى نحو ذلك من المنافع التي جعلها لغذائكم وأقواتكم، فتتمتعون ببعض ذلك وتنتفعون بجميع ذلك، وأتم عليكم نعمة محسوسة وغير محسوسة.

والخلاصة: أنه تعالى نبه خلقه إلى ما أنعم به عليهم في الدنيا والآخرة، بأن سخر لهم ما في السماوات وما في الأرض، وأسبغ عليهم من النعم الظاهرة

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

والباطنة، فأرسل الرسل وأنزل الكتب وأزاح الشبه والعلل.

روي: أن النبي - ﷺ - قال لابن عباس، وقد سأله عن هذه الآية: «الظاهرة: الإسلام وما حسن من خلقك، والباطنة: ما ستر عليك من سيء عملك» وقيل: الظاهرة: الصحة وكمال الخلق، والباطنة: المعرفة والعقل، وقيل: الظاهرة: ما يرى بالأبصار من المال والجاة والجمال وتوفيق الطاعات، والباطنة: ما يجده المرء في نفسه من العلم بالله وحسن اليقين، وما يدفع عن العبد من الآفات، وقيل: الظاهرة: نعم الدنيا، والباطنة: نعم الآخرة.

ثم ذكر أنه مع كل هذه الأدلة الظاهرة قد مارى وجادل بعض الناس دون برهان عقل، ولا مستند من نقل، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: وبعض الناس، فهو مبتدأ، وخبره قوله: ﴿مَن يُجَٰدِلُ﴾؛ أي: وبعض الناس والمشركين يخاصم ﴿في﴾ توحيد ﴿الله﴾ سبحانه وصفاته وينكرها، كالنضر بن الحارث وأبي بن خلف، ويميل إلى الشرك حيث يزعم أن الملائكة بنات الله ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ مستفاد من عقل ﴿وَلَا هُدًى﴾ مستفادٍ من جهة الرسول ﴿وَلَا كِتَٰبٍ﴾ أنزله الله سبحانه ﴿مُّنِيرٍ﴾؛ أي: مضيء له بالحجة، بل يجادل بمجرد التقليد، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾؛ أي: لهؤلاء المجادلين، والجمع باعتبار معنى من ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ تعالى على نبيه من القرآن الواضح، والنور البيّن، فآمنوا به ﴿قَالُوا۟﴾ لا نتبعه ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ الأقدمين من عبادة الأصنام والأوثان والملائكة، فإنهم كانوا أهل حق ودين صحيح، فنعبد ما كانوا يعبدونه من الأصنام، ونمشي في الطريق الذي كانوا به في دينهم، فوبخهم سبحانه على تلك المقالة التي هي من حبائل الشيطان ووساوسه، فقال: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ﴾؛ أي: يدعو آباءهم، والهمزة فيه[1] للاستفهام الإنكاري المضمن للتعجب من التعلق بشبهة هي في غاية البعد من مقتضى العقل، داخلة على محذوف، والضمير عائد إلى الآباء، والجملة في حيز النصب على الحالية من المحذوف.

---

(١) روح البيان.

والمعنى: أيتبعونهم ولو كان الشيطان يدعوهم بما هم عليه من الشرك ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾؛ أي: إلى عذاب النار الشديدة الاتقاد والالتهاب، فهم مجيبون إليه حسبما يدعوهم؛ أي: أيتبعونهم في حال دعاء الشيطان آباءَهم إلى العذاب، مع أنه لا ينبغي أتباعهم في هذه الحال، لأنها حال تلفٍ وعذاب.

ويجوز أن يراد أنه يدعو هؤلاء الأتباع إلى عذاب السعير، لأنه زين لهم اتباع آبائهم والتدين بدينهم، ويجوز[1] أن يراد أنه يدعو جميع التابعين والمتبوعين إلى العذاب، فدعاؤه للمتبوعين بتزيينه لهم الشرك، ودعاؤه للتابعين بتزيينه لهم دين آبائهم، وفي الآية منع صريح من التقليد، وما أقبح التقليد، وأكثر ضرره على صاحبه، وأوخم عاقبته، وأشأم عائدته على من وقع فيه، فإن الداعي له إلى ما أنزل الله على رسوله، كمن يريد أن يذود الفراش عن لهب النار لئلا تحترق، فتأبى ذلك، وتتهافت في نار الحريق وعذاب السعير.

فائدة: والتقليد لغةً[2]: وضع الشيء في العنق محيطاً به، ومنه القلادة، ثم استعمل في تفويض الأمر إلى الغير كأنه ربطه بعنقه، واصطلاحاً: قبول قول الغير بلا حجة، فيخرج الأخذ بقول النبي - ﷺ -، لأنه حجة في نفسه، وفي «التعريفات»[3]: التقليد: عبارة عن اتباع الإنسان غيره فيما يقول أو يفعل، معتقداً للحقية فيه من غير نظر وتأمل في الدليل، كأن هذا المتبع جعل قول الغير أو فعله قلادةً في عنقه. انتهى.

والمعنى[4]: أي أيتبعونهم على كل حال دون نظر إلى الدليل، فربما كان اعتقادهم مبنياً على الهوى وترهات الأباطيل، سداه ولحمته: ما زينه لهم الشيطان من وساوس لا تستند إلى حجة ولا برهان.

والخلاصة: أما كان لهم أن يفكروا ويتدبروا حتى يعلموا الحق من الباطل،

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) التعريفات.
(٤) المراغي.

والصواب من الخطأ، فإن الرجال بالحق وليس الحق بالرجال، وفي هذا ما لا يخفى من تسفيه عقولهم وتسخيف آرائهم، وأنهم بلغوا الدرك الأسفل في هدم العقل وعدم الركون إلى الدليل مهما استبانت غايته، واستقامت محجته.

الإعراب

﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾.

﴿الٓمٓ ۝١﴾: تقدم إعراب هذه الكلمة مرةً بعد مرةً، فلا عودة ولا إعادة. ﴿تِلْكَ﴾: مبتدأ. ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾: خبره ومضاف إليه، والجملة: مستأنفة. ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾: صفة لـ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾، وسيأتي معنى إسناد الحكمة إليه في مبحث البلاغة، ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾: حالان من ﴿الآيات﴾، والعامل فيهما ما في تلك من معنى الإشارة. ﴿لِّلْمُحْسِنِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة أو بنفس المصدر، تنازع فيه كل من الحالين ﴿ٱلَّذِينَ﴾ صفة ﴿لِّلْمُحْسِنِينَ﴾. ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول صلة الموصول. ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: كذلك معطوف على الصلة، ﴿وَهُم﴾: مبتدأ، ﴿بِٱلْءَاخِرَةِ﴾: متعلق بـ﴿يُوقِنُونَ﴾، و﴿هُمْ﴾: الثاني تأكيد للأول، وجملة ﴿يُوقِنُونَ﴾: خبر لـ﴿هُم﴾ الأول، والجملة الاسمية: معطوفة على جملة الصلة. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ. ﴿عَلَىٰ هُدًى﴾: خبره، ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾: صفة لـ﴿هُدًى﴾، والجملة الاسمية: مستأنفة مسوقة لتقرير ما قبلها ومدحاً لهم، ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ، ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل، ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾: خبر للمبتدأ، والجملة: معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦﴾.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾: خبر مقدم، ﴿مَن﴾: اسم موصول مبتدأ مؤخر، ﴿يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾: فعل وفاعل مستتر، وهو عائد الموصول ومفعول به، والجملة الفعلية: صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، والجملة الاسمية: مستأنفة مسوقة لتقرير حال

اللاهين، الذين يضيعون أوقاتهم باللهو ومضاحيك الكلام، ﴿لِيُضِلَّ﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿يضل﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿من﴾ منصوب بأن مضمرة بعد ﴿اللام﴾، ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق به، ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه حال من فاعل ﴿يَشْتَرِي﴾؛ أي: يشتري غير عالم بحال ما يشتريه، وجملة ﴿يضل﴾: مع أن المضمرة: في تأويل مصدر مجرور بـ﴿اللام﴾، تقديره: يشتري اللهو لإضلاله الناس، والجار والمجرور متعلق بـ﴿يَشْتَرِي﴾. ﴿وَيَتَّخِذَهَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿يتخذها﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول أول بالنصب معطوف على ﴿يضل﴾، وبالرفع معطوف على ﴿يَشْتَرِي﴾. ﴿هُزُوًا﴾: مفعول ثان لـ﴿يتخذ﴾، ﴿أُولَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ أول ﴿لَهُمْ﴾: خبر مقدم، ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿مُّهِينٌ﴾: صفة لـ﴿عَذَابٌ﴾، والجملة من المبتدأ الثاني، وخبره: خبر للأول، وجملة الأول: مستأنفة.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ⑦﴾.

﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿تُتْلَىٰ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق بـ﴿تُتْلَىٰ﴾، ﴿ءَايَٰتُنَا﴾: نائب فاعل لـ﴿تُتْلَىٰ﴾. والجملة الفعلية: في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، ﴿وَلَّىٰ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر، ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾: حال من فاعل ﴿وَلَّىٰ﴾، وجملة ﴿وَلَّىٰ﴾: جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾: معطوفة على جملة ﴿يَشْتَرِي﴾ على كونها صلة الموصول. ﴿كَأَن﴾: مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف، أي: كأنه، وجملة: ﴿لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾: في محل الرفع خبرها، وجملة ﴿كَأَن﴾: في محل النصب حال ثانية من فاعل ﴿وَلَّىٰ﴾، ﴿كأنَّ﴾: حرف نصب وتشبيه، ﴿فِىٓ أُذُنَيْهِ﴾: خبر مقدم لـ﴿كَأَنَّ﴾، ﴿وَقْرًا﴾: اسمها مؤخر، وجملة ﴿كَأَنَّ﴾: حال من فاعل: ﴿يَسْمَعْهَا﴾ أو بدل من جملة ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾، وأجاز الزمخشري أن تكون جملتا التشبيه مستأنفتين، ﴿فَبَشِّرْهُ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر،

تقديره: إذا عرفت حال ذلك المعرض، وأردت بيان عاقبته.. فأقول لك: بشره، ﴿بشره﴾: فعل أمر وفاعل مستتر ومفعول به، ﴿بِعَذَابٍ﴾: متعلق به، ﴿أَلِيمٍ﴾: صفة لـ﴿عذاب﴾، والجملة الفعلية: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقّاًۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾: ناصب واسمه، ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿ءَامَنُواْ﴾، ﴿لَهُمْ﴾: خبر مقدم، ﴿جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية: في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، ﴿خَٰلِدِينَ﴾: حال مقدرة من ضمير لهم، ﴿فِيهَاۖ﴾: متعلق بـ﴿خَٰلِدِينَ﴾. ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾: مصدر مؤكد لنفسه منصوب على المفعولية المطلقة بفعل محذوف وجوباً، تقديره: وعدهم الله ذلك وعداً، والجملة المحذوفة: مستأنفة مسوقة لتأكيد ما قبلها، وإنما قلنا مؤكد لنفسه لأن معنى ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾: وعدهم الله بها، فأكد معنى الوعد بالوعد، ﴿حَقّاًۚ﴾: مصدر مؤكد لغيره، منصوب على المفعولية المطلقة بفعل محذوف وجوباً، تقديره: حقه حقاً، أي: حق ذلك الوعد حقاً، والجملة المحذوفة: مستأنفة مسوقة لتأكيد ما قبلها، وإنما قلنا مؤكد لغيره، لأن ﴿حَقّاًۚ﴾: دال على معنى الثبات أكد به معنى الوعد، ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾: مبتدأ وخبر أول، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: خبر ثان، والجملة الاسمية: مستأنفة. ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة الفعلية: مستأنفة مسوقة للاستدلال على قدرته تعالى وعزته، ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، حال من ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ أي: حالة كونها خاليةً من عمد، ﴿تَرَوْنَهَاۖ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والرؤية هنا بصرية، والجملة الفعلية: في محل الجر صفة لـ﴿عَمَدٍ﴾؛ أي: بغير عمدٍ مرئية لكم.

﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾.

﴿وَأَلْقَىٰ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله معطوف على ﴿خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ﴾. ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: متعلق بـ﴿ألقى﴾. ﴿رَوَاسِيَ﴾: صفة لمفعول محذوف، تقديره: جبالاً رواسي، ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿تَمِيدَ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿الْأَرْضِ﴾ منصوب بـ﴿أن﴾ المصدرية، ﴿بِكُمْ﴾: متعلق بـ﴿تَمِيدَ﴾، والمصدر المؤول من ﴿أن﴾ المصدرية ومدخولها: مجرور بإضافة المصدر المقدر إليه، المعلل للفعل، تقديره: وألقى في الأرض رواسي كراهية ميدها بكم. ﴿وَبَثَّ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله معطوف على ﴿ألقى﴾. ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ﴿بث﴾، ﴿مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، صفة لمفعول به محذوف، تقديره: حيوانات كائنات من كل دابة. ﴿وَأَنزَلْنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿خَلَقَ﴾ على طريق الالتفات عن الغيبة إلى التكلم، ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾: متعلق بـ﴿أنزلنا﴾، ﴿مَاءً﴾: مفعول به، ﴿فَأَنبَتْنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿أنزلنا﴾، ﴿فِيهَا﴾: متعلق بمحذوف حال ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾. ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾: متعلق بـ﴿أنبتنا﴾ أو صفة لمفعول محذوف؛ أي: نباتاً من كل زوج، ﴿كَرِيمٍ﴾ صفة لـ﴿زَوْجٍ﴾. ﴿هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة: مستأنفة، ﴿فَأَرُونِي﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿أروني﴾: بمعنى أخبروني فعل أمر وفاعل ومفعول أول، وهو يحتاج إلى ثلاثة مفاعيل، وهذا أولها، والجملة الاستفهامية المعلقة: سدت مسد المفعولين ﴿مَاذَا﴾: اسم استفهام مركب في محل النصب مفعول مقدم لـ﴿خَلَقَ﴾، أو ﴿ما﴾: اسم استفهام مبتدأ، ﴿ذا﴾: اسم موصول خبره، ﴿خَلَقَ الَّذِينَ﴾: فعل وفاعل صلة لذا الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: ما الذي خلقه الذين ﴿مِن دُونِهِ﴾: جار ومجرور صلة ﴿الَّذِينَ﴾، ﴿بَلِ﴾: حرف للإضراب الانتقالي، ﴿الظَّالِمُونَ﴾: مبتدأ، ﴿فِي ضَلَالٍ﴾: خبره، ﴿مُّبِينٍ﴾: صفة لـ﴿ضَلَالٍ﴾، والجملة: مستأنفة.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. و﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف

تحقيق. ﴿ءَاتَيْنَا﴾: بمعنى أعطينا فعل وفاعل، ﴿لُقْمَٰنَ﴾: مفعول أول، ﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾: مفعول ثان له، والجملة الفعلية: جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم: مستأنفة، ﴿أَنِ﴾: مفسرة لأن الإيتاء فيه معنى القول؛ أي: قلنا له: ﴿ٱشْكُرْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر، والجملة الفعلية: جملة مفسرة لـ﴿ءَاتَيْنَا﴾: لا محل لها من الإعراب، ويجوز أن تكون ﴿أَنِ﴾: مصدرية مؤولة ما بعدها بمصدر منصوب على كونه بدلاً من ﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾، والأول: أظهر ﴿لِلَّهِ﴾: متعلق بـ﴿ٱشْكُرْ﴾. ﴿وَمَن يَشْكُرْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر: جملة الشرط أو الجواب أو هما، ﴿يَشْكُرْ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر مجزوم بـ﴿من﴾: على كونه فعل شرط لها، ﴿فَإِنَّمَا﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب، ﴿إنما﴾: كافة ومكفوفة ﴿يَشْكُرُ﴾: فعل وفاعل مستتر، ﴿لِنَفْسِهِۦ﴾: متعلق به، والجملة: جواب ﴿من﴾ الشرطية، وجملة ﴿من﴾ الشرطية: مستأنفة، ﴿وَمَن كَفَرَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿من﴾: اسم شرط مبتدأ، والخبر: جملة الشرط، ﴿كَفَرَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿فَإِنَّ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة. ﴿إن الله غني﴾: ناصب واسمه وخبره. ﴿حَمِيدٌ﴾: خبر ثان، وجملة ﴿إن﴾: في محل الجزم جواب ﴿من﴾ الشرطية، وجملة ﴿من﴾ الشرطية، معطوفة على جملة ﴿من﴾ الأولى.

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَإِذْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿إذ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، متعلق بمحذوف، تقديره: واذكر يا محمد لقومك قصة إذ قال لقمان، والجملة المحذوفة: مستأنفة، ﴿قَالَ لُقْمَٰنُ﴾: فعل وفاعل، ﴿لِٱبْنِهِۦ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية: في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾، ﴿وَهُوَ﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿هو﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَعِظُهُۥ﴾: خبره، والجملة الاسمية، في محل النصب حال من ﴿لُقْمَٰنُ﴾. ﴿يَٰبُنَيَّ﴾: ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿بني﴾: منادى مضاف إلى ياء

المتكلم، وجملة النداء: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿لا﴾: ناهية، ﴿تُشْرِكْ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾: على كونها جواب النداء. ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ﴾: ناصب واسمه، ﴿لَظُلْمٌ﴾: خبره، و﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿عَظِيمٌ﴾: صفة ﴿لَظُلْمٌ﴾، وجملة ﴿إن﴾: في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾: على كونها معللة للنهي المذكور قبله.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَوَصَّيْنَا﴾: ﴿الواو﴾: اعتراضية. ﴿وصينا الإنسان﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة الفعلية مع ما بعدها، إلى قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: معترضة لا محل لها من الإعراب، لاعتراضها بين وصايا القمان لابنه، مؤكدة لما اشتملت عليه من النهي عن الشرك، ﴿بِوَٰلِدَيْهِ﴾: متعلق بـ﴿وصينا﴾، ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة: معترضة بين المفسَّر الذي هو ﴿وصينا﴾ والمفسِّر الذي هو ﴿أَنِ ٱشْكُرْ﴾: لا محل لها من الإعراب، ﴿وَهْنًا﴾: حال من ﴿أُمُّهُۥ﴾ ولكنه على تقدير مضاف؛ أي: حالة كونه ذات وهن، أو مصدر مؤكد لفعل محذوف وقع حالاً، تقديره حالة كونها تهن وهناً على. ﴿عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ صفة لـ﴿وَهْنًا﴾. ﴿وَفِصَٰلُهُۥ﴾: مبتدأ، ﴿فِى عَامَيْنِ﴾: خبره، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿حَمَلَتْهُ﴾: على كونها معترضة. ﴿أَنِ﴾: مفسرة، ﴿ٱشْكُرْ﴾: فعل وفاعل مستتر، والجملة: مفسرة لـ﴿وصينا﴾، واختار الزجاج أن تكون ﴿أَنِ﴾ مصدرية، والمصدر المؤول منها: منصوب بنزع الخافض، والخافض المحذوف: متعلق بـ﴿وصينا﴾؛ أي: ولقد وصينا الإنسان بالشكر لي ولوالديه وليس ببعيدٍ ﴿لِى﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿ٱشْكُرْ﴾، ﴿وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾: معطوف عليه، ﴿إِلَىَّ﴾: خبر مقدم، ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة: مستأنفة.

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾.

﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة لقول محذوف على ﴿وصينا﴾؛ أي: ولقد وصينا الإنسان بالشكر لي ولوالديه وقلنا له: ﴿إن جاهداك﴾، ﴿إن﴾: حرف شرط، ﴿جَٰهَدَاكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿عَلَىٰٓ﴾: حرف جر، ﴿أَن﴾: حرف مصدر. ﴿تُشْرِكَ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر منصوب بـ﴿أَن﴾ المصدرية، ﴿بِي﴾: متعلق به، والمصدر المؤول من ﴿أَن﴾ المصدرية وما في حيزها: مجرور بـ﴿عَلَىٰٓ﴾ والجار والمجرور متعلق بـ﴿جَٰهَدَاكَ﴾؛ أي: وإن جاهداك على الإشراك بي. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿تُشْرِكَ﴾. ﴿لَيْسَ﴾: فعل ناقص، ﴿لَكَ﴾: خبر مقدم لها. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿عِلْمٌ﴾. ﴿عِلْمٌ﴾ اسم ليس مؤخر، وجملة ﴿لَيْسَ﴾: صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة. ﴿فَلَا﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب وجوباً، ﴿لا﴾: ناهية، ﴿تُطِعْهُمَا﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، والجملة: في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية، على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول للقول المحذوف كما قدرنا آنفاً.

﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَصَاحِبْهُمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿صاحبهما﴾: فعل أمر وفاعل مستتر ومفعول به معطوف على جواب ﴿إن﴾ الشرطية، ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾: حال من ضمير المفعول، ﴿مَعْرُوفًا﴾: منصوب بنزع الخافض؛ أي: بالمعروف، ﴿وَٱتَّبِعْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر معطوف على الجواب أيضاً، ﴿سَبِيلَ﴾: مفعول به، ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل الجر مضاف إليه، وجملة ﴿أَنَابَ﴾: صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة، ﴿إِلَىَّ﴾: متعلق بـ﴿أَنَابَ﴾، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ، ﴿إِلَىَّ﴾: خبر مقدم، ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية: معطوفة على جملة ﴿اتبع﴾، ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿أنبئكم﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به، ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أنبئكم﴾، والجملة الفعلية: معطوفة على الجملة الاسمية قبلها، ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾: خبره،

وجملة ﴿كان﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة.

﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ١٦﴾.

﴿يَٰبُنَيَّ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء، معطوفة بعاطف مقدر على جملة النداء في قوله: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ﴾ على كونها مقولاً لـ﴿قال﴾، ﴿إِنَّهَآ﴾: ناصب واسمه، ﴿إِن﴾: حرف شرط جازم، ﴿تَكُ﴾: فعل مضارع ناقص مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية، وعلامة جزمه سكون النون المحذوفة للتخفيف، واسمها ضمير مستتر جوازاً، تقديره: هي يعود على الخطيئة، ﴿مِثۡقَالَ حَبَّةٖ﴾: خبرها، ﴿مِّنۡ خَرۡدَلٖ﴾: صفة لـ﴿حَبَّةٖ﴾، ﴿فَتَكُن﴾: فعل مضارع ناقص معطوف على ﴿تَكُ﴾، واسمها ضمير يعود على الخطيئة أيضاً، ﴿فِي صَخۡرَةٍ﴾ خبر ﴿تكن﴾، ﴿أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: معطوفان على ﴿فِي صَخۡرَةٍ﴾، ﴿يَأۡتِ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه جواباً لها، وعلامة جزمه حذف حرف العلة، ﴿بِهَا﴾: متعلق بـ﴿يَأۡتِ﴾، ﴿ٱللَّهُۚ﴾: فاعل ﴿يَأۡتِ﴾. وجملة ﴿إن﴾ الشرطية من فعل شرطها وجوابها في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾. وجملة ﴿إنّ﴾ واسمها في محل النصب مقول ﴿قال﴾ على كونها جواب النداء، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، ﴿لَطِيفٌ﴾: خبر أول له، ﴿خَبِيرٞ﴾: خبر ثان، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قال﴾ على كونها معللةً لما قبلها.

﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧﴾.

﴿يَٰبُنَيَّ﴾: منادى مضاف معطوف بعاطف مقدر على قوله: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ﴾ على كونه مقول ﴿قال﴾، ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قال﴾: على كونها جواب النداء، ﴿وَأۡمُرۡ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر معطوف على ﴿أَقِمِ﴾، ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾: متعلق به، ﴿وَٱنۡهَ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر معطوف على أيضاً على ﴿أقم الصلاة﴾، ﴿عَنِ

﴿ٱلْمُنكَرِ﴾: متعلق بـ﴿وَٱنْهَ﴾، ﴿وَٱصْبِرْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر على أقم. ﴿عَلَىٰ مَآ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿اصبر﴾، ﴿أَصَابَكَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة: صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾: ناصب واسمه، ﴿مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾: في محل النصب مقول ﴿قال﴾ على كونها معللة لما قبلها.

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَلَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لا﴾: ناهية جازمة، ﴿تُصَعِّرْ خَدَّكَ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، ﴿لِلنَّاسِ﴾: متعلق بـ﴿تُصَعِّرْ﴾، والجملة: في محل النصب معطوفة على جملة ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾. ﴿وَلَا تَمْشِ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: ناهية جازمة، ﴿تَمْشِ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق به، والجملة: في محل النصب معطوفة على جملة ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، ﴿مَرَحًا﴾: منصوب على الحالية، ولكنه على تقدير مضاف؛ أي: ذا مرح، أو صفة لمصدر محذوف؛ أي: مشياً مرحاً، أو مفعول لأجله، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، ﴿لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ﴾: حرف ناف وفعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به، ﴿فَخُورٍ﴾: صفة لـ﴿مُخْتَالٍ﴾: أو عطف بيان منه، والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قال﴾ على كونها معللةً لما قبلها.

﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَٱقْصِدْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر معطوف على ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، ﴿فِى مَشْيِكَ﴾: متعلق بـ﴿اقصد﴾، ﴿وَٱغْضُضْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر معطوف على ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، ﴿مِن صَوْتِكَ﴾ متعلق بـ﴿اغضض﴾. ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ﴾: ناصب واسمه، ﴿لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾: خبره ومضاف إليه، و﴿اللام﴾: حرف ابتداء، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قال﴾ على كونها معللةً لما قبلها.

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري التوبيخي، ﴿لم﴾: حرف جزم، ﴿تَرَوْا﴾: فعل مضارع وفاعل مجزوم بـ﴿لم﴾، والرؤية هنا قلبية، والجملة: مستأنفة مسوقة لتوبيخ المشركين على شركهم مع قيام الحجة، ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، ﴿سَخَّرَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر ﴿لَكُم﴾ متعلق به. ﴿مَّا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿سَخَّرَ﴾ وجملة ﴿سَخَّرَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿أَنَّ﴾، وجملة ﴿أَنَّ﴾: في تأويل مصدر ساد مسد مفعول ﴿تَرَوْا﴾. ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: جار ومجرور صلة لـ﴿مَّا﴾ الموصولة، ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. ﴿وَأَسْبَغَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر معطوف على ﴿سَخَّرَ﴾، ﴿عَلَيْكُمْ﴾: متعلق بـ﴿أسبغ﴾. ﴿نِعَمَهُۥ﴾: مفعول به، ﴿ظَٰهِرَةً﴾: حال من ﴿نِعَمَهُۥ﴾، ﴿وَبَاطِنَةً﴾: معطوف على ﴿ظَٰهِرَةً﴾، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾: خبر مقدم، ﴿مَن﴾: مبتدأ مؤخر، وجملة ﴿يُجَٰدِلُ﴾: صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، ﴿فِى ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿يُجَٰدِلُ﴾، والجملة الاسمية: مستأنفة، ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه حال من فاعل ﴿يُجَٰدِلُ﴾، ﴿وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ﴾: معطوفان على ﴿علم﴾، ﴿مُّنِيرٍ﴾: صفة لـ﴿كِتَٰبٍ﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿قِيلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ﴿لَهُمُ﴾: متعلق به، ﴿ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾: نائب فاعل محكي لـ﴿قِيلَ﴾، وجملة ﴿قِيلَ﴾: في محل الجر بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، وإن شئت قلت: ﴿ٱتَّبِعُوا﴾: فعل أمر وفاعل، ﴿مَآ﴾: اسم موصول مفعول به، والجملة: في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿قِيلَ﴾، ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل صلة لـ﴿مَآ﴾، والعائد: محذوف: ؛ أي: أنزله الله. ﴿قَالُوا﴾: فعل وفاعل جواب ﴿إذا﴾، وجملة ﴿إذا﴾: معطوفة على جملة ﴿يُجَٰدِلُ﴾ على كونها

صلة لـ﴿مَآ﴾ الموصولة، ﴿بَلۡ﴾: حرف عطف وإضراب، ﴿نَتَّبِعُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر، ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به. والجملة معطوفة على محذوف، هو مقول ﴿قَالُواْ﴾، تقديره: قالوا لا نتبع ما أنزل الله بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا، ﴿وَجَدۡنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿عَلَيۡهِ﴾: متعلق به، ﴿ءَابَآءَنَآ﴾: مفعول به لـ﴿وجد﴾، لأنه من وجد الضالة، والجملة الفعلية صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة. ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري التوبيخي، داخلة على محذوف، تقديره: أيتبعونه، ﴿ولو﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿لو﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿يَدۡعُوهُمۡ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَدۡعُوهُمۡ﴾، وجملة ﴿يَدۡعُوهُمۡ﴾: في محل النصب خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾: فعل شرط لـ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب، وجواب ﴿لو﴾ الشرطية: محذوف، تقديره: ولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير يتبعونه، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية: في محل النصب حال من فاعل الفعل المحذوف، الذي هو مدخول همزة الاستفهام، والتقدير: أيتبعونه حال كون الشيطان داعياً لهم إلى عذاب السعير.

التصريف ومفردات اللغة

﴿ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾: إما فعيل بمعنى مفعل؛ أي: المحكم المحروس من التغيير والتبديل، والممنوع من الفساد والبطلان، فهو فعيل بمعنى مفعل، وإن كان قليلاً في كلامهم، كقولهم: أعقدت الدبس فهو عقيد؛ أي: معقد، أو بمعنى فاعل؛ أي: الحاكم بين العباد ببيان الحلال والحرام، والصحيح والفاسد.

﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: وفي «المفردات»: إقامة الشيء، توفية حقه، وإقامة الصلاة: توفية شرائطها، لا الإتيان بهيئتها.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾: والاشتراء: دفع الثمن وأخذ المثمن، والبيع: دفع المثمن وأخذ الثمن، وقد يتجوز بالشراء والاشتراء عن كل ما يحصل به شيء، واللهو: مصدر لها يلهو، والمراد به هنا: اسم الفاعل؛ أي:

ما يلهي ويشغل الإنسان عما يهمه من طاعة ربه، كالأحاديث التي لا أصل لها، وكل باطل ألهى عن الخير، والملاهي آلة اللهو، والملهى موضع اللهو، والحديث: يستعمل في قليل الكلام وكثيره، وإضافة اللهو إلى الحديث للبيان، وضابطها: أن يكون المضاف بعد المضاف إليه صالحاً للإخبار به عنه، كخاتم فضة.

﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ﴾ والوقر الصمم، قال في «المفردات»: الوقر: الثقل في الأذن، وفي «فتح الرحمٰن»: الوقر الثقل الذي يغير إدراك المسموعات. ﴿بِغَيۡرِ عَمَدٖ﴾: والعمد: بفتحتين: جمع عماد، كأهب وإهاب، وهي السارية، وفي «المصباح»: وعمدت الحائط عمداً: دعمته، وأعمدته بالألف لغةً، والعماد: ما يسند به، والجمع عمد بفتحتين، وفيه أيضاً الدعامة بالكسر: ما يسند به الحائط إذا مال يمنعه السقوط، ودعمت الحائط دعماً من باب نفع.

﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ﴾ قال ابن عباس: هي الجبال الشامخات من أوتاد الأرض، وهي سبعة عشر جبلاً، منها: قاف ـ وأبو قبيس ـ والجودي ولبنان ـ وطور سنين ـ وطور سيناء، أخرجه ابن جرير في «المبهمات» للسيوطي. ا هـ. ابن لقيمة على «البيضاوي»، وفي «المختار» رسا الشيء، ثبت، وبابه عدا وسما، والرواسي من الجبال: الثوابت الرواسخ، واحدتها راسية. ا هـ. والإلقاء: طرح الشيء حيث تلقاه وتراه، ثم صار في التعارف اسماً لكل طرح.

﴿أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾: الميد: اضطراب الشيء العظيم، كاضطراب الأرض، يقال: ماد يميد ميداً وميداناً: إذا تحرك واضطرب.

﴿وَبَثَّ فِيهَا﴾: وأصل البث: إثارة الشيء، وتفريقه، كبث الريح التراب.

﴿مِن كُلِّ دَآبَّةٖ﴾ وهي كل ما يدب على الأرض، من الدب، والدبيب، وكذا الدب: المشي الخفيف، ويستعمل ذلك في الحيوان، وفي الحشرات أكثر.

﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: من السحاب، لأن السماء في اللغة: ما علاك وأظلك، كما مر.

﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾؛ أي: صنف.

﴿كَرِيمٍ﴾؛ أي: كثير المنفعة، قال في «المفردات»: وكل شيء يشرف في بابه، فإنه يوصف بالكرم.

واعلم: وفقنا الله تعالى جميعاً للتفكر في عجائب صنعه، وغرائب قدرته، أن عقول العقلاء، وأفهام الأذكياء قاصرة متحيرة في أمر النباتات والأشجار، وعجائبها وخواصها وفوائدها ومضارها ومنافعها، وكيف لا؟ وأنت تشاهد اختلاف أشكالها، وتباين ألوانها، وعجائب صور أوراقها، وروائح أزهارها، وكل لون من ألوانها ينقسم إلى أقسام، كالحمرة مثلاً كوردي وأرجواني وسوسني وشقائق وخمري وعنابي وعقيقي ودموي، ولكي وغير ذلك، مع اشتراك الكل في الحمرة، ثم عجائب روائحها ومخالفة بعضها بعضاً، واشتراك الكل في طيب الرائحة، وعجائب أشكال أثمارها وحبوبها وأوراقها، ولكل لون وريح وطعم وورقٍ وثمرة وزهر وحب خاصية لا تشبه الأخرى، ولا يعلم حقيقة الحكمة فيها إلا الله تعالى، والذي يعرف الإنسان من ذلك بالنسبة إلى ما لا يعرفه كقطرة من بحر.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ قال الراغب: الحكمة: إصابة الحق بالعلم والعمل، فالحكمة من الله تعالى معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الأحكام، ومن الإنسان معرفة الموجودات على ما هي عليه، وفعل الخيرات، وهذا هو الذي وصف به لقمان في هذه الآية.

﴿وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ والوعظ: زجر يقترن بتخويفٍ، وقال الخليل: هو التذكير بالخير فيما يرق له القلب، والاسم: العظة والموعظة.

﴿يَٰبُنَيَّ﴾: بالتصغير والإضافة إلى ياء المتكلم بالفتح والكسر، وتقدم البحث عن إعرابه، وأصله في سورة يوسف، فراجعه.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾؛ أي: أمرناه، يقال: وصيت زيداً بعمرو: أمرته بتعهده ومراعاته.

﴿وَهْنًا﴾: والوهن: الضعف من حيث الخلق، والخلق. وفي «المختار»: الوهن: الضعف، وقد وهن من باب وعد، ووهنه غيره يتعدى ويلزم، ووهن بالكسر يهن وهناً: لغة فيه، وأوهنه غيره، ووهنه توهيناً.

﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ في «القاموس»: الفصال: فطم الولد، وفيه أيضاً: وفصل الولد عن الرضاع، وبابه ضرب، والفصال: التفريق بين الصبي والرضاع، ومنه الفصيل، وهو ولد الناقة إذا فصل عن أمه، والعام بالتخفيف: السنة، لكن كثيراً ما تستعمل السنة في الحول الذي فيه الشدة والجدب، ولذا يعبر عن الجدب بالسنة، والعام: فيما فيه الرخاء؛ أي: فطام الإنسان من اللبن، يقع في تمام عامين من وقت الولادة، وهي مدة الرضاع عند الشافعي، كما مر.

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ﴾ المجاهدة: استفراغ الجهد؛ أي: الوسع في مدافعة العدو.

﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ قال في «المفردات»: المعروف: اسم لكل فعل يعرف بالعقل، والشرع حسنه، والمنكر: ما ينكر بهما، ولهذا قيل للاقتصاد في الجود: معروف، لما كان ذلك مستحسناً في العقول بالشرع.

﴿إِنَّهَآ إِن تَكُ﴾ أصله: تكون، حذف الواو لاجتماع الساكنين، الحاصل من سقوط حركة النون بـ﴿إن﴾ الشرطية، وحذفت النون أيضاً تشبيهاً لها بحرف العلة في امتداد الصوت، أو بالواو وفي الغنة، أو بالتنوين، وقال بعضهم: حذفت تخفيفاً لكثرة الاستعمال، فلا تحذف من مثل لم يصن ولم يخن، فإن وصلت بساكن.. ردت النون وتُحرك نحو ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ المثقال: ما يوزن به، وهو من الثقل، وذلك اسم لكل صنج. وفي «كشف الأسرار»: مثقال الشيء: ما يساويه في الوزن، وكثر الكلام فيه، فصار عبارةً عن مقدار الدنيا. انتهى، والحبة: واحد الحبوب، والخردل: نبات له حب صغير جداً أسود مقرح، الواحدة: خردلة، ويقال: خردل الطعام: أكل خياره، وخردل اللحم: قطع أعضاءه وافرةً صغاراً.

﴿فِى صَخْرَةٍ﴾ الصخر: الحجر الصلب، والمراد بالصخرة: أية صخرة

كانت، لإيراده بلفظ النكرة، كذا قيل: كما مر.

﴿مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ العزم والعزيمة: عقد القلب على إمضاء الأمر، وعزم الأمور: ما لا يشوبه شبهة، ولا يدافعه ريبة.

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ التصعر: التواء وميل في العنق من خلقة أو داء أو من كبر في الإنسان وفي الإبل، والتصعير: إمالته عن النظر كبراً كما في «تاج المصادر». ولما كان ذلك لغرض من الأغراض التي لا تدوم.. أشار إلى المقصود به بقوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾ بلام العلة؛ أي: لا تفعل ذلك لأجل الإمالة عنهم، وفي «المصباح»: الصعر، بفتحتين: ميل في العنق وانقلاب في الوجه إلى أحد الشدقين، وربما كان الإنسان أصعر خلقةً، أو صعره غيره بشيء يصيبه، وهو مصدر من باب تعب وصعر خده بالتثقيل، وصاعره: أماله عن الناس إعراضاً وتكبراً. انتهى. وخد الإنسان: ما اكتنف الأنف عن اليمين والشمال، أو ما جاوز مؤخر العينين إلى منتهى الشدق، أو من لدن المحجر إلى اللحى، كما في «القاموس».

﴿مَرَحًا﴾ المرح: أشد الفرح والخفة الحاصلة من النعمة، كالأشر والبطر.

﴿مُخْتَالٍ﴾ الاختيالَ والخيلاء: التكبر عن تخيل فضيلة، ومنه لفظ الخيل، كما قيل: إنه لا يركب أحد فرساً إلا وجد في نفسه نخوةً، فالمختال: المتكبر المتبختر في مشيته.

﴿فَخُورٍ﴾ من الفخر، والفخر: المباهاة في الأشياء الخارجة عن الإنسان، كالمال والجاه، والفخور: الذي يعدد مناقبه تطاولاً بها، واحتقاراً لمن عدم مثلها.

﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾ القصد: ضد الإفراط والتفريط، والمعنى: واعدل في المشي بعد الاجتناب عن المرح، فيه، حتى يكون مشياً بين مشيين، لا تدب دبيب المتماوتين، ولا تثب وثب الشطار.

﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ يقال: غض صوته وغض بصره: إذا خفض صوته

وغمض بصره، قال في «المفردات»: الغض النقص من الطرف والصوت، والصوت: هو الهواء المنضغط عند قرع جسمين، قال بعضهم: الهواء الخارج من داخل الإنسان، إن خرج بدفع الطبع.. يسمى نفساً، بفتح الفاء، وإن خرج بالإرادة وعرض له تموج بتصادم جسمين.. يسمى صوتاً، وإذا عرض للصوت كيفيات مخصوصة، بأسباب معلومة.. يسمى حروفاً، ويقال: صات يصوت صوتاً فهو صائت، ويقال: صوت تصويتاً فهو مصوت، ورجل صات؛ أي: شديد الصوت بمعنى صائت.

﴿لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾: جمع حمار، قال بعضهم: سمي حماراً لشدته، من قولهم طعنة حمراء؛ أي: شديدة، وحمارة القيظ: شدته.

﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم﴾ أصل تروا تريوا: تحركت الياء وانفتح ما قبلها قلبت ألفاً، فالتقى ساكنان ثم حذفت الألف لبقاء دالها، فصار تروا بوزن تفوا، والتسخير: سياقة الشيء إلى الغرض المختص به قهراً.

﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ﴾ يقال: أسبغ الله عليه النعمة: أتمها، وأسبغ الثوب أوسعه وأطاله، وأسبغ الرجل: لبس درعاً سابغةً، وأسبغ له النفقة: وسع عليه وأنفق تمام ما يحتاج إليه، وفي «المصباح»: وسبغت النعمة سبوغاً: اتسعت، وأسبغها الله: أفاضها وأتمها، وأسبغت الوضوء: أتممته، وقرىء بالسين وبالصاد، وهكذا كل سين اجتمع معه الغين والخاء والقاف، تقول في سلخ صلخ، وفي سقر صقر، وفي سالغ صالغ، ومعنى سالغ من سلغت البقرة والشاة، إذا أسقطت السن التي خلقت بها السديس، والسلوغ في ذوات الأظلاف، بمنزلة البزول في ذوات الأخفاف.

﴿نِعَمَهُۥ﴾: جمع نعمة، وهي في الأصل: الحالة الطيبة التي يستلذها الإنسان، فأطلقت للأمور اللذيذة الملائمة للطبع المؤدية إلى تلك الحالة الطيبة.

﴿مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ﴾ يقال: جدلت الحبل، إذا أحكمت فتله، ومنه الجدال، فكأن المتجادلين يفتل كل واحد منهما الآخر عن رأيه.

﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ والسعر: التهاب النار، وعذاب السعير؛ أي: الحميم، كما في «المفردات».

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ لأن فيه وصف الشيء بصفة فاعله، ويجوز أن يكون الأصل: الحكيم قائله، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، وهو الضمير المجرور، فبانقلابه مرفوعاً بعد الجر استكن في الصفة المشبهة، وهو من أحسن الصناعة.

فائدة: وصف الكتاب هنا بالحكيم مناسب لموضوع السورة، لأنه قد كرر في موضوعها الحكمة، حيث قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ الخ. فناسب أن يختار هذا الوصف من أوصاف الكتاب المجيد على اصطلاحات القرآن، من التنسيق بين الألفاظ والموضوعات.

ومنها: وضع المصدر موضع الوصف للمبالغة، في قوله: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾﴾.

ومنها: الإيجاز في قوله: ﴿لِّلْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي: للذين يعملون الحسنات، ففيه إيجاز بليغ، لأن الحسنات لا تحصى، ولكنه خص منها هذه الثلاث المذكورة هنا لفضلها وشرفها.

ومنها: الإشارة إلى القريب باسم إشارة البعيد في قوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: هذه آيات الكتاب تنزيلاً للبعد الرتبي منزلة البعد الحقيقي.

ومنها: الإطناب بتكرار الضمير، وبتكرار اسم الإشارة في قوله: ﴿وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ لزيادة الثناء عليهم والتشريف لهم، كما أن الجملة تفيد الحصر؛ أي: هم المفلحون لا غيرهم.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ شبه استبدالهم اللهو عن آيات الله باشتراء من اشترى سلعة خاسراً، فاستعار اسم الاشتراء له، ثم اشتق منه اشترى بمعنى استبدل، على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ لأنه ذكر فيه أداة التشبيه، وحذف وجه الشبه، فهو تشبيه مرسل مجمل.

ومنها: أسلوب التهكم في قوله: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ لأن البشارة إنما تكون في الخير، واستعمالها في الشر سخريةٌ وتهكمٌ.

ومنها: والمعاكسة في الإضافة للمبالغة في قوله: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ لأن المعنى: لهم نعيم الجنات، فعكس للمبالغة كما في «البيضاوي».

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾ شبه الجبال الرواسي استحقاراً لها، واستقلالاً لعددها، وإن كانت خلقاً عظيماً بحصيات قبضهن قابض بيده، فنبذهن في الأرض، وما هو إلا تصوير لعظمته وتمثيل لقدرته، وإن كل فعل يتحير فيه الأذهان فهو هين عليه تعالى.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾؛ أي: كراهية أن تميد بكم.

ومنها: الالتفات إلى نون العظمة في قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا﴾ بعد قوله: ﴿خَلَقَ﴾، ﴿وَأَلْقَىٰ﴾ ﴿وَبَثَّ﴾ كلها بضمير الغائب، التفت في الفعلين إلى نون العظمة، لإبراز مزيد الاعتناء بأمرهما، وتوفيةً لمقام الامتنان، وقال الفخر الرازي: وفي هذا الالتفات فصاحة وحكمة: أما الفصاحة: فهي أن السامع إذا سمع كلاماً طويلاً من نمط واحد، ثم ورد عليه نمط آخر يستطيبه، ألا ترى أنك إذا قلت: قال زيد كذا، وقال خالد كذا، وقال عمرو كذا، ثم إن بكراً قال قولاً حسناً يستطاب لما قد تكرر القول مراراً، وأما الحكمة: فهو أن إنزال الماء نعمة ظاهرة متكررة في كل زمان، ومكان، فأسند الإنزال إلى نفسه صريحاً، ليتنبه

الإنسان لشكر النعمة، فيزيد له في الرحمة. ا هـ. من «التفسير الكبير».

ومنها: إطلاق المصدر على اسم المفعول في قوله: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: مخلوقة.

ومنها: الاستفهام للتوبيخ والتبكيت في قوله: ﴿مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾.

ومنها: وضع الظاهر موضع المضمر لزيادة التوبيخ وللتسجيل عليهم بغاية الظلم والجهل بإشراكهم في قوله: ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وكان الأصل أن يقال: بل هم في ضلال مبين.

ومنها: الطباق بين ﴿شكر﴾ و﴿كَفَرَ﴾.

ومنها: صيغة المبالغة في قوله: ﴿فَخُورٍ﴾ لأن فعولاً من صيغ المبالغة؛ أي: كثير الفخر.

ومنها: ذكر الخاص بعد العام في قوله: ﴿بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ﴾ لزيادة العناية والاهتمام بشأن الخاص.

ومنها: تقديم ما حقه التأخير لإفادة الحصر مثل ﴿إلي المصير﴾، ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾؛ أي: لا إلى غيري.

ومنها: التمثيل في قوله: ﴿إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾ مثل ذلك لسعة علم الله، وإحاطته بجميع الأشياء، صغيرها وكبيرها، جليلها وحقيرها، فإنه تعالى يعلم أصغر الأشياء في أخفى الأمكنة.

ومنها: التتميم في قوله: ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾ تمم خفاءها في نفسها بخفاء مكانها، وهذا من البديع.

ومنها: المقابلة في قوله: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، ثم قال: ﴿وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ فقابل بين اللفظين.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ شبه الرافعين أصواتهم بالحمير، وأصواتهم بالنهيق، ولم يذكر أداة التشبيه، بل أخرجه

مخرج الاستعارة للمبالغة في الذم والتنفير عن رفع الصوت.

ومنها: الطباق بين قوله: ﴿ظَٰهِرَةً﴾ ﴿وَبَاطِنَةً﴾.

ومنها: الإنكار والتوبيخ مع الحذف في قوله: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ﴾؛ أي: أيتبعونهم ولو كان الشيطان إلخ.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر حال المشرك المجادل في الله بغير علم.. أردف ذلك بذكر حال المستسلم المفوض أموره إلى الله، وبيان عاقبته ومآله، ثم سلى رسوله على ما يلقاه من المشركين من العناد والكفران، وبين له أنه قد بلغ رسالات ربه، وتلك وظيفة الرسل، وعلي الحساب والجزاء، فهو يجازيهم بما يستحقون من العذاب الغليظ في جهنم، وبئس المصير.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما أقام الأدلة[1] على وحدانيته بخلق السماوات بغير عمد، وبإسباغ نعمه الظاهرة والباطنة عليهم.. أردف ذلك ببيان أن المشركين معترفون بذلك، غير جاحدين له، وهذا يستدعي أن يكون الحمد كله له وحده، ومن يستحق الحمد هو الذي يستحق العبادة، فأمرهم عجب، يعلمون المقدمات، ثم ينكرون النتيجة التي تستتبعها، فيعبدون من لا يستحق عبادةً، ولا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً من الأصنام والأوثان.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر أنه أجرى الحكمة على لسان لقمان، ثم قفى على ذلك ببيان أنه أسبغ نعمه على عباده ظاهرةً وباطنةً، وأن له ما في السماوات وما في الأرض.. أردف ذلك ببيان أن تلك النعم وهذه المخلوقات لا حصر لها، ولا يعلمها إلا خالقها، كما قال: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾.

ولما كانت تلك النعم لا نهاية لها، وربما ظن أنها مبعثرة لا قانون لها أو أنها لكثرتها يصعب عليه تدبيرها، وتصريف شؤونها كما يريد.. دفع هذا بقوله: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر أنه سخر للإنسان ما في السماوات وما في الأرض.. ذكر هنا بعض ما فيهما بقوله: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ...﴾ إلخ. وبعض ما في السماوات بقوله: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾. وبعض ما في الأرض بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِي ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ ثم ذكر أن كل المشركين معترفون بتلك الآيات، إلا أن البصير يدركها على الفور، ومن في بصيرته ضعف لا يدركها إلا إذا وقع في شدة وأحدق به الخطر، فهو إذ ذاك يعترف بأن كل شيء بإرادة الله تعالى.

---

(١) المراغي.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا. . .﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر دلائل التوحيد على ضروب مختلفة، وأشكال متنوعة. . أمر بتقوى الله على سبيل الموعظة والتذكير بيوم عظيم، يوم يحكم الله بين عباده، يوم لا تنفع فيه قرابة، ولا تجدي فيه صلة رحم، فلو أراد والد أن يفدي ابنه بنفسه لما قبل منه ذلك،وهكذا الابن مع أبيه، فلا تلهينكم الدنيا عن الدار الآخرة، ولا يغرنكم الشيطان فيزينن لكم بوساوسه المعاصي والآثام. ثم ختم السورة بذكر ما استأثر الله بعلمه مما في الكائنات، وهي الخمس التي اشتملت عليها الآية الكريمة، مما لم يؤت علمها ملك مقرب، ولا نبي مرسل.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ. . .﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[١]: ما أخرجه ابن جرير عن عكرمة قال: سأل أهل الكتاب رسول الله - ﷺ - عن الروح، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ فقالوا: تزعم أنا لم نؤت من العلم إلا قليلاً وقد أوتينا التوراة وهي الحكمة، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً، فنزلت: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ. . .﴾ الآية.

وأخرج ابن إسحاق عن عطاء بن يسار قال: نزلت بمكة: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة. . أتاه أحبار اليهود فقالوا: ألم يبلغنا عنك أنك تقول: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ إيانا تريد أم قومك؟ فقال: «كلاًّ عنيت»، قالوا: فإنك تتلو أنا قد أوتينا التوراة، وفيها تبيان كل شيء، فقال رسول الله - ﷺ -: «هي في علم الله قليل»، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ. . .﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية:

---

(١) لباب النقول.

ما أخرجه[1] ابن المنذر عن عكرمة قال: إنَّ رجلاً يقال له: الوارث بن عمرو بن الحارث جاء إلى النبي - ﷺ - فقال: يا محمد متى قيام الساعة؟ وقد أجدبت بلادنا فمتى تخصب بلادنا؟ وقد تركت أمرأتي حبلى فما تلد؟ وقد علمت ما كسبت اليوم فماذا أكسب غداً؟ وقد علمت بأيّ أرض ولدت فبأي أرض أموت؟ فنزلت: ﴿ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ. . .﴾ الآية.

وروى البخاري ومسلم عن ابن عمر: أن رسول الله - ﷺ - قال: «مفاتيح الغيب خمس: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾».

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَمَن يُسْلِمْ﴾: ﴿من﴾: شرطية. ﴿أسلم﴾[2] إذا عدي بإلى.. يكون بمعنى سلم، وإذا عدي باللام.. تضمن معنى الإخلاص، والوجه: بمعنى الذات؛ أي: ومن يسلم نفسه إلى الله تسليم المتاع للعامل، بأن فوض أمره إليه، وأقبل بكليته إليه، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾؛ أي: موحد مخلص في عمله؛ أي: والحال أنه محسن في عمله، آتٍ به على الوجه اللائق، الذي هو حسنه الوصفي المستلزم لحسنه الذاتي، ولا يحصل ذلك غالباً إلا على مشاهدة، ولذا فسر النبي - ﷺ - الإحسان في حديث جبريل عليه السلام، «بأن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك». وجواب الشرط قوله: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ﴾؛ أي: تعلق وأخذ ﴿بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾؛ أي: بعروة الحبل المعلق في الهواء، المحكمة: تلك العروة الموثقة المأمونة من الانقطاع وسقوط من تمسك وتعلق بها، والاستمساك هنا بمعنى: الإمساك، والسين والتاء فيه زائدتان، وإمساك الشيء: التعلق به، كما سيأتي في مباحث اللغة، والعروة: ما يعلق به الشيء، والمراد بها: مقبض نحو الدلو والكوز، والوثقى: تأنيث الأوثق؛ أي: الوثيقة القوية التي يؤمن من تمسك وتعلق

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

بها من السقوط.

والمعنى[1]: فقد تعلق بأوثق ما يتعلق به من الأسباب وأقواه، وهو تمثيل لحال المتوكل على الله، المشتغل بالطاعة بحال من أراد أن يترقى إلى شاهق جبل، فتمسك بأوثق عرى الحبل المتدلي منه، بحيث لا يخاف انقطاعه.

وخلاصة المعنى[2]: أي ومن يعبد الله وهو متذلل خاضع، مع الإحسان في العمل بفعل الطاعات، وترك المعاصي والمنكرات.. فقد تعلق بأوثق الأسباب التي توصل إلى رضوان ربه، ومحبته وحسن جزائه على ما قدم من عمل صالح.

ثم بين العلة في أنه يلقى الجزاء الأوفى فقال: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، لا إلى أحد غيره ﴿عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾؛ أي: عاقبة أمر المتوكل وأمر غيره، فيجازيه أحسن الجزاء.

والمعنى: أي إن مصير أمور الخلائق ومرجعها إلى الله سبحانه، لا إلى غيره، فلا يكون لأحد إذ ذاك أمر ولا نهي، ولا عقاب ولا ثواب، فيجازي المتوكل عليه أحسن الجزاء، ويعاقب المسيء أنكل العذاب.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿وَمَن يُسْلِمْ﴾ مضارع أسلم من باب أفعل، وقرأ علي بن أبي طالب والسلمي، وعبد الله بن مسلم بن يسار: ﴿يسلم﴾ بتشديد اللام مضارع سلم المضعف.

ثم سلى رسوله على ما يلقاه من أذى المشركين وعنادهم فقال: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ بالله من قريش أو غيرهم ولم يسلم وجه لله ﴿فَلَا يَحْزُنكَ﴾ يا محمد ﴿كُفْرُهُۥٓ﴾ فإنه لا يضرك في الدنيا ولا في الآخرة، يقال: أحزنه من المزيد، ويحزنه من الثلاثي، كما سيأتي في مبحث التصريف، ﴿إِلَيْنَا﴾ لا إلى غيرنا ﴿مَرْجِعُهُمْ﴾ بعد الموت؛ أي: رجوعهم للمجازاة، ومعنى الرجوع إلى الله سبحانه الرجوع إلي

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) البحر المحيط.

حيث لا مالك ولا حاكم سواه، وهو يوم القيامة، ﴿فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾ في الدنيا من الكفر والمعاصي؛ أي: نُخبرهم بقبائح أعمالهم، فنجازيهم عليها بالعذاب والعقاب، وجمع الضمائر الثلاثة باعتبار معنى ﴿من﴾ كما أن الإفراد في الموضعين باعتبار لفظه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾؛ أي: بما في القلوب من الخير والشر؛ أي[1]: بالضمائر والنيات المصاحبة بالصدر الذي هو محل القلب؛ أي: عليم بما تسره صدورهم، لا تخفى عليه من ذلك خافية، فالسر عنده كالعلانية، فيجازي عليها كما يجازي على الأعمال الظاهرة.

والمعنى: أن مصيرهم يوم القيامة إلينا، فنخبرهم بما عملوا في الدنيا من خبيث الأعمال، حتى لا يكون هناك سبيل إلى الإنكار، ثم نجازيهم على ذلك أشد العذاب، ثم بين أنه عادل في الجزاء لسعة علمه، وعظيم إحاطته بكل شيء فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ تعالى ﴿عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فيجازيهم بكل ما عملوا سراً وعلانيةً، إذ لا يخفى عليه خافية.

ثم بين أن ما يمتعون به في الدنيا عرض قليل، وظل زائل، لا ينبغي لعاقل أن يقيم له وزناً بجانب العذاب الدائم، فقال: ﴿نُمَتِّعُهُمْ﴾؛ أي: نمتع الكافرين وننعمهم بمنافع الدنيا ﴿قَلِيلًا﴾؛ أي: تمتيعاً قليلاً، أو زماناً قليلاً، فإن ما يزول وإن كان بعد أمد طويل بالنسبة إلى ما يدوم قليل؛ أي: نبقيهم في الدنيا مدةً قليلةً، يستمتعون بها ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾؛ أي[2]: نلجئهم ونردهم في الآخرة قهراً ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾؛ أي: شديد يثقل عليهم ثقل الأجرام الغلاظ، فإنه لا أثقل منه على من وقع فيه وأصيب به، فلهذا استعير له الغلظ، أو نضم إلى الإحراق الضغط والتضييق، وفي «التأويلات النجمية»: غلظة العذاب: عبارة عن دوامه إلى الأبد، انتهى. والغليظ ضد الرقيق كما سيأتي.

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

والمعنى: أي[1] نمهلهم في الدنيا زمناً قليلاً، يتمتعون فيه بزخارفها، ثم نلجئهم على كره منهم إلى عذاب شاق على نفوسهم، ونحو الآية قوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين بالله من قومك: ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: خلق الأجرام العلوية والسفلية ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ في الجواب لك: خلقهن ﴿ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى، لغاية وضوح الأمر، بحيث اضطروا إلى الاعتراف به، وفي هذا إيماء إلى أنه قد بلغ من الوضوح مبلغاً لا يستطيعون معه الإنكار والجحود، ولما استبان بذلك صدقه ـ ﷺ وكذبهم.. قال آمراً رسوله ﴿قُلِ﴾ يا محمد ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على اعترافهم بما يوجب بطلان ما هم عليه من إشراك غيره تعالى به في العبادة التي لا يستحقها سوى الخالق المنعم على عباده، أو المعنى: فقل الحمد لله على ما هدانا من دينه.

ثم بين أنهم بلغوا الغاية في الجهل فهم يعترفون بالشيء ويعملون نقيضه، فقال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾؛ أي: بل أكثر المشركين ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ من له الحمد، وأين موضع الشكر، فهم مع تكذيبك يعترفون بما يوجب تصديقك، أو لا يعلمون شيئاً من الأشياء، فلذلك لا يعملون بمقتضى اعترافهم بأن يتركوا الشرك، ويعبدوا الله وحده.

ولما أثبت لنفسه الإحاطة بأوصاف الكمال.. استدل على ذلك بقوله: ﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: له سبحانه وتعالى لا لغيره جميع ما في السماوات والأرض، ملكاً وخلقاً وتصرفاً، وليس ذلك لأحد سواه، فلا يستحق العبادة غيره تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ بذاته وصفاته قبل خلق السماوات والأرض وبعده لا حاجة به في وجوده وكماله الذاتي إلى شيء أصلاً، وغني عن

(١) المراغي.

عبادتهم، لأنهم ملكه، وهم المحتاجون إليه، وكلمة[1] ﴿هو﴾ للحصر؛ أي: هو الغني وحده، وليس معه غني آخر، دليله قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ﴾.

﴿ٱلۡحَمِيدُ﴾؛ أي: المحمود في ذاته وصفاته، وإن لم يكن له حامد.. فهو الحامد لنفسه، أو المحمود على نعمه التي أنعمها عليهم، وفي هذه الآيات أمور:

منها: أنّ التفويض والتوكل وإخلاص القصد والإعراض عما سوى الله تعالى، والإقبال على الله بالتوحيد والطاعة من موجبات حسن العاقبة، وهي الجنة والقربة والوصلة، كما أن الكفر والشرك والرياء والسمعة من أسباب سوء العاقبة، وهي النار والعذاب الغليظ، والفرقة والقطيعة، فالتمسك بأحكام الدين هي العروة الوثقى لأهل اليقين، فإنها لا تنفصم، بخلاف سائر العرى.

ومنها: أنّ ليس لعمر الدنيا بقاء، بل هي ساعة من الساعات، فعلى العاقل أن لا يغتر بالتمتع القليل، بل يتأهب لليوم الطويل.

ومنها: أنّ الله تعالى قدر المقادير، ودبر الأمور، فالكل يجري في الأفعال والأحوال على قضائه وقدره، وليس على الناصح إلا التبليغ دون الجبر والحزن على عدم القبول، فإن الحجر يصير مرآةً بالصيقل.

ومنها: أنّ عدم الجريان بموجب العلم من الجهل في الحقيقة.

ومنها: أنّ الله تعالى خلق الخلق ليربحوا عليه، لا ليربح عليهم، فمنفعة الطاعات والعبادات راجعة إلى العباد، لا إلى الله تعالى، إذ هو غني عن العالمين، لا ينتفع بطاعاتهم، ولا يتضرر بمعاصيهم، فهو يمن عليهم أن هداهم للإيمان والطاعات، وليس لهم أن يمنوا عليه بإسلامهم، جعلنا الله سبحانه وإياكم من عباده المخلصين، وحفظنا في حصنه الحصين، بمنه وكرمه وتوفيقه الرصين.

---

(١) روح البيان.

ثم لما ذكر سبحانه أن له ما في السماوات والأرض.. أتبعه بما يدل على أن له وراء ذلك ما لا يحيط به عدد، ولا يحصر بحد، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾؛ أي: ولو أن جميع ما في الأرض من جنس شجرة أقلام يكتب بها، و﴿مِن شَجَرَةٍ﴾ حال من الموصول، ووجد الشجرة لما تقرر في علم المعاني: أن استغراق المفرد أشمل، فكأنه قال: كل شجرةٍ شجرةٍ حتى لا يبقى من جنس الشجر واحدة، إلا وقد بريت أقلاماً، وجمع الأقلام لقصد التكثير، بحيث تعد كل شجرة من الأشجار أقلاماً، قال أبو حيان: وهذا من وقوع المفرد موقع الجمع، والنكرة موقع المعرفة، كقوله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾.

والمعنى: لو ثبت أن الأشجار كلها أقلام، ﴿وَٱلْبَحْرُ﴾؛ أي[1]: والحال أن البحر المحيط بسعته، وهو البحر الأعظم الذي منه مادة جميع البحار المتصلة والمنقطعة، وهو بحر لا يعرف له ساحل، ولا يعلم عمقه إلا الله تعالى، والبحار التي على وجه الأرض خلجان منه، وفي هذا البحر عرش إبليس ـ لعنه الله ـ وفي مدائن تطفو على وجه الماء، وأهلها من الجن في مقابلة الربع الخراب من الأرض، وفي هذا البحر ينبت شجر المرجان، كسائر الأشجار في الأرض، وفيه من الجزائر المسكونة والخالية ما لا يعلمه إلا الله تعالى.

وهو؛ أي: ﴿البحر﴾: مبتدأ، خبره: قوله: ﴿يَمُدُّهُۥ﴾؛ أي: يزيده وينصب فيه، من مد الدواة: جعلها ذات مداد وزاده فيها، فلذا أغنى عن ذكر المداد، ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾؛ أي: من بعد نفاده وفنائه ﴿سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ أخرى، نحو بحر الصين، وبحر تُبَّت كَسُكَّر على ما في «القاموس»، وبحر الهند، وبحر السند، وبحر فارس، وبحر الشرق، وبحر الغرب، والله أعلم.

ويحتمل أن يكون المراد: الأنهار السبعة من الفرات، ودجلة، وسيحان، وسيحون، وجيحان، وجيحون، والنيل، لأن البحر عند العرب الماء الكثير.

والمعنى: يمده الأبحر السبعة مداً لا ينقطع أبداً، وكتبت بتلك الأقلام

---

(١) روح البيان.

وبذلك المداد كلمات الله.

وجواب ﴿لو﴾ ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ما فنيت كلماته التي هي عبارة عن معلوماته، بل نفذت تلك الأقلام وذلك المداد قبل نفاذها، وإيثار جمع القلة في الكلمات للإيذان بأن ما ذكر لا يفي بالقليل من كلمات الله، فكيف بالكثير منها.

قال أبو علي الفارسي: المراد[1] بالكلمات - والله أعلم - ما في المقدور، دون ما خرج منه إلى الوجود، ووافقه القفال، فقال: المعنى أن الأشجار لو كانت أقلاماً، والبحار مداداً، فكتب بها عجائب صنع الله الدالة على قدرته ووحدانيته.. لم تنفد تلك العجائب، قال القشيري: رد القفال معنى الكلمات إلى المقدورات، وحمل الآية على الكلام القديم أولى، وهو الظاهر من النظم القرآني.

وفي «التأويلات النجمية»: المعنى[2]: لو أن ما في الأرض من الأشجار أقلام، والبحر يصير مداداً، وبمقدار ما يقابله ينفق القرطاس، ويتكلف الكتاب، حتى تنكسر الأقلام، وتفنى البحار، وتستوفى القراطيس، ويفنى عمر الكتاب.. ما نفدت معاني كلام الله تعالى، لأن هذه الأشياء وإن كثرت فهي متناهية، ومعاني كلامه لا تتناهى، لأنها قديمة، والمحصور لا يفي بما لا حصر له، انتهى. وقد قصر من جعل الأرض قرطاساً.

وقال النحاس[3]: قد تبين أن الكلمات هنا يراد بها العلم وحقائق الأشياء، لأنه جل وعلا علم قبل أن يخلق الخلق ما هو خالق في السماوات والأرض من شيء، وعلم ما فيه من مثاقيل الذر، وعلم الأجناس كلها، وما فيها من شعرة وعضو، وما في الشجرة من ورقة، وما فيها من ضروب الخلق.

والمعنى عليه[4]: أي ولو أن أفنان الأشجار وأغصانها بريت أقلاماً وجُعل

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

(٣) الشوكاني.

(٤) المراغي.

البحر مداداً، وأمدته سبعة أبحر، والخلائق جميعاً يكتبون بها كلمات الله وعجائب صنعه الدالة على عظمته وجلاله.. لتكسرت الأقلام، ونفد ماء البحر، ولم تنفد كلمات الله تعالى، وعجائب صنعه، ونحو الآية قوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ﴾.

وإنما ذكر السبعة الأبحر للدلالة على الكثرة، لا لقصد هذا العدد بعينه، وقد تقرر أن العرب تذكر السبعة والسبعين والسبع مئة، وتريد بذلك الكثرة، كما جاء في الحديث: «سبعة يظلهم الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظله» وفي الآية: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ﴾. كحديث «المؤمن يأكل في معي واحد، والكافر في سبعة أمعاء».

ولما كان لفظ سبعة ليس موضوعاً في الأصل للتكثير، وإن كان مراداً به التكثير.. جاء مميزه بلفظ القلة، وهو أبحر، ولم يقل بحور، وإن كان لا يراد به أيضاً إلا التكثير ليناسب بين اللفظين، فكما يجوز في سبعة واستعمل للتكثير، كذلك يجوز في أبحر واستعمل للتكثير، ذكره أبو حيان.

وقصارى ذلك: أنه سبحانه أخبر أن عظمته وكبرياءه وجلاله وأسماءه الحسنى لا يحيط بها أحد، ولا يصل البشر إلى معرفة كنهها وعدها، كما ورد في الحديث: «سبحانك لا نحصى ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك».

وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَٱلْبَحْرُ﴾ بالرفع على أنه مبتدأ، و﴿يَمُدُّهُۥ﴾: خبره، والجملة: في محل الحال، وقال المبرد: مرتفع بفعل مقدر؛ أي: ولو ثبت البحر حال كونه تمده من بعده سبعة أبحر، وقيل: مرتفع بالعطف على ﴿أن﴾ وما في حيزها، وقرأ أبو عمرو وابن أبي إسحاق[2]: ﴿والبحر﴾ بالنصب عطفاً على اسم ﴿أن﴾ أو بفعل مضمر يفسره ﴿يمده﴾. وقرأ عبد الله: ﴿وبحر يمده﴾ بالتنكير وبالرفع، والواو للحال، أو للعطف على ما تقدم، وإن كانت الواو للحال.. كان

---

(١) البحر المحيط والشوكاني.
(٢) البحر المحيط.

﴿بحر﴾: مبتدأ، وهو نكرة، وذكروا في مسوغات الابتداء بالنكرة: تقدم واو الحال عليها، كقوله:

سَرَيْنَا وَنَجْمٌ قَدْ أَضَاءَ فَمُذْ بَدَا مُحَيَّاكَ أَخْفَىٰ ضَوْؤُهُ كُلَّ شَارِقِ

وقرأ الجمهور: ﴿يمده﴾ بالياء من مد الثلاثي، وابن مسعود وابن عباس: بتاء التأنيث، من مد أيضاً، وقرأ عبد الله أيضاً والحسن وابن مطرف وابن هرمز: بالياء من تحت، من أمد الرباعي، وقرأ جعفر بن محمد: ﴿والبحر مداده﴾؛ أي: يكتب به من السواد، وقال ابن عطية: هو مصدر. انتهى.

وقال أبو حيان: وفي الكلام جملة محذوفة يدل عليها المعنى، تقديرها: وكتب بها الكتَّاب كلمات الله ما نفدت.

والمعنى: ولو أن أشجار الأرض أقلام، والبحر ممدود بسبعة أبحر، وكتبت بتلك الأقلام وبذلك المداد كلمات الله.. ما نفدت، ونفدت الأقلام والمداد الذي في البحر وما يمده. انتهى.

﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَزِيزٌ﴾؛ أي: غالب لا يعجزه شيء، قد عز كل شيء وقهره، فلا مانع لما أراد، ولا معقب لحكمه، ﴿حَكِيمٌ﴾ في خلقه وأمره وأقواله وأفعاله وشرعه وجميع شؤونه، لا يخرج عن علمه وحكمته أمر، فلا تنفد كلماته المؤسسة عليها.

فائدة: وقال بعضهم(١): وخاصية الاسم العزيز: وجود الغنى والعز صورةً ومعنىً، فمن ذكره أربعين يوماً في كل يوم أربعين مرة.. أغناه الله وأعزه، فلم يحوجه إلى أحد من خلقه، وخاصية الاسم الحكيم: دفع الدواهي وفتح باب الحكمة، من أكثر ذكره.. صرف عنه ما يخشاه من الدواهي وفتح له باباً من الحكمة. انتهى.

ثم أبان أن هذا الخلق الذي لا حصر له محيط به علماً، ولا يعجزه شيء

---

(١) روح البيان.

فيه متى أراد، فقال: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ﴾ قال مقاتل وقتادة: إن كفار قريش قالوا: إن الله خلقنا أطواراً: نطفةً، علقةً، مضغةً لحماً، فكيف يبعثنا خلقاً جديداً في ساعة واحدة؟ فأنزل هذه الآية، وقال: ما خلقكم على الله يا أهل مكة إذ خلقكم ﴿وَلَا بَعْثُكُمْ﴾؛ أي: إحياؤكم وإخراجكم من القبور إذ يبعثكم ﴿إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾؛ أي: إلا كخلق نفس واحدة وبعثها في سهولة الحصول، فالكل هين عليه، إذ لا يشغله شأن عن شأن، لأنه يكفي لوجود الكل تعلق إرادته وقدرته، قلوا أو كثروا، ويقول كن فيكون، كما قال: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾، وقال: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾. وقال: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ ومثاله في الدنيا: أن السلطان يضرب النقارة عند الرحيل فيتهيأ الكل في ساعةٍ واحدةٍ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿سَمِيعٌ﴾ يسمع كل مسموع فيدخل فيه ما قالوا في أمر الخلق والبعث، مما يتعلق بالإنكار والاستبعاد، ﴿بَصِيرٌ﴾ يبصر كل مبصر، لا يشغله علم بعضها عن بعض، فكذا الخلق والبعث، وقال بعضهم: بصير بأحوال الأحياء والأموات، والخطاب بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ لكل أحد يصلح للخطاب، أو للرسول ﷺ؛ أي: ألم تعلم يا من يصلح للخطاب علماً قوياً جارياً مجرى الرؤية. ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يُولِجُ﴾ ويدخل بقدرته وحكمته ﴿ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾؛ أي: يدخل الليل في النهار، ويضيفه إليه بأن يزيد من ساعات الليل في ساعات النهار صيفاً بحسب مطالع الشمس ومغاربها، يعني: يصير النهار خمس عشرة ساعة، والليل تسع ساعات.

قال عبد الله بن سلام[1]: أخبرني يا محمد عن الليل: لم سمي ليلاً؟ قال: «لأنه منال الرجال من النساء، جعله الله ألفةً ومسكناً ولباساً» قال: صدقت يا محمد، ولم سمي النهار نهاراً؟ قال: «لأنه محل طلب الخلق لمعايشهم، ووقت سعيهم واكتسابهم» قال: صدقت.

---

(١) روح البيان.

﴿وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾؛ أي: يدخله فيه، ويضم بعض أجزائه إليه، بأن يزيد من ساعات النهار في ساعات الليل شتاءً بحسب المطالع والمغارب، فيصير الليل خمس عشرة ساعة، والنهار تسع ساعات.

أي: ألم تشاهد أيها الناظر بعينيك: أن الله يزيد ما نقص من ساعات الليل في ساعات النهار، ويزيد ما نقص من ساعات النهار في ساعات الليل.

والخلاصة: أنه يأخذ من الليل في النهار، فيقصر ذلك ويطول هذا، وذاك في مدة الصيف، إذ يطول النهار إلى الغاية، ثم يبتدىء النهار في النقصان، ويطول الليل إلى الغاية في مدة الشتاء.

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ لمصالح خلقه ومنافعهم؛ أي: ذللهما وجعلهما منقادين بالطلوع والأفول، تقديراً للآجال، وتتميماً للمنافع، والجملة: معطوفة على ﴿يُولِجُ﴾ والاختلاف بينهما صيغةً، لما أن إيلاج أحد الملوين في الآخر أمر متجدد في كل حين، وأما تسخير النيرين فأمر لا تعدد فيه ولا تجدد، وإنما التعدد والتجدد في آثاره، وقد أشير إلى ذلك حيث قيل: ﴿كُلٌّ﴾ من الشمس والقمر ﴿يَجۡرِيٓ﴾ بحسب حركته الخاصة القسرية على المدارات اليومية المتخالفة المتعددة حسب تعدد الأيام، جرياً مستمراً ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾؛ أي: إلى وقت معلوم، وأجل محدد، قدره الله تعالى لجريهما، إذا بلغه كورت الشمس والقمر، وهو يوم القيامة، كما روي عن الحسن، فإنهما لا ينقطع جريهما إلا حينئذٍ، وذلك لأنه تموت الملائكة الموكلون عليهما، فيبقى كل منهما خالياً كبدنٍ بلا روح، ويطمس نورهما، فيلقيا في جهنم، ليظهر لعبدة الشمس والقمر والنار أنها ليست بآلهة، ولو كانت آلهةً.. لدفعت عن أنفسها، فالجملة معترضة بين المتعاطفين، أعني: قوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ إلخ. وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ مسوقة لبيان الواقع بطريق الاستطراد، هذا وقد جعل جريانهما عبارةً عن حركتهما الخاصة بهما في فلكهما، والأجل المسمى عبارة عن منتهى دورتهما، وجعل مدة الجريان للشمس سنةً، وللقمر شهراً، فالجملة حينئذٍ: بيان لحكم تسخيرهما، وتنبيه على كيفية إيلاج أحد الملوين في الآخر، وكون ذلك

بحسب انقلاب جريان الشمس والقمر على مداراتهما اليومية.

فإن قلت[1]: لم قال هنا ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ بلفظ ﴿إِلَىٰ﴾، وقال في فاطر والزمر بلفظ (اللام) حيث قال: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ﴾.

قلت: لأن ما هنا وقع بين جملتين دالّتين على غاية ما ينتهي إليه الخلق، وهما قوله: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍۚ﴾ وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا﴾ الآية، فناسب ذكر (إلى) الدالة على الانتهاء.

والمعنى: لا يزال كل من الشمس والقمر جارياً، حتى ينتهي إلى آخر وقت جريه المسمى له، وما في فاطر والزمر خالٍ عن ذلك، إذ ما في فاطر لم يذكر مع ابتداء خلق ولا انتهاء به، وما في الزمر ذكر مع ابتداءٍ به فناسب ذكر اللام المعدية.

والمعنى: يجري كل مما ذكر لبلوغ أجلٍ.

وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾؛ أي: عالم بكنهه، معطوف على ﴿أن الله يولج الليل﴾ إلخ، داخل معه في حيز الرؤية، فإن من شاهد ذلك الصنع الرائق، والتدبير اللائق، لا يكاد يغفل عن كون صانعه محيطاً بجلائل أعماله ودقائقها؛ أي: وأن الله سبحانه بأعمالكم من خير أو شر خبير بها، مطلع عليها، لا تخفى عليه خافية من أمرها، وهو مجازيكم بها.

قرأ الجمهور[2]: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ بالفوقية على الخطاب، وقرأ السلمي ونصر بن عامر وعياش الدوري عن أبي عمرو: ﴿بما يعملون﴾ بياء الغيبة.

والإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى ما تقدم ذكره، و(الباء) في ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾: للسببية؛ أي: ذلك المذكور من سعة العلم، وشمول القدرة، وعجائب الصنع، واختصاص الباري بها كائن بسبب أن الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ إلهيته فقط الثابت وجوده، ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ﴾؛ أي: يعبدون ﴿مِن دُونِهِ﴾ تعالى من الأصنام

---

(1) فتح الرحمٰن. (2) الشوكاني.

﴿ٱلْبَٰطِلُ﴾ إلهيته، لا يقدر على شيء من ذلك، فليس في عبادته نفع أصلاً، والتصريح[1] بالبطلان، مع أن الدلالة على اختصاص حقية إلهيته به تعالى، مستتبعة للدلالة على بطلان إلٰهية ما عداه لإبراز كمال الاعتناء بأمر التوحيد؛ أي: وبسبب ظهور بطلان إلٰهيته ما يعبدونه من غيره تعالى.

وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وحفص[2]: ﴿يَدْعُونَ﴾ بياء الغيبة، وغيرهم ﴿تدعون﴾ بالفوقية، وقال هنا: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ وفي الحج ﴿مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ بزيادة هو لمقام التأكيد.

والمعنى: أي إنما يظهر الله آياته للناس، ليستدلوا بها على أنه هو المستحق للعبادة، وأن كل ما سواه هو الباطل، الذي يضمحل ويفنى، فهو الغني عما سواه، وكل شيء فقير إليه، ﴿وَ﴾ بسبب ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ تعالى ﴿هُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾ في صفاته ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ في ذاته؛ أي: وأنه تعالى المرتفع على كل شيء، والمتسلط على كل شيء، فكل شيء خاضع له تعالى، وهو الحكم العدل، اللطيف الخبير، وهذه الجملة معطوفةٌ أيضاً على جملة ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾.

والمعنى[3]: ذلك الصنع البديع، الذي وصفه في الآيات المتقدمة للاستدلال بها على حقية الله تعالى، وبطلان ما سواه، وعلوه وكبريائه بسبب أنه تعالى، وهو العلي، في مكانته، ذو الكبرياء في ربوبيته وسلطانه.

وبعد أن ذكر الآيات السماوية الدالة على وحدانيته تعالى، أشار إلى آيةٍ أرضيةٍ بجامع ما اشتركا فيه من الجريان، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ رؤية عيانيةً أيها الذي من شأنه الرؤية والمشاهدة ﴿أَنَّ ٱلْفُلْكَ﴾ والسفن ﴿تَجْرِي﴾ وتسير ﴿فِي ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ تعالى؛ أي[4]: بإحسانه ورحمته، أو بالريح لأن الريح من نعم الله تعالى فالباء متعلقة بـ﴿تَجْرِي﴾ أو بمحذوف حال من فاعله؛ أي: متلبسةً بنعمته تعالى، وإحسانه في تهيئة أسبابه، وفي «الأسئلة المقحمة»: تجري برحمة الله،

---

(١) روح البيان.

(٢) المراح.

(٣) الشوكاني.

(٤) النسفي.

حيث جعل الماء مركباً لكم لتقريب المزار. ا هـ؛ أي: تجري في البحر بلطفه بكم، وبرحمته لكم، وذلك من أعظم نعمة عليكم، لأنها تخلصكم من الغرق عند أسفاركم في البحر لطلب الرزق.

وقرأ الجمهور: ﴿بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ على الإفراد اللفظي، وقرأ[1] الأعرج والأعمش وابن يعمر: ﴿بنعمات الله﴾ بكسر النون وسكون العين جمعاً بالألف والتاء، وقرأ ابن أبي عبلة بفتح النون وكسر العين بالألف والتاء، وقال أبو حيان: والباء تحتمل السببية؛ أي: تجري بسبب الريح، وتسخير الله تعالى، وتحتمل الحالية؛ أي: مصحوبةً بنعمة الله، وهي ما تحمله السفن من الطعام والأرزاق والتجارات. انتهى.

وقال ابن عطية: الباء للإلصاق. انتهى. وقرأ موسى بن الزبير: ﴿الفلك﴾ بضم اللام، ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ من للتبعيض[2]؛ أي: ليريكم بعض دلائل قدرته وعجائب صنعه، قال يحيى بن سلام: وهو جري السفك في البحر بالريح، وقال ابن شجرة: المراد بقوله: ﴿مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ ما يشاهدونه من قدرة الله تعالى، وقال النقاش: ما يرزقهم الله في البحر.

والمعنى: أي ألم تشاهد أيها الرسول السفن وهي تسير في البحر حاملة للأقوات والمتاع من بلد إلى آخر، ومن قطر إلى قطر هو في حاجة إليها، لينتفع الناس بما على ظاهر الأرض مما ليس في أيديهم، وفي هذا دليل على عجيب قدرته، التي ترشدكم إلى أنه الحق الذي أوجد ما ترون من الأحمال الثقيلة على وجه الماء، الذي ترسب فيه الإبرة فما دونها.

ثم ذكر من يستفيد من النظر في الآيات، فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور من أمر الفلك والبحر ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ عظيمة في ذاتها، كثيرة في عددها، ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾؛ أي: مبالغ في الصبر على المشاق، فيتعب نفسه في التفكر في الأنفس والآفاق ﴿شَكُورٍ﴾؛ أي: مبالغ في الشكر على نعمائه، فبعث نفسه في التفكر في

---

(١) البحر المحيط. (٢) الشوكاني.

عدم غرقه، وفي سيره إلى البلاد الشاسعة والأقطار البعيدة، وفي كون سيره ذهاباً وإياباً تارة بريحين، وتارة بريح واحدة، وفي إنجاء أبيه نوح عليه السلام ومن أراد الله تعالى من خلقه، وإغراق غيرهم من جميع أهل الأرض، وفي غير ذلك من شؤونه وأموره. ا هـ. «خطيب».

وهما صفتا المؤمن، فكأنه قيل: إن في ذلك لآيات لكل مؤمن؛ أي: إن فيما ذكر لدلائل واضحات لكل صبار في الضراء، شكور في الرخاء. قال الشعبي: الصبر نصف الإيمان، والشكر: نصف الإيمان، واليقين: الإيمان كله، ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾. وقوله: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾. وقال ـ ﷺ ـ: «الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر».

ثم بين أن المشركين ينسون الله تعالى في السراء، ويلجؤون إليه حين الضراء، فقال: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم﴾ يقال: غشيه: إذا ستره وعلاه، والضمير لمن ركب البحر مطلقاً، أو لأهل الكفر، ففيه التفات من ضمير الخطاب في ﴿لِيُرِيَكُم﴾ إلى ضمير الغيبة في ﴿غَشِيَهُم﴾؛ أي: وإذا علاهم وأحاط بهم ﴿موج﴾: هو ما ارتفع من الماء ﴿كَالظُّلَلِ﴾؛ أي: كالجبال، أو كالسحاب في الارتفاع.

وقرأ محمد بن الحنفية: ﴿كالظلال﴾: جمع ظله، كقلال وقلة، شبه الموج لكبره بما يظل الإنسان من جبل أو سحاب أو غيرهما، وإنما شبه[1] الموج وهو مفرد بالظلل وهي جمع، لأن الموج يأتي شيئاً بعد شيء، ويركب بعضه بعضاً، وقيل: إن الموج في معنى الجمع، لأنه مصدر، وأصل الموج الحركة والازدحام، ومنه يقال: ماج الماء: إذا تحرك، وماج الناس: إذا ازدحموا.

﴿دَعَوُا اللَّهَ﴾ وحده حال كونهم ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾؛ أي: الدعاء والاستغاثة، لا يذكرون معه غيره، ولا يستغيثون بغيره، ولا يعولون على غيره في خلاصهم، لأنهم يعلمون أنه لا ينفع ولا يضر سواه، لزوال ما ينازع الفطرة من

---

(١) الشوكاني.

الهوى والتقليد بما دهاهم من الخوف الشديد، والإخلاص: إفراد الشيء من الشوائب.

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ﴾ الله سبحانه وتعالى من البحر ﴿إِلَى ٱلْبَرِّ﴾ وجاد تحقيق مناهم بسبب إخلاصهم في الدعاء صاروا على قمسين ﴿فـ﴾ قسم ﴿مقتصد﴾؛ أي: آخذ بالطريق القصد، ومتمسك بالدين المستقيم، وهو التوحيد والطاعة لله سبحانه فيما أمر ونهى، قاله الحسن: وقيل؛ أي: موف بما عاهد عليه الله في البحر، من إخلاص الدين له، باق على ذلك بعد أن نجاه الله من هول البحر، وأخرجه إلى البر سالماً.

وقسم كافر جاحد، ففي الكلام حذف، ويدل على هذا المحذوف قوله: ﴿وَمَا يَجْحَدُ﴾ وينكر ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾؛ أي: بدلائل قدرتنا التي منها إنجاء هؤلاء من البحر، والقرآن الذي أنزل على محمد ـ ﷺ ـ؛ أي: ما ينكر بحقيتها ﴿إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ﴾؛ أي: غدار نقاض للعهد؛ أي: كثير الختر والغدر لما عاهد على نفسه. ﴿كَفُورٍ﴾؛ أي: كثير الكفران لنعم الله تعالى، وإنما[1] يطلق هذا اللفظ على من صار الكفر عادةً ديدناً له، كما يقال: ظلوم، لمن كان الظلم عادةً له.

وختم هذه الآية بصيغتي مبالغة اللتين هما[2]: ﴿خَتَّارٍ﴾ و﴿كَفُورٍ﴾ ليكونا في مقابلة ما ختم به الآية التي قبلها، وهما: ﴿صَبَّارٍ﴾ و﴿شَكُورٍ﴾ فتوازنت الكلمات الأربع لفظاً ومعنىً، أما توازنها لفظاً فظاهر، وأما معنىً، فالختار: هو الغدار، والغدر لا يكون إلا من قلة الصبر، فإن الصبار يفوض أمره إلى الله تعالى وأما الغدار: فيعهد ويغدر فلا يصبر على العهد،وأما الكفور: فمقابلته معنىً للشكور واضحةٌ.

ومعنى الآية[3]: أي وإذا أحاطت بهؤلاء المشركين الذين يدعون من دون الله تعالى الآلهة والأصنام الأمواج العالية كالجبال، وأحدق بهم الخطر من كل

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط بتصرف.
(٣) المراغي.

جانب، حين يركبون السفن.. فزعوا بالدعاء إلى الله تعالى، مخلصين له الطاعة، لا يشركون به شيئاً، ولا يدعون معه أحداً سواه، ولا يستغيثون بغيره، فلما نجوا من الأهوال التي كانوا فيها، وخلصوا إلى البر.. فمنهم متوسط في أقواله وأفعاله بين الخوف والرجاء، موفٍ بما عاهد عليه الله في البحر، ومنهم من غدر ونقض عهد الفطرة، وكفر بأنعم الله عليه.

ولما ذكر[1] الله تعالى الدلائل على الوحدانية والحشر من أول السورة إلى هنا.. أمر بالتقوى على سبيل الموعظة، والتذكير بهذا اليوم العظيم، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ نداء[2] عام لكافة المكلفين، وأصله لكفار مكة ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾ الذي رباكم بنعمه في جميع أطواركم، بقبول التوحيد، وامتثال المأمورات، والتبري من الكفر، واجتناب المنهيات؛ أي: اجعلوا التقوى وقايةً وستراً لكم من عذاب ربكم.

قال بعضهم: مرةً يخوفهم بأفعاله فيقول: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً﴾ ومرةً بصفاته فيقول: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾ ومرةً بذاته فيقول: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾، ﴿وَٱخْشَوْاْ﴾ الخشية: خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى به ﴿يَوْمًا﴾، قال في «التيسير»: يجوز أن يكون على ظاهره، لأن يوم القيامة مخوف، وأن يكون على تقدير مضاف؛ أي: وخافوا عذاب يوم ﴿لَّا يَجْزِى﴾؛ أي: لا يدفع فيه، ﴿وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ شيئاً من العذاب، أو لا يقضي عنه شيئاً من الحقوق، أو لا يحمل والد عن ولده شيئاً من سيئاته، ولا يعطيه شيئاً من طاعته، يقال: جزاه دينه، إذا قضاه عنه.

والمعنى: أي لا يغني الوالد عن ولده شيئاً، ولا ينفعه بوجه من وجوه النفع لاشتغاله بنفسه.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿لَّا يَجْزِى﴾ بفتح الياء مضارع جزي الثلاثي، وقرأ

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

(٣) البحر المحيط.

عكرمة: بضم الياء وفتح الزاي مبنياً للمفعول، وأبو السماك وعامر بن عبد الله وأبو السوار: ﴿لا يجزىء﴾ بضم الياء وكسر الزاي مهموزاً، ومعناه: لا يغني، يقال أجزأت عنه جزاء فلان؛ أي: أغنيت.

والولد[١] ولو كان يقع على القريب والبعيد؛ أي: ولد الولد، لكن الإضافة تشير إلى الصلبي القريب، فإذا لم يدفع عما هو ألصق به.. لم يقدر أن يدفع عن غيره بالطريق الأولى، ففيه قطع لأطماع أهل الغرور، والمفتخرين بالآباء والأجداد، المعتمدين على شفاعتهم من غير أن يكون بينهم جهة جامعة، من الإيمان والعمل الصالح.

﴿وَلَا مَوْلُودٌ﴾ للشخص بلا واسطة، فلا يطلق إلا على ولد الصلب، بخلاف الولد فإنه يطلق على ولد الولد كما في «الكشاف»، ﴿هُوَ جَازٍ﴾؛ أي: دافع أو قاض أو حامل ﴿عَن وَالِدِهِۦ﴾ بلا واسطة ﴿شَيْـًٔا﴾ من العذاب أو من الحقوق أو من الذنوب، وخص الولد والوالد بالذكر تنبيهاً على غيرهما، والمولود: خاص بالصلبي الأقرب كما مر، فإذا لم يقبل شفاعته للأب الأول الذي ولد منه.. لم يقبل لمن فوقه من الأجداد، وتغيير النظم للدلالة على أن المولود أولى بأن لا يجزي، ولقطع طمع من توقع من المؤمنين: أيشفع أباه الكافر في الآخرة، ولذا قالوا: إن هذا الخبر خاص بالكفار، فإن أولاد المؤمنين وآباءهم ينفع بعضهم بعضاً، قال تعالى: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾؛ أي: بشرط الإيمان.

قيل معنى هذا الكلام[٢]: أن الله سبحانه ذكر شخصين في غاية الشفقة والمحبة، وهما الوالد والولد، فنبه بالأعلى على الأدنى، وبالأدنى على الأعلى، فالوالد يجزي عن ولده لكمال شفقته عليه، والولد يجزي عن والده لما له من حق التربية وغيرها، فإذا كان يوم القيامة.. فكل إنسان يقول: نفسي نفسي، ولا يهتم بقريب ولا بعيد، كما قال ابن عباس: كل امرىء تهمه نفسه.

---

(١) روح البيان.

(٢) الخازن.

ومعنى الآية: أي[1] يا أيها المشركون من قريش وغيرهم، اتقوا الله وخافوا أن يحل بكم سخطه، في يوم لا يغني والد عن ولده، ولا مولود هو مغن عن والده شيئاً، لأن الأمور كلها بيد من لا يغالب، ومن لا تنفع عنده الشفاعة، ولا الوسائل التي تنفع في الدنيا، بل لا تجدي عنده إلا وسيلة واحدة، هي العمل الصالح الذي قدمه المرء في حياته الأولى.

ثم أكد ما سلف بقوله: ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى بالحشر والجنة والنار والثواب والعقاب، والوعد: يكون في الخير والشر، بخلاف الوعيد، فإنه في الشر خاصة، كما سيأتي. ﴿حَقٌّ﴾؛ أي: ثابت كائن لا محالة، ولا خلف فيه؛ أي: اعلموا أن مجيء هذا اليوم حق، لأن الله سبحانه قد وعد به، ولا خلف لوعده.

ثم حذرهم من شيئين فقال:

١ - ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ عن الآخرة، والمراد بالحياة الدنيا: زينتها وزخارفها وآمالها؛ أي: إذا عرفتم ما ذكروا وأردتم بيان ما هو النصيحة لكم.. فأقول لكم: لا تخدعنكم زينة هذه الحياة القريبة الزوال ولذاتها عن الحياة الأخروية الأبدية، فتميلوا إليها، وتدعوا الاستعداد لما فيه خلاصكم من عقاب الله في ذلك اليوم، وفي «التأويلات النجمية»: فلا تغرنكم بسلامتكم في الحال، وعن قريبٍ ستندمون في المآل. انتهى.

٢ - ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم﴾؛ أي: لا يخدعنكم ﴿بِٱللَّهِ﴾ بإطماعكم في سعة رحمة الله وعظيم حلمه وعفوه الشيطان ﴿ٱلۡغَرُورُ﴾؛ أي: المبالغ في الغرور والخداع، بأن يرجيكم التوبة والمغفرة، فيجسركم على ارتكاب المعاصي، وينسيكم الرجوع إلى القبور، ويحملكم على الغفلة عن أحوال القيامة وأهوالها، فلا تتخذوا لها زاداً.

قال في «كشف الأسرار»[2]: الغرة بالله: حسن الظن به مع سوء العمل، وفي الخبر: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

هواها وتمنى على الله المغفرة»، ونعم ما قيل:

إِنَّ ٱلسَّفِيْنَةَ لاَ تَجْرِيْ عَلَىٰ ٱلْيَبَسِ

فلا بد من الأعمال الصالحة، فإن بها النجاة، وبها يلتحق الأواخر الأوائل.

ففي الآية حسم لمادة الطمع في الانتفاع بالغير من إهمال الإسلام أو الطاعات، اعتماداً على صلاح الغير، فإن يوم القيامة يوم عظيم، لا ينفع فيه من له اتصال الولادة، فما ظنك بما سواها، ويشتغل كل أحد بنفسه، إلا من رحمة الله تعالى، وعن كعب الأحبار: تقول امرأة من هذه الأمة لولدها يوم القيامة يا ولدي، أما كان لك بطني وعاءً، وحجري وطاءً، وثديي سقاءً، فاحمل عني واحداً فقد أثقلتني ذنوبي، فيقول: هيهات يا أماه، كل نفس بما كسبت رهينة، فإذا حملت عنك فمن يحمل عني.

وقرأ ابن أبي إسحاق وابن أبي عبلة ويعقوب: ﴿فلا تغرنكم﴾ بالنون الخفيفة وقرأ سماك بن حرب وأبو حيوة ﴿الغرور﴾ بالضم، وهو مصدر، والجمهور: بالفتح، صيغة مبالغة، ويمكن حمل قراءة الضم عليه مبالغة في جعل الشيطان نفس المصدر، على حد زيد عدل.

فائدة: قال بعضهم[1]: لا ينبغي للمؤمن أن يتطير ويعد نفسه من الأشقياء، فيتكاسل في العمل، بل ينبغي له أن يحسن الظن بالله تعالى، ويجاهد في طريقه، فإن للاعتقاد تأثيراً بليغاً، وقد وعد الله سبحانه، ووعد الشيطان، ووعد الله تعالى صدق محض، لأنه هو الولي، ووعد الشيطان كذب محض، لأنه هو العدو، فالإصغاء لكلام الولي خير من استماع كلام العدو، فلا تغتر بتغرير الشيطان والنفس، ولا بالحياة الدنيا، فإن دولتها ذاهبة، وزينتها زائلة، وليس لها لأحدٍ وفاء.

---

(١) روح البيان.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يختم لنا على أفضل الأعمال، الذي هو التوحيد، وذكر رب العرش المجيد، ويجعلنا في جنات تجري من تحتها الأنهار، ويشرفنا بجوار المصطفى المختار، مع آله الأخيار، وصحابته الأبرار، عليه وعليهم صلوات الله وسلامه أجمعين.

ثم ذكر سبحانه خمسة أشياء، لا يعلمها إلا هو، فقال:

١ - ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عِندَهُۥ عِلْمُ﴾ وقت قيام ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾؛ أي: لا عند غيره، قال الفراء[١]: إن معنى هذا الكلام النفي؛ أي: ما يعلمه أحد إلا الله عز وجل، والساعة: جزء من أجزاء الجديدين، سميت بها القيامة، لأنها تقوم في آخر ساعة من ساعات الدنيا؛ أي: عنده تعالى علم وقت قيام الساعة، وما يتبعه من الأحوال والأهوال، وهو متفرد بعلمه، فلا يعلمه أحد سواه، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، كما قال: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ فلا يدري أحد من الناس في أي سنة، وفي أي شهر، وفي أي ساعة من ساعات الليل والنهار تقوم القيامة.

٢ - ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ في وقته المقدر له، ومكانه المعين في علمه تعالى، والفلكيون[٢] وإن علموا الخسوف والكسوف ونزول الأمطار بالأدلة، فليس ذلك غيباً، بل بأماراتٍ وأدلةٍ تدخل في مقدور الإنسان، ولا سيما أن بعضها قد يكون أحياناً في مرتبة الظن، لا في مرتبة اليقين.

وهذه الجملة: معطوفة على ما يقتضيه الظرف في قوله: ﴿عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ من الفعل، تقديره: إن الله سبحانه يثبت عنده علم الساعة، وينزل الغيث، كما في «المدارك»، وهذا من[٣] حيث ظاهر التركيب، وأما من حيث المعنى فهو معطوف على ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾ فيكون العلم مسلطاً عليه؛ أي: وعنده علم وقت نزول الغيث، وسمي المطر غيثاً، لأنه غياث الخلق، به رزقهم، وعليه بقاؤهم فالغيث مخصوص بالمطر النافع.

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

(٣) الفتوحات.

والمعنى(١): أي وينزل الغيث في زمانه الذي قدره من غير تقديم ولا تأخير إلى محله الذي عينه في علمه، من غير خطأ، ولا تبديل، فهو منفرد بعلم زمانه ومكانه وعدد قطراته، روي مرفوعاً: «ما من ساعة من ليل، ولا نهار، إلا السماء تمطر فيها، يصرفه الله حيث يشاء»، وفي الحديث: «ما سنة بأمطر من أخرى، ولكن إذا عمل قوم بالمعاصي.. حول الله ذلك إلى غيرهم، فإذا عصوا جميعاً.. صرف الله ذلك إلى الفيافي والبحار». فمن أراد استجلاب الرحمة.. فعليه بالتوبة والندامة والتضرع إلى قاضي الحاجات بأخلص المناجاة.

قرأ الجمهور: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ مشدداً، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي: مخففاً.

٣ - ﴿وَيَعْلَمُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾؛ أي: ما في أرحام النساء من الجنين؛ أي: يعلم ذاته، أذكر أم أنثى، حي أم ميت، وصفاته، أتام الخلق أن ناقصة، حسن أم قبيح، أحمر أم أسود، سعيد أم شقي؛ أي: يعلم أوصافه في حالة كونه نطفةً قبل تمام خلقه، وما يعرفه الناس الآن بالعلم الحديث، فبعد تمام خلقه، والأرحام: جمع رحم: بيت منبت الولد ووعاؤه.

٤ - ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ﴾ من النفوس وما تعرف ﴿ماذا﴾؛ أي: أيّ شيء ﴿تَكْسِبُ﴾ وتفعل ﴿غَدًا﴾؛ أي: يوماً تالياً ليومها الذي هي فيها؛ أي: لا يعرف(٢) أحد من الناس ماذا يفعل غداً، وماذا يحصل له فيه من خير أو شر، ووفاق وشقاق، وربما يعزم على خير فيفعل الشر وبالعكس، وإذا لم يكن للإنسان طريق إلى معرفة ما هو أخص به من كسبه، وإن أعمل حيله، وأنفذ فيها وسعه.. كان من معرفة ما عداه، مما لم ينصب له دليل عليه أبعد، وكذا إذا لم يعلم ما في الغد مع قربه فما يكون بعده لا يعلمه بطريق الأولى.

والمعنى: أي وما تدري نفس من النفوس كائنةً ما كانت، من غير فرق بين الملائكة والأنبياء والجن والإنس، ماذا تكسب غداً من كسب دين أو كسب دنيا.

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.

٥ - ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ﴾ من النفوس وإن أعملت حيلها ﴿بِأَيِّ أَرْضٍ﴾ ومكان ﴿تَمُوتُ﴾؛ أي: لا تدري أين مضجعها من الأرض، أفي بحر أم في بر أم في سهل أم في جبل، كما لا تدري في أي وقت تموت، وإن كانت تدري أنها تموت في الأرض في وقت من الأوقات، وربما أقامت بمكان ناوية أن لا تفارقه إلى أن تدفن به، ثم تدفن في مكان لم يخطر لها ببال قط، ومن ادعى أنه يعلم شيئاً من هذه الخمس فقد كفر بالقرآن، لأنه خالفه.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿بِأَيِّ أَرْضٍ﴾، وقرأ أبي بن كعب وموسى الأهوازي وابن أبي عبلة: ﴿بأية أرض﴾ بتاء التأنيث لإضافتها إلى المؤنث، وجوز الفراء ذلك، وهي لغة ضعيفة قليلة.

فإن قلت[2]: لم قال تعالى: ﴿بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ ولم يقل: بأي وقت تموت، مع أن كلاً منهما غير معلوم لغيره تعالى، بل نفي العلم بالزمان أولى، لأن من الناس من يدعي علمه بخلاف المكان؟

قلت: إنما خص المكان بنفي علمه، لأن الكون في مكان دون مكان في وسع الإنسان واختياره، فاعتقاده علم مكان موته أقرب، بخلاف الزمان، ولأن للمكان دون الزمان تأثيراً في جلب الصحة والسقم، أو تأثيره فيهما أكثر.

تنبيه[3]: أضاف في الآية العلم إلى نفسه في الثلاثة الأولى من الخمسة المذكورة، ونفى العلم عن العباد في الأخيرتين منها، مع أن الخمسة سواء في اختصاص الله تعالى بعلمها، وانتفاء علم العباد بها، لأن الثلاثة الأولى أمرها أعظم وأفخم، فخصت بالإضافة إليه تعالى، والأخيرتان من صفات العباد، فخصتا بالإضافة إليهم، مع أنه إذا انتفى عنهم علمهما.. كان انتفاء علم ما عداهما من الخمسة أولى. ا هـ. «كرخي».

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال خرج علينا رسول الله - ﷺ - يطوف

---

(١) البحر المحيط.
(٢) فتح الرحمٰن.
(٣) الفتوحات.

ببعض نواحي المدينة، فإذا بقبر يحفر فأقبل حتى وقف عليه، فقال: «لمن هذا»: قيل لرجل من الحبشة، فقال: «لا إله إلا الله، سيق من أرضه وسمائه، حتى دفن في الأرض التي خلق منها، تقول الأرض يوم القيامة: يا رب هذا ما استودعتني» وأنشدوا:

إِذَا مَا حَمَامُ ٱلْمَرْءِ كَانَ بِبَلْدَةٍ دَعَتْهُ إِلَيْهَا حَاجَةٌ فَيَطِيْرُ

وفي قوله: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ تنبيه العبد على التيقظ للموت، والاستعداد له بحسن الطاعة، والخروج عن المظلمة، وقضاء الدين، وإثبات الوصية بماله وما عليه في الحضر، فضلاً عن أوان الخروج عن وطنه إلى سفر، فإنه لا يدري أين كتبت منيته من بقاع الأرض، وأنشد بعضهم:

مَشَيْنَا فِيْ خُطَىً كُتِبَتْ عَلَيْنَا وَمَنْ كُتِبَتْ عَلَيْهِ خُطَىً مَشَاهَا

وَأَرْزَاقٌ لَنَا مُتَفَرِّقَاتٌ فَمَنْ لَمْ تَأْتِهِ مِنَّا أَتَاهَا

وَمَنْ كُتِبَتْ مَنِيَّتُهُ بِأَرْضٍ فَلَيْسَ يَمُوْتُ فِيْ أَرْضٍ سِوَاهَا

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلِيمٌ﴾ يعلم الأشياء كلها، هذه الخمسة وغيرها، ﴿خَبِيرٌۢ﴾ يعلم بواطنها كما يعلم ظواهرها.

فإن قلت: لم عد هذه الخمسة المذكورة في الآية فقط، مع أن كل المغيبات لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى؟

قلت: خصها لما أن السؤال عنها ورد كما سبق في سبب النزول، وكان أهل الجاهلية يسألون المنجمين عن هذه الخمسة، زاعمين أنهم يعرفونها، وتصديق الكاهن فيما يخبره من الغيب كفر، لقوله ـ ﷺ ـ: «من أتى كاهناً فصدقه فيما يقول.. فقد كفر بما أنزل الله على محمد». والكاهن: هو الذي يخبر عن الكوائن في مستقبل الزمان، ويدعي معرفة الأسرار، وكان في العرب كهنة يدعون معرفة الأمور، فمنهم من يزعم أن له رئياً من الجن يلقى إليه الأخبار.

وفي الحديث: «من سأل عرافاً.. لم تقبل له صلاة أربعين ليلة». والعراف: من يخبر عن المسروق ومكان الضالة، والمراد: من سأله على وجه

التصديق لخبره، وتعظيم المسؤول، يعني إذا اعتقد أنه ملهم من الله، أو أن الجن يلقون إليه مما يسمعون من الملائكة.. فصدقه فهو حرام، وإذا اعتقد أنه عالم بالغيب.. فهو كفر، كما في حديث الكاهن، وأما إذا سأل ليمتحن حاله، ويخبر باطن أمره، وعنده ما يميز به صدقه من كذبه.. فهو جائز، فعلم أن الغيب مختص بالله تعالى، لا يعلمه أحد من المخلوقات، إلا أن علم بعضهم بعضه باطلاع الله تعالى، إياه عليه، كالأنبياء.

الإعراب

﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَمَن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة أو استئنافية. ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر: جملة الشرط أو الجواب أو هما، ﴿يُسْلِمْ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر مجزوم بـ﴿من﴾ على كونه فعل شرط لها ﴿وَجْهَهُۥٓ﴾: مفعول به، ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿يُسْلِمْ﴾، و﴿يُسْلِمْ﴾ يتعدى باللام، ولكنه عدي هنا بإلى ليكون معناه أنه سلم نفسه إليه، كما يسلم المتاع إلى الرجل إذا دفع إليه. والمراد به: التوكل والتفويض إليه، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾: مبتدأ وخبر، و﴿الواو﴾ فيه: حالية، والجملة: في محل النصب حال من فاعل ﴿يُسْلِمْ﴾. ﴿فَقَدِ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب وجوباً لاقترانه بـ﴿قد﴾، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿ٱسْتَمْسَكَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونه جواباً لها، ﴿بِٱلْعُرْوَةِ﴾: متعلق بـ﴿ٱسْتَمْسَكَ﴾، ﴿ٱلْوُثْقَىٰ﴾ صفة لـ﴿العروة﴾، وجملة ﴿من﴾ الشرطية: معطوفة على جملة: ﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ أو مستأنفة، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية أو اعتراضية، ﴿إلى الله﴾: خبر مقدم، ﴿عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة: مستأنفة، أو معترضة.

﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَمَن كَفَرَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَن﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر: جملة الشرط، أو الجواب، ﴿كَفَرَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونه فعل شرط لها، ﴿فَلَا﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب، ﴿لا﴾: ناهية جازمة، ﴿يَحْزُنكَ﴾: فعل ومفعول مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، ﴿كُفْرُهُۥٓ﴾: فاعل، والجملة: في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿من﴾ الشرطية: معطوفة على سابقتها. ﴿إِلَيْنَا﴾: خبر مقدم، ﴿مَرْجِعُهُمْ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها، ﴿فَنُنَبِّئُهُم﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿ننبئهم﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به، ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق به، والجملة الفعلية: معطوفة على الجملة الاسمية قبلها، كأنه قيل: إلينا يرجعون فننبئهم بما عملوا، ﴿عَمِلُوٓا۟﴾: فعل وفاعل صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد: محذوف، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ ناصب واسمه، ﴿عَلِيمٌۢ﴾: خبره، ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾: متعلق بـ﴿عَلِيمٌۢ﴾. وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿نُمَتِّعُهُمْ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة: مستأنفة، ﴿قَلِيلًا﴾: صفة لمصدر محذوف؛ أي: تمتيعاً قليلاً، أو لزمان محذوف؛ أي: زماناً قليلاً، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ، ﴿نَضْطَرُّهُمْ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به معطوف على ﴿نُمَتِّعُهُمْ﴾، ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ﴾: متعلق بـ﴿نَضْطَرُّهُمْ﴾، ﴿غَلِيظٍ﴾: صفة ﴿عَذَابٍ﴾. ﴿وَلَئِن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿إن﴾: حرف شرط جازم، ﴿سَأَلْتَهُم﴾: فعل ماض وفاعل ومفعول أول في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية، على كونه فعل شرط لها، ﴿مَّنْ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ثان لـ﴿سأل﴾، ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، والجملة الفعلية صلة لـ﴿مَّنْ﴾ الموصولة. ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ ﴿اللام﴾: واقعة في جواب القسم، مؤكدة للأولى،

﴿يقولن﴾: فعل مضارع مرفوع لتجرده عن الناصب والجازم، وعلامة رفعه ثبات النون المحذوفة لتوالي الأمثال، لأن أصله ليقولونن، والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين: في محل الرفع فاعل، والنون المشددة: نون التوكيد الثقيلة، حرف لا محل لها من الإعراب، ﴿ٱللَّهُ﴾: خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هو الله، أو مبتدأ، خبره، محذوف؛ أي: الله خالقها، والجملة الاسمية: في محل النصب مقول ﴿لَيَقُولُنَّ﴾، وجملة ﴿يقولن﴾: جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مع جوابه: مستأنفة، وجواب ﴿إن﴾ الشرطية: محذوف دل عليه جواب القسم، تقديره: وإن سألتهم من خلق السماوات والأرض؟ يقولون: الله، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية: معترضة لا محل لها من الإعراب لاعتراضها بين القسم وجوابه. ﴿قُلِ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر، والجملة: مستأنفة، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة: مقول لـ﴿قُلِ﴾، ﴿بَلْ﴾: حرف للإضراب الانتقالي، ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾: خبره، والجملة الإضرابية: مستأنفة.

﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿لِلَّهِ﴾: خبر مقدم، ﴿مَا﴾: اسم موصول مبتدأ مؤخر، والجملة: مستأنفة، ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة، ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل، ﴿ٱلْغَنِيُّ﴾: خبره الأول، ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾: خبر ثان له، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة مسوقة لتقرير ما قبلها. ﴿وَلَوْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لو﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿أَنَّمَا﴾ ﴿أن﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿ما﴾: اسم موصول في محل النصب اسم ﴿أن﴾، ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾: صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، ﴿مِن شَجَرَةٍ﴾: حال من ﴿ما﴾، أو من ضمير الاستقرار، ﴿أَقْلَٰمٌ﴾: خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾: من اسمها وخبرها في تأويل مصدر فاعل لفعل محذوف وقع فعل شرط لـ﴿لو﴾ تقديره: ولو ثبت كون ما في

الأرض من شجرة أقلاماً، ﴿وَٱلْبَحْرُ﴾: ﴿الواو﴾: حالية، ﴿البحر﴾: مبتدأ، ﴿يَمُدُّهُۥ﴾: فعل ومفعول به، ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾: جار ومجرور حال من ﴿سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾، لأنه صفة نكرة قدمت عليها، ﴿سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾: فاعل لـ﴿يَمُدُّهُۥ﴾، والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: في محل النصب حال من ﴿ما﴾ الموصولة في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾. والرابط: ﴿الواو﴾: أو ضمير محذوف، تقديره: والحال أن بحرها؛ أي: بحر الأرض يمده سبعة أبحر من بعده. ﴿مَّا﴾: نافية، ﴿نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾: فعل وفاعل، والجملة: جواب ﴿لو﴾ الشرطية، وجملة ﴿لو﴾: مستأنفة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، ﴿عَزِيزٌ﴾: خبره الأول، ﴿حَكِيمٌ﴾: خبره الثاني، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾.

﴿مَّا﴾: نافية، ﴿خَلْقُكُمْ﴾: مبتدأ، ﴿وَلَا بَعْثُكُمْ﴾: معطوف على ﴿خَلْقُكُمْ﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة الاستثناء مفرغ، ﴿كَنَفْسٍ﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ، ﴿وَٰحِدَةٍ﴾: صفة ﴿نفس﴾، والجملة الاسمية: مسأنفة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، ﴿سَمِيعٌۢ﴾: خبره الأول، ﴿بَصِيرٌ﴾: خبره الثاني، وجملة ﴿إن﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿أَلَمْ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التقريري، ﴿لم﴾: حرف جزم، ﴿تَرَ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر مجزوم بـ﴿لم﴾، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به ﴿فِى ٱلنَّهَارِ﴾ متعلق بـ﴿يُولِجُ﴾. والجملة الفلية في محل الرفع خبر ﴿أن﴾ وجملة ﴿أنّ﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ﴿تر﴾. وجملة قوله: ﴿وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾: في محل الرفع معطوفة على جملة قوله: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ﴾.

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

﴿وَسَخَّرَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿سخر﴾: فعل ماض وفاعل مستتر، ﴿ٱلشَّمۡسَ﴾ مفعول به ﴿وَٱلۡقَمَرَ﴾ معطوف على ﴿ٱلشَّمۡسَ﴾. والجملة الفعلية في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿يُولِجُ﴾ على كونها خبر لـ﴿أن﴾، وسيأتي لك بيان حكمة المخالفة بين صيغتي المتعاطفين في مبحث البلاغة. ﴿كُلٌّ﴾: مبتدأ، وجملة: ﴿يَجۡرِيٓ﴾: في محل الرفع خبر المبتدأ، ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾ متعلق بـ﴿يَجۡرِيٓ﴾، ﴿مُّسَمًّى﴾: صفة لـ﴿أجل﴾. والجملة الاسمية: في محل النصب حال من ﴿ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿أن الله﴾: ناصب واسمه، ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾: متعلق بـ﴿خَبِيرٌ﴾. وجملة ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة ﴿خَبِيرٌ﴾: خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾: معطوفة على جملة قوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ، ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾: جار ومجرور وخبره، والجملة الاسمية: مستأنفة، ﴿أن﴾: حرف نصب، ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها، ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل، ﴿ٱلۡحَقُّ﴾: خبرها. وجملة ﴿أن﴾: في تأويل مصدر مجرور بالباء، تقديره: ذلك كائن بسبب كون الله تعالى هو الحق، ﴿وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿أن﴾: حرف نصب، ﴿ما﴾: اسم موصول في محل النصب اسمها، وجملة ﴿يَدۡعُونَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد: محذوف، تقديره: وأن ما يدعونه، ﴿مِن دُونِهِ﴾: جار ومجرور حال من ﴿ما﴾ الموصولة، أو من العائد المحذوف، ﴿ٱلۡبَٰطِلُ﴾: خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾: في محل الجر معطوفة على جملة ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾، وجملة ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾: معطوفة عليها أيضاً.

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنۡ ءَايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴿٣١﴾﴾.

﴿أَلَمۡ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التقريري، ﴿لم﴾: حرف جزم، ﴿تَرَ﴾:

فعل مضارع وفاعل مستتر مجزوم بـ﴿لم﴾، وعلامة جزمه حذف حرف العلة، والجملة الفعلية: مستأنفة، ﴿أَنَّ ٱلْفُلْكَ﴾: ناصب واسمه، ﴿تَجْرِى﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلْفُلْكَ﴾، ﴿فِى ٱلْبَحْرِ﴾: متعلق بـ﴿تَجْرِى﴾، ﴿بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿تَجْرِى﴾؛ أي: حالة كونها مصحوبة بنعمة الله أو متعلق بـ﴿تَجْرِى﴾ أيضاً؛ أي: بسبب الريح التي هي النعمة، وجملة ﴿تَجْرِى﴾ في محل الرفع خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾: في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ﴿تَرَ﴾. ﴿لِيُرِيَكُم﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿يريكم﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله ومفعول أول، لأن رأى هنا بصرية تعدت إلى المفعولين بهمزة النقل، منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، ﴿مِّنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ﴾: جار ومجرور في محل المفعول الثاني ﴿لِيُرِيَكُم﴾، والجملة الفعلية: في تأويل مصدر مجرور باللام؛ أي: لاراءَته إياكم بعض آياته، والجار والمجرور متعلق بـ﴿تَجْرِى﴾، ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، ﴿فِى ذَٰلِكَ﴾: خبر مقدم لـ﴿إن﴾، ﴿لَءَايَـٰتٍ﴾: اسمها مؤخر، و﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿لِّكُلِّ﴾: جار ومجرور صفة ﴿لَءَايَـٰتٍ﴾، ﴿صَبَّارٍ﴾: مضاف إليه ﴿لِّكُلِّ﴾، ﴿شَكُورٍ﴾: صفة لـ﴿صَبَّارٍ﴾، وجملة ﴿إن﴾: مستأنفة مسوقة لتقرير ما قبلها.

﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾.

﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة أو استئنافية، ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿غَشِيَهُم مَّوْجٌ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة: في محل الخفض مضاف إليه لـ﴿إذا﴾ على كونها فعل شرط لها، والظرف: متعلق بالجواب الآتي، وجملة ﴿إذا﴾: معطوفة على جملة قوله: ﴿أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ﴾ أو مستأنفة، ﴿كَٱلظُّلَلِ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿مَّوْجٌ﴾. ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة: جواب ﴿إذا﴾: لا محل لها من الإعراب، ﴿مُخْلِصِينَ﴾: حال من الواو في ﴿دَعَوُا۟﴾، ﴿لَهُ﴾: متعلق بـ﴿مُخْلِصِينَ﴾، ﴿ٱلدِّينَ﴾: مفعول ﴿مُخْلِصِينَ﴾، لأنه اسم فاعل يعمل عمل الفعل الصحيح. ﴿فَلَمَّا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿لما﴾: اسم

شرط غير جازم في محل نصب على الظرفية الزمانية متعلق بجوابه، ﴿نَجَّىٰهُمْ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله ومفعول به، ﴿إِلَى ٱلْبَرِّ﴾: متعلق بـ﴿نَجَّىٰهُمْ﴾، والجملة الفعلية: فعل شرط لـ﴿لما﴾ في محل جر بالإضافة، وجواب ﴿لما﴾: محذوف، تقديره: صاروا قسمين، وجملة ﴿لما﴾ معطوفة على جملة ﴿إذا﴾، ﴿فَمِنْهُم﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة تفصيلية، ﴿منهم﴾ خبر مقدم، ﴿مُّقْتَصِدٌ﴾: مبتدأ مؤخر؛ أي: فقسم مقتصد كائن منهم، والجملة الاسمية: معطوفة على جواب ﴿لما﴾ المحذوف على كونها تفصيلاً له، ومقابل قوله: ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾: محذوف دل عليه ما بعده، تقديره: ومنهم جاحد كافر. ﴿وَمَا يَجْحَدُ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿ما﴾: نافية، ﴿يَجْحَدُ﴾: فعل مضارع، ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿يَجْحَدُ﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿كُلُّ خَتَّارٍ﴾: فاعل ﴿يَجْحَدُ﴾، ﴿كَفُورٍ﴾: صفة ﴿خَتَّارٍ﴾، والجملة الفعلية: مستأنفة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة، و﴿الهاء﴾: حرف تنبيه زائد تعويضاً عما فات؛ أي: من الإضافة، ﴿ٱلنَّاسُ﴾: بدل لـ﴿أي﴾، وجملة النداء: مستأنفة، ﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة الفعلية: جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿ٱتَّقُوا۟﴾، ﴿لَّا﴾: نافية، ﴿يَجْزِى وَالِدٌ﴾: فعل وفاعل ﴿عَن وَلَدِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿يَجْزِى﴾، والجملة الفعلية: في محل النصب صفة لـ﴿يَوْمًا﴾، والرابط: محذوف، تقديره: لا يجزي فيه، ﴿وَلَا مَوْلُودٌ﴾: مبتدأ أول، ﴿هُوَ﴾: مبتدأ ثان، ﴿جَازٍ﴾: خبر للمبتدأ الثاني، مرفوع بضمة مقدرة على الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين، لأن أصله: جازي، فأعمل به إعمال قاضٍ، وجملة المبتدأ الثاني: خبر للمبتدأ الأول، أعني: مولود، وجوز الابتداء به مع كونه نكرةً وقوعه في سياق النفي، وجملة المبتدأ الأول: في محل النصب معطوفة على جملة ﴿لَّا

﴿يَجْزِى وَالِدٌ﴾ على كونها صفة لـ﴿يَوْمًا﴾؛ أي: واتقوا يوماً لا مولود هو جاز عن والده شيئاً، والرابط: محذوف أيضاً، تقديره: هو جاز فيه ﴿عَن وَالِدِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿جَازٍ﴾. ﴿شَيْئًا﴾: مفعول ﴿جَازٍ﴾ أو ﴿يَجْزِى﴾، فالمسألة من باب التنازع. وفي «السمين»: قوله: ﴿وَلَا مَوْلُودٌ﴾: جوزوا فيه وجهين:

أحدهما: أنه مبتدأ، وما بعده الخبر.

والثاني: أنه معطوف على ﴿وَالِدٌ﴾، وتكون الجملة صفة له. انتهى.

﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾: ناصب واسمه ومضاف إليه، ﴿حَقٌّ﴾: خبره، وجملة ﴿إن﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ﴾. ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم ما ذكرته لكم من المواعظ، وأردتم بيان ما هو النصيحة لكم.. فأقول لكم: لا تغرنكم، ﴿لا﴾: ناهية جازمة، ﴿تغرن﴾: في محل الجزم بـ﴿لا﴾ الناهية، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، و﴿الكاف﴾: مفعول به ﴿ٱلْحَيَوٰةُ﴾: فاعل ﴿ٱلدُّنْيَا﴾: صفة لـ﴿ٱلْحَيَوٰةُ﴾. والجملة الفعلية: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة، مستأنفة. ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم﴾: فعل ومفعول به معطوف على سابقتها، ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق به، ﴿ٱلْغَرُورُ﴾: فاعل.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، ﴿عِندَهُۥ﴾: خبر مقدم، ﴿عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية: في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾: مستأنفة، ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول به، والجملة الفعلية: في محل الرفع معطوفة على الجملة الاسمية قبلها، على كونها خبراً

لـ﴿أن﴾ فهو بمثابة خبر ثان لـ﴿إن﴾. ﴿وَيَعۡلَمُ مَا﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به معطوف أيضاً على جملة ﴿عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾، فهو بمثابة خبر ثالث لها، ﴿فِي ٱلۡأَرۡحَامِ﴾: جار ومجرور صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، ﴿وَمَا تَدۡرِي﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ما﴾: نافية، ﴿تَدۡرِي نَفۡسٌ﴾: فعل وفاعل والجملة الفعلية: معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾. ﴿مَاذَا﴾: اسم استفهام مركب في محل النصب مفعول مقدم لـ﴿تَكۡسِبُ﴾، ويجوز أن تكون ﴿ما﴾ مبتدأ و﴿ذا﴾: اسم موصول خبر لـ﴿ما﴾، وجملة ﴿تَكۡسِبُ﴾: صلة لـ﴿ذا﴾ الموصولة، والجملة الاسمية سادة مسدّ مفعولي ﴿تَدۡرِي﴾. ﴿تَكۡسِبُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿نَفۡسٌ﴾، ﴿غَدٗا﴾: ظرف زمان منصوب متعلق بـ﴿تَكۡسِبُ﴾، وجملة ﴿تَكۡسِبُ﴾ في محل النصب ساد مسد مفعولي ﴿تَدۡرِي﴾ المعلقة بالاستفهام. ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٌ﴾: فعل وفاعل معطوفة على سابقتها، ﴿بِأَيِّ أَرۡضٖ﴾: متعلق بـ﴿تَمُوتُ﴾، وهو معلق للدراية عن العمل فيما بعده، ﴿تَمُوتُ﴾: فعل وفاعل مستتر، والجملة: في محل النصب ساد مسد مفعولي ﴿تَدۡرِي﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿عَلِيمٌ﴾: خبر أول له. ﴿خَبِيرُۢ﴾: خبر ثان له، والجملة: مستأنفة مقررة لما قبلها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ﴾؛ أي: يفوض أمره، إلى الله، مأخوذ من أسلمت المتاع إلى الزبون. اهـ.«بيضاوي»، والزبون بفتح الزاي: المشتري من الزبن، وهو: الدفع. اهـ.«شهاب»، لأنه يدفع غيره عن أخذ المبيع، وأسلم إذا عدي بإلى، يكون بمعنى سلم، وإذا عدي باللام، تضمن معنى الإخلاص، والوجه: بمعنى الذات، والمعنى: أقبل بكليته إلى الله.

﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾؛ أي: مطيع لله في أمره ونهيه.

﴿فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ﴾ قال في المفردات»: إمساك الشيء: التعلق به وحفظه، واستمسكت بالشيء: إذا تحربت بالإمساك، انتهى. والسين والتاء فيه زئداتان.

﴿بِٱلْعُرْوَةِ﴾، والعروة: بضم أوله: ما يعلق به الشيء من عروته بالكسر؛ أي: ناحيته، والمراد: مقبض نحو الدلو والكوز، وفي «القاموس»: العروة من الدلو، والكوز المقبض، ومن الثوب أُخْتُ زِرّهِ كالعشرى، وفي «الأساس» و«اللسان»: وتستعار العروة لما يوثق به ويعول عليه، فيقال للمال النفيس ـ والفرس الكريم: لفلان عروة.

و﴿ٱلْوُثْقَىٰٓ﴾: الموثقة المحكمة، تأنيث الأوثق، كالصغرى تأنيث الأصغر، والشيء الوثيق: ما يأمن صاحبه من السقوط.

والمعنى: فقد تعلق بأوثق ما يتعلق به من الأسباب وأقواه، وأصله: أن من يرقى إلى جبلٍ شاهقٍ، أو يتدلى منه، يستمسك بحبل متينٍ مأمون الانقطاع.

﴿فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ يقال: أحزنه، من المزيد، ويحزنه من الثلاثي، وأما حزن الثلاثي ويحزن المزيد، فليس بشائع في الاستعمال.

﴿قَلِيلًا﴾؛ أي: تمتيناً أو زماناً قليلاً، فهو إما صفة لمصدر أو ظرف محذوف.

﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾: الاضطرار: حمل الإنسان على ما يضره، وهو في التعارف: حمل الإنسان على أمر يكرهه؛ أي: نلجئهم ونردهم في الآخرة قسراً إلى العذاب.

﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾؛ أي: ثقيل، ثقل الأجرام الغلاظ، والغليظ: ضد الرقيق، وأصله: أن يستعمل في الأجسام، لكن قد يستعمل في المعاني، كما في «المفردات».

﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ بضم اللام لإسناده إلى ضمير الجماعة، أصله: يقولونن، بواو الضمير وثلاث نونات، فهو مرفوع بالنون المحذوفة لعدم مباشرته بنون التوكيد، حذفت نون الرفع لتوالي الأمثال، فالتقى ساكنان، ثم حذفت الواو لبقاء دالها وهو ضم اللام، فصار: ﴿يقولن﴾ بضم اللام.

﴿مِن شَجَرَةٍ﴾ الشجر: اسم جنس يفرق بينه وبين مفرده بالتاء، كتمرة وتمر، والشجر ضد النجم، وهو ما له ساق قوي.

﴿أَقْلَٰمٌ﴾: جمع قلم، وأصل القلم، القص من الشيء الصلب كالظفر، وخص ذلك بما يكتب به، وفي «كشف الأسرار»: سمي قلماً لأنه قط رأسه، والإقليم: القطعة من الأرض، وتقليم الأظفار: قطعها، والفرق بين القط والقد: أن القط: القطع عرضاً، والقد: القطع طولاً، والقطع: فصل الجسم بنفوذ جسم آخر فيه.

﴿وَٱلْبَحْرُ﴾؛ أي: المحيط، لأنه المتبادر من التعريف، إذ هو الفرد الكامل. ا هـ. «شهاب». وهو البحر الأعظم، الذي منه مادة جميع البحار المتصلة به، كبحر الغرب والشرق، والمنقطعة عنه.

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ﴾؛ أي: يدخل، والمراد: أنه يضيف الليل إلى النهار والعكس بالعكس، فيتفاوت بذلك حال أحدهما زيادةً ونقصاناً، فالإيلاج: الإدخال، والولوج: الدخول في مضيق.

﴿تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ﴾؛ أي: تسير سيراً سريعاً. قال في «المفردات»: الجري: المر السريع، وأصله لمر الماء ولما يجري بجريه.

﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾؛ أي: مبالغ في الصبر على المشاق.

اعلم: أن الصبر تحمل المشاق بقدر القوة البدنية، وذلك في الفعل كالمشي ورفع الحجر، كما يحصل للجسوم الخشنة، وفي الانفعال كالصبر على المرض، واحتمال الضرب والقطع، وكل ذلك ليس بفضيلة تامة، بل الفضيلة في الصبر عن تناول مشتهى لإصلاح الطبيعة، والصبر على الطاعات لإصلاح النفس، فالصبر كالدواء المر وفيه نفعٌ.

﴿شَكُورٍ﴾؛ أي: مبالغ في الشكر على نعمائه، والشكر: تصور النعمة بالقلب والثناء على المنعم باللسان، والخدمة بالأركان، وجعل الصبر مبدأ، والشكر منتهىً في الآية يدل على كون الشكر أفضل من الصبر.

﴿وَإِذَا غَشِيَهُم﴾ يقال: غشيه: إذا ستره وعلاه وغطاه ﴿مَّوْجٌ﴾ هو ما ارتفع من الماء ﴿كَٱلظُّلَلِ﴾: الظلل: جمع ظلة بضم الظاء، وهو كل ما أظلك من جبل أو سحاب أو شجر أو غيرها، شبه بها الموج في كثرتها وارتفاعها، وجعل الموج وهو واحد، كالظلل، وهو جمع، لأن الموج يأتي منه شيء بعد شيء.

﴿مُّقْتَصِدٌ﴾؛ أي: سالك للقصد؛ أي: للطريق المستقيم، وهو التوحيد لايعدل عنه إلى غيره، أو متوسط في الكفر لانزجاره في الجملة.

﴿خَتَّارٍ﴾: مبالغة من الختر، من بابي ضرب ونصر، والختر: أشد الغدر وأقبحه، قال في «المفردات»: الختر: غدر يختر فيه الإنسان؛ أي: يضعف ويكسر لاجتهاده فيه. ا هـ. ومنه قولهم: إنك لا تمد لنا شبراً من الغدر، إلا مددناك باعاً من ختر. قال الشاعر:

وَإِنَّـــكَ لَـــوْ رَأَيْـــتَ أَبَـــا عُـــمَـــيْـــرٍ ... مَـــلأْتَ يَـــدَيْـــكَ مِـــنْ غَـــدْرٍ وَخَـــتْـــرِ

وقوله: ملأت يديك من غدرٍ وخترٍ، شبه المعقول بالمحسوس على سبيل الاستعارة المكنية وملء اليدين تخييل ﴿لَّا يَجْزِى وَالِدٌ﴾ يقال: جزاه دينه: إذا قضاه، وفي «المفردات»: الجزاء الغناء والكفاية.

﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ والوعد: يكون في الخير والشر، يقال: وعدته بنفع وضر وعداً وميعاداً، والوعيد في الشر خاصةً.

﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ﴾ يقال: غره: إذا خدعه وأطمعه بالباطل فاغتر هو، كما في «القاموس».

﴿ٱلْغَرُورُ﴾ قال في «المفردات»: الغرور كل ما يغر الإنسان من مال وجاه وشهوة وشيطان، وقد فسر بالشيطان، إذ هو أخبث الغاوين.

﴿عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ والساعة في الأصل: جزء من أربعة وعشرين جزءاً من الملوين، وسميت القيامة بلفظ الساعة، لأنها تقوم في آخر جزء من تلك الأجزاء.

﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾؛ أي: المطر، سمي المطر بالغيث، لأن به يغاث الخلق

من الجدب والقحط، وبه رزقهم وبقاؤهم، كما مر، ولا يسمى بالغيث إلا المطر النافع.

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾ جمع رحم، والرحم: بيت منبت الولد ووعاؤه.

﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ﴾ والدراية: المعرفة المدركة بضرب من الحيل، ولذا لا يوصف الله سبحانه بها، ولا يقال: الله الداري.

وأما قول الشاعر:

لَاهُمَّ لَا أَدْرِيْ وَأَنْتَ ٱلدَّارِيْ

فقول عربي جلف جاهل، جاهل بما يطلق على الله من الصفات، وما يجوز منها وما يمتنع، أو بطريق المشاكلة، كما في قوله تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾.

﴿مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ والكسب: ما يتحراه الإنسان مما فيه اجتلاب نفع وتحصيل حظ، مثل كسب المال، وقد يستعمل فيما يظن الإنسان أن يجلب به منفعةً أو يدفع به مضرة، والغد: اليوم يلي يومك الذي أنت فيه، كما أن أمس اليوم الذي قبل يومك بليلة.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ﴾ حيث أطلق الجزء وأراد الكل، لأن الوجه هنا بمعنى الذات، لا خصوص العضو الذي تقع به المواجهة.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ فقد مثلت حال المتوكل المشتغل بالطاعة، بحال من أراد أن يتدلى من جبل شاهق، فاحتاط لنفسه بأن استمسك بأوثق عروة من حبل متين مأمون انقطاعه، وقيل: هو

تشبيه تمثيلي، لذكر طرف التشبيه، فقد شبه من تمسك بالإسلام بمن أراد أن يرقى إلى شاهق جبل، فتمسك بأوثق حبل، وحذف أداة التشبيه للمبالغة.

ومنها: الاستعارة المكنية في قوله: ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ حيث شبه إلزامهم التعذيب، وإرهاقهم باضطرار المضطر إلى الشيء الذي لا يقدر على الانفكاك منه؛ أي: يثقل عليهم ثقل الأجرام الغلاظ.

ومنها: الاستعارة المصرحة في لفظ ﴿غَلِيظٍ﴾ لأن الغليظ ضد الرقيق، فهو حقيقة في الأجسام، فاستعاره للتعذيب الذي هو معنى من المعاني، لأنه بمعنى عذاب شديد، فالشدة معنىً من المعاني، فاستعار لها لفظ الغلظ على طريق الاستعارة التصريحية التبعية، لجرياتها في المشتق بعد جريانها في الجامد.

ومنها: تقديم ما حقه التأخير لغرض الحصر في قوله: ﴿وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾؛ أي: إليه تعالى، لا إلى أحد غيره.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ حيث أطلق المحل الذي هو الصدر، وأراد به الحال الذي هو القلب، لأن المعنى: عليم بخطرات القلوب.

ومنها: الحصر في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ لأن كلمة ﴿هُوَ﴾ هنا للحصر؛ أي: هو الغني وحده، وليس معه غني آخر، كما مرّ.

ومنها: توحيد لفظ ﴿شَجَرَةٍ﴾ لإفادة الاستغراق في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ﴾ فكأنه قال من كل شجرة شجرة حتى لا يبقى من جنس الشجر شجرة واحدة، إلا وقد بريت أقلاماً.

ومنها: جمع الأقلام لقصد التكثير.

ومنها: المخالفة في الصيغة بين ﴿سخر﴾ المعطوف و﴿يُولِجُ﴾ المعطوف عليه في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ﴾ وقوله: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ لاختلاف مفادهما، لأن إيلاج أحد الملوين في الآخر متجدد كل حين، فعبر عنه بالصيغة المتجددة حيناً بعد حين، وأما تسخير النيرين، فهو أمر لا يتجدد ولا

يتعدد، بل هو ديمومة متصلة متتابعة، فعبر عنه بالصيغة الماضية الكائنة.

ومنها: الطباق بين لفظ ﴿ٱلْحَقُّ﴾ - و﴿ٱلْبَٰطِلُ﴾ في قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾.

ومنها: كمال الاعتناء بشأن التوحيد في قوله: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ حيث صرحه مع أن ثبوت حقيقة إلٰهيته تعالى، مستتبع لبطلان إلٰهيةِ ما عداه.

ومنها: صيغ المبالغة في قوله: ﴿صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ وقوله: ﴿خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾.

ومنها: الحذف والزيادة في عدة مواضع.

فائدة: فإن قيل: إذا أمكن العلم بالغيب لخلص عباده تعالى بتعليمه إياهم، فلم لم يعلم الله سبحانه نبيه - ﷺ - الغيوب المذكورة في الآية؟

فالجواب: أن الله تعالى إنما لم يعلمه ذلك، إشعاراً بأن المهم للعبد أن يشتغل بالطاعة ويستعد لسعادة الآخرة، ولا يسأل عما لا يهم، ولا يشتغل بما لا يعنيه، فافهم جدّاً، واعمل لتكون عاقبتك خيراً، انتهى من «روح البيان».

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

مجمل ما احتوته هذه السورة الكريمة من الموضوعات

١ ـ القرآن هداية، ورحمة للمؤمنين.

٢ ـ قصص من ضل عن سبيل الله بغير علم، واتخذ آيات الله هزواً.

٣ ـ وصف العالم العلوي والعالم السفلي، وما فيهما من العجائب الدالة على وحدانية الله تعالى.

٤ ـ قصص لقمان وإيتاؤه الحكمة، وشكره لربه على ذلك، ثم نصائحه لابنه.

٥ ـ الأمر بطاعة الوالدين، إلا فيما لا يرضي الخالق.

٦ ـ النعي على المشركين في ركونهم إلى التقليد، إذا دعوا إلى النظر في الكون، وعبادة الخالق له.

٧ ـ لا نجاة للإنسان إلا بالإخبات إلى الله سبحانه.

٨ ـ تسلية الرسول على عدم إيمان المشركين.

٩ ـ تعجيب رسوله من المشركين، بأنهم يقرون بأن الله هو الخالق لكل شيء، ثم هم يعبدون معه غيره، ممن هو مخلوق مثلهم.

١٠ ـ نعم الله ومخلوقاته لا حصر لها.

١١ ـ الأمر بالنظر إلى الكون وعجائبه، لنسترشد بذلك إلى وحدانية الصانع لها.

١٢ ـ تحميق المشركين بأنهم في الشدائد يدعون الله وحده، وفي الرخاء يشركون معه سواه.

١٣ ـ الأمر بالخوف من عقاب الله، يوم لا يجزي والد عن ولده.

١٤ ـ مفاتيح الغيب الخمسة، التي استأثر الله بعلمها.

١٥ ـ إحاطة علمه تعالى بجميع الكائنات، ظاهرها وباطنها[١].

والله أعلم

* * *

(١) وهذا آخر ما كتبناه على هذه السورة الكريمة، وقد فرغنا من تفسيرها قبيل ظهر يوم الأربعاء المبارك، اليوم الثاني من شهر شوال، من شهور سنة ٢/ ١٠/ ١٤١٣ هـ. ألف وأربع مئة وثلاث عشرة سنة، من الهجرة النبوية، عليه أفضل الصلوات، وأزكى التحية.

سورة السجدة

سورة السجدة وتسمى سورة المضاجع، مكية كلها كما رواه ابن الضريس وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس، ورواه ابن مردويه عن ابن الزبير، وأخرج ابن النجار عن ابن عباس قال: هي مكية، سوى ثلاث آيات.

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا﴾ إلى تمام الآيات الثلاث، فمدنية، وكذا قال الكلبي ومقاتل، وقيل: إلا خمس آيات من قوله.

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾.

وآياتها: ثلاثون آية، وقيل: تسع وعشرون[1] بناء على الاختلاف في أنّ آخر الآية: ﴿لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾ أو هو ﴿كَٰفِرُونَ﴾ فعلى الأول تكون ثلاثين آية، وعلى الثاني تكون تسعاً وعشرين. ا هـ.«شيخنا». وكلماتها: ثلاث مئة وثمانون كلمة. وحروفها: ألف وخمس مئة وثمانية عشر حرفاً، نزلت بعد سورة المؤمنون.

تسميتها: سميت بسورة السجدة لاشتمالها على آية السجدة.

المناسبة: مناسبتها لما قبلها: أن الله[2] سبحانه وتعالى لما ذكر فيما قبلها دلائل التوحيد، من بدء الخلق، وهو الأصل الأول، ثم ذكر المعاد والحشر، وهو الأصل الثاني، وختم به السورة.. ذكر في بدء هذه السورة الأصل الثالث، وهو تبيين الرسالة.

وعبارة المراغي هنا: ووجه اتصالها بما قبلها من وجوه[3]:

---

(١) الفتوحات.

(٢) البحر المحيط.

(٣) المراغي.

١ ـ اشتمال كل منهما على دلائل الألوهية.

٢ ـ أنه ذكر في السورة السالفة دلائل التوحيد، وهو الأصل الأول، ثم ذكر المعاد، وهو الأصل الثاني، وهنا ذكر الأصل الثالث وهو النبوة.

٣ ـ أن هذه السورة شرحت مفاتيح الغيب، التي ذكرت في خاتمة ما قبلها، فقوله:

﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ شرح لقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾. وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ شرح لقوله: ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ وقوله: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ تفصيل لقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ وقوله: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ إيضاح لقوله: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ وقوله: ﴿أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ إلخ شرح لقوله: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾.

الناسخ والمنسوخ منها: قال ابن حزم: سورة السجدة جميع[1] آياتها محكمة غير آخرها، وهو قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (٣٠) الآية. نسخت بآية السيف.

فضلها: ومن فضائلها ما أخرجه[2] مسلم وأصحاب «السنن» من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ـ ﷺ ـ كان يقرأ في صلاة الفجر يوم الجمعة بـ﴿الم ﴿١﴾ تَنزِيلُ﴾ السجدة ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ﴾. وأخرجه البخاري وغيره أيضاً من حديثه، وأخرج أبو عبيد في فضائله، وأحمد وعبد بن حميد والدارمي والترمذي والنسائي والحاكم، وصححه، وابن مردويه عن جابر قال: كان النبي ـ ﷺ ـ لا ينام حتى يقرأ: ﴿الم ﴿١﴾ تَنزِيلُ﴾ السجدة، و﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾.

وأخرج أبو نصر والطبراني والبيهقي في «سننه» عن ابن عباس يرفعه إلى رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «من صلى أربع ركعات خلف العشاء الأخيرة، قرأ في

(١) ابن حزم.
(٢) الشوكاني.

الركعتين الأوليين: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١﴾ - و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ وفي الركعتين الأخيريين: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ - و﴿الم ۝١ تَنزِيلُ﴾ السجدة.. كتبن له كأربع ركعات من ليلة القدر».

وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر قال: قال رسول الله - ﷺ -: «من قرأ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ - و﴿الم ۝١ تَنزِيلُ﴾ السجدة، بين المغرب والعشاء الآخرة.. فكأنما قام ليلة القدر.

وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت: قال رسول الله - ﷺ -: «من قرأ في ليلة ﴿الم ۝١ تَنزِيلُ﴾ السجدة، ويس و﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ و﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾.. كن له نوراً وحرزاً من الشيطان، ورفع في الدرجات إلى يوم القيامة».

وأخرج ابن الضريس عن المسيب بن رافع: أن النبي - ﷺ - قال: «﴿الم ۝١ تَنزِيلُ﴾ تجيء لها جناحان يوم القيامة، تظل صاحبها وتقول: لا سبيل عليه، لا سبيل عليه».

قال الدارمي[1]: وأخبرنا أبو المغيرة قال: حدثنا عبدة عن خالد بن معدان قال: اقرؤوا المنجية، وهي ﴿الم ۝١ تَنزِيلُ﴾ فإنه بلغني أن رجلاً كان يقرؤها، ما يقرأ شيئاً غيرها، وكان كثير الخطايا، فنشرت جناحها عليه، وقالت: رب اغفر له، فإنه كان يكثر قراءتي، فشفعها الرب فيه، وقال: اكتبوا له بكل خطيئة حسنةً وارفعوا له درجة.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) القرطبي.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ① تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ② أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ
هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ③ ٱللَّهُ ٱلَّذِى
خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن
وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ④ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ
مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ⑤ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ⑥ ٱلَّذِىٓ
أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ⑦ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ
⑧ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ
⑨ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ⑩ ۞ قُلْ
يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ⑪ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟
رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ⑫ وَلَوْ شِئْنَا
لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ
⑬ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ⑭ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا
يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ⑮ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ
⑯ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ⑰﴾.

المناسبة

تقدم لنا بيان المناسبة بين السورة والسورة.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها، أن الله سبحانه لما أثبت الرسالة في الآية التي قبلها.. بين هنا ما يجب على الرسول من الدعاء إلى توحيد الله تعالى، وإقامة الأدلة على ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ...﴾ مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر الرسالة بقوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ والوحدانية بقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ إلخ.. أردف ذلك ذكر البعث، واستبعاد المشركين له، ثم الرد عليهم.

قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما أثبت[1] البعث والرجوع إليه.. بين حال المشركين حين معاينة العذاب، ووقوفهم بين يدي الله تعالى أذلاء ناكسي رؤوسهم من الحياء والخجل، طالبي الرجوع إلى الدنيا لتحسين أعمالهم، ثم بين أنه لا سبيل إلى العودة، لأنهم لو ردوا لعادوا إلى ما نهوا عنه، وأنه قد ثبت في قضائه، وسبق في وعيده: أن جنهم تمتلىء من الجِنة والناس، ممن ساءت أعمالهم، وقبحت أفعالهم، فلا يصلحون لدخول الجنة، ويقال لهم: ذوقوا عذاب النار، جزاء ما عملتم في الدنيا، وقد نسيتم لقاء ربكم، فجازاكم بفعالكم، وجعلكم كالمنسيين من رحمته.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر علامة أهل الكفر، من طأطأة الرؤوس خجلاً وحياءً مما صنعوا في الدنيا، وذكر ما يلاقون من العذاب المهين يوم القيامة.. عطف على ذلك ذكر علامة أهل الإيمان، من تذللهم لربهم، وتسبيحهم بحمده، ومجافاة جنوبهم للمضاجع، يدعون ربهم خوفاً وطمعاً، ثم أردفه ذكر ما يلاقون من نعيم مقيم، وقرة أعين، جزاءً لهم على جميل أعمالهم، ومحاسن أقوالهم.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ...﴾ الآية، سبب نزولها[2]: ما أخرجه

(١) المراغي.

(٢) لباب النقول.

البزار عن بلال قال: كنا نجلس في المسجد، وناس من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ يصلون بعد المغرب إلى العشاء، فنزلت هذه الآية: ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾ وفي إسناده عبد الله بن شبيب ضعيف. وأخرج الترمذي وصححه عن أنس، إن هذه الآية: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾. نزلت في انتظار الصلاة التي تدعى العتمة.

وأخرج[1] البخاري في «تاريخه» وابن مردويه عنه: نزلت في صلاة العشاء. وأخرج الفريابي وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عنه أيضاً في الآية: كانوا لا ينامون حتى يصلوا العشاء. وأخرج ابن أبي شيبة عنه قال: كنا نجتنب الفرش قبل صلاة العشاء. وأخرج عبد الرزاق وابن مردويه عنه أيضاً قال: ما رأيت رسول الله ـ ﷺ ـ راقداً قط قبل العشاء ولا متحدثاً بعدها، فإن هذه الآية: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ نزلت في ذلك.

التفسير وأوجه القراءة

﴿الٓمٓ ۝١﴾. قال البقلي ـ رحمه الله ـ: الألف إشارة إلى الإعلام، واللام إلى اللزوم، والميم إلى الملك، أعلم من نفسه أهل الكون لزوم العبودية عليهم، وملكهم قهراً وجبراً، حتى عبدوه طوعاً وكرهاً. ا هـ.

وفي «التأويلات النجمية»: يشير[2] بالألف: إلى أنه ألف المحبون بقربتي فلا يصبرون عني، وألف العارفون بتمجيدي فلا يستأنسون بغيري، والإشارة في اللام، لأني لأحبائي مدخر لقائي، فلا أبالي أقاموا على صفائي، أم قصروا في وفائي، والإشارة في الميم: ترك أوليائي مرادهم لمرادي، فلذلك آثرتهم على جميع عبادي. ا هـ. وهذا كله مما لا نقل ولا أصل له.

وقال أهل التفسير: ﴿الٓمٓ ۝١﴾: خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هذه السورة مسماة بـ﴿الٓمٓ ۝١﴾. ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ المتلو عليك يا محمد، وهو القرآن، في

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.

هذا المقام وجوه من الإعراب، الأوجه الأنسب بما بعده، أنه مبتدأ، وجملة قوله ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ولا شك حال، من ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: حال كونه لا شك فيه عند أهل الاعتبار ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ خبر المبتدأ، فإن كونه من رب العالمين، حكم مقصود الإفادة، وإنما كان منه لكونه معجزاً، والضمير[1] في ﴿فِيهِ﴾: عائد إلى مضمون الجملة.

والمعنى: تنزيل الكتاب، كائن من رب العالمين، حال كونه لا ريب فيه؛ أي: في كونه منزلاً من رب العالمين، لأنه معجز للبشر؛ أي: إن الكتاب المتلو عليك يا محمد، لا ريب ولا شك في أنه منزل من رب العالمين، وأنه ليس بكذب، ولا سحر ولا كهانةٍ ولا أساطير الأولين.

فلما أنكرت قريش كونه منزلاً من رب العالمين.. قال: ﴿أَمْ﴾ منقطعة تقدر ببل الإضرابية، وهمزة الاستفهام الإنكاري؛ أي: بل أ﴿يَقُولُونَ﴾؛ أي: أيقول أهل مكة ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾؛ أي: افترى محمد هذا القرآن واختلقه من عند نفسه، لا ينبغي ولا يليق منهم هذا القول، فهذا القول منهم منكر متعجب منه، لغاية ظهور بطلانه.

فأضرب عن الكلام الأول إلى ما هو معتقد الكفار، مع الاستفهام المتضمن للتقريع والتوبيخ، حيث قال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ ثم أضرب عن معتقدهم إلى بيان ما هو الحق في شأن الكتاب، فقال: ﴿بَلْ هُوَ﴾؛ أي: هذا القرآن ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾؛ أي: ليس هو كما قالوا مفترىً، بل هو الحق من ربك.

ونظم الكلام[2]: أنه أشار أولاً إلى إعجازه، ثم رتب عليه أن تنزيله من رب العالمين، وقرر ذلك بنفي الريب عنه، ثم أضرب عن ذلك إلى ما يقولون فيه على خلاف ذلك، إنكاراً له، وتعجيباً منه، ثم أضرب عنه إلى إثبات أنه الحق المنزل من الله، وبين المقصود من تنزيله والعلة فيه فقال: ﴿لِتُنذِرَ﴾ وتخوف يا محمد ﴿قَوْمًا﴾ هم العرب، والظاهر أن المفعول الثاني للإنذار: محذوف،

(١) النسفي. (٢) البيضاوي.

و﴿قَوْمًا﴾ هو الأول؛ أي: لتنذر قوماً العقاب.

وجملة قوله: ﴿مَّآ﴾: نافية ﴿أَتَىٰهُم﴾ وجاءهم ﴿مِّن﴾: زائدة ﴿نَّذِيرٍ﴾ مخوف ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾؛ أي: من قبل إنذارك، أو من قبل زمانك، جملة منفية في محل نصب صفة لـ﴿قَوْمًا﴾؛ أي: أنزله إليك لتنذر عذاب الله قوماً ما جاءهم منذر من قبلك ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ بإنذارك إياهم؛ أي: رجاء أن يهتدوا أو كي يهتدوا، والترجي معتبر من جهته ـ ﷺ ـ؛ أي: لتنذرهم[1] راجياً لاهتدائهم إلى التوحيد والإخلاص.

وفي «الخازن»: المراد بالقوم العرب، لأنهم كانوا أمةً لم يأتهم نذير قبل محمد ﷺ، إذ كانت قريش أهل الفطرة، وأضل الناس وأحوجهم إلى الهداية، لكونهم أمةً أمية، وقال ابن عباس: يعني أهل الفترة، الذين كانوا بين عيسى ومحمد ﷺ. ا هـ.

وفي الحديث: «ليس بيني وبينه نبي»؛ أي: ليس بيني وبين عيسى نبي من العرب، أما إسماعيل عليه السلام، فكان نبياً قبل عيسى، مبعوثاً إلى قومه خاصةً، وانقطعت نبوته بموته، وأما خالد بن سنان، فكان نبياً بعد عيسى، ولكنه أضاعه قومه، فلم يعش إلى أن يبلغ دعوته، فعلم من هذا أن أهل الفطرة ألزمتهم الحجة العقلية، لأنهم كانوا عقلاء قادرين على الاستدلال، لكنهم لم تلزمهم الحجة الرسالية.

وعلم من قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أن المقصود من البعثة تعريف طريق الحق، وكل يهتدي بقدر استعداده، إلا أن لا يكون له استعداد أصلاً، كالمصرين، فإنهم لن يقبلوا التربية والتعريف، وكذا من كان على جبلتهم إلى يوم القيامة.

ألا ترى أن أبا جهل رأى النبي ﷺ، ووصل إليه، لكن لما رآه بعين الاحتقار، وأنه يتيم أبي طالب، لا بعين التعظيم، وأنه رسول الله، ووصل إليه

---

(١) روح البيان.

وصول عناد وإنكار، لا وصول قبول وإقرار. . لم يصر جوهراً للهداية، وهكذا حال ورثته من المصرين والمنكرين.

ومعنى الآيتين: أن[1] هذا القرآن الذي أنزل على محمد، لا شك أنه من عند الله، وليس بشعر ولا كهانة، ولا مما تخرصه محمد - ﷺ - بل هو الحق والصدق من عند ربك، أنزله إليك لتنذر قومك بأس الله وسطوته، أن تحل بهم على كفرهم به، وأنه لم يأتهم نذير من قبلك، ليبين لهم سبيل الرشاد، وأن محمداً لم يختلقه كما يزعمون، وفي هذا رد لقولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾.

﴿ٱللَّهُ﴾؛ أي: المعبود الذي يستحق منكم العبادة أيها الناس، هو الإلٰه ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ وأوجد ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ السبع ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ على غير مثال سبق؛ أي: أبدع الأجرام العلوية والسفلية ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾؛ أي: ما بين السماوات والأرض من السحاب والرياح وغيرهما؛ أي: خلقهما وما فيهما وما بينهما ﴿فِى﴾ مقدار ﴿سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ من أيام الدنيا، التي أولها الأحد وآخرها الجمعة، قاله[2] الحسن، وقيل: مقدار اليوم منها ألف سنة من سني الدنيا، قاله الضحاك، فعلى هذا: المراد بالأيام هنا: هي من أيام الآخرة، لا من أيام الدنيا، أو المعنى: خلقهما[3] وما فيهما وما بينهما في ستة أطوارٍ في نظر الناظرين إليها، وليس المراد اليوم المعروف، لأنه قبل خلق السماوات لم يكن ليل ولا نهار، وإنما خلقها في ستة أيام مع أنه قادر على خلقها في لحظة واحدة، بأن يقول لها: كوني فتكون، ليعلم عباده الرفق والتأني، والتثبت في الأمور وعدم العجلة، وفي آية أخرى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿ثُمَّ﴾ بعد خلق السماوات والأرض وما بينهما ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾؛ أي: علا وارتفع سبحانه ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ استواءً يليق بجلاله، لا يكيف ولا يمثل ولا يشبه؛

---

(١) المراغي.

(٢) الشوكاني.

(٣) المراغي.

أي: نُثبِتُه من غير تشبيه ولا تمثيل ولاتعطيل، ونؤمن به ونعتقده على الوجه الذي يليق بجنابه، مع تنزيهه عما لا يجوز عليه من صفات النقص والحدوث ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾.

والإيمان بذلك غير موقوف على معرفة حقيقته، وكيفيته، لأنه لا يعرف الله إلا الله عز وجل، فالصحابة ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ ومن بعدهم من الأئمة، لم يشتبه أحد منهم فيه، وقال القرطبي: ليس ﴿ثُمَّ﴾ للترتيب في قوله: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ بل هي بمعنى الواو. ا هـ.

وقال الإمام مالك ـ رحمه الله ـ: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة. وقال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: أخبار الصفات وأحاديثها وآياتها تمر كما جاءت، بلا تشبيه ولا تعطيل، فلا يقال: كيف ولم؟ نؤمن بأن الله سبحانه على العرش كيف شاء هو، وكما شاء بلا حد ولا صفة يبلغها واصف، أو يحدها حاد، نقرأ الآية والخبر، ونؤمن بما فيهما، ونكل الكيفية في الصفات إلى علم الله عز وجل. وقال القرطبي: لم ينكر أحد من السلف الصالح أنه استوى على عرشه حقيقةً، وإنما جهلوا كيفية الاستواء، فإنه لا تعلم حقيقته. ا هـ.

وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة صفة عرش الرحمٰن، وإحاطته بالسماوات والأرض وما بينهما وما عليهما، وهو المراد هنا، وقد قدمنا البحث عن هذا المقام بأبسط مما هنا في سورة الأعراف وطه الفرقان.

﴿مَا لَكُم﴾ يا أهل مكة ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ تعالى ﴿مِن وَلِيّٖ﴾ يلي أموركم وناصر ينصركم بدفع عذابه عنكم ﴿وَلَا﴾ من ﴿شَفِيعٍۚ﴾ يشفعكم عنده تعالى، فينقذكم من عذابه، إن هو عاقبكم على معصيتكم إياه؛ أي: ليس[1] لكم أيها الناس من يلي أموركم، وينصركم منه إن أراد بكم ضراً، ولا يشفع لكم عنده إذ هو عاقبكم.

والخلاصة: فإياه فاتخذوه ولياً، وبه وبطاعته فاستعينوا على أموركم، فإنه

---

(١) المراغي.

يَمنعكم ممن أراد بكم سوءاً، ولا يقدر أحد على دفع السوء عنكم إذا هو أراد وقوعه بكم، لأنه لا يقهره قاهر، ولا يغلبه غالب.

ثم أمرهم بالتذكر والتدبر في الأدلة فقال: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ و(الهمزة) فيه للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، و(الفاء): عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير[1]: ألا تسمعون هذه المواعظ فلا تتذكرون بها، فالإنكار متوجه إلى عدم الاستماع وعدم التذكر، أو تسمعونها فلا تتذكرون بها، فالإنكار متوجه إلى عدم التذكر مع تحقق ما يوجبه من السماع.

والفرق بين التذكر والتفكر[2]: أن التفكر عند فقدان المطلوب لاحتجاب القلب بالصفات النفسانية، وأما التذكر: فهو عند رفع الحجاب والرجوع إلى الفطرة الأولى، فيتذكر ما انطبع في الأزل من التوحيد والمعارف.

والمعنى[3]: أي أفلا تعتبرون وتتفكرون أيها العابدون غيره تعالى، المتوكلون على من عداه، تعالى وتقدس عن أن يكون له نظير أو شريك، لا إلٰه إلا هو، ولا رب سواه.

ولما بين سبحانه وتعالى خلق السماوات والأرض، وما بينهما.. بين تدبيره لأمرها فقال: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾؛ أي: أمر الدنيا وشأنها وحالها، والأمور التي تقع فيها؛ أي: ينزّل قضاءه وقدره ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ مدبراً بوساطة الملائكة الموكلين بأمر الدنيا ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ مدة دوام الدنيا.

وروى[4] عمرو بن مرة عن عبد الرحمٰن بن سابط، يدبر أمر الدنيا أربعة: جبريل وميكائيل وملك الموت وإسرافيل صلوات الله عليهم وسلامه، فأما: جبريل، فموكل بالرياح والجنود، وأما ميكائيل فموكل بالقطر والماء، وأما ملك الموت فموكل بقبض الأرواح، وأما إسرافيل فهو ينزل بالأمر عليهم.

---

(١) روح البيان.
(٢) الإرشاد.
(٣) المراغي.
(٤) الفتوحات.

﴿ثُمَّ يَعْرُجُ﴾ ويصعد الأمر المدبر من السماء، المفعول لأهل الأرض، ويرجع ﴿إِلَيْهِ﴾ تعالى التصرف في المخلوقات بالحشر والحساب ووزن الأعمال والتعذيب والتنعيم وغير ذلك، مما يقع في ذلك اليوم ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ﴾؛ أي: قدره وطوله ﴿أَلْفَ سَنَةٍ﴾؛ أي: قدر ألف سنة ﴿مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ في الدنيا من أيامها، وهو يوم القيامة.

والمعنى: أي[1] ينتقل التصريف الظاهري من أيدي العبيد يوم القيامة، ويكون لله وحده ظاهراً وباطناً، قال تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾؛ أي: يدبر أمر الدنيا إلى أن تقوم الساعة ثم يصير الأمر كله إليه، ليحكم فيه في يوم كان مقداره ألف سنة مما كنا نعده في هذه الحياة. ا هـ. «مراغي».

فإن قلت: قال هنا: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ وفي سورة المعارج: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ فبين الآيتين معارضة من حيث العدد، فما وجه الجمع بينهما؟

قلت: يجمع بينهما بأن المراد من ذكر الألف، وذكر الخمسين: التنبيه على طوله، والتخويف منه، لا العدد المذكور بخصوصه.

وقيل: يجمع بينهما: بأن موقف القيامة خمسون موقفاً، كل موقف ألف سنة، فهذه الآية بينت أحد المواقف، وآية ﴿سأل﴾ بينت المواقف كلها، وهذا القول هو الأقرب في الجمع، وقيل: يجمع بيهما: بأن العذاب مختلف، فيعذب الكافر بجنس من العذاب ألف سنة، ثم ينتقل إلى جنس آخر مدته خمسون ألف سنة.

وقيل معنى الآية[2]: أي يدبر أمر الدنيا من السماء على عباده، ويصعد إليه آثار الأمر، وهي أعمالهم الصالحة، الصادرة على موافقة ذلك الأمر، فإن نزول الأمر وعروج العمل في مسافة ألف سنة مما تعدون عليهم؛ أي: على غير الملائكة، فإن بين السماء والأرض مسيرة خمس مئة سنة، فينزل في مسيرة خمس

---

(١) الصاوي. (٢) المراح.

مئة سنة، ويعرج في مسيرة خمس مئة سنة، فهو مقدار ألف سنة.

والمراد[1] بالألف على القول الأول الأرجح: الزمن المتطاول، وليس المقصود منه حقيقة العدد، إذ هو عند العرب منتهى المراتب العددية، وأقصى غاياتها، وليس هناك مرتبة فوقه، إلا ما يتفرع منه من أعداد مراتبها. قال القرطبي: المعنى: إن الله تعالى جعله في صعوبته على الكفار كخمسين ألف سنة، قاله ابن عباس، والعرب تصف أيام المكروه بالطول، وأيام السرور بالقصر.

وخلاصة معنى الآية على ما اختاره بعضهم ـ وهو الظاهر ـ أي[2]: يدبر الله سبحانه وتعالى أمر الدنيا مدة أيام الدنيا، فينزل القضاء والقدر من السماء إلى الأرض، ثم يعود الأمر والتدبير إليه تعالى حين ينقطع أمر الأمراء، وحكم الحكام، وينفرد الله بالأمر في يوم؛ أي: يوم القيامة، كان مقداره ألف سنة، لأن يوماً من أيام الآخرة مثل ألف سنة من أيام الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ﴾ فمعنى خمسين ألف سنة على هذا: أنه يشتد على الكافرين، حتى يكون كخمسين ألف سنة في الطول، ويسهل على المؤمنين، حتى يكون كقدر صلاة مكتوبة صلاها في الدنيا، فقيامة كل واحد على حسب ما يليق بمعاملته، ففي الحشر مواقف ومواطن بحسب الأشخاص من جهة الأعمال والأحوال والمقامات.

وقد اختلف العلماء في تفسير الآية على وجوه شتى، ضربنا عن ذكرها صفحاً، لأنه لا طائل تحتها، هذا ما سنح لي والعلم عند الله العلي.

وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿يعرج﴾ بالبناء للمفعول، والجمهور: مبنياً للفاعل، وقرأ الجمهور[3]: ﴿مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ بتاء الخطاب، وقرأ السلمي وابن وثاب والأعمش والحسن: بياء الغيبة بخلاف عن الحسن، وقرأ جناح بن حبيش: ﴿ثم

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) البحر المحيط.

تعرج الملائكة﴾ بزيادة الملائكة، ولعله تفسير منه، لسقوطه في سواد المصحف.

﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: ذلك الموصوف بالخلق والاستواء والتدبير ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾؛ أي: عالم ما غاب عن المخلوقات، وعالم ما شوهد لهم، أو عالم الغيب؛ أي: الآخرة، والشهادة؛ أي: الدنيا، والإشارة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى الله سبحانه، باعتبار اتصافه بتلك الأوصاف، وهو مبتدأ خبره ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾، وفي هذا معنى التهديد، لأنه تعالى إذا علم بما يغيب ويحضر.. فهو مجاز لكل عامل بعمله، أو فهو يدبر الأمر بما تقتضيه حكمته.

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾؛ أي: الغالب القاهر، الذي لا يغالب على ما أراده، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بعباده؛ أي: ذلك[1] الله العظيم الشأن، المتصف بالخلق والاستواء وانحصار الولاية والنصرة فيه، وتدبير أمر الكائنات، هو عالم ما غاب عن الخلق وما حضر لهم، ويدبر أمرهما حسبما يقتضيه الغالب على أمره، الرحيم بعباده في تدبيره، وفيه إيماء إلى أنه تعالى يراعي المصالح، تفضلاً وإحساناً، لا إيجاباً، وهذه أخبار لذلك المبتدأ.

وقوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾: خبر آخر لذلك المبتدأ؛ أي: الذي جعل كل خلقه على وجه حسن في الصورة والمعنى، على ما يقتضيه استعداده، وتوجبه الحكمة والمصلحة، فالقبيح كالقردة والخنازير حسن في ذاته، وقبحه بالنظر إلى ما هو أحسن منه، لا في ذاته، طول رجل البهيمة والطائر وطول عنقهما، لئلا يتعذر عليهما ما لا بد لهما منه من قوتهما، ولو تفاوت ذلك لما يكن لهما معاش، وكذلك كل شيء من أعضاء الإنسان، مقدر لما يصلح به معاشه، فجميع المخلوقات حسنة، وإن اختلفت أشكالها وافترقت إلى حسن وأحسن، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ وحسنها من جهة المقصد الذي أريد بها، ولذلك قال ابن عباس: ليست القردة بحسنة، ولكنها متقنة محكمة. اهـ.

---

(١) روح البيان.

أيضاً[1]: ذلك المدبر لهذه الأمور، هو العالم بما يغيب عن أبصاركم، مما تكنه الصدور وتخفيه النفوس، وما لم يكن بعد مما هو كائن، وبما شاهدته الأبصار وعاينته، وهو الشديد في انتقامه ممن كفر به وأشرك معه غيره وكذب رسله، وهو الرحيم بمن تاب من ضلالته، ورجع إلى الإيمان به وبرسوله، وعمل صالحاً، وهو الذي أحسن خلق الأشياء وأحكمها.

وقرأ زيد بن علي[2]: ﴿عَالِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ بخفض الأوصاف الثلاثة، وأبو زيد النحوي: بخفض ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وقرأ الجمهور: برفع الثلاثة على أنها أخبار لذلك، أو الأول خبر والتاليان وصفان له، ووجه الخفض: أن يكون ذلك إشارة إلى الأمر، وهو فاعل بـ﴿يَعْرُجُ﴾؛ أي: ثم يعرج إليه ذلك؛ أي: الأمر المدبر، ويكون ﴿عَٰلِمُ﴾ وما بعده: بدلاً من الضمير في ﴿إِلَيْهِ﴾، وفي قراءة أبي زيد النحوي: يكون ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ﴾: مبتدأ وخبراً، و﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ بالخفض بدلاً من الضمير في ﴿إِلَيْهِ﴾.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿خَلَقَهُۥ﴾ بفتح اللام، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر: بإسكانها، فعلى القراءة الأولى، هو فعل ماض نعتاً لـ﴿شَىْءٍ﴾، فهو في محل جر، وأما على القراءة الثانية ففي نصبه أوجه:

الأول: أن يكون بدلاً من ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾ بدل اشتمال، والضمير عائد إلى ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾، وهذا هو الوجه المشهور عند النحاة.

الثاني: أنه بدل كل من كل، والضمير: راجع إلى الله سبحانه، ومعنى ﴿أَحْسَنَ﴾: حسن؛ لأنه ما من شيء إلا وهو مخلوق على ما تقتضيه الحكمة، فكل المخلوقات حسنة.

الثالث: أن يكون ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾: هو المفعول الأول، و﴿خَلَقَهُۥ﴾: هو المفعول الثاني على تضمين ﴿أَحْسَنَ﴾ معنى أعطى، والمعنى: أعطى كل شيء

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) الشوكاني.

خلقه الذي خصه به، وقيل على تضمينه معنى ألهم، قال الفراء: ألهم خلقه كل شيء مما يحتاجون إليه.

الرابع: أنه منصوب على المصدر المؤكد لمضمون الجملة؛ أي: خلقه خلقاً، كقوله: صنع الله، وهذا قول سيبويه، والضمير يعود إلى الله سبحانه.

والخامس: أنه منصوب بنزع الخافض، والمعنى: أحسن كل شيء في خلقه.

ومعنى الآية: أنه أتقن وأحكم خلق مخلوقاته، فبعض المخلوقات وإن لم تكن حسنة في نفسها، فهي متقنة محكمة، فتكون هذه الآية معناها: معنى أعطى كل شيء خلقه؛ أي: لم يخلق الإنسان على خلق البهيمة، ولم يخلق البهيمة على خلق الإنسان، وقيل: هو عام في اللفظ خاص في المعنى؛ أي: أحسن خلق كل شيء حسن، ذكره الشوكاني.

قال بعضهم[1]: لو تصورت مثلاً أن للفيل مثل رأس الجمل، وأن للأرنب مثل رأس الأسد، وأن للإنسان مثل رأس الحمار.. لو جدت في ذلك نقصاً كبيراً، وعلمت عدم تناسب وانسجام، ولكنك إذا علمت أن طول عنق الجمل، وشق شفته ليسهل تناوله الكلأ عليه أثناء السير، وأن الفيل لولا خرطومه الطويل.. لما استطاع أن يبرك بجمسه الكبير لتناول طعامه وشرابه، لو علمت كل هذا لتيقنت أنه صنع الله الذي أتقن كل شيء، ولقلت: تبارك الله أحسن الخالقين.

ولما ذكر خلق السماوات والأرض.. شرع يذكر خلق الإنسان، فقال: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ﴾؛ أي: بدأ خلق آدم أبي البشر عليه السلام من بين جميع المخلوقات ﴿مِّن طِينٍ﴾؛ أي: من تراب، فصار على صورة بديعة وشكل حسن، والطين: التراب والماء المختلط، وقد يسمى بذلك وإن زال عنه قوة الماء، وقد يكون المعنى: إن الطين ماء وتراب مجتمعان، والآدمي أصله: مني، والمني من

---

(١) أوضح التفاسير.

الغذاء، والأغذية إما: حيوانية، وإما نباتية، والحيوانية ترجع إلى النباتية، والنبات وجوده بالماء والتراب، وهو الطين.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿بدأ﴾ بالهمز، والزهري: بالألف بدلاً من الهمزة، وليس بقياس أن تقول في هدأ: هدا، بإبدال الهمزة ألفاً، بل قياس هذه الهمزة التسهيل بين بين، على أن الأخفش حكى في قرأت، قريت ونظائره، وقيل هي لغة الأنصار، تقول في بدأ: بدي، بكسر عين الكلمة وياء بعدها، وهي لغة لطي، فيحتمل أن تكون قراءة الزهري على هذه اللغة، أصله بدا ثم صار بدأ، أو على لغة الأنصار، وقال ابن رواحة:

بِـاَسْـمِ ٱلإِلٰـهِ وَبِـهِ بَـدَيْـنَـا وَلَـوْ عَـبَـدْنَـا غَـيْـرَهُ شَـقِـيْـنَـا

﴿ثُمَّ جَعَلَ﴾ وخلق ﴿نَسْلَهُۥ﴾؛ أي: نسل الإنسان الذي هو آدم وذريته، ﴿من سلالة﴾؛ أي: من نطفة مسلولة؛ أي: منزوعة من صلب الإنسان، ثم أبدل منها قوله: ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾؛ أي: ثم خلق نسل آدم وذريته من ماء ضعيف حقير، أو من ماء ممتهن لا خطر له عند الناس، يخرج من بين الصلب والترائب، وهو المني؛ أي: ثم جعل ذريته يتناسلون كذلك، من نطفة تخرج من بين الصلب والترائب، في كل من الرجل والمرأة، كما دل على ذلك علم الأجنة، وسيأتي إيضاح هذا عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾.

﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾؛ أي: سوى ذلك النسل وقومه وعدله، بتكميل أعضائه في الرحم، وتصويره على أحسن صورة، وقيل: المعنى: ثم سوى ذلك الإنسان الذي بدأ خلقه من طين، وهو آدم أبو البشر، وعدل خلقه وسوى شكله، وناسب بين أعضائه، ﴿وَنَفَخَ فِيهِ﴾؛ أي: في النسل الذي سواه في الرحم، أو في الإنسان الذي بدأ خلقه من طين، وهو آدم، ﴿مِن رُّوحِهِۦ﴾؛ أي: من روح الله سبحانه وتعالى، والإضافة للتشريف والتكريم، وهذه[2] الإضافة تقوي: أن الكلام في آدم، لا في ذريته، وإن أمكن توجيهه بالنسبة إلى الجميع؛ أي: ونفخ فيه

---

(١) البحر المحيط. (٢) الشوكاني.

روحه، وجعلها تتعلق ببدنه، فيبدأ يتحرك وتظهر فيه آثار الحياة، ثم ينطق ويتكلم، وأضاف الروح إلى نفسه تشريفاً وإظهاراً بأنه خلق عجيب، ومخلوق شريف، وأن له شأناً له مناسبة إلى حضرة الربوبية، ولأجله قيل: من عرف نفسه فقد عرف ربه.

وفي «الكواشي» جعل فيه الشيء الذي اختص به تعالى، ولذلك أضاف إليه، فصار بذلك حياً حساساً، بعد أن كان جماداً، لا أن ثمة حقيقة نفخٍ. ا هـ.

قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام[1]: الروح: ليس بجسم يحل في البدن حلول الماء في الإناء، ولا هو عرض يحل في القلب أو الدماغ حلول السواد في الأسود، والعلم في العالم، بل هو جوهر لا يتجزأ باتفاق أهل البصائر، فالتسوية عبارة عن فعل في المحل القابل، وهو الطين في حق آدم عليه السلام، والنطفة في حق أولاده، بالتصفية وتعديل المزاج، حتى ينتهي في الصفاء ومناسبة الأجزاء إلى الغاية، فيستعدّ لقبول الروح وإمساكها، والنفخ: عبارة عما اشتعل به نور الروح في المحلل القابل، فالنفخ سبب الاشتعال، وصورة النفخ في حق الله تعالى والمسبب غير محال، فعبر عن نتيجة النفخ وهو الاشتعال بالنفخ.. إلى آخر ما ذكره الشيخ.

فإن قلت[2]: قال هنا بلفظ: ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ وفي المؤمنين بلفظ ﴿مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ فلم غاير بين الأسلوبين؟

قلت: لأن المذكور هنا صفة ذرية آدم، والمذكور هناك صفة آدم عليه السلام.

ثم خاطب جميع النوع فقال: ﴿وَجَعَلَ﴾؛ أي: خلق ﴿لَكُمُ﴾؛ أي: لمنافعكم يا بني آدم ﴿ٱلسَّمْعَ﴾ لتسمعوا الآيات التنزيلية الناطقة بالبعث وبالتوحيد، وإفراد ﴿ٱلسَّمْعَ﴾ لكونه مصدراً يشمل القليل والكثير. ﴿وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ لتبصروا الآيات التكوينية المشاهدة فيهما ﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ لتعقلوا وتستدلوا بها على حقيقة

---

(١) روح البيان.

(٢) فتح الرحمٰن.

الآيتين، جمع فؤاد بمعنى القلب، لكن إنما يقال: فؤاد: إذا اعتبر في القلب معنى التفؤد؛ أي: التوقد.

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾؛ أي: تشكرون رب هذه النعم شكراً قليلاً، على أن القلة بمعنى النفي والعدم، فهو بيان لكفرهم بتلك النعم وربها، وفي قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ﴾ التفات من الغيبة في قوله: ﴿وَنَفَخَ فِيهِ﴾ إلى الخطاب، والنكتة: أن الخطاب إنما يكون مع الحي، فلما نفخ فيه الروح.. حسن خطابه. ا هـ. «صاوي».

وخص[1] ﴿السَّمْعَ﴾ بذكر المصدر دون البصر والفؤاد فذكرهما بالاسم، ولهذا جمعا، لأن السمع قوة واحدة، ولها محل واحد، وهو الأذن، ولا اختيار لها فيه، فإن الصوت يصل إليها ولا تقدر على رده، ولا على تخصيص السمع ببعض المسموعات دون بعض، بخلاف الأبصار، فمحلها العين، وله فيه اختيار، فإنها تتحرك إلى جانب المرئي دون غيره، وتطبق أجفانها إذا لم ترد الرؤية لشيء، وكذلك الفؤاد، له نوع اختيار في إدراكه، فيتعقل هذا دون هذا، ويفهم هذا دون هذا.

والمعنى: أي وأنعم عليكم فأعطاكم السمع تسمعون به الأصوات، والأبصار تبصرون بها المرئيات، والأفئدة تميزون بها بين الخير والشر، وبين الحق والباطل، وجاء الترتيب[2] هكذا بتقديم السمع ثم البصر ثم الفؤاد، لما ثبت من أن الطفل بعد الولادة يسمع ولا يبصر مدى ثلاثة أيام، ثم يبتدىء يبصر، ثم يبتدىء يدرك ويميز، كما هو مشاهد، ثم إن الإنسان قابل هذه النعم بالكفران، إلا من رحم الله تعالى، فقال: ﴿قَلِيلًا﴾؛ أي: شكراً قليلاً، أو زماناً قليلاً تشكرون ربكم على هذه النعم، التي أنعم بها عليكم باستعمالها في طاعته، وعمل ما يرضيه، وفي هذا بيان لكفرهم لنعم الله، وتركهم لشكرها، إلا فيما ندر من الأحوال.

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

﴿وَقَالُوٓاْ﴾؛ أي: وقال[1] كفار مكة، كأبي بن خلف وأضرابه من المنكرين للبعث بعد الموت: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: أنبعث ويجدد خلقنا إذا متنا وغبنا في الأرض بالدفن فيها، وذهبنا عن أعين الناس، وصرنا تراباً مخلوطاً بتراب الأرض، بحيث لا نتميز منه؟! و﴿الهمزة﴾ فيه: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، وذلك المحذوف هو العامل في ﴿إذا﴾، و﴿الهمزة﴾ في قوله: ﴿أَءِنَّا﴾ لتأكيد الإنكار السابق وتذكيره؛ أي: ﴿أَءِنَّا﴾ ﴿لـ﴾ نبعث ونكون ﴿في خلق جديد﴾ بعد موتنا وانعدامنا، ونصير أحياء كما كنا قبل موتنا، يعني هذا منكر عجب، فإنهم كانوا يقرون بالموت ويشاهدونه، وإنما ينكرون البعث، فالاستفهام الإنكاري متوجه إلى البعث دون الموت، وقد تقدم اختلاف القراء في همزة ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا﴾ والتي بعدها.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿ضللنا﴾ بفتح اللام، والمضارع يضل بكسر عين الكلمة، وهي اللغة الشهيرة الفصيحة، وهي لغة نجد، وقرأ يحيى بن يعمر وابن محيصن وأبو رجاء وطلحة وابن وثاب، بكسر اللام، والمضارع بفتحها، وهي لغة أهل العالية، وقرأ أبو حيوة ﴿ضللنا﴾ بالضاد المنقوطة، وضمها وكسر اللام مشددة، ورويت عن علي، وقرأ علي وابن عباس والحسن والأعمش وأبان بن سعيد بن العاص ﴿صللنا﴾ بالصاد المهملة وفتح اللام، ومعناه: أنتنّا، وعن الحسن: ﴿صللنا﴾ بكسر اللام، يقال: صل يصل بفتح العين في الماضي وكسرها في المضارع، وصل يصل بكسر العين في الماضي وفتحها في المضارع، وأصل يصل بالهمزة على وزن أفعل، وقال الفراء: معناه صرنا بين الصلة، وهي الأرض اليابسة الصلبة، وقال النحاس: لا نعرف في اللغة: صللنا، ولكن يقال أصل اللحم وصل، وأخم وخم: إذا أنتن، وحكاه غيره.

والمعنى[3]: أي وقال المشركون بالله، المكذبون بالبعث: أئذا صارت

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

(٣) المراغي.

لحومنا وعظامنا تراباً في الأرض، أنبعث خلقاً جديداً.

وخلاصة مقالهم: استبعاد الإعادة، بأنها كيف تعقل، وقد تمزقت الجسوم، وتفرقت في أجزاء الأرض وهم قد قاسوا قدرة الخالق، الذي بدأهم أول مرة، وأنشأهم من العدم، بقدرة المخلوق العاجز، شتان ما بينهما ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾.

ثم أضرب[1] وانتقل من بيان كفرهم بالبعث، إلى بيان ما هو أبلغ وأشنع منه، وهو كفرهم بالوصول إلى العاقبة، وما يلقونه فيها من الأهوال، فقال: ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾؛ أي: ما بهؤلاء المشركين جحود قدرة الله تعالى على ما يشاء فحسب، بل هم تعدوا ذلك إلى الجحود بلقاء ربهم، حذر عقابه، وخوف مجازاته إياهم على معاصيهم، ولقاء الله: عبارة عن القيامة وعن المصير إليه؛ أي: بل هم جاحدون بلقاء ربهم مكابرةً وعناداً، فإن اعترافهم بأنه المبتدىء للخلق، يستلزم اعترافهم بأنه قادر على الإعادة، فمن أنكر لقاء الله.. لقيه وهو عليه غضبان، ومن أقره.. لقي الله وهو عليه رحمٰن.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد، بياناً للحق، ورداً على زعمهم الباطل ﴿يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾؛ أي: يقبض أرواحكم ملك الموت عزرائيل، بحيث لا يترك منها شيئاً، بل يستوفيها، ويأخذها تماماً على أشد ما يكون من الوجوه وأفظعها، من ضرب وجوهكم وأدباركم، أو يقبض أرواحكم بحيث لا يترك منكم أحداً، ولا يبقي شخصاً من العدد الذي كتب عليهم الموت، وأما ملك الموت، فيتوفاه الله تعالى، كما روي: «أنه إذا أمات الله الخلائق، ولم يبق شيء له روح.. يقول الله لملك الموت: من بقي من خلقي وهو أعلم فيقول: يا رب أنت أعلم بمن بقي، لم يبق إلا عبدك الضعيف ملك الموت، فيقول الله: يا ملك الموت قد أذقت أنبيائي ورسلي وأوليائي وعبادي الموت، وقد سبق في علمي القديم، وأنا علام الغيوب، أن كل شيء هالك إلا وجهي، وهذه نوبتك، فيقول: إلٰهي: ارحم

---

(١) روح البيان.

عبدك ملك الموت، والطف به، فإنه ضعيف، فيقول سبحانه وتعالى: ضع يمينك تحت خدك الأيمن، واضطجع بين الجنة والنار ومت فيموت بأمر الله تعالى».

وفي الآية[1]: رد على الكافرين، حيث زعموا أن الموت من الأحوال الطبيعية، العارضة للحيوان بموجب الجبلة.

﴿ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾؛ أي: جعل موكلاً بقبض أرواحكم عند حضور آجالكم ﴿ثُمَّ﴾ بعد موتكم ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ لا إلى غيره، ﴿تُرْجَعُونَ﴾؛ أي: تبعثون وتردون إلى لقاء ربكم للحساب والمجازاة فيجازيكم بأعمالكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشرّ.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿ترجعون﴾ مبنياً للمفعول، وزيد بن علي: مبنياً للفاعل.

ومعنى الآية: أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين: إن ملك الموت الذي وكل بقبض أرواحكم، يستوفي العدد الذي كتب عليه الموت منكم حين انتهاء أجله، ثم تردون إلى ربكم يوم القيامة أحياء كهيئتكم قبل وفاتكم، فيجازي المحسن منكم بإحسانه، والمسيء بإساءته. وفي هذا إثبات للبعث مع تهديدهم وتخويفهم، وإشارة إلى أن القادر على الإماتة، قادر على الإحياء.

فإن قلت[3]: إن الله تعالى أخبر هنا أن ملك الموت هو المتوفي والقابض، وفي آيةٍ أخرى: أن القابض هو الرسل؛ أي: الملائكة، وفي أخرى أنه هو تعالى، فما وجه الجمع بين هذه الآي؟

قلت: يجمع بينها: بأن ملك الموت يقبض الأرواح، والملائكة أعوان له يعالجون ويعملون بأمره، والله تعالى يزهق الروح، فالفاعل لكل فعل حقيقة، والقابض لأرواح جميع الخلائق هو الله تعالى، وأن ملك الموت وأعوانه وسائط.

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

(٣) روح البيان.

قال ابن عطية: إن البهائم كلها يتوفى الله تعالى أرواحها دون ملك الموت، كأنه يعدم حياتها، وكذلك الأمر في بني آدم، إلا أن لهم نوع شرف بتصرف ملك الموت والملائكة معه في قبض أرواحهم. انتهى.

والخطاب في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ للرسول ـ ﷺ ـ، أو لكل من يصلح له، وقال في «الكواشي»: ﴿لو﴾ و﴿إذ﴾ للماضي ودخلتا على المستقبل هنا، لأن المستقبل من فعله تعالى كالماضي، لتحقق وقوعه، و﴿لو﴾ امتناعية، جوابها: محذوف، والمراد بالمجرمين: هم القائلون: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا﴾ إلخ، أو عام لكل مجرم، والرؤية بصرية.

والمعنى: ولو ترى يا محمد إذ المجرمون القائلون: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ...﴾ إلخ.

﴿نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: مطرقوا رؤوسهم ومطأطئوها في موقف العرض على الله من الحياء والحزن والغم.

وقرأ زيد بن علي: ﴿نكسوا رؤوسهم﴾ فعلاً ماضياً ومفعولاً، وقرأ الجمهور: باسم فاعل مضافاً، حالة كونهم يقولون: ﴿ربنا أبصرنا وسمعنا﴾؛ أي: صرنا ممن يبصر ويسمع، وحصل لنا الاستعداد لإدراك الآيات المبصرة والمسموعة، وكنا من قبل عمياً لا ندرك شيئاً ﴿فَٱرْجِعْنَا﴾؛ أي: فارددنا إلى الدنيا ﴿نَعْمَلْ﴾ عملاً ﴿صَٰلِحًا﴾ حسبما تقتضيه تلك الآيات ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ الآن صدق الرسول، ومؤمنون بك وبكتابك، وجواب ﴿لو﴾: محذوف كما مر، تقديره: لرأيت أمراً عجيباً، وشأناً فظيعاً، فهذا[1] الأمر مستقبل في التحقيق، ماض بحسب التأويل، كأنه قيل: قد انقضى الأمر ومضى، لكنك ما رأيته، ولو رأيته لرأيت أمراً فظيعاً.

قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ مقول لقول محذوف، معطوف على قول مقدر قبل قوله: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا﴾ تقديره: ونقول رداً لقولهم ذلك: ولو شئنا؛ أي: ولو تعلقت

---

(١) روح البيان.

مشيئتنا وإرادتنا تعلقاً فعلياً، بأن نعطي كل نفس من النفوس البرة والفاجرة ما تهتدي به إلى الإيمان، والعمل الصالح بالتوفيق لها، ﴿لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾؛ أي: لأعطيناها إياه في الدنيا، التي هي دار الكسب، فلم يكفر منهم أحد، وما أخرنا ذلك الإعطاء إلى دار الجزاء.

قال النحاس في معنى هذا قولان: أحدهما أنه في الدنيا، والآخر أنه في الآخرة؛ أي: ولو شئنا لرددناهم إلى الدنيا. ا هـ.

﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾؛ أي: ثبت قضائي، وسبق وعيدي، وهو ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي، لأجعلن نار جهنم ملأى ﴿مِنَ الْجِنَّةِ﴾ بالكسر، جماعة الجن، والمراد: الشياطين وكفار الجن ﴿و﴾ من ﴿الناس﴾ الذين اتبعوا إبليس في الكفر والمعاصي ﴿أَجْمَعِينَ﴾ يستعمل لتأكيد الاجتماع على الأمر، هذا[1] هو القول الذي وجب من الله، وحق على عباده، ونفذ فيه قضاؤه، فكان مقتضى هذا القول: أنه لا يعطي كل نفس هداها، وإنما قضى عليهم بهذا، لأنه سبحانه قد علم أنهم من أهل الشقاوة، وأنهم مما يختار الضلالة على الهدى؛ أي: ولولا ذلك.. لأكرمت كل نفس بالمعرفة والتوحيد.

وقال بعضهم[2]: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾؛ أي: سبقت كلمتي حيث قلت لإبليس عند قوله: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ...﴾ الآية. ﴿لأملأن...﴾ إلخ. وفي «التأويلات النجمية»: ﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ في الأزل هدايتكم وهداية أهل الضلالة ﴿لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ بإصابة رشاش النور على الأرواح ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ قبل وجود آدم وإبليس ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ إلخ؛ أي: ولكن تعلقت المشيئة بإغواء قوم، كما تعلقت بإهداء قوم، وأردنا أن يكون للنار قطان، كما أردنا أن يكون للجنة سكان، إظهاراً لصفات لطفنا، وصفات قهرنا، لأن الجنة وأهلها مظهر لصفات لطفي، والنار وأهلها مظهر لصفات قهري، وإني فعال لما أريد. انتهى.

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

فإن قلت[1]: لم قدم الجن على الإنس في قوله: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾؟

قلت: قدمها لأن المقام مقام تحقير، ولأن الجهنميين منهم أكثر فيما قيل، ولا يلزم من قوله: ﴿أَجْمَعِينَ﴾ دخول جميع الإنس والجن فيها، لأنها تفيد عموم الأنواع لا الأفراد، فالمعنى: لأملأنها من ذينك النوعين جميعاً، كما ذكره بعض المحققين، ورد: بأنه لو قصد ما ذكر.. كان المناسب التثنية دون الجمع، بأن يقول: كليهما، فالظاهر أنها لعموم الأفراد، والتعريف فيهما للعهد، والمراد عصاتهما، ويؤيده قوله في آية أخرى خطاباً لإبليس: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾، فتأمل.

ومعنى الآيتين: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ...﴾ إلخ؛ أي[2]: ولو ترى أيها الرسول هؤلاء القائلين: أئذا ضللنا في الأرض أئنا لفي خلق جديد، ناكسي رؤوسهم عند ربهم، حياءً وخجلاً منه لما سلف منهم، من معاصيهم له في الدنيا، قائلين: ربنا أبصرنا الحشر، وسمعنا قول الرسول، وصدقنا به، فارجعنا إلى الدنيا نعمل صالح الأعمال.. لرأيت أمراً فظيعاً، وهذا منهم عود على أنفسهم بالملامة إذا دخلوا النار، كما حكى عنهم سبحانه قولهم: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

ثم ادعوا اطمئنان قلوبهم حينئذٍ، وقدرتهم على فهم معاني الآيات، والعمل بموجبها، كما حكى الله عنهم بقوله: ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾؛ أي: إنا قد أيقنا الآن ما كنا به في الدنيا جهالاً من وحدانيتك، وأنه لا يصلح للعبادة سواك، وأنك تحيي وتميت، وتبعث من في القبور بعد الممات والفناء، وتفعل ما تشاء، ونحو الآية قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا...﴾ الآية.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾؛ أي: ولو أردنا أن نلهم كل نفس ما

---

(١) الفتوحات.

(٢) المراغي.

تهتدي به إلى الإيمان، والعمل الصالح.. لفعلنا، ولكن تدبيرنا للخلق على نظمٍ كاملةٍ كفيلة بمصالحه، قضى أن نضع كل نفس في المرتبة التي هي أهل لها، بحسب استعدادها، كما توضع في الإنسان العين في موضع لا يصلح له الظفر، والإصبع والمعدة في موضع لا يصلح له القلب، وهذا هو المراد من قوله: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾ إلخ؛ أي: ولكن سبق وعيدي بملء جهنم من الجنة والناس، الذين هم أهل لها بحسب استعدادهم، ولا يصلحون لدخول الجنة، كما لا يعيش البعوض والذباب إلا في الأماكن القذرة، ليخلص الجو من العفونات، ولو جعلا في القصور النظيفة النقية.. ما عاشا فيها، إذ لا يجدن فيها غذاءً ولا منفعةً لهما.

وهكذا هؤلاء، إذا رأوا العالم المضيء المشرق، والأنوار المتلألئة، والحياة الطيبة في الجنة.. لم يستطيعوا دخولها، وعجزوا عن ذلك، فما مثلهم إلا كمثل السمك، الذي لا يعيش في البر، ومثل ذوات الأربع التي لا تعيش في البحر.

فلما بين لهم أنه لا رجوع لهم إلى الدنيا.. أنبهم على ما عملوا من تدسية نفوسهم بفعل المعاصي وترك الطاعة له، فقال: ﴿فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا﴾، و﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم أنه لا رجوع لكم إلى الدنيا، وأردتم بيان مآلكم.. فأقول لكم، ذوقوا. و﴿الباء﴾: في قوله: ﴿بِمَا نَسِيتُمْ﴾: للسببية، أتى بها[1] إشارةً إلى أنه وإن سبق القول في حق التعذيب، لكنه كان بسبب موجبٍ من جانبهم أيضاً، فإن الله قد علم منهم سوء الاختيار، وذلك السبب هو نسيانهم لقاء هذا اليوم الهائل، وتركهم التفكر فيه، والاستعداد له بالكلية، بالاشتغال باللذات الدنيوية وشهواتها، فإن التوغل فيها يذهل الجن والإنس عن تذكر الآخرة وما فيها، من لقاء الله تعالى، ولقاء جزائه ويسلط عليهم نسيانها، وإضافة اللقاء إلى اليوم، كإضافة

(١) روح البيان.

المكر في قوله: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ﴾؛ أي: لقاء الله في يومكم هذا.

وقد يعبر بالذوق عما يطرأ على النفس، وإن لم يكن مطعوماً، لإحساسها به كإحساسها بذوق المطعوم؛ أي: فإذا دخلوا النار.. قالت لهم الخزنة: ذوقوها وجربوها بسبب نسيانكم وترككم الاستعداد للقاء ربكم في يومكم هذا، بترك الإيمان والطاعات.

وفي «التأويلات النجمية»: يشير إلى أنكم كنتم في الغفلة، والنائم لا يذوق ألم ما عليه من العذاب ما دام نائماً، ولكنه إذا انتبه من نومه.. يذوق ألم ما به من العذاب، فالناس نيام، ليس لهم ذوق ما عليهم من العذاب، فإذا ماتوا انتبهوا، فقيل لهم: ذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا.

﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾؛ أي: تركناكم في العذاب ترك المنسي بالكلية، استهانةً بكم، ومجازاةً لما تركتم، وفي «التأويلات النجمية»: ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ من الرحمة، كما نسيتمونا من الخدمة.

أي[1]: فذوقوا العذاب بسبب تكذيبكم بهذا اليوم، واستبعادكم وقوعه، وعملكم عمل من لا يظن أنه راجع إلى ربه فملاقيه، ثم ذكر لهم جزاءهم على فعل المعاصي، فقال: ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾؛ أي: إنا سنعاملكم معاملة الناسي، لأنه تعالى لا ينسى شيئاً، ولا يضل عنه شيء، وهذا أسلوب في الكلام، يسمى أسلوب المشاكلة، ونحوه قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ وقوله: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ وقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾.

﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾؛ أي: ذوقوا وباشروا العذاب المخلد في جهنم، الدائم الذي لا ينقطع أبداً، فهو من إضافة الموصوف إلى صفته، مثل عذاب الحريق، ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: بسبب الذي كنتم تعملونه في الدنيا من الكفر والمعاصي، وهو تكرير[2] للأمر للتأكيد وإظهار الغضب عليهم، وتعيين المفعول المطوي للذوق، والإشعار بأن سببه ليس مجرد ما ذكر من النسيان، بل له أسباب

---

(١) المراغي.　　(٢) روح البيان.

أخر، من فنون الكفر والمعاصي، التي كانوا مستمرين عليها في الدنيا.

أي: وذوقوا عذاباً تخلدون فيه إلى غير نهاية، بسبب كفركم وتكذيبكم بآيات ربكم، واجتراحكم للشرور والآثام، قال الشوكاني: واختلف[1] في النسيان المذكور، فقيل: هو النسيان الحقيقي، وهو الذي يزول عنده الذكر، وقيل: هو الترك، والمعنى على الأول: أنهم لم يعملوا لذلك اليوم، فكانوا كالناسين له، الذين لا يذكرونه، وعلى الثاني: لا بد من تقدير مضاف قبل لقاء؛ أي: ذوقوا بسبب ترككم لما أمرتكم به عذاب لقاء يومكم هذا، ورجح الثاني المبرد، وكذا قال الضحاك ويحيى بن سلام: إن النسيان هنا بمعنى الترك، قال يحيى بن سلام: والمعنى: بما تركتم الإيمان بالبعث في هذا اليوم، تركناكم من الخير، وقال مجاهد: تركناكم في العذاب. انتهى.

وقال الرازي في «تفسيره»: إن[2] اسم الإشارة في قوله: ﴿بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾ يحتمل ثلاثة أوجه: أن يكون إشارة إلى اللقاء، وأن يكون إشارة إلى اليوم، وأن يكون إشارة إلى العذاب. انتهى.

وجملة قوله: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾[3]: مستأنفة لبيان من يستحق الهداية إلى الإيمان، ومن لا يستحقها، تسلية للنبي - ﷺ -؛ أي: إنكم أيها المجرمون لا تؤمنون بآياتنا، ولا تعملون بموجبها عملاً صالحاً، ولو رجعناكم إلى الدنيا كما تدعون حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾، و﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟﴾ ووعظوا ﴿بِهَا﴾؛ أي: بآياتنا ﴿خَرُّوا۟﴾ وسقطوا على وجوههم حال كونهم ﴿سُجَّدًا﴾ لله سبحانه وتعالى؛ أي: ساجدين خوفاً من عذاب الله ﴿وَسَبَّحُوا۟﴾؛ أي: نزهوه تعالى عن كل ما لا يليق به من الشرك والشبه والعجز عن البعث وغير ذلك، حال كونهم ملتبسين ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ على نعمائه، كتوفيق الإيمان والعمل الصالح وغيرهما.

---

(١) الشوكاني.

(٢) الرازي.

(٣) الشوكاني.

والمعنى: قالوا في سجودهم: سبحان الله وبحمده، أو: سبحان ربي الأعلى وبحمده، وقال سفيان: صلوا حمداً لربهم، وجملة قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾: إما حال من فاعل: ﴿خَرُّواْ﴾؛ أي: خروا حال كونهم غير متكبرين عن السجود لله تعالى، كما استكبر أهل مكة، أو عطف[1] على صلة ﴿الذين﴾؛ أي: لا يتعظمون عن الإيمان والطاعة، كما يفعل من يصر مستكبراً كأن لم يسمعها.

وفي «التأويلات النجمية»: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن سجودك، كما استكبر إبليس أن يسجد لك إلى قبلة آدم، ولو سجد لآدم بأمرك.. لكان سجوده في الحقيقة لك، وكان آدم قبلة للسجود، كما أن الكعبة قبلة لنا في سجودنا لك. انتهى.

قال بعضهم: وليس الإنسان بمعصوم عن إبليس في صلاته، إلا في سجوده، لأنه حينئذٍ يتذكر الشيطان معصيته فيحزن، ويشتغل بنفسه، ويعتزل عن المصلي، فالعبد في سجوده معصوم من الشيطان، غير معصوم من النفس، فخواطر السجود، إما ربانية، أو ملكية، أو نفسية، وليس للشيطان عليه من سبيل، فإذا قام من سجوده.. غابت تلك الصفة عن إبليس، فزال حزنه واشتغل بك.

فصل: هذا محل سجود بالاتفاق

وهذه الآية من عزائم سجود القرآن، فيسن السجود عند تلاوتها للقارىء والمستمع، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ـ ﷺ ـ يقرأ السورة التي فيها السجدة فيسجد، ويسجدون حتى ما يجد أحدنا مكاناً لوضع جبهته في غير وقت الصلاة. متفق عليه.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأ ابن آدم

---

(١) روح البيان.

السجدة فسجد.. اعتزل الشيطان يبكي ويقول: يا ويلتا، أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار» أخرجه مسلم.

وينبغي[1] أن يدعو الساجد في سجدته بما يليق بآيتها، ففي هذه الآية يقول: اللهم اجعلني من الساجدين لوجهك، المسبحين بحمدك، وأعوذ بك من أن أكون من المستكبرين عن أمرك. وكره مالك رحمه الله تعالى قراءة السجدة في قراءة صلاة الفجر جهراً وسراً، فإن قرأ هل يسجد؟ فيه قولان، كذا في «فتح الرحمٰن».

قال في «خلاصة الفتاوى»: رجل قرأ آية السجدة في الصلاة، إن كانت السجدة في آخر السورة، أو قريباً من آخرها، بعدها آية أو آيتان إلى آخر السورة، فهو بالخيار، إن شاء ركع بها ينوي التلاوة، وإن شاء سجد ثم يعود إلى القيام فيختم السورة، وإن وصل بها سورة أخرى كان أفضل، وإن لم يسجد للتلاوة على الفور حتى ختم السورة، ثم ركع سجد لصلاته. سقط عنه سجدة التلاوة. انتهى.

وجملة قوله: ﴿تَتَجَافَىٰ﴾؛ أي: ترتفع وتتنحى ﴿جُنُوبُهُمْ﴾؛ أي: أضلاعهم ﴿عن المضاجع﴾؛ أي: عن الفرش ومواضع النوم، إما مستأنفة مسوقة لبيان بقية محاسن المؤمنين، أو حال من فاعل ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾؛ أيَ: وهم لا يستكبرون عن السجود حالة كون جنوبهم متجافية مبتاعدة عن مضاجعهم للصلاة، وهم[2] المتهجدون في الليل، الذين يقومون للصلاة عن الفراش، وبه قال الحسن ومجاهد وعطاء والجمهور، والمراد بالصلاة: صلاة التنفل بالليل من غير تقييد، وقال قتادة وعكرمة: هو التنفل ما بين المغرب والعشاء، وقيل: صلاة العشاء فقط، وهو رواية عن الحسن وعطاء، وقال الضحاك: صلاة العشاء والصبح جماعةً، وقيل: هم الذين يقومون لذكر الله، سواء كان في صلاة أو غيرها.

وفي إسناد التجافي إلى الجنوب دون أن يقال: يجافون جنوبهم إشارة إلى

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.

أن حال أهل اليقظة والكشف، ليس كحال أهل الغفلة والحجاب، فإنهم لكمال حرصهم على المناجاة، ترتفع جنوبهم عن المضاجع حين ناموا بغير اختيارهم، كأن الأرض ألقتهم من نفسها، وأما أهل الغفلة فيتلاصقون بالأرض لا يحركهم محرك.

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس(١): أنه قال في الآية: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾: كلما استيقظوا.. ذكروا الله عز وجل، إما في الصلاة، وإما في قيام أو قعود أو على جنوبهم، لا يزالون يذكرون الله تعالى.

وجملة قوله: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ حال من ضمير ﴿جُنُوبُهُمْ﴾؛ أي: تتجافى جنوبهم عن المضاجع، حال كونهم يدعون ربهم على الاستمرار ﴿خَوْفًا﴾ من سخطه وعذابه وعدم قبول عبادته منهم ﴿وَطَمَعًا﴾ في رحمته وثوابه، وانتصاب ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ على العلة، أو على المصدرية بعامل محذوف.

وقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾؛ أي: ومما أعطيناهم من المال ﴿يُنفِقُونَ﴾؛ أي: يصرفون في وجوه الخير والحسنات، معطوف على ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾. قال بعضهم(٢): وهذا الإنفاق عام في الواجب والتطوع، وذلك على ثلاثة أضرب: زكاة من نصاب، ومواساة من فضل، وإيثار من قوت.

ومعنى الآيتين(٣): أي ما يصدق بحججنا وآيات كتابنا، إلا الذين إذا وعظوا بها.. خروا لله سجداً تذللاً واستكانة لعظمته، وإقراراً بعبوديته، ونزهوه في سجودهم عما لا يليق به، مما يصفه به أهل الكفر، من الصاحبة والولد والشريك، يفعلون ذلك وهم لا يستكبرون عن طاعته، كما يفعل أهل الفسق والفجور حين يسمعونها، فإنهم يولون مستكبرين، كأن لم يسمعوها.

ثم ذكر بقية محاسنهم بقوله: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾ إلخ؛ أي: يتنحون عن

---

(١) المراغي. (٣) المراغي.

(٢) روح البيان.

مضاجعهم التي يضطجعون فيها لمنامهم، فلا ينامون، داعين ربهم خوفاً من سخطه وعذابه، وطمعاً في عفوه عنهم وتفضله عليهم برحمته ومغفرته، ومما رزقناهم من المال، ينفقون في وجوه البر، ويؤدون حقوقه التي أوجبها عليهم فيه.

﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٌ﴾ من النفوس، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، فضلاً عمن عداهم، لأن النكرة في سياق النفي تفيد العموم؛ أي: لا تعلم نفس من النفوس؛ أي: نفس كانت ﴿مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم﴾؛ أي: ما أخفاه الله سبحانه لأولئك الذين عددت نعوتهم الجليلة من التجافي والدعاء والإنفاق.

والمراد: لا تعلم نفس ما أخفي لهم علماً تفصيلياً، وإلا فنحن نعلم ما أعد للمؤمنين من النعيم إجمالاً، من حيث إنه غرفٌ في الجنة وقصور وأشجار وأنهار وملابس ومآكل وغير ذلك، ذكره أبو السعود.

ومحل الجملة: نصب بـ﴿لا تعلم﴾ سدت مسد المفعولين ﴿مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾؛ أي: مما تقر به أعينهم، إذا رأوه، وتسكن به أنفسهم، وتطمئن إليه قلوبهم من النعيم واللذات، التي لم يطلع على مثلها أحد مما يحصل به الفرح.

جوزوا ذلك ﴿جَزَآءَۢ﴾ وفاقاً ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؛ أي: بسبب ما كانوا يعملون في الدنيا، من إخلاص النية وصدق الطوية في الأعمال الصالحة، أخفوا أعمالهم فأخفى الله ثوابهم.

روى الشيخان وغيرهما، عن أبي هريرة عن النبي ـ ﷺ ـ: «يقول الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر» قال أبو هريرة: واقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٌ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾.

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وابن جرير والطبراني والحاكم وصححه، عن ابن مسعود قال: إنه لمكتوب في التوراة: لقد أعد الله تعالى للذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ما لم تر عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر،

ولا يعلم ملك مقرب، ولا نبي مرسل، وإنه لفي القرآن: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ وهذه عدة عظيمة، لا تبلغ الأفهام كنهها، بل ولا تفاصيلها، وفي الباب أحاديث عن جماعة من الصحابة، وهي معروفة، فلا نطيل الكلام بذكرها.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿مَّآ أُخْفِىَ لَهُم﴾، فعلاً ماضياً مبنياً للمفعول، وحمزة والأعمش ويعقوب: بسكون الياء، فعلاً مضارعاً للمتكلم، وابن مسعود: ﴿ما نخفي﴾ بنون العظمة، والأعمش أيضاً: ﴿أخفيت﴾ وقرأ محمد بن كعب: ﴿ما أخفي﴾، فعلاً ماضياً مبنياً للفاعل، وقرأ الجمهور: ﴿من قرة﴾ على الإفراد، وقرأ عبد الله وأبو الدرداء وأبو هريرة وعوف العقيلي: ﴿من قرات﴾ على الجمع بالألف والتاء، وهي رواية عن أبي جعفر والأعمش.

الإعراب

﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣﴾.

﴿الٓمٓ ۝١﴾: خبر لمبتدأ محذوف، إن قلنا إنه علم على السورة، تقديره: هذه السورة: ﴿الٓمٓ ۝١﴾؛ أي: مسماة به، والجملة مستأنفة، ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾: مبتدأ، ﴿لَا﴾: نافية للجنس، ﴿رَيْبَ﴾: في محل النصب اسمها، ﴿فِيهِ﴾: خبرها، وجملة ﴿لَا﴾: في محل النصب حال من ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾، ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، خبر ﴿تَنزِيلُ﴾، والجملة: مستأنفة، وههنا أعاريب آخر، ضربنا عنها صفحاً، لئلا يطول الكلام، وقد تقدم في أول البقرة ما يشبه هذا. ﴿أَمْ﴾: منقطعة بمعنى بل الإضرابية، وهمزة الاستفهام الإنكاري، ﴿يَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة، ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على محمد ومفعول به، والجملة: في محل النصب مقول لـ﴿يَقُولُونَ﴾. ﴿بَلْ﴾: حرف إضراب إبطال لإبطال قولهم، ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ﴾: مبتدأ

---

(١) البحر المحيط.

وخبر، والجملة: مستأنفة استئنافاً بيانياً، ﴿مِن رَّبِّكَ﴾: جار ومجرور حال من ﴿ٱلْحَقُّ﴾، ﴿لِتُنذِرَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿تنذر﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على محمد، منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، ﴿قَوْمًا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية، مع أن المضمرة: في تأويل مصدر مجرور بـ﴿اللام﴾، تقديره: لإنذارك قوماً، والمفعول الثاني: للإنذار، محذوف، والجار والمجرور: متعلق بمحذوف، تقديره: أنزلناه إليك لتنذر قوماً العقاب، والجملة المحذوفة: مستأنفة. ﴿مَّآ أَتَىٰهُم﴾: ﴿مَّآ﴾: نافية. ﴿أَتَىٰهُم﴾: فعل ومفعول به، ﴿مِّن﴾: زائدة، ﴿نَّذِيرٍ﴾: فاعل، والجملة: صفة ﴿قَوْمًا﴾، ﴿مِن قَبْلِكَ﴾: صفة لـ﴿نَّذِيرٍ﴾، ويجوز أن يتعلق بـ﴿أَتَىٰهُم﴾، ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿يَهْتَدُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿لعل﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى﴾: مبتدأ وخبر، والجملة: مستأنفة، ﴿خَلَقَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الموصول، والجملة: صلة الموصول، ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: مفعول به، ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾: معطوف عليه، ﴿وَمَا﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ﴿بَيْنَهُمَا﴾: ظرف ومضاف إليه، صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾: متعلق بـ﴿خَلَقَ﴾. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ، ولكنها هنا بمعنى الواو، ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر معطوف على ﴿خَلَقَ﴾، ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾: متعلق بـ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾، ﴿مَا﴾: نافية، ﴿لَكُم﴾: خبر مقدم، ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾: حال من ﴿وَلِىٍّ﴾ لأنه صفة نكرة قدمت عليها، ﴿مِن﴾: زائدة، ﴿وَلِىٍّ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿وَلَا شَفِيعٍ﴾: معطوف على ﴿وَلِىٍّ﴾، والجملة الاسمية: في محل النصب حال من فاعل ﴿خَلَقَ﴾ أو ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾، ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أفلا تسمعون هذه المواعظ فلا تتذكرون، والجملة المحذوفة: مستأنفة، ﴿لا﴾: نافية، ﴿تتذكرون﴾: فعل وفاعل معطوف على ذلك المحذوف.

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾.

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول به، والجملة الفعلية: في محل النصب حال من فاعل ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾، ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يُدَبِّرُ﴾، و﴿مِنَ﴾ للابتداء، ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق به أيضاً.. و﴿إِلَى﴾ للانتهاء، ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلْأَمْرَ﴾، ﴿إِلَيْهِ﴾ متعلق بـ﴿يَعْرُجُ﴾، والجملة الفعلية: حال من الأمر، أي: حال كون ذلك الأمر المدبر يرجع إليه، ﴿فِي يَوْمٍ﴾: متعلق بـ﴿يَعْرُجُ﴾ أيضاً، ﴿كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿أَلْفَ سَنَةٍ﴾: خبره، وجملة ﴿مِّمَّا﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿سَنَةٍ﴾، وجملة ﴿تَعُدُّونَ﴾: صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد: محذوف، تقديره: مما تعدونه.

﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧﴾.

﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة: مستأنفة، ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾: معطوف على ﴿ٱلْغَيْبِ﴾. ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: خبر ثان لاسم الإشارة، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: خبر ثالث له، ﴿ٱلَّذِىٓ﴾: خبر رابع له، ويجوز أن يكون نعتاً لـ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾، أو رفعه أو نصبه على القطع، ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الموصول، ومفعول به، والجملة: صلة الموصول، ﴿خَلَقَهُۥ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول به، والجملة الفعلية: في محل الجر صفة لـ﴿شَىْءٍ﴾ أو في محل النصب صفة لـ﴿كُلَّ﴾، وقرىء: خلقه بسكون اللام، فيكون بدل اشتمال من ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾، والضمير عائد على ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾ ﴿وَبَدَأَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله، معطوف على ﴿أَحْسَنَ﴾. ﴿خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ﴾: مفعول به، ﴿مِن طِينٍ﴾: متعلق بـ﴿خَلْقَ﴾.

﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ، ﴿جَعَلَ نَسْلَهُۥ﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على

الله، ومفعول به معطوف على ﴿بدأ﴾، ﴿مِن سُلَٰلَةٍ﴾: متعلق بـ﴿جَعَلَ﴾ إن كان بمعنى الخلق، أو في محل نصب على أنه مفعول ثان له، ﴿مِن مَّآءٍ﴾ صفة لـ﴿سُلَٰلَةٍ﴾، ﴿مَّهِينٍ﴾ صفة لـ﴿مَّآءٍ﴾.

﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ، ﴿سَوَّىٰهُ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول به معطوف على ﴿وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ إن كان الضمير لـ﴿ٱلۡإِنسَٰنِ﴾، أو معطوف على ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ﴾ إن كان الضمير للنسل، ﴿وَنَفَخَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله معطوف على ﴿سَوَّىٰهُ﴾، ﴿فِيهِ﴾: متعلق بـ﴿نفخ﴾، ﴿مِن رُّوحِهِۦۖ﴾: متعلق بـ﴿نفخ﴾ أيضاً، أو مفعوله إن قلنا ﴿مِن﴾: زائدة. ﴿وَجَعَلَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله معطوف على ﴿نفخ﴾، ﴿لَكُمُ﴾: متعلق بـ﴿جعل﴾. ﴿ٱلسَّمۡعَ﴾: مفعول به لـ﴿جعل﴾، ﴿وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ﴾: معطوفان على ﴿ٱلسَّمۡعَ﴾، ﴿قَلِيلٗا﴾: صفة لمصدر محذوف، أو لظرف محذوف منصوب على المفعولية المطلقة، أو على الظرفية، والعامل فيه: ﴿تَشۡكُرُونَ﴾، ﴿مَّا﴾: زائدة، زيدت لتأكيد القلة، ﴿تَشۡكُرُونَ﴾: فعل وفاعل؛ أي: تشكرون شكراً قليلاً، أو زماناً قليلاً، والجملة الفعلية: مستأنفة.

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ۝١٠
قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ۝١١﴾.

﴿وَقَالُوٓاْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿قالوا﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة، مسوقة لبيان ضروب من أباطيلهم، ﴿أَءِذَا﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري، مقدمة على محلها، لأنها داخلة على جواب، ﴿إذا﴾ المقدر، تقديره: إذا ضللنا في الأرض أنبعث، ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، مضمن معنى الشرط، ﴿ضَلَلۡنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية: في محل الجر مضاف إليه، على كونها فعل شرط لها، والظرف: متعلق بالجواب

المحذوف، وجملة ﴿إذا﴾: في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾، ﴿أَءِنَّا﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري أيضاً، ﴿إنا﴾: ناصب واسمه، ﴿لَفِى﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿في خلق﴾: خبر ﴿إن﴾، ﴿جَدِيدٍۭ﴾: صفة ﴿خَلْقٍ﴾، وجملة ﴿إن﴾: في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾ أيضاً. ﴿بَلْ﴾: حرف إضراب للإضراب الانتقالي من بيان كفرهم بالبعث، إلى ما هو أدل على قبح صنيعهم، ﴿هُم﴾: مبتدأ، ﴿بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ﴾: متعلق بـ﴿كَٰفِرُونَ﴾. و﴿كَٰفِرُونَ﴾: خبرهم، والجملة: مستأنفة، ﴿قُلْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة: مستأنفة، ﴿يَتَوَفَّىٰكُم﴾: فعل مضارع ومفعول به، ﴿مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾: فاعل، والجملة الفعلية: في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾، ﴿ٱلَّذِى﴾: في محل الرفع صفة لـ﴿مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾، ﴿وُكِّلَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة ونائب فاعله: ضمير يعود على الموصول، ﴿بِكُمْ﴾: متعلق بـ﴿وُكِّلَ﴾، والجملة: صلة الموصول، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ، ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾: متعلق بـ﴿تُرْجَعُونَ﴾، و﴿تُرْجَعُونَ﴾: فعل مغير ونائب فاعل معطوف على ﴿يَتَوَفَّىٰكُم﴾ على كونه مقولاً لـ﴿قُلْ﴾.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَلَوْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لو﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿تَرَىٰٓ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على محمد، أو على أي مخاطب، ﴿إِذِ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، مجرد عن معنى الشرط، ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾: مبتدأ، ﴿نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ﴾: خبر ومضاف إليه، ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾: حال من الضمير المستكن في ﴿نَاكِسُوا۟﴾، والجملة الاسمية في محل الجر مضاف إليه، والظرف: متعلق بـ﴿تَرَىٰٓ﴾ لتحقق وقوعه، كـ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾، وجعله أبو البقاء مما وقعت فيه، ﴿إِذِ﴾: موقع إذا، و﴿تَرَىٰٓ﴾ بصرية، مفعولها محذوف، أغنى عنه المبتدأ، وجواب ﴿لو﴾: محذوف، والتقدير: ولو ترى المجرمين وقت نكوسهم رؤوسهم عند ربهم.. لرأيت أمراً فظيعاً، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية: مستأنفة. ﴿رَبَّنَآ﴾: منادى مضاف، ﴿أَبْصَرْنَا﴾: فعل وفاعل والمفعول محذوف؛ أي: صدق وعدك

ووعيدك، ﴿وَسَمِعْنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿أَبْصَرْنَا﴾، ومفعوله محذوف؛ أي: تصديق رسلك، وجملة ﴿أَبْصَرْنَا﴾: جواب النداء، وجملة النداء مع جوابه: مقول لقول محذوف، منصوب على الحال من الضمير المستكن في ﴿نَاكِسُواْ﴾، تقديره: ناكسوا رؤوسهم، حالة كونهم قائلين: ربنا أبصرنا وسمعنا، فارجعنا نعمل صالحاً، ﴿فَارْجِعْنَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة تفريعية، ﴿ارجعنا﴾: فعل دعاء سلوكاً مسلك الأدب مع الباري، مبني على السكون، وفاعله: ضمير يعود على الله، و﴿نا﴾: ضمير المتكلمين في محل النصب مفعول به، والجملة: معطوفة على جملة ﴿أَبْصَرْنَا﴾ وإن كانت إنشائية لجوازه، ﴿نَعْمَلْ﴾: فعل مضارع مجزوم بالطلب السابق، وفاعله: ضمير يعود على المتكلمين، ﴿صَٰلِحًا﴾: مفعول به، ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿مُوقِنُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿إن﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَلَوْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة لقول محذوف على قول محذوف عند قوله: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾؛ أي: يقولون ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا، ونقول لهم: لو شئنا لآتينا كل نفس هداها في الدنيا إلخ، أو استئنافية، ﴿لو﴾: حرف شرط، ﴿شِئْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة: فعل شرط ﴿لو﴾، ﴿لَآتَيْنَا﴾: ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لو﴾، ﴿آتينا﴾: بمعنى أعطينا، فعل وفاعل، والجملة: جواب ﴿لو﴾ الشرطية، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية: في محل النصب مقول للقول المحذوف، أو مستأنفة، ﴿كُلَّ نَفْسٍ﴾: مفعول أول لـ﴿أتينا﴾، ﴿هُدَىٰهَا﴾: مفعول ثانٍ له. ﴿وَلَٰكِنْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لكن﴾: حرف استدراك، ﴿حَقَّ ٱلْقَوْلُ﴾: فعل وفاعل، ﴿مِنِّي﴾: متعلق بـ﴿حَقَّ﴾، أو حال من ﴿ٱلْقَوْلُ﴾: وجملة الاستدراك: معطوفة على جملة ﴿لو شئنا﴾، ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿أملأن﴾: فعل مضارع في محل الرفع، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، ونون التوكيد الثقيفلة: حرف لا محل لها من الإعراب، وفاعله: ضمير يعود على الله، ﴿جَهَنَّمَ﴾: مفعول به، ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ﴾: متعلق بـ﴿أملأن﴾،

﴿وَٱلنَّاسِ﴾: معطوف على ﴿ٱلْجِنَّةِ﴾، ﴿أَجْمَعِينَ﴾: توكيد لـ﴿ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾، والجملة الفعلية: جواب القسم، لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مع جوابه: في محل الرفع بدل من القول، على كونه فاعلاً محكياً، لـ﴿حَقَّ﴾ بدل كل من كل.

﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿فَذُوقُواْ﴾ ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع، ﴿ذوقوا﴾: فعل أمر وفاعل، والمفعول: محذوف لدلالة ما بعده عليه؛ أي: فذوقوا العذاب، والجملة الفعلية: معطوفة مفرعة على جملة ﴿حَقَّ ٱلْقَوْلُ﴾، ﴿بِمَا﴾: ﴿الباء﴾: حرف جر وسبب، ﴿ما﴾: مصدرية، ﴿نَسِيتُمْ﴾: فعل وفاعل، ﴿لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة الفعلية: في تأويل مصدر مجرور بـ﴿الباء﴾ تقديره: فذوقوا العذاب بسبب نسيانكم لقاء يومكم هذا، الجار والمجرور: متعلق بـ﴿ذوقوا﴾. ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿نَسِينَٰكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة: في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها، ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَذُوقُواْ﴾: مؤكدة لها، ﴿بِمَا﴾: ﴿الباء﴾: حرف جر وسبب، ﴿ما﴾: اسم موصول في محل الجر بـ﴿الباء﴾، ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿كان﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد: محذوف، تقديره: بما كنتم تعملونه، والجار والمجرور: متعلق بـ﴿ذوقوا﴾.

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ۩ ﴿١٥﴾﴾.

﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، ﴿يُؤْمِنُ﴾: فعل مضارع، ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾: متعلق به، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: فاعل، والجملة: مستأنفة، ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿ذُكِّرُواْ﴾: فعل ونائب فاعل، ﴿بِهَا﴾: متعلق بـ﴿ذُكِّرُواْ﴾، والجملة: في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها، على كونها فعل شرط لها، والظرف: متعلق

بالجواب، ﴿بِهَا﴾ جار ومجرور متعلقان بـ﴿ذُكِّرُوا﴾. ﴿خَرُّوا﴾: فعل وفاعل ﴿سُجَّدًا﴾: حال من واو ﴿خَرُّوا﴾، وجملة ﴿خَرُّوا﴾ جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾: صلة الموصول، لا محل لها من الإعراب أيضاً، ﴿وَسَبَّحُوا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿خَرُّوا﴾، ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، حال من فاعل ﴿سبحوا﴾؛ أي: سبحوا حالة كونهم ملتبسين بحمد ربهم، ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾: ﴿الواو﴾: حالية، ﴿هم﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية: في محل النصب حال من فاعل ﴿خَرُّوا﴾ أو معطوفة على صلة ﴿الَّذِينَ﴾.

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿تَتَجَافَىٰ﴾: فعل مضارع، ﴿جُنُوبُهُمْ﴾: فاعل، والجملة: مستأنفة مسوقة لبيان بقية خصالهم الحميدة، أو حال من فاعل ﴿سبحوا﴾، ﴿عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾: متعلق بـ﴿تَتَجَافَىٰ﴾، ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة: في محل النصب حال من ضمير ﴿جُنُوبُهُمْ﴾؛ لأن المضاف جزء من المضاف إليه ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾: منصوبان، إما: على التعليل، أو على الحال، أو على المصدرية لفعل محذوف؛ أي: يخافون خوفاً، ويطمعون طمعاً، ﴿وَمِمَّا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يُنفِقُونَ﴾، ﴿رَزَقْنَاهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول، صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد: محذوف؛ أي: ومما رزقناهموه ﴿يُنفِقُونَ﴾، فعل وفاعل، والجملة: معطوفة على جملة ﴿تَتَجَافَىٰ﴾ على كونها مستأنفة. ﴿فَلَا تَعْلَمُ﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية أو فصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت الخصال الحميدة المذكورة لهؤلاء، وأردت معرفة جزائهم عند الله تعالى.. فأقول لك: لا تعلم نفس، ﴿لا﴾: نافية، ﴿تَعْلَمُ نَفْسٌ﴾: فعل وفاعل، والجملة: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، أو مستأنفة: ﴿مَّا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به، لـ﴿تَعْلَمُ﴾، لأن علم هنا بمعنى عرف، ﴿أُخْفِيَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله: ضمير يعود على ﴿ما﴾، والجملة: صلة الموصول، ﴿لَهُم﴾: متعلق بـ﴿أُخْفِيَ﴾، ﴿مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾: جار ومجرور حال من

نائب فاعل ﴿أُخْفِيَ﴾. ﴿جَزَآءً﴾: مفعول مطلق لفعل محذوف، تقديره: جوزوا ذلك جزاءً، والجملة المحذوفة: مستأنفة على كونها مقولاً لجواب إذا المقدرة، ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿جَزَآءً﴾، ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَعْمَلُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿كان﴾: صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد: محذوف، تقديره: يعملونه.

التصريف ومفردات اللغة

﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾؛ أي: افتعله واختلقه من عند نفسه.

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾: التدبير: التفكر في دبر الأمور، والنظر في عاقبتها، وهو بالنسبة إليه تعالى التقدير: وتهيئة الأسباب، وله تعالى مدبرات سماوية كما قال: ﴿فالمدبرات أمراً﴾.

والمعنى: يدبر الله تعالى أمر الدنيا بأسباب سماوية من الملائكة وغيرها. وأضاف التدبير إلى ذاته، إشارة إلى أن تدبير العباد عند تدبيره لا أثر له.

﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ العروج: ذهاب في صعود، من عرج بفتح الراء، يعرج بضمها، من باب نصر، إذا صعد؛ أي: يصعد ذلك الأمر إليه تعالى، ويثبت في علمه موجوداً بالفعل.

﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ وهذا اليوم هو عبارة عن زمان يتقدر بألف سنة، وليس المراد به مسمى اليوم الذي هو مدة النهار بين ليلتين، والعرب قد تعبر عن المدة باليوم، كما قال الشاعر:

يَوْمَانِ يَوْمُ مَقَامَاتٍ وَأَنْدِيَةٍ ... وَيَوْمُ سَيْرٍ إِلَىٰ ٱلأَعْدَاءِ تَأْوِيبُ

فإن الشاعر لم يرد يومين مخصوصين، وإنما أراد أن زمانهم شطرين، فعبر عن كل واحد من الشطرين بيوم.

﴿ٱلْغَيْبِ﴾: ما غاب عن الخلق.

﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾: ما شوهد لهم.

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: الغالب على أمره، الذي لا يغالب على ما أراده.

﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: المنعم على عباده.

﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾: قال الراغب: الإحسان: يقال على وجهين:

أحدهما: الإنعام على الغير، يقال: أحسن إلى فلان.

والثاني: إحسان من فعله، وذلك إذا علم علماً حسناً، أو عمل عملاً حسناً، وعلى هذا قول أمير المؤمنين ـ رضي الله عنه ـ: الناس على ما يحسنون؛ أي: منسوبون إلى ما يعلمون من الأفعال الحسنة. انتهى.

﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ﴾؛ أي: خلق آدم أبي البشر عليه السلام.

﴿مِن طِينٍ﴾: الطين: التراب والماء المختلط.

﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ﴾؛ أي: ذريته، سميت به لأنها تنسل من الإنسان؛ أي: تنفصل، كما قال في «المفردات»: النسل الانفصال من الشيء، والنسل: الولد، لكونه ناسلاً عن أبيه. انتهى.

﴿مِن سُلَٰلَةٍ﴾؛ أي: من نطفة مسلولة؛ أي: منزوعة من صلب الإنسان.

﴿مَّهِينٍ﴾؛ أي: ضعيف حقير، كما في «القاموس».

﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾؛ أي: قوم النسل بتكميل أعضائه في الرحم وتصويرها على ما ينبغي.

﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾: جمع فؤاد، بمعنى: القلب، لكن إنما يقال: فؤاد، إذا اعتبر في القلب معنى التفؤد؛ أي: التوقد، كما مرّ.

﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: قال في «القاموس»: ضل صار تراباًوعظاماً وخفي وغاب. انتهى. وأصله: ضل الماء في اللبن: إذا غاب وهلك.

والمعنى: هلكنا وصرنا تراباً مخلوطاً بتراب الأرض، بحيث لا يتميز منه،

أو غبنا فيه بالدفن، وذهبنا عن أعين الناس.

﴿يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾: التوفي: أخذ الشيء تاماً وافياً، واستيفاء العدد، قال في «الصحاح»: توفاه الله: قبض روحه، والوفاة: الموت، والملك: جسم لطيف نوراني، يتشكل بأشكال مختلفة، قال بعض المحققين: المتولي من الملائكة شيئاً من السياسة، يقال له: ملك بالفتح، ومن البشر يقال له: ملك بكسر اللام، فكل ملك ملائكة، وليس كل ملائكة ملكاً، بل الملك هم المشار إليهم بقوله: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ﴾، ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ﴾، ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾: ونحو ذلك، ومنه ملك الموت. انتهى. والموت: صفة وجودية، خلقت ضداً للحياة.

﴿ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ التوكيل: أن تعتمد على غيرك، وتجعله نائباً عنك، والتوكل: أن تكون نائباً عن غيرك.

فائدة في التفعل والاستفعال: قال الزمخشري: والتوفي: استيفاء النفس، وهي الروح، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾.

وإن قلت: كيف نفسر التوفي بالاستيفاء؟

قلت: إنه معلوم أن التفعل فيما يلي:

١ ـ مطاوعة الرباعي المضعف، نحو نبهته فتنبه، وجمعته فتجمع، وكسرته فتكسر، وقطعته فتقطع.

٢ ـ التكلف: نحو تصبر وتكرم وتشجع؛ أي: تكلف الصبر والكرم والشجاعة.

٣ ـ الاتخاذ: نحو توسد ذراعه؛ أي: اتخذه وسادةً، وتورك البعير؛ أي: اتخذ وركه مطية، وتبنيت يوسف؛ أي: اتخذته ابناً.

٤ ـ التجنب: نحو تأثم؛ أي: تجنب الإثم، وتهجد؛ أي: تجنب الهجود وهو النوم، وتذمم؛ أي: تجنب الذم.

٥ ـ التدريج: نحو تحفظت الدرس؛ أي: حفظته قسماً بعد قسم، وتجرعت

الدواء؛ أي: أخذته جرعةً.

٦ ـ الصيرورة: نحو تأيمت المرأة؛ أي: صارت أيماً؛ أي: لا زوج لها.

٧ ـ الطلب نحو تعجل الشيء؛ أي: طلب عجلته، وتبينه؛ أي: طلب بيانه.

٨ ـ الانتساب: نحو تبدى؛ أي: انتسب إلى البادية.

وأشهر معاني الاستفعال ما يأتي:

١ ـ الطلب: نحو استقدمت فلاناً؛ أي: طلبت قدومه، واستخرجت حل المسألة؛ أي: حصلت عليه بعد طلبٍ.

٢ ـ الصيرورة: نحو استحجر الطين؛ أي: صار حجراً، واستنوَق الجمل؛ أي: صار كالناقة، واسترجلت المرأة؛ أي: صارت كالرجل.

٣ ـ النسبة: نحو استوصبت رأيه؛ أي: أي نسبت إليه الصواب، واستقبحت فعله؛ أي: نسبت إليه القبح.

٤ ـ اختصار اللفظ: نحو استرجع القوم؛ أي: قالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون.

٥ ـ القوة: نحو استهتر؛ أي: اشتد هتاره، واستكبر؛ أي: قوي كبره، وقد تأتي هذه الصيغة بمعنى أفعل، نحو استجاب بمعنى أجاب، وقد تكون مطاوعاً له، نحو أحكمت البناء، فاستحكم، وأقمت اعوجاجه فاستقام.

﴿نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ﴾ النكس: قلب الشيء على رأسه؛ أي: مطرقوا رؤوسهم.

﴿خَرُّوا سُجَّدًا﴾ قال في المفردات: خر الشيء إذا سقط سقوطاً، وسمع منه خرير، والخرير: يقال لصوت الماء والريح وغير ذلك مما يسقط من العلو، فاستعمال الخرور في الآية تنبيه على اجتماع أمرين: السقوط، وحصول الصوت منهم بالتسبيح، وقوله: بعد ﴿وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ تنبيه على أن ذلك الخرير كان تسبيحاً بحمد الله، لا شيئاً آخر. انتهى.

﴿تَتَجَافَىٰ﴾ التجافي: النبوّ والبعد. أخذ من الجفاء، فإن من لم يوافقك... فقد جافاك، وتجنب وتنحى عنك.

﴿جُنُوبُهُمْ﴾: جمع جنب، وهو شق الإنسان وغيره.

﴿عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾: جمع مضجع، كمقعدٍ، بمعنى: موضع الضجوع؛ أي: وضع الجنب على الأرض، قال عبد الله بن رواحة:

وَفِيْنَا رَسُوْلُ ٱللَّهِ يَتْلُوْ كِتَابَهُ إِذَا ٱنْشَقَّ مَعْرُوْفٌ مِنَ ٱلصُّبْحِ سَاطِعُ
أَرَانَا ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ ٱلْعَمَىٰ فَقُلُوْبُنَا بِهِ مُوْقِنَاتٌ مَا إِذَا قَالَ وَاقِعُ
يَبِيْتُ يُجَافِيْ جَنْبَهُ عَنْ فِرَاشِهِ إِذَا ٱسْتَثْقَلَتَ بِٱلْمُشْرِكِيْنَ ٱلْمَضَاجِعُ

﴿مَّآ أُخْفِىَ لَهُم﴾؛ أي: خبىء لهم.

﴿مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾: القرة: بمعنى اسم الفاعل؛ أي: ما يحصل به القرير؛ أي: الفرح والسرور؛ أي: من شيء نفيس تقربه أعينهم وتسر.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿تنذر﴾ - و﴿نَّذِيرٍ﴾.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾. وفي قوله: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾.

ومنها: إطلاق المعين، وإرادة المطلق، في قوله: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ﴾ لأن المراد هنا: مطلق المدة، لا اليوم الذي هو بين ليلتين.

ومنها: الطباق بين ﴿ٱلْغَيْبِ﴾ ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾، وبين ﴿خَوْفًا﴾ ﴿وَطَمَعًا﴾.

ومنها: الإضافة للتشريف في قوله: ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾: مثل ناقة الله، وبيت الله، إظهاراً بأنه خلق عجيب ومخلوق شريف.

ومنها: الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ﴾ والأصل وجعل له السمع، والنكتة: أن الخطاب إنما يكون مع الحي، فلما نفخ

تعالى الروح فيه.. حسن خطابه مع ذريته.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وغرضهم: الاستهزاء والاستبعاد.

ومنها: الإضمار في قوله: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾؛ أي: يقولون: ربنا أبصرنا وسمعنا.

ومنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ لأن المتوفي حقيقة: هو الله سبحانه وتعالى.

ومنها: الاختصاص في قوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾؛ أي: إليه لا إلى غيره مرجعكم يوم القيامة.

ومنها: حذف جواب ﴿لو﴾ للتهويل، في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ﴾؛ أي: لرأيت أمراً مهولاً.

ومنها: العدول عن الجملة الفعلية إلى الاسمية، في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ﴾ حيث لم يقل ولو ترى إذ ينكس المجرمون رؤوسهم، عدل عن الفعلية إلى الاسمية، لتقرير ثباتهم على نكس رؤوسهم، خجلاً وحياءً وخزياً عند ما تبدو مثالبهم، وهناتهم بصورة دميمة شوهاء، تبعث على الهزء بهم، والسخرية منهم، كأنما استمر ذلك منهم لا يرتفع لهم رأس، ولا يمتد منهم طرف.

وكذلك عدل عن الفعلية إلى الاسمية المؤكدة في قوله: ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾؛ أي: إنهم ثابتون على الإيقان، راغبون فيه، بعد أن ظهرت لهم المغاب، منادية عليهم بالويل والثبور.

ومنها: المشاكلة في قوله: ﴿بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ وهي الاتفاق في اللفظ، مع الاختلاف في المعنى، لأن الله سبحانه لا ينسى ولا يذهل، وإنما المعنى: نترككم في العذاب ترك الشيء المنسي المرمي ظهرياً.

ومنها: التهكم في قوله: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ لأن الذوق حقيقة في الشيء اللذيذ.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ للتأكيد والتشديد، ولتبيين المفعول المطوي للذوق الأول، وللإشعار بأن سببه ليس مجرد النسيان، بل له أسباب أخر من فنون الكفر والمعاصي التي كانوا مستمرين عليها في الدنيا.. ا هـ. «أبو السعود».

ومنها: الكناية عن كثرة العبادة والتبتل ليلاً في قوله: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾.

ومنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾ حيث أسند التجافي إلى الجنوب، ولم يقل يجافون جنوبهم، إشارةً إلى أن حال أهل اليقظة ليس كحال أهل الغفلة، فإنهم لكمال حرصهم على المناجاة، ترتفع جنوبهم عن المضاجع حين ناموا بغير اختيارهم كأن الأرض ألقتهم من نفسها، وأما أهل الغفلة فيتلاصقون بالأرض لا يحركهم محرك، كما سبق.

ومنها: إضافة الموصوف إلى صفته للتأكيد، في قوله: ﴿عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ مثل عذاب الحريق؛ لأن المعنى العذاب المخلد.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم﴾ لقصد العموم؛ أي: أي نفس كانت من ملك مقرب، ونبي مرسل.

ومنها: الحصر في قوله: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾؛ أي: ما يؤمن بآياتنا إلا الذين إذا ذكروا بآيات ربهم إلخ.

ومنها: حذف العامل في قوله: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ لقصد الإيجاز؛ أي: جوزوا جزاءً بما كانوا إلخ.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن
يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم
مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ
رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ
مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا
وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ
﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ
مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾
قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم
مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا...﴾ الآية، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما بين[1] حال المجرمين والمؤمنين.. عطف على ذلك سؤال العقلاء: هل يستوي الفريقان؟ وبين أنهما لا يستويان، ثم فصل ذلك ببيان مآل كل منهما يوم القيامة.

قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أنه تعالى لما ذكر في أول السورة الرسالة والتوحيد والبعث.. عاد في آخرها إلى ذكرها مرةً أخرى.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أن

---

(١) المراغي.

الله سبحانه لما ذكر الرسالة في قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ...﴾ أعاد هنا ذكر التوحيد، مع ذكر البرهان عليه بما يرونه من المشاهدات التي يبصرونها.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أنه تعالى لما أثبت الرسالة والتوحيد فيما سبق.. عطف على ذلك ذكر الحشر، وبذلك صار ترتيب آخر السورة متناسقاً مع ترتيب أولها، فقد ذكر الرسالة في أولها بقوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ وفي آخرها بقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ وذكر التوحيد في أولهابقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وفي آخرها بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ﴾ وذكر الحشر في أولها بقوله: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وفي آخرها بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾.

أسباب النزول

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[1]: ما أخرجه الواحدي، وابن عساكر، عن طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال: الوليد بن عقبة بن أبي معيط لعلي بن أبي طالب: أنا أحد منك سناناً، وأنشط منك لساناً، وأملأ للكتيبة منك، فقال له علي: اسكت، فإنما أنت فاسق فنزلت: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾﴾.

وأخرج ابن جرير عن عطاء بن يسار مثله.

وأخرج ابن عدي، والخطيب في «تاريخه» من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس مثله.

وأخرج الخطيب وابن عساكر، من طريق ابن لهيعة عن عمرو بن دينار عن ابن عباس: أنها نزلت في علي بن أبي طالب وعقبة بن أبي معيط، وذلك في سباب كان بينهما، كذا في هذه الرواية: أنها نزلت في عقبة بن الوليد لا الوليد.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما

---

(١) لباب النقول.

أخرجه ابن جرير عن قتادة، قال الصحابة: إن لنا يوماً يوشك أن نستريح فيه وننعم، فقال المشركون: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، فنزلت هذه الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا﴾؛ أي: مصدقاً في إيمانه، كعلي بن أبي طالب وأضرابه ﴿كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ﴾ أي: كافراً منافقاً في إيمانه كالوليد بن عَقبة بن أبي معيط وأضرابه. وفي «السمين» أنه ﷺ كان يتعمد الوقف على قوله: ﴿فَاسِقًاۚ﴾ ويبتدىء بقوله: ﴿لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾؛ أي: الفريقان: المؤمنون والفاسقون في الدنيا بالطاعة، وفي الآخرة بالثواب والكرامة عند الله تعالى، وكان بينهما كلام وتنازع، حتى قال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -: يا فاسق، وفي «الكرخي»: ﴿لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾؛ أي: شرفاً ومثوبةً، والضمير في ﴿يَسْتَوُۥنَ﴾ لمن الواقعة على الفريقين، وفيه مراعاة لمعنى ﴿من﴾ بعد مراعاة لفظها.

وعبارة «أبي السعود»: قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا...﴾ إلخ. الهمزة فيه: للإنكار، داخلة على مقدر؛ أي: أفبعد ما بينهما من التفاوت والتباين، يتوهم كون المؤمن من الذي حكيت أوصافه، كالفاسق الذي ذكرت أحواله، لا، والتصريح بقوله: ﴿لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ مع إفادة الإنكار، لنفي المساواة على أبلغ وجه وآكده للتأكيد، وليبني عليه التفصيل الآتي. انتهت.

فالاستفهام للإنكار؛ أي: ليس المؤمن كالفاسق، فقد ظهر ما بينهما من التفاوت، ولهذا قال: ﴿لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾، ففيه زيادة تصريح لما أفاده الإنكار الذي أفاده الاستفهام، قال الزجاج: جعل الاثنين جماعة حيث قال: ﴿لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ لأجل معنى ﴿من﴾، وقيل: لكون الاثنين أقل الجمع.

والمعنى: أي فهذا الكافر المكذب وعد الله ووعيده، المخالف أمره ونهيه، كهذا المؤمن بالله، المصدق ووعده ووعيده، المطيع لأمره ونهيه، كلا، لا يستوون عند الله، ولا يتعادل الكفار به والمؤمنون.

وخلاصة ذلك: أبعد ظهور ما بينهما من تفاوت بين، يظن أن المؤمن الذي حكيت أوصافه، كالكافر الذي ذكرت قبائح أعماله؟ كلا، إن الفصل بينهما لا يخفى على ذي عينين.

ونحو الآية قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ وقوله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾. وقوله: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ﴾ الآية.

وبعد أن نفى استواءهما، أتبعه بذكر حال كل منهما على سبيل التفصيل، فقال: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسوله وصدقوهما ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: عملوا الأعمال الصالحة، بامتثال الأوامر، واجتناب النواهي، ﴿فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾؛ أي: مساكن فيها البساتين والدور والغرف العالية.

وفي «الإرشاد»[1] أضيفت الجنة إلى المأوى، لأنها المأوى الحقيقي، وإنما الدنيا منزل مرتحل عنه لا محالة، ولذلك سميت قنطرةً، لأنها معبر للآخرة لا مقر، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: جنة المأوى كلها من الذهب، وهي إحدى الجنان الثمان، التي هي دار الجلال، ودار القرار، ودار السلام، وجنة عدن، وجنة المأوى، وجنة الخلد، وجنة الفردوس، وجنة النعيم.

وقرأ الجمهور: ﴿جَنَّٰتُ﴾ بالجمع.

حالة كون تلك الجنات ﴿نُزُلًۢا﴾ لهم؛ أي: ثواباً وأجراً يكرمون به، كما يكرم الضيف بما يعد له من الطعام النفيس، والنزل، بضمتين في الأصل: ما يعد للنازل والضيف من طعام وشراب، كما سيأتي، ثم صار عاماً في كل عطاء؛ أي: فلهم جنات المأوى ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: بسبب أعمالهم الحسنة، التي عملوها في الدنيا نزلاً وجزاءً لهم عليها.

---

(١) روح البيان.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿نزلا﴾ بضم الزاي، وأبو حيوة: بإسكانها، والنزل: عطاء النازل، ثم صار عاماً فيما يعد للضيف ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا﴾؛ أي: خرجوا عن دائرة الإيمان والطاعة، بإيثار الكفر والمعصية عليهما، ﴿فَمَأْوَىٰهُمُ﴾؛ أي: منزلهم ومقرهم ومرجعهم، الذين يصيرون إليه، ويستقرون فيه هو ﴿ٱلنَّارُ﴾ بدل جنات المأوى للمؤمنين ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ﴾؛ أي: من النار.. ﴿أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾؛ أي: في النار بمقامع الحديد؛ أي: إذا أرادوا الخروج منها.. ردوا إليها راغمين مكرهين، وهذا عبارة عن الخلود فيها، فإنه لا خروج ولا إعادة في الحقيقة، وقيل: إذا دفعهم اللهب إلى أعلاها.. ردوا إلى مواضعهم، ويروى: أنه يضربهم لهيب النار، فيرتفعون إلى طبقاتها، حتى إذا قربوا من بابها، وأرادوا أن يخرجوا منها.. يضربهم لهيب النار، أو تتلقاهم الملائكة بمقامع، فتضربهم فيهوون إلى قعرها سبعين خريفاً، وهكذا يفعل بهم أبداً، وكلمة ﴿في﴾ للدلالة على أنهم مستقرون فيها، وإنما الإعادة من بعض طبقاتها إلى بعض.

﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ والقائل[2] لهم هذه المقالة، هم خزنة جهنم من الملائكة، أو القائل لهم هو الله سبحانه جلّ وعلا، وفي هذا القول لهم، حال كونهم قد صاروا في النار من الإغاظة ما لا يخفى؛ أي: وقيل لهم إهانةً وتشديداً عليهم، وزيادة في غيظهم: ﴿ذُوقُوا۟﴾ وباشروا ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ﴾؛ أي: بعذاب النار ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ على الاستمرار في الدنيا، وتقولون: لا جنة ولا نار.

قال في «برهان القرآن»: قال هنا[3]: ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ﴾. وقال في سبأ: ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا﴾ لأن النار في هذه السورة، وقعت موقع الكناية، لتقدم ذكرها، والكنايات لا توصف بوصف العذاب، وفي سبأ لم يتقدم ذكر النار، فحسن وصف النار، وهذه لطيفة فاحفظها. انتهى.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الشوكاني.

(٣) برهان القرآن.

وقال في «فتح الرحمٰن»[1] ذكر الوصف والضمير هنا، نظراً للمضاف، وهو، العذاب، وأنثهما ثم نظراً للمضاف إليه، وهو: النار، وخص ما هنا بالتذكير، لأن النار وقعت موقع ضميرها لتقدم ذكره، والضمير لا يوصف، فناسب التذكير، وفي سبأ لم يتقدم ذكر النار، ولا ضميرها فناسب التأنيث. انتهى.

ثم بين أن عذاب الآخرة له مقدمات في الدنيا، لأن الذنب مستوجب لنتائجه عاجلاً أو أجلاً، فقال: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم﴾؛ أي: أهل مكة ﴿مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾؛ أي[2]: الأقرب، وهو عذاب الدنيا، وهو ما محنوا به من القحط سبع سنين، بدعاء النبي ﷺ، حين بالغوا في الأذية، حتى أكلوا الجيف والجلود والعظام المحترقة والعلهز، وهو الوبر والدم، بأن يخلط الدم بأوبار الإبل ويشوى على النار، وصار الواحد منهم يرى ما بينه وبين السماء كهيئة الدخان، وكذا ابتلوا بمصائب الدنيا وبلاياها، مما فيه تعذيبهم، حتى آل أمرهم إلى القتل والأسر يوم بدر، ﴿دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾؛ أي: قبل العذاب الأكبر، الذي هو عذاب الآخرة، فـ﴿دُونَ﴾ بمعنى قبل. ﴿لَعَلَّهُمْ﴾؛ أي: لعل من بقي منهم وشاهده، ولعل في مثل هذا بمعنى كي ﴿يَرْجِعُونَ﴾ ويتوبون عما هم فيه من الكفر والمعاصي، بسبب ما ينزل بهم من العذاب إلى الإيمان والطاعة، ويتوبون عما كانوا فيه.

والمعنى: أي وعزتي وجلالي[3]، لنبتلينهم بمصائب الدنيا وأسقامها وآفاتها، من المجاعات والقتل، ونحو ذلك، عظةً لهم، ليقلعوا عن ذنوبهم قبل العذاب الأكبر، وهو عذاب يوم القيامة.

ثم ذكر حال من قابل آيات الله بالإعراض، بعد بيان حال من قابلها بالسجود والتسبيح والتحميد فقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ الاستفهام: إنكاري، بمعنى

---

(١) فتح الرحمٰن.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

النفي؛ أي: لا أحد أشد ظلماً ﴿مِمَّن ذُكِّرَ﴾ ووعظ ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾؛ أي: بالقرآن، ﴿ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآۚ﴾؛ أي: عن تلك الآيات، فلم يتفكر فيها، ولم يقبلها، ولم يعمل بموجبها، بل تناساها كأنه لا يعرفها، لكونه سمع من آيات الله ما يوجب الإقبال على الإيمان والطاعة، فجعل الإعراض مكان ذلك.

والإتيان[1] بـ﴿ثُمَّ﴾ لاستبعاد الإعراض عنها، مع غاية وضوحها، وإرشادها إلى سعادة الدارين، كقولك لصاحبك: دخلت المسجد، ثم لم تصل فيه، استبعاداً لتركه الصلاة فيه.

والمعنى: هو أظلم من كل ظالم، وإن كان سبك التركيب على نفي الأعظم من غير تعرض لنفي المساوي.

ثم بين جزاءه على ذلك فقال: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾؛ أي: من كل من اتصف بإجرام، وإن هانت جريمته ﴿مُنتَقِمُونَ﴾ بالعذاب، فكيف من كان أظلم من كل ظالم، وأشد جرماً من كل مجرم، يقال: انتقمه: إذا عاقبه على جريمته؛ أي: إنا سننتقم أشد الانتقام من الذين اجترحوا السيئات، واكتسبوا الآثام والمعاصي، روى ابن جرير بسنده عن معاذ بن جبل قال: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «ثلاث من فعلهن.. فقد أجرم، من عقد لواءً في غير حق، أو عقّ والديه، أو مشى مع ظالم لينصره، يقول الله: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾».

واعلم: أن الظلم أقبح الأمور، ولذلك حرمه الله على نفسه، فينبغي للعاقل أن يتعظ بمواعظ الله، ويتخلق بأخلاقه، ويجتنب عن أذية الروح ـ بموافقة النفس والطبيعة ـ وأذية عباد الله تعالى.

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ أي: التوراة؛ أي: وعزتي وجلالي لقد آتينا وأعطينا موسى بن عمران التوراة، كما آتيناك القرآن ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرۡيَةٖ﴾؛ أي: في شك ﴿مِّن لِّقَآئِهِۦۖ﴾؛ أي[2]: من لقائك موسى عليه السلام ليلة المعراج، قاله ابن عباس رضي الله عنهما.

---

(١) روح البيان.
(٢) الخازن.

وقرأ الحسن: ﴿في مرية﴾ بضم الميم، ذكره أبو حيان.

عن ابن عباس عن النبي - ﷺ - قال: «رأيت ليلة أسري بي موسى رجلاً آدم طوالاً جعداً، كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى رجلاً مربوعاً، مربوع الخلق، إلى الحمرة وإلى البياض، سبط الشعر، ورأيت مالكاً خازن النار، والدجال في آيات أراهن الله إياه، فلا تكن في مرية من لقائه». متفق عليه.

وعن أنس أن رسول الله - ﷺ - قال: «أتيت على موسى ليلة أسري بي، عند الكثيب الأحمر، وهو قائم يصلي في قبره». أخرجه مسلم.

فإن قلت: قد صحّ في حديث المعراج: أنه رآه في السماء السادسة عند مراجعته في الصلوات، فكيف الجمع بين هذين الحديثين؟

قلت: يحتمل أن تكون رؤيته في قبره عند الكثيب الأحمر كان قبل صعوده إلى السماء، وذلك في طريقه إلى بيت المقدس، ثم لما صعد إلى السماء السادسة.. وجده هناك قد سبقه لما يريد الله عزّ وجل، وهو على كل شيء قدير.

فإن قلت: كيف تصح منه الصلاة في قبره وهو ميت، وقد سقط عنه التكليف وهو في دار الآخرة، وليست دار عمل؟ وكذلك رأى النبي - ﷺ - جماعة من الأنبياء وهم يحجون، فما الجواب عن هذا؟

قلت: يجاب عنه بأجوبة:

منها: أن الأنبياء كالشهداء، بل هم أفضل منهم، والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، فلا يبعد أن يحجوا أو يصلوا كما صح في الحديث، وأن يتقربوا إلى الله بما استطاعوا، وإن كانوا قد ماتوا، لأنهم بمنزلة الأحياء في هذه الدار، التي هي دار العمل، إلى أن تفنى، ثم يرحلون إلى دار الجزاء، التي هي الجنة.

ومنها: أنه ﷺ رأى حالهم الذي كانوا عليه في حياتهم، ومثلوا له كيف كانوا، وكيف كان حجهم وصلاتهم.

ومنها: أن التكليف وإن ارتفع عنهم في الآخرة، لكن الذكر والشكر

والدعاء لا يرتفع، قال الله تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ إلى غير ذلك.

وقيل: معنى ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾؛ أي[1]: من تلقي موسى كتاب الله بالرضا والقبول، وعبارة النسفي هنا: ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾؛ أي[2]: من لقاء موسى الكتاب، أو من لقائك موسى ليلة المعراج، أو يوم القيامة، أو من لقاء موسى ربه في الآخرة، كذا عن النبي - ﷺ - انتهى. وعبارة «المراح»: ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾؛ أي: فلا تكن يا أشرف الخلق في شك من لقاء الكتاب الذي هو القرآن؛ أي: إنا آتينا موسى مثل ما آتيناك من الكتاب، فلا تكن في شك من أنك لقيت نظيره. اهـ. كذا في «البيضاوي».

وقيل المعنى[3]: فلا تكن في شك من لقاء موسى الكتاب، فإنا ألقينا عليه التوراة، وهذا المعنى هو الذي يستدعيه ترتيب الفاء على ما قبلها.

فإن قلت[4]: ما معنى النهي وليس له ﷺ في ذلك شك أصلاً؟

قلت: فيه تعريض للكفار بأنهم في شك من لقائه، إذ لو لم يكن لهم فيه شك.. لآمنوا بالقرآن، إذ في التوراة وسائر الكتب الإلٰهية ما يصدق القرآن من الشواهد والآيات، فإيتاء الكتاب ليس ببدع حتى يرتابوا فيه، ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾.

وعبارة «المراغي» هنا: أي[5] ولقد آتينا موسى التوراة، مثل ما آتيناك القرآن، وأنزلنا عليك الوحي، مثل ما أنزلناه عليه، فلا تكن في شك من لقائك الكتاب، فأنت لست ببدع من الرسل، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾.

وذكر موسى من بين سائر الرسل، لقرب عهده من النبي - ﷺ -، ووجود من كان على دينه بينهم، إلزاماً لهم، ولم يذكر عيسى، لأن اليهود ما كانوا

---

(١) الخازن.
(٢) النسفي.
(٣) روح البيان.
(٤) روح البيان.
(٥) المراغي.

يعترفون بنبوته، والنصارى كانوا يقرون بنبوة موسى، فذكر المجمع عليه.

وقد يكون ذكره لآن الآية جاءت تسلية لرسوله ﷺ، فإنه لما أتى بكل آية، وذكرهم، وأعرض قومه عنها.. حزن حزناً شديداً، فقيل له: تذكر حال موسى ولا تحزن، فإنه قد لقي مثل ما لقيت، وأوذي كما أوذيت، فإن من لم يؤمن به.. آذاه، كفرعون وقومه، ومن آمنوا به من بني إسرائيل آذوه أيضاً بالمخالفة له، كقولهم: ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ وقولهم: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا﴾ وغيره من الأنبياء لم يؤذه إلا من لم يؤمن به.

﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾؛ أي: وجعلنا الكتاب الذي آتيناه موسى، أو جعلنا موسى، فالضمير إما للكتاب أو لموسى ﴿هُدًى﴾ مرشداً ﴿لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ من الضلالة إلى طريق الهدى، كما جعلناك مرشداً لأمتك، لأنه أنزل إليهم وهم متعبدون به دون بني إسماعيل، وعليهم يحمل الناس في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾. ونحو الآية قوله: ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا ﴿٢﴾﴾.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ﴾؛ أي: من بني إسرائيل ﴿أَئِمَّةً﴾؛ أي: رؤساء وعلماء، وقيل: أنبياء، قاله قتادة. ﴿يَهْدُونَ﴾ يرشدون الخلق إلى الحق بما في التوراة من الشرائع والأحكام، والحكم ﴿بِأَمْرِنَا﴾ إياهم بذلك، أو بتوفيقنا لهم ﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾ على الحق في جميع الأمور والأحوال، و﴿لَمَّا﴾[1] إما شرطية لما فيها من معنى الجزاء، نحو: أحسنت إليك لما جئتني، وجوابها معلوم مما قبلها، والتقدير: لما صبر الأئمة والعلماء من بني إسرائيل على المشاق وطريق الحق.. جعلناهم أئمة، أو ظرفية بمعنى: حين، فلا جواب لها؛ أي: جعلناهم أئمة حين صبروا على المشاق.

وقوله: ﴿وَكَانُوا﴾؛ أي: أئمة بني إسرائيل ﴿بِآيَاتِنَا﴾ التنزيلية التي في تضاعيف الكتاب ﴿يُوقِنُونَ﴾؛ أي: يصدقون أنها من عند الله تعالى، لإمعانهم فيها

(١) روح البيان.

النظر، ولا يشكون فيها كما يشك الكفار من قومك في حق القرآن، ويحتمل[1] كونه معطوفاً على ﴿صَبَرُوا۟﴾ فيكون داخلاً في التعليق، ويحتمل أن يكون معطوفاً على ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ﴾.

والمعنى[2]: أي وجعلنا من بني إسرائيل رؤساء في الخير، يهدون أتباعهم وأهل القبول منهم بإذننا لهم، وتقويتنا إياهم، لأنهم صبروا على طاعتنا، وعزفت أنفسهم عن لذات الدنيا وشهواتها، وكانوا من أهل اليقين بحججنا، وبما تبين لهم من الحق.

وفي ذلك إيماء إلى أن الكتاب الذي آتيناكه سيكون هداية للناس، وسيكون من أتباعه أئمة يهدون مثل تلك الهداية، بل رجحهم على الكل بكل كمال، فإن الأفضل أولى بإحراز الفضائل كلها.

وقرأ الكوفيون[3]: ﴿أَيِمَّةً﴾. قال النحاس: وهو لحن عند جميع النحويين، لأنه جمع بين همزتين في كلمة واحدة، وقرأ الجمهور[4]: ﴿لَمَّا صَبَرُوا۟﴾ بفتح اللام وتشديد الميم، على أنها شرطية أو ظرفية، كما مر، وقرأ حمزة والكسائي وخلف وورش عن يعقوب ويحيى بن وثاب وطلحة والأعمش: بكسر اللام وتخفيف الميم؛ أي: جعلناهم أئمة لصبرهم، واختار هذه القراءة أبو عبيد، مستدلاً بقراءة ابن مسعود: ﴿بما صبروا﴾ بالباء.

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿هُوَ﴾ لا غيره ﴿يَفْصِلُ﴾ ويقضي ﴿بَيْنَهُمْ﴾ ويحكم؛ أي: بين المؤمنين والكفار، أو بين بني إسرائيل، أو بين الأنبياء وأممهم المكذبين ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فيميز بين المحق والمبطل، وكلمة ﴿هُوَ﴾ للتخصيص والتأكيد، وإن ذلك الفصل يوم القيامة، ليس إلا إليه وحده، لا يقدر عليه أحد سواه، ولا يفوض إلى من عداه ﴿فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من أمور الدين في الدنيا.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

(٣) الشوكاني.

(٤) البحر المحيط.

أي: إن ربك يقضي بين خلقه يوم القيامة فيما كانوا فيه في الدنيا يختلفون، من أمور الدين والثواب والعقاب، فيدخل الجنة أهل الحق، ويدخل النار أهل الباطل.

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ تخويف لكفار مكة، و(الهمزة) فيه: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، و(الواو): عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير؛ أي: أغفلوا ولم يبين مآل أمرهم، والفاعل: ما دل عليه قوله: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾؛ أي: كثرة إهلاكنا، لأن كم لا يقع فاعلاً، فلا يقال: جاءني كم رجل، ﴿مِن قَبْلِهِم﴾؛ أي: من قبل أهل مكة ﴿مِنَ الْقُرُونِ﴾؛ أي: من الأمم الماضية، كعاد وثمود حالة كون أهل مكة ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾؛ أي: في مساكن أولئك القرون، والجملة: حال من ضمير ﴿لَهُمْ﴾؛ أي: أغفلوا من حالهم ومآلهم، ولم يبين لهم مآلهم، وهو الإهلاك إن استمروا على التكذيب كثرة إهلاكنا من قبلهم من القرون، مثل عاد وثمود وقوم لوط، حالة كون أهل مكة يمرون في متاجرهم إلى الشام على ديار الهالكين وبلادهم، ويشاهدون آثار هلاكهم وخراب منازلهم.

والخلاصة: أولم يرشد هؤلاء المكذبين بالرسول ما أهلك الله قبلهم من الأمم الماضية بتكذيبهم لرسلهم، ومخالفتهم إياهم فيما جاؤوهم به من سبل الحق، فلم يبق منهم باقية، والحال أنهم يمشون في مساكنهم في متاجرهم إلى الشام، ونحو الآية قوله: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾. وقوله: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ وقوله: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾.

وقرأ الجمهور: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾ بالياء التحتية، وقرأ السلمي وقتادة وأبو زيد عن يعقوب: بالنون، وهذه القراءة واضحة، قال النحاس: والقراءة بالياء فيه إشكال، لأنه يقال: الفعل لا يخلو من فاعل، فأين الفاعل ليهدوا؟ ويجاب عنه بأن الفاعل هو ما قدمنا ذكره. اهـ.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الإهلاك وما يتعلق به من الآثار ﴿لَآيَاتٍ﴾ عظيمة ومواعظ بليغة، وحججاً قاطعةً لكل مستبصر ومعتبر بها؛ أي: إن في خلاء مساكن القرون

الذين أهلكناهم من أهلها لما كذبوا برسلنا، وجحدوا بآياتنا، وعبدوا غيرنا، لآيات لهم وعظات يتعظون بها، لو كانوا من أولي الحجا.

و(الهمزة): في قوله: ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾: للتوبيخ المضمن للإنكار، داخلة على محذوف، و(الفاء): عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أيعرضون عن آياتنا وعظاتنا وتذكيرنا إياهم، وصموا عنها فلا يسمعونها سماع تدبر وتفكر، ليعتبروا بها، وينتهوا عما هم عليه من الكفر والتكذيب.

و(الهمزة): في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾: للاستفهام التوبيخي، المضمن للتقرير، داخلة على محذوف، و(الواو): عاطفة على ذاك المحذوف، ﴿أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ﴾ والمراد: سوق السحاب الحامل للماء، لأنه هو الذي ينسب إلى الله تعالى، وأما السقي بالأنهار فمنسوب إلى العبد، وإن كان الإنبات من الله تعالى، ولما كان هذا السوق وما بعده من الإخراج محسوساً.. حمل بعضهم الرؤية على البصرية، ويدل عليه أيضاً آخر الآية، وهو ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾.

وقال في «بحر العلوم»: حملاً على المقصود من النظر؛ أي: قد علموا أنا نسوق الماء ﴿إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾؛ أي: التي جرز وقطع نباتها وأزيل بالكلية، لعدم المطر أو لغيره كالرعي، لا التي لا تنبت، لقوله: ﴿فَنُخْرِجُ﴾ من تلك الأرض ﴿بِهِ﴾؛ أي: بسبب ذلك الماء المسوق ﴿زَرْعًا﴾؛ أي: نباتاً ﴿تَأْكُلُ مِنْهُ﴾؛ أي: من ذلك الزرع؛ أي: من بعضه ﴿أَنْعَامُهُمْ﴾ ودوابهم ومواشيهم، كالتبن والقصيل والورق وبعض الحبوب المخصوصة بها ﴿و﴾ تأكل من بعضه ﴿وَأَنفُسُهُمْ﴾ كالحبوب التي يقتاتها الإنسان والثمار.

والتقدير: أي ألم يشاهد هؤلاء المكذبون بالبعث بعد الموت والنشر بعد الفساد، ولم يروا أنا نسوق بقدرتنا السحاب الحامل للماء إلى الأرض اليابسة، التي لا نبات فيها، فننزل بها مطراً، فنخرج به زرعاً أخضر، تأكل منه ماشيتهم، وتتغذى به أجسامهم، فيعيشون به؛ أي: قد علموا ذلك، وشاهدوه، فلا عذر لهم في تكذيبهم البعث بعد الموت.

و﴿الهمزة﴾: في قوله: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ للتوبيخ داخلة على محذوف،

و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: ألا ينظرون ذلك بأعينهم، وعموا عنه فلا يبصرون هذه النعم، ويشكرون المنعم، ويوحدونه، لكونه المنفرد بإيجاد ذلك، فيعلموا أن القدرة التي بها فعلنا ذلك لا يتعذر عليها أن تحيى الأموات وتنشرهم من قبورهم، وتعيدهم بهيئتهم التي كانوا عليها قبل موتهم.

والمعنى: ألا ينظرون[1] فلا يبصرون ذلك، فيستدلون به على وحدته وكمال قدرته وفضله تعالى، وأنه الحقيق بالعبادة، وأن لا يشرك به بعض خلقه، من ملك وإنسان، فضلاً عن جماد لا يضر ولا ينفع، وأيضاً فيعلمون أنا نقدر على إعادتهم وإحيائهم.

وقرىء[2]: ﴿الجرز﴾ بسكون الراء، قوله: ﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا﴾ وخص الزرع بالذكر، وإن كان يخرج الله به أنواعاً كثيرة من الفواكه والبقول والعشب المنتفع به في الطب وغيره تشريفاً للزرع، ولأنه أعظم ما يقصد من النبات، وأوقع الزرع موقع النبات.

قوله تعالى: ﴿أَنْعَٰمُهُمْ﴾ قدمت الأنعام في الذكر، لأن ما ينبت يأكله الأنعام أول فأول، من قبل أن يأكل بنو آدم الحب، ألا ترى أن القصيل، وهو شعير يزرع، تأكله الأنعام قبل أن يسبل، والبرسيم والفصفصة وأمثال ذلك تبادره الأنعام بالأكل منه قبل أن يأكل بنو آدم حب الزرع، أو لأنه غذاء الدواب، والإنسان قد يتغذى بغيره من حيوان وغيره، أو بدأ بالأدنى ثم ترقى إلى الأشرف وهم بنو آدم.

وقرأ أبو حيوة وأبو بكر في رواية: ﴿يأكل﴾ بالياء من أسفل، وقرأ الجمهور: ﴿يُبْصِرُونَ﴾ بياء الغيبة، وابن مسعود: بتاء الخطاب، وجاءت الفاصلة ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ لأن ما سبق مرئي، وفي الآية قبله مسموع، فناسب ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾.

ثم أخبر الله سبحانه وتعالى عن سوء صنيع الكفرة، باستعجال فصل القضاء

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

بينهم وبين الرسول ﷺ على سبيل الاستهزاء والسخرية والتكذيب، فقال: ﴿وَيَقُولُونَ﴾؛ أي: ويقول المشركون عموماً، أو مشركو مكة على طريق الاستهزاء والاستبعاد والتكذيب: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾ الذي تدعي يا محمد؛ أي: في أيّ وقت يكون لك الفتح والنصر علينا والظفر بنا، وكلمة ﴿مَتَىٰ﴾[1]: في موضع رفع على الخبرية، أو في موضع نصب على الظرفية، والاستفهام فيها: استفهام استهزاء، لا استفهام سؤال، وذلك[2] أن المؤمنين كانوا يقولون لكفار مكة: إن لنا يوماً يفتح الله فيه بيننا وبينكم؛ أي: يحكم ويقضي، يريدون يوم القيامة، أو إن الله سيفتح لنا على المشركين، ويفصل بيننا وبينهم، وكان أهل مكة إذا سمعوه.. يقولون بطريق الاستعجال تكذيباً واستهزاء: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾؛ أي: في أي وقت يكون الحكم والفصل، أو النصر والظفر علينا ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في أنه كائن.

أي[3]: متى تنصر علينا أيها الرسول كما تزعم، ومتى ينتقم الله منا، وما نراك وأصحابك إلا مختفين خائفين، أذلة، إن كنتم صادقين في الذي تقولون، من أنا معاقبون على تكذيبنا الرسول، وعبارة الآلهة والأوثان، وهم ولا شك لا يستعجلونه، إلا لاستبعادهم حصوله، وإنكارهم إياه، وتكذيبهم له، وقد أمر الله سبحانه نبيه ﷺ أن يجيبهم عن استبعادهم موبخاً لهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد تبكيتاً لهم، وتحقيقاً للحق: لا تستعجلوا ولا تستهزئوا فإن ﴿يَوْمَ ٱلْفَتْحِ﴾ يوم إزالة الشبهة بإقامة القيامة، فإن أصله: إزالة الإغلاق والأشكال، أو يوم الغلبة على الأعداء ﴿لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ مفعول به ﴿إِيمَٰنُهُمْ﴾ فاعل، ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾؛ أي: يمهلون ويؤخرون.

أما[4] إذا كان المراد به يوم القيامة، فإن الإيمان يومئذ لا ينفع الكافر لفوات الوقت، ولا يمهل أيضاً في إدراك العذاب، ولا في بيان العذر، فإنه لا

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.
(٤) روح البيان.

عذر له، وأما إذا كان المراد يوم النصرة كيوم بدر، فإنه لا ينفع إيمانه حال القتل، إذ هو إيمان يأس، كإيمان فرعون حين ألجمه الغرق، ولا يتوقف في قتله أصلاً.

والمعنى[١]: أي قل لهم: إذا حل بكم بأس الله وسخطه في الدنيا وفي الآخرة.. لا ينفعكم إيمانكم الذي تحدثونه في هذا اليوم، ولا تؤخرون للتوبة والمراجعة.

والخلاصة: لا تستعجلوه ولا تستهزئوا، فكأني بكم، وقد حل ذلك اليوم، وآمنتم فلم ينفعكم الإيمان، واستنظرتم حلول العذاب فلم تنظروا، والعدول عن تطبيق الجواب على ظاهر سؤالهم، للتنبيه على أنه ليس مما ينبغي أن يسأل عنه، لكونه أمراً بيناً غنياً عن الإخبار، وكذا إيمانهم واستنظارهم يومئذ، وإنما المحتاج إلى البيان، عدم نفع ذلك الإيمان، وعدم الإنظار.

ثم ختم السورة بأمر رسوله بالإعراض عنهم، وانتظار الفتح بينه وبينهم، فقال: ﴿فَأَعْرِضْ﴾ يا محمد ﴿عَنْهُمْ﴾؛ أي: عن هؤلاء المشركين، ولا تبال بهم، وبلغ ما أنزل إليك من ربك ﴿وَانتَظِرْ﴾ ما الله صانع بهم، فإنه سينجزك ما وعدك، وسينصرك على من خالفك، إنه لا يخلف الميعاد، ﴿إِنَّهُم﴾؛ أي: إن هؤلاء المشركين ﴿مُّنتَظِرُونَ﴾؛ أي: متربصون بك الدوائر، كما قال تعالى: ﴿أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون﴾.

أي[٢]: وانتظر النصرة عليهم وهلاكهم، لصدق وعدي، إنهم منتظرون الغلبة عليك، وحوادث الزمان بك، من موت أو قتل، فيستريحوا منك، أو إهلاكهم، كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ الآية، ويقرب منه ما قيل: وانتظر عذابنا فإنهم منتظرون، فإن استعجالهم المذكور، وعكوفهم على ما هم عليه من الكفر والمعاصي، في حكم انتظارهم العذاب المترتب عليه لا محالة.

وسترى عاقبة صبرك عليهم، وعلى أداء رسالة ربك بنصرك وتأييدك،

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

وسيجدون نحب ما ينتظرون فيك وفي أصحابك، من وبيل عقاب الله لهم، وحلول عذابه بهم، وقد أنجز الله وعده، فنصر عبده،وفتح للمؤمنين، وحصل أمانيهم أجمعين، والآية منسوخة بآية السيف، وقيل: غير منسوخة، إذ قد يقع الإعراض مع الأمر بالقتال.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿مُّنتَظِرُونَ﴾ بكسر الظاء على صيغة اسم الفاعل؛ أي: انتظر عذابهم إنهم منتظرون هلاكك، قال أبو حاتم: والصحيح: الكسر، وقرأ ابن السميقع واليماني: ﴿منتظرون﴾ بفتح الظاء على صيغة اسم المفعول، ورويت هذه القراءة عن مجاهد وابن محيصن، قال الفراء: لا يصح إلا بإضمار؛ أي: إنهم منتظريهم.

وفي «فتح الرحمٰن» قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

إن قلت[2]: هذا سؤال عن وقت الفتح، وهو يوم القيامة، فكيف طابقه الجواب بقوله: ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ﴾؟

قلت: لما كان سؤالهم سؤال تكذيب واستهزاء بيوم القيامة، لا سؤال استفهام.. أجيبوا بالتهديد المطابق للتكذيب والاستهزاء، لا ببيان حقيقة الموقت، وإن فسر الفتح بفتح مكة، أو بيوم بدر.. كان المراد أن المتولين لم ينفعهم إيمانهم حال القتل، كإيمان فرعون، بخلاف الطلقاء الذين آمنوا بعد الأسر، فالجواب بذلك مطابق للسؤال من غير تأويل. انتهى.

الإعراب

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿أَفَمَن﴾ ﴿الهمزة﴾: فيه للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف،

---

(١) البحر المحيط.　　(٢) فتح الرحمٰن.

و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أيتوهم كون المؤمن كالفاسق بعد ما ثبت ما بينهما من التفاوت، ﴿فمن كان﴾ ﴿من﴾: اسم موصول مبتدأ، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص واسمها ضمير يعود على ﴿من﴾، ﴿مُؤْمِنًا﴾: خبرها، وجملة ﴿كان﴾: صلة لـ﴿من﴾ الموصولة، ﴿كَمَن﴾: جار ومجرور خبر المبتدأ. والجملة الاسمية: معطوفة على الجملة المحذوفة، ﴿كَانَ فَاسِقًا﴾: فعل ناقص واسمه المستتر وخبره صلة ﴿من﴾ الموصولة، ﴿لَا يَسْتَوُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع بالنون وفاعل، والجملة: مستأنفة لا محل لها من الإعراب، ومتعلقه محذوف؛ أي: لا يستوون في المآل. ﴿أَمَّا﴾: حرف شرط وتفصيل، ﴿الَّذِينَ﴾: مبتدأ، ﴿ءَامَنُوا﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، ﴿عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿ءَامَنُوا﴾، ﴿فَلَهُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿أَمَّا﴾ ﴿لهم﴾؛ خبر مقدم ﴿جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ﴾: مبتدأ مؤخر والجملة وخبره في محل الرفع خبر للأول وجملة الأول مع خبره جواب ﴿أما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿أَمَّا﴾ من فعل شرطها وجوابها: مستأنفة استئنافاً بيانياً لا محل لها من الإعراب. ﴿نُزُلًا﴾: حال من ﴿جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ﴾، ﴿بِمَا﴾: ﴿الباء﴾: حرف جر وسبب، ﴿ما﴾: مصدرية أو موصولة، ﴿كَانُوا﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَعْمَلُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿كان﴾ صلة لـ﴿ما﴾ المصدرية؛ أي: بسبب عملهم أو صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد: محذوف؛ أي: سبب الذي كانوا يعملونه، الجار والمجرور صفة لـ﴿نُزُلًا﴾؛ أي: نزلاً كائناً بسبب عملهم، أو بسبب العمل الذي يعملونه.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾.

﴿وَأَمَّا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿أما﴾: حرف شرط ﴿الَّذِينَ﴾: مبتدأ أول، ﴿فَسَقُوا﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، ﴿فَمَأْوَاهُمُ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿أما﴾، ﴿مأواهم﴾: مبتدأ، ﴿النَّارُ﴾: خبره، والجملة: في محل الرفع خبر للمبتدأ الأول، وجملة الأول: جواب ﴿أما﴾، وجملة ﴿أما﴾: معطوفة على جملة ﴿أما﴾ الأولى، ﴿كُلَّمَا﴾: اسم شرط غير جازم في محل النصب على الظرفية متعلق بالجواب الآتي، ﴿أَرَادُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة: فعل شرط

لـ﴿كُلَّمَآ﴾: في محل جر بالإضافة. ﴿أَن يَخْرُجُواْ﴾: ناصب وفاعل وفاعل في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ﴿أَرَادُوٓاْ﴾، ﴿مِنْهَآ﴾: متعلق بـ﴿يَخْرُجُواْ﴾؛ أي: كلما أرادوا الخروج منها، ﴿أُعِيدُواْ﴾: فعل ماض مغير الصيغة ونائب فاعل، ﴿فِيهَا﴾ متعلق به، والجملة الفعلية: جواب ﴿كُلَّمَآ﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿كُلَّمَآ﴾: مستأنفة مسوقة لبيان كيفية مأواهم فيها.

﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾.

﴿وَقِيلَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿قيل﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ﴿لَهُمْ﴾: متعلق بـ﴿قيل﴾، ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾: نائب فاعل لـ﴿قيل﴾ محكي، لأن مرادنا لفظه، لا معناه. وهو مقول له أيضاً. وجملة ﴿قيل﴾: معطوفة على جملة ﴿أُعِيدُواْ﴾، وإن شئت قلت: ﴿ذُوقُواْ﴾: فعل أمر وفاعل مبنى على حذف النون، ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾: مفعول به،وجملة ﴿ذُوقُواْ﴾: في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿قيل﴾، ﴿ٱلَّذِى﴾ صفة لـ﴿عَذَابَ﴾. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ﴿تُكَذِّبُونَ﴾، وجملة ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ صلة الموصول.

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ (٢٢)﴾.

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿نذيقن﴾: فعل مضارع في محل الرفع لتجرده عن الناصب والجازم، مبنى على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وفاعله: ضمير المتكلمين يعود على الله، تقديره: نحن، و﴿الهاء﴾: مفعول به. ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾: متعلق به، ﴿ٱلْأَدْنَىٰ﴾ صفة لـ﴿ٱلْعَذَابِ﴾، والجملة الفعلية: جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم: مستأنفة، ﴿دُونَ﴾: ظرف زمان بمعنى قبل متعلق بمحذوف حال ﴿مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾، ﴿ٱلْعَذَابِ﴾ مضاف إليه، ﴿ٱلْأَكْبَرِ﴾: صفة له، ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: ناصب واسمه. وجملة ﴿يَرْجِعُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿لعل﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿من﴾: اسم استفهام للاستفهام

الإنكاري في محل الرفع مبتدأ، ﴿أَظْلَمُ﴾: خبره، والجملة: مستأنفة، ﴿مِمَّن﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿أَظْلَمُ﴾: ﴿ذُكِّرَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة ونائب فاعل مستتر، ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿ذُكِّرَ﴾، والجملة الفعلية: صلة الموصول، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ، ﴿أَعْرَضَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر معطوف على ﴿ذُكِّرَ﴾، ﴿عَنْهَآ﴾ متعلق بـ﴿أَعْرَضَ﴾، ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ متعلق بـ﴿مُنتَقِمُونَ﴾، و﴿مُنتَقِمُونَ﴾ خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾: مستأنفة.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، و﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾: فعل وفاعل ومفعولان، والجملة: جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة مسوقة لتسليته ﷺ، ﴿فَلَا تَكُن﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿لا﴾: ناهية جازمة، ﴿تَكُن﴾: فعل مضارع ناقص مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، واسمها: ضمير يعود على محمد، ﴿فِى مِرْيَةٍ﴾: جار ومجرور خبر ﴿تَكُن﴾، ﴿مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾: صفة لـ﴿مِرْيَةٍ﴾، وجملة ﴿لا تكن﴾: معطوفة على جملة القسم، ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى﴾: فعل وفاعل ومفعولان معطوف على ﴿ءَاتَيْنَا﴾، ﴿لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: متعلق بـ﴿هُدًى﴾، أو صفة له.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾.

﴿وَجَعَلْنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿جعلنا﴾ الأول. ﴿مِنْهُمْ﴾: جار ومجرور في محل المفعول الثاني لـ﴿جعلنا﴾، ﴿أَئِمَّةً﴾: مفعول أول لـ﴿جعلنا﴾، وجملة ﴿يَهْدُونَ﴾ صفة لـ﴿أَئِمَّةً﴾، ﴿بِأَمْرِنَا﴾: حال من فاعل ﴿يَهْدُونَ﴾. ﴿لَمَّا﴾: ظرف بمعنى حين، متعلق بـ﴿جعلنا﴾؛ أي: جعلناهم أئمةً حين صبروا، ﴿صَبَرُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿لما﴾ أو فعل شرط لها، وجوابها: محذوف، تقديره: لما صبروا جعلنا منهم أئمة،

﴿وَكَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾: متعلقة بـ﴿يُوقِنُونَ﴾، وجملة ﴿يُوقِنُونَ﴾ خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كانوا﴾: إما معطوفة على ﴿صَبَرُوا۟﴾ أو على ﴿جعلنا﴾ كما مر.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾: ناصب واسمه، ﴿هُوَ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَفْصِلُ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة، ﴿بَيْنَهُمْ﴾: ظرف متعلق بـ﴿يَفْصِلُ﴾، ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ ظرف مضاف إليه متعلق بـ﴿يَفْصِلُ﴾ ﴿فِيمَا﴾: متعلق به أيضاً، ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿فِيهِ﴾ متعلق بـ﴿يَخْتَلِفُونَ﴾ وجملة ﴿يَخْتَلِفُونَ﴾ خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾: صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد ضمير ﴿فيه﴾.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، و﴿الواو﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، تقديره: أغفلوا ولم يهد لهم، والجملة المحذوفة: مستأنفة، ﴿لم﴾: حرف جزم، ﴿يَهْدِ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لم﴾. وعلامة جزمه حذف حرف العلة، وهي الياء، وفاعله: محذوف دلت عليه ﴿كَمْ﴾ الخبرية، تقديره: ولم يهدِ لهم كثرة إهلاكنا القرون، والجملة الفعلية: معطوفة على تلك المحذوفة، ﴿لَهُمْ﴾: متعلق بـ﴿يَهْدِ﴾، ﴿كَمْ﴾: خبرية بمعنى عدد كثير، في محل النصب مفعول به مقدم لـ﴿أَهْلَكْنَا﴾، ﴿أَهْلَكْنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿مِن قَبْلِهِم﴾ حال ﴿مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ أو متعلق بـ﴿أَهْلَكْنَا﴾، ﴿مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾: حال من ﴿كَمْ﴾ لأنه في الأصل تمييز ﴿لَكُم﴾ دخلت عليه ﴿من﴾ البيانية، وجملة ﴿أَهْلَكْنَا﴾: جملة ﴿أَهْلَكْنَا﴾: جملة مفسرة لفاعل ﴿يَهْدِ﴾ لا محل لها من الإعراب، ﴿يَمْشُونَ﴾: فعل وفاعل، ﴿فِى مَسَـٰكِنِهِمْ﴾: متعلق به، والجملة: في محل النصب حال من ضمير ﴿لَهُمْ﴾، أو مستأنفة مسوقة لبيان وجه

هدايتهم. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾: خبرها مقدم، ﴿لَآيَٰتٍ﴾: اسمها مؤخر، و﴿اللام﴾: حرف ابتداء، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، ﴿أَفَلَا﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، تقديره: أصموا فلا يسمعون، والجملة المحذوفة: مستأنفة، ﴿لا﴾: نافية، ﴿يَسْمَعُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ذلك المحذوف.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ﴾ ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، و﴿الواو﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أغفلوا ولم يروا، أو التقدير ألم يشاهدوا ولم يروا إلخ، والجملة المحذوفة: مستأنفة، ﴿لم﴾: حرف جزم، ﴿يَرَوْا﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لم﴾، والجملة: معطوفة على تلك المحذوفة، ﴿أَنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿نَسُوقُ الْمَاءَ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، ﴿إِلَى الْأَرْضِ﴾: متعلق به، ﴿الْجُرُزِ﴾: صفة لـ﴿الْأَرْضِ﴾، والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾: في تأويل مصدر ساد مسد مفعول ﴿رأى﴾؛ أي: سوقنا الماء إلى الأرض الجرز. ﴿فَنُخْرِجُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر معطوف على ﴿نَسُوقُ﴾. ﴿بِهِ﴾: متعلق بـ﴿نخرج﴾، ﴿زَرْعًا﴾: مفعول به، ﴿تَأْكُلُ﴾: فعل مضارع، ﴿مِنْهُ﴾: متعلق به ﴿أَنْعَامُهُمْ﴾: فاعل، ﴿وَأَنفُسُهُمْ﴾: معطوف عليه، وجملة ﴿تَأْكُلُ﴾: صفة لـ﴿زَرْعًا﴾، ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، تقديره: أعموا فلا يبصرون، والجملة المحذوفة: مستأنفة، ﴿لا﴾: نافية، ﴿يُبْصِرُونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على تلك المحذوفة.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿يَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة، ﴿مَتَىٰ﴾: اسم استفهام في محل النصب على الظرفية مبني على السكون

لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً، ﴿هَٰذَا﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿ٱلۡفَتۡحُ﴾: بدل من اسم الإشارة، أو عطف بيان له، والظرف: متعلق بواجب الحذف لوقوعه خبراً مقدماً، تقديره: هذا الفتح كائن متى؛ أي: في أيّ وقت يكون، والجملة الاسمية: في محل النصب مقول لـ﴿يَقُولُونَ﴾، ﴿إِن﴾: حرف شرط، ﴿كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾: فعل ناقص واسمه وخبره في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونه فعل شرط لها، وجواب ﴿إن﴾ الشرطية معلوم مما قبلها؛ أي: إن كنتم صادقين فمتى هو، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية: في محل النصب مقول لـ﴿يَقُولُونَ﴾. ﴿قُلۡ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر، والجملة: مستأنفة، ﴿يَوۡمَ ٱلۡفَتۡحِ﴾: منصوب على الظرفية متعلق بـ﴿لَا يَنفَعُ﴾، ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَنفَعُ﴾: فعل مضارع، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مفعول به، وجملة ﴿كَفَرُوٓاْ﴾: صلة الموصول، ﴿إِيمَٰنُهُمۡ﴾: فاعل ﴿يَنفَعُ﴾. والجملة الفعلية: في محل النصب مقول، لـ﴿قُلۡ﴾ ﴿وَلَا هُمۡ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لا﴾: نافية، ﴿هُمۡ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يُنظَرُونَ﴾: من الفعل المغير ونائب فاعله خبره، والجملة الاسمية: في محل النصب معطوفة على جملة ﴿لَا يَنفَعُ﴾: على كونها مقولاً لـ﴿قُلۡ﴾.

﴿فَأَعۡرِضۡ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت حالهم المذكور، وأردت بيان ما هو الأصلح لك.. فأقول لك: أعرض عنهم. ﴿أعرض﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد، ﴿عَنۡهُمۡ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة: مستأنفة، ﴿وَٱنتَظِرۡ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر معطوف على ﴿أعرض﴾، ومفعوله محذوف، تقديره: النصر عليهم، ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾: ناصب واسمه وخبره، ومفعول: ﴿مُّنتَظِرُونَ﴾ محذوف، تقديره: النصر عليكم، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، على كونها مسوقة لتعليل الأمر بالانتظار.

التصريف ومفردات اللغة

﴿كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ﴾: أصل الفسق: الخروج، من فسقت التمرة: إذا خرجت من قشرها، ثم استعمل في الخروج من الطاعة وأحكام الشرع مطلقاً،

فهو أعم من الكفر، وقد يخص به كما في قوله: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

﴿جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾: المأوى: المسكن، قال الراغب: المأوى: مصدر أوى إلى كذا: انضم إليه، وجنة المأوى: كقوله: دار الخلد في كون الدار مضافاً إلى المصدر، وفي «الإرشاد»: أضيفت الجنة إلى المأوى، لأنها المأوى الحقيقي، وإنما الدنيا منزل مرتحل عنه لا محالة، كما مر.

﴿نُزُلًۢا﴾: وهو في الأصل ما يعد للنازل والضيف، من طعام وشراب وصلة، ثم أطلق على كل عطاء، والمراد به هنا: الثواب والجزاء.

﴿فَمَأْوَىٰهُمُ﴾: اسم مكان؛ أي: ملجَؤُهم ومنزلهم.

﴿ٱلْأَدْنَىٰ﴾؛ أي: الأقرب، والمراد به عذاب الدنيا، فإنه أقرب من عذاب الآخرة وأقل منه، وقد ابتلاهم الله بسني جدب وقحط، أهلكت الزرع والضرع، والعذاب الأكبر، هو عذاب يوم القيامة.

﴿دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾؛ أي: قبل العذاب الأكبر، فدون هنا بمعنى قبل، كما مر، وذلك لأنه في الأصل أدنى مكان من الشيء، فيقال: هذا دون ذلك: إذا كان أحط منه قليلاً، ثم استعير منه للتفاوت في الأموال.

﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ جمع مجرم، اسم فاعل من أجرم الرباعي، يقال: أجرم زيد: إذا فعل الجريمة؛ أي: السيئة، منتقمون: جمع منتقم، اسم فاعل من انتقم الخماسي، يقال: نقمت الشيء ونقمت منه: إذا أنكرته، إما باللسان، وإما بالعقوبة، والنقمة: العقوبة، والانتقام: العقوبة على الجريمة.

﴿فِى مِرْيَةٍ﴾ وفي «المفردات»: المرية: التردد في الأمر، وهو أخص من الشك.

﴿مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ يقال: لقيه كرضيه: إذا رآه، قال الراغب: يقال: ذلك في الإدراك بالحس بالبصر وبالبصيرة، وهو مصدر مضاف إلى مفعوله.

﴿أَيِمَّةَ﴾: جمع إمام بمعنى المؤتم، والمقتدى به قولاً وفعلاً، وأصله أأممة بوزن أفعلة جمع إمام، كأسلحة وسلاح، ولكن لما اجتمع المثلان، وهما الميمان، أدغمت الأولى في الثانية، ونقلت حركتها إلى الهمزة فصار أئمة بهمزتين، فأبدل من الهمزة المكسور ياء، كراهة اجتماع الهمزتين. ا هـ. «شرح العقائد».

﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾: الجرز: الأرض اليابسة الجرداء، التي لا نبات فيها، قال الزمخشري: الجرز: الأرض التي جرز؛ أي: أزيل نباتها، قيل: هي مشتقة من قولهم: رجل جروز: إذا كان لا يبقي شيئاً إلا أكله، ومنه قول الراجز:

خَبٌّ جَرُوْزٌ إِذَا جَاعَ بَكَى ... وَيَأْكُلُ ٱلتَّمْرَ وَلاَ يُبْقِي ٱلنَّوَىٰ

وكذلك ناقة جروز: إذا كانت تأكل كل شيء تجده، وفي «المختار»: أرض جرز وجرز، كعسر وعسر: لا نبات بها؛ أي: قطع وأزيل بالمرة، وقيل: هو اسم موضع باليمن. وفي «المصباح»: الجرزة: القبضة من القث ونحوه، أو الحزمة، والجمع: جرز كغرفةٍ وغرف، وأرض جرز بضمتين: قد انقطع الماء عنها فهي يابسة لا نبات فيها.

﴿ٱلْفَتْحُ﴾: الحكم، ويقال: للحاكم: الفاتح والفتاح، لأنه يفصل بين الناس بحكمه، ومعنى: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾؛ أي: الفصل بيننا وبينكم في الخصومة.

﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾؛ أي: يمهلون ويؤخرون.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: المقابلة اللطيفة بين جزاء الأبرار، وجزاء الفجار في قوله: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ وقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ وهي من المحسنات البديعية.

ومنها: الشماتة في قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ وهي فن من فنون البديع، لم يذكره أحد من الذين كتبوا في فنون البديع، ما عدا ابن أبي الإصبع، وهي: أعني: الشماتة. ذكر ما أصاب عدوك من آفات ومحن جزاء ما اقترفت يداه مع المبالغة في تصوير غمائه، وما يتخبط به من أهوال، وإظهار اغتباطك بما أصابه شماتةً به وتشفياً منه، وفي هذه الآية من ضرورب التشفي والشماتة ما لا يخفى، وهو شائع في القرآن وفي الشعر، ومنه قصيدة فتح الفتوح لأبي تمام.

ومنها: الاستبعاد المستفاد بـ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ لأن الإعراض عن الآيات مع غاية وضوحها وإشراقها، مستبعد في حكم العاقل الراجح.

ومنها: التعريض في قوله: ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ فإنه تعريض للكفار بأنهم في شك من لقائه، إذ لو لم يكن لهم فيه شك.. لآمنوا بالقرآن.

ومنها: التأكيد والتخصيص المستفاد من كلمة ﴿هُوَ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ لأن المعنى: إن ذلك الفصل يوم القيامة، ليس إلا إليه وحده، لا يقدر عليه أحد سواه، ولا يفوض إلى من عداه، كما سبق.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾.

ومنها: الاستفهامات للتقريع والتوبيخ في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ وفي قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ﴾ وقوله: ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ وقوله: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ لأن المقصود في الكل الإنكار والتوبيخ.

ومنها: المناسبة المعنوية بين أول الآية وآخرها في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم﴾ وهي؛ أي: المناسبة المعنوية: أن يبتدىء المتكلم بمعنى، ثم يتمم كلامه بما يناسبه معنى دون لفظ، وهذه الآية قال في أولها: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ وهي موعظة سمعية، لكونهم لم ينظروا إلى القرون الهالكة، وإنما سمعوا بها، فناسب أن يأتي بعدها بقوله: ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾. وفي قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ﴾ بدأ هذه الآية بهذه الكلمة، وهي موعظة مرئية، فناسب

أن يقول في آخرها: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ لأن الزرع مرئي، لا مسموع، ليناسب آخر كل كلام أوله.

ومنها: التعميم بعد التخصيص، أو الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمْ﴾ لأنه إن عم غير المستهزئين.. فهو تعميم بعد تخصيص، وإن خص بهم.. فهو إظهار في مقام الإضمار، تسجيلاً عليهم بالكفر، وبياناً لعلة عدم النفع وعدم إمهالهم. ا هـ. «شهاب».

ومنها: الجناس المغاير في قوله: ﴿وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

مجمل ما اشتملت عليه هذه السورة الكريمة من الموضوعات

١ـ إثبات رسالة النبي ﷺ، وبيان أن مشركي العرب لم يأتهم رسول من قبله.

٢ ـ إثبات وحدانية الله تعالى، وأنه المتصرف في الكون، المدبر له على أتم نظام وأحكم وجه.

٣ ـ إثبات البعث والنشور، وبيان أنه يكون في يوم كألف سنة مما تعدون.

٤ ـ تفصيل خلق الإنسان في النشأة الأولى، وبيان الأطوار التي مرت به، حتى صار بشراً سوياً.

٥ ـ وصف الذلة التي يكون عليها المجرمون يوم القيامة، وطلبهم الرجوع إلى الدنيا لإصلاح أحوالهم، ورفض ما طلبوا لعدم استعدادهم للخير والفلاح.

٦ ـ تفصيل أحوال المؤمنين في الدنيا، وذكر ما أعده الله لهم من النعيم، والثواب العظيم في الآخرة.

٧ ـ استعجال الكفار لمجيء يوم القيامة، استبعاداً منهم لحصوله[١].

والله أعلم

* * *

(١) ختمت تسويد هذه السورة بعون الله تعالى، في عصر يوم الجمعة، بعد صلاتها، في تاريخ ١٠/١٠/١٤١٣ من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية.

سورة الأحزاب

سورة الأحزاب مدنية كلها بالاتفاق[1]. وآياتها: ثلاث وسبعون آية. وكلماتها: ألف ومئتان وثمانون كلمة. وحروفها: خمسة آلاف وسبع مئة وتسعون حرفاً.

التسمية: سميت سورة الأحزاب، لأنه ذكر فيها قصة المشركين الذين تحزبوا على المسلمين، من كل جهة، فاجتمع كفار مكة مع غطفان وبنى قريظة وأوباش العرب على حرب المسلمين، ولكن الله ردهم مدحورين، وكفى المؤمنين القتال بتلك المعجزة الباهرة.

الناسخ والمنسوخ فيها: قال ابن حزم[2]: سورة الأحزاب فيها آيتان من المنسوخ:

أولاهما: قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ الآية (٤٨) نسخت بآية السيف.

والآية الثانية: قوله تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ﴾ الآية (٥٢) نسخها الله تعالى بآية قبلها في النظم، وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ﴾ الآية (٥٠).

المناسبة: مناسبتها لما قبلها: تشابه[3] مطلع هذه السورة وخاتمة السالفة، فإن تلك ختمت بأمر النبي - ﷺ - بالإعراض عن الكافرين، وانتظار عذابهم، وهذه بدئت بأمره - ﷺ - بالتقوى، وعدم طاعة الكافرين والمنافقين، واتباع ما أوحي إليه من ربه، ومع التوكل عليه.

---

(١) الخازن.

(٢) الناسخ والمنسوخ.

(٣) المراغي.

فضلها: ومن فضائلها[1]: ما روى عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة الأحزاب، وعلّمها أهله، وما ملكت يمينه.. أعطي الأمان من عذاب القبر».

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما، عن ابن عباس: أن عمر بن الخطاب قام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد: أيها الناس إن الله بعث محمداً بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم، فقرأناها ووعيناها: ﴿الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة﴾ ورجم رسول الله - ﷺ - ورجمنا بعده، فأخشى أن يطول بالناس زمان أن يقول قائل: لا نجد آية الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضةٍ أنزلها الله، وقد روي عنه نحو هذا من طرق.

وأخرج ابن مردويه عن حذيفة قال: قال لي عمر بن الخطاب: كم تعدون سورة الأحزاب، قلت: ثنتين أو ثلاثاً وسبعين، قال: إن كانت لتقارب سورة البقرة، وإن كان فيها لآية الرجم.

وأخرج البخاري في «تاريخه» عن حذيفة قال: قرأت سورة الأحزاب على رسول الله - ﷺ -، فنسيت منها سبعين آيةً ما وجدتها.

وأخرج أبو عبيد في «الفضائل» وابن الأنباري، وابن مردويه عن عائشة قالت: كانت سورة تقرأ في زمان رسول الله - ﷺ - مئتي آية، فلما كتب عثمان المصاحف.. لم يقرر منها إلا على ما هو الآن.

وعن أبي بن كعب قال: كانت سورة الأحزاب تقارب سورة البقرة، أو أطول منها، وكان فيها آية الرجم، وهي: ﴿إذا زنى الشيخ والشيخة فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم﴾ ثم رفع أكثرها فيما رفع، قال ابن كثير: إسناده حسن.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) الخازن.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا
١ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ٢ وَتَوَكَّلۡ عَلَى
ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ٣ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزۡوَٰجَكُمُ
ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنۡهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمۡۚ وَمَا جَعَلَ أَدۡعِيَآءَكُمۡ أَبۡنَآءَكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ
ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ ٤ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ
ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا
تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ٥ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ
أُمَّهَٰتُهُمۡۗ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ
أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ٦ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ
ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا
٧ لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡۚ وَأَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا ٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ
نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا
تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ٩ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ
ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ١٠ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا
١١ وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ١٢ وَإِذۡ
قَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ
بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا ١٣ وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم مِّنۡ أَقۡطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ
ٱلۡفِتۡنَةَ لَأٓتَوۡهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرٗا ١٤ وَلَقَدۡ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ لَا يُوَلُّونَ
ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا ١٥ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ إِن فَرَرۡتُم مِّنَ ٱلۡمَوۡتِ أَوِ ٱلۡقَتۡلِ
وَإِذٗا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٦ قُلۡ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ
بِكُمۡ رَحۡمَةٗۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ١٧﴾.

المناسبة

قد تقدم لك بيان المناسبات بين بداية هذه السورة، ونهاية السورة السالفة، وأما قوله تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ...﴾ الآيات، فمناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما أمر نبيه[1] بتقواه والخوف منه، وحذر من طاعة الكفار والمنافقين والخوف منهم.. ضرب لنا الأمثال، ليبين أنه لا يجتمع خوف من الله وخوف من سواه، فذكر أنه ليس للإنسان قلبان، حتى يطيع بأحدهما ويعصي بالآخر، وإذا لم يكن للمرء إلا قلب واحد، فمتى اتجه لأحد الشيئين صد عن الآخر، فطاعة الله تصد عن طاعة سواه، وأنه لا تجتمع الزوجية والأمومة في امرأة، والبنوة الحقيقية والتبني في إنسان.

قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما أبان[2] فيما سلف أن الدعي ليس ابناً لمن تبناه، فمحمد - ﷺ - ليس أباً لزيد من حارثة، ثم أعقب ذلك بالإرشاد إلى أن المؤمن أخو المؤمن في الدين، فلا مانع أن يقول إنسان لآخر أنت أخي في الدين.. أردف ذلك ببيان أن محمداً - ﷺ - ليس أباً لواحدٍ من أمته، بل أبوته عامة، وأزواجه أمهاتهم، وأبوته أشرف من أبوة النسب، لأن بها الحياة الحقيقية. وهذه بها الحياة الفانية، بل هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فإذا حضهم على الجهاد ونحوه.. فذلك لارتقائهم الروحي، فإذاً كيف يستأذن الناس آباءهم وأمهاتهم حين أمرهم - ﷺ - بغزوة تبوك، وهو أشفق عليهم من الآباء، بل من أنفسهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية بما قبلها: أن الله سبحانه لما أبان فيما سلف أحكاماً شرعها لعباده، وكان فيها أشياء مما كان في الجاهلية، وأشياء مما كان في الإسلام، ثم أبطلت ونسخت.. أتبع ذلك بذكر ما فيه حث على التبليغ، فذكر أخذ العهد على النبيين أن يبلغوا رسالات ربهم، ولا سيما أولو العزم منهم، وهم الخمسة

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

المذكورون في الآية، كما ذكر في آية أخرى سؤال الله أنبياءه عن تصديق أقوامهم له، ليكون في ذلك تبكيت للمكذبين من الكفار فقال: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما أمر عباده بتقواه وعدم الخوف من سواه.. ذكر هنا تحقيق ما سلف، فأبان أنه أنعم على عباده المؤمنين، إذ صرف عنهم أعداءهم، وهزمهم حين تألبوا عليهم عام الخندق.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ...﴾ سبب نزول هذه الآية: ما[1] روى الضحاك عن ابن عباس، قال: إن أهل مكة منهم الوليد بن المغيرة، وشيبة بن ربيعة، دعوا النبي - ﷺ - أن يرجع عن قوله على أن يعطوه شطر أموالهم، وخوف المنافقون واليهود بالمدينة؛ إن لم يرجع قتلوه، فأنزل الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ...﴾.

قوله تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه الترمذي وحسنه عن ابن عباس، قال: قام النبي - ﷺ - يصلي، فخطر خطرةً، فقال المنافقون الذين يصلون معه: ألا ترى أن له قلبين، قلباً معكم، وقلباً معه، فأنزل الله عز وجل ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ...﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق خصيف عن سعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة قالوا: كان رجل يدعى ذا القلبين، فنزلت هذه الآية.

وأخرج ابن جرير من طريق قتادة عن الحسن مثله، وزاد: وكان يقول: لي نفس تأمرني، ونفس تنهاني.

وأخرج من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: نزلت في رجل من بني

(١) لباب النقول.

فهم قال: إن في جوفي لقلبين، أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد.

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي: أنها نزلت في رجل من قريش من بني جمع، يقال له: جميل بن يعمر.

قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ...﴾ الآية[1]، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه الشيخان والترمذي والنسائي، في جماعة آخرين عن ابن عمر: أن زيد بن حارثة مولى رسول الله - ﷺ -، ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد، حتى نزل القرآن: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ...﴾ الآية. فقال النبي ﷺ: أنت زيد بن حارثة بن شراحيل.

وكان من خبره أنه سبي من قبيلته «كلب»، وهو صغير، فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة، فلما تزوجها رسول الله ﷺ.. وهبته له، ثم طلبه أبوه وعمه، فخير بين أن يبقى مع رسول الله - ﷺ - أو أن يذهب مع أبيه، فاختار البقاء مع رسول الله ﷺ، فأعتقه وتبناه، وكانوا يقولون: زيد بن محمد، فلما تزوج رسول الله ﷺ زينب، وكانت زوجاً لزيد، وطلقها.. قال المنافقون: تزوج محمد امرأة ابنه، وهو ينهى عن ذلك، فنزلت الآية لنفي أن يكون للمتبنى حكم الابن حقيقةً في جميع الأحكام التي تعطى للابن.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه البيهقي في «الدلائل» عن حذيفة، قال: لقد رأيتنا ليلة الأحزاب ونحن صافون قعوداً، وأبو سفيان ومن معه من الأحزاب فوقنا، وقريظة أسفل منا، نخافهم على ذرارينا، وما أتت قط علينا ليلة أشد ظلمةً، ولا أشد ريحاً منها، فجعل المنافقون يستأذنون النبي - ﷺ -، يقولون: إن بيوتنا عورة، وما هي بعورة، فما يستأذن أحد منهم إلا أذن له، فيتسللون إذا استقبلنا النبي - ﷺ - رجلاً رجلاً، حتى علي فقال: ائتني بخبر القوم، فجئت فإذا الريح في عسكرهم، ما تجاوز عسكرهم شبراً، فوالله إني لأسمع صوت الحجارة

---

(١) لباب النقول.

في رحالهم وفرشهم، الريح تضربهم بها، وهم يقولون: الرحيل الرحيل، فجئت فأخبرته خبر القوم، وأنزل الله سبحانه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ﴿١٢﴾﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[1]: ما أخرجه ابن أبي حاتم والبيهقي في «الدلائل» من طريق كثير بن عبد الله بن عمرو المزني عن أبيه عن جده قال: خط رسول الله - ﷺ - الخندق عام الأحزاب، فأخرج الله سبحانه من بطن الخندق صخرةً بيضاء مدورةً، فأخذ رسول الله - ﷺ - المعول، فضربها ضربة صدعها، وبرق منها برق أضاء ما بين لابتي المدينة، فكبر وكبر المسلمون، ثم ضرب الثانية فصدعها، وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها، فكبر وكبر المسلمون، ثم ضربها الثالثة فكسرها، وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها، فكبر وكبر المسلمون، فسئل عن ذلك فقال: ضربت الأولى فأضاءت لي قصور الحيرة ومدائن كسرى، وأخبرني جبريل: أن أمتي ظاهرة عليها، ثم ضربت الثانية فأضاءت لي قصور قيصر من أرض الروم، وأخبرني جبريل: أن أمتي ظاهرة عليها، ثم ضربت الثالثة فأضاء لي قصور صنعاء، وأخبرني جبريل: أن أمتي ظاهرة عليها، فقال المنافقون: ألا تعجبون، يحدثكم ويمنيكم ويعدكم الباطل، ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى، وأنها تفتح لكم، وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرق، لا تستطيعون أن تبرزوا، فأنزل الله عز وجل قوله: ﴿وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ﴿١٢﴾﴾. قال: ابن أبي حاتم. وأخرج جويبر عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في متعب بن قشير الأنصاري، وهو صاحب هذه المقالة.

التفسير وأوجه القراءة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾؛ أي[2]: يا أيها النبي الكريم، خف الله بطاعته وأداء

---

(١) لباب النقول. (٢) المراغي.

فريضته، وواجب حقوقه عليك، وترك محارمه، وانتهاك حدوده.

والخلاصة: يا أيها المخبر عنا، المأمون على وحينا، اثبت ودم على تقوى الله تعالى.

وناداه[1] تعالى بالنبي لا باسمه؛ أي: لم يقل يا محمد، كما قال يا آدم ويا نوح ويا موسى ويا عيسى ويا زكريا ويا يحيى، تشريفاً له، فهو من الألقاب المشرفة، الدالة على علو جنابه ﷺ، وله ﷺ أسماء وألقاب غير هذا، وكثرة الأسماء والألقاب تدل على شرف المسمى، وأما تصريحه باسمه في قوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ فلتعليم الناس أنه رسول الله، وليعتقدوه كذلك، ويجعلوه من عقائدهم الحقة.

وقيل المعنى: يا أيها النبي اتق في نقض العهد، ونبذ الأمان، واثبت على التقوى، وزد منها، فإنه ليس لدرجات التقوى نهاية، وإنما حملت على الدوام، لأن المشتغل بالشيء لا يؤمر به، فلا يقال للجالس مثلاً: أجلس، أمره الله تعالى بالتقوى تعظيماً لشأن التقوى، فإن تعظيم المنادي، ذريعة إلى تعظيم شأن المنادى له.

وقال ابن عطاء: معناه يا أيها المخبر عن خبر صدق، والعارف بي معرفةً حقيقةً، اتق الله في أن يكون لك الالتنات إلى شيء سواي. انتهى.

ولما وجه إلى رسوله - ﷺ - الأمر بتقوى الولي الودود.. أتبعه بالنهي عن الالتفات نحو العدو والحسود، فقال: ﴿وَلَا تُطِعِ﴾؛ أي: لا توافق ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: المجاهرين للكفر كأهل مكة، ﴿وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾؛ أي: المظهرين للإسلام، المضمرين للكفر، كأهل المدينة فيما طلبوا منك، ولا تساعدهم على شيء، واحترس منهم، فإنهم أعداء الله والمؤمنين.

روي[2]: أن أبا سفيان وعكرمة بن أبي جعل وأبا الأعور عمر بن سفيان

---

(١) روح البيان.
(٢) النسفي.

السلمي، قدموا المدينة بعد غزوة أحد فنزلوا على عبد الله بن أبي بن سلول، وأعطاهم النبي الأمان على أن يكلموه، فقالوا: ارفض ذكر آلهتنا وقل: إنها تنفع وتشفع وندعك وربك، ووازرهم المنافقون على ذلك، فهم المسلمون بقتلهم فنزلت الآية؛ أي: اتق الله في نقض العهد، ولا تطع الكافرين من أهل مكة، والمنافقين من أهل المدينة فيما طلبوا منك.

وقيل المعنى[1]: أي ولا تطع الكافرين الذين يقولون لك: اطرد عنا أتباعك من ضعفاء المؤمنين حتى نجالسك، والمنافقين الذين يظهرون الإيمان والنصيحة، وهم لا يألونك وأصحابك إلا خبالاً، فلا تقبل لهم رأياً، ولا تستشرهم مستنصحاً بهم، فإنهم أعداؤك، ويودون هلاكك، وإطفاء نور دينك.

روي: أنه لما قدم رسول الله ـ ﷺ ـ. المدينة تابعه ناس من اليهود نفاقاً، وكان يلين لهم جانبه، ويظهرون له النصح خداعاً، فحذره الله منهم، ونبهه إلى عداوتهم، ثم علل ما تقدم بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿كان﴾[2] على الاستمرار والدوام، لا في جانب الماضي فقط ﴿عَلِيمًا﴾ بالمصالح والمفاسد، فلا يأمرك إلا بما فيه مصلحة، ولا ينهاك إلا عما فيه مفسدة، ﴿حَكِيمًا﴾ لا يحكم بما تقتضيه الحكمة البالغة.

قال أبو السعود: وهذه الجملة للأمر والنهي: مؤكدة لمضمون وجوب الامتثال. أو المعنى: أي إن الله سبحانه عليم بما تضمره نفوسهم، وما الذي يقصدونه من إظهار النصيحة، وبالذي تنطوي عليه جوانحهم، حكيم في تدبير أمرك وأمر أصحابك، وسائر شؤون خلقه، فهو أحق أن تتبع أوامره وتطاع.

والخلاصة: أنه تعالى هو العليم بعواقب الأمور، الحكيم في أقواله وأفعاله وتدبير شؤون خلقه، ثم أكد وجوب الامتثال، بأن الأمر هو مربيك في نعمه، الغامر لك بإحسانه، فهو الجدير أن يتبع أمره، ويجتنب نهيه، فقال: ﴿واتبع﴾ يا

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

محمد ﴿مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ﴾ من القرآن؛ أي: واعمل بما ينزله إليك ربك من وحيه، وآي كتابه في كل أمورك، ولا تتبع شيئاً مما عداه من مشورات الكافرين والمنافقين، ولا من الرأي البحث، فإن فيما أوحي إليك ما يغنيك عن ذلك.

ثم علل ذلك بما يرغبه في اتباع الوحي، وبما ينأى به عن طاعة الكافرين والمنافقين، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾؛ أي: بما تعمل أنت وأصحابك ﴿خَبِيرًا﴾ لا يخفى عليه شيء منه، ثم يجازيكم على ذلك بما وعدكم به من الجزاء، وجملة ﴿إن﴾ معللة لأمره باتباع ما أوحي إليه، والأمر له ـ ﷺ ـ أمر لأمته، فهم مأمورون باتباع القرآن، كما هو مأمور باتباعه، ولذا جاء بخطابه وخطابهم في قوله: ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ على قراءة الجمهور، بالفوقية للخطاب، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم.

وقرأ أبو عمرو السلمي وابن أبي إسحاق[1]: ﴿بما يعملون﴾ بياء الغيبة هنا، وفيما سيأتي في قوله: ﴿وكان الله بما يعملون بصيراً﴾؛ أي: بما يعمل الكفار والمنافقون، ويحتمل أن يكون من باب الالتفات، وقرأ باقي السبعة ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ بتاء الخطاب في الموضعين.

ثم بعد أن أمره باتباع ما أوحي إليه من القرآن، وترك مراسيم الجاهلية، أمره بتفويض أموره إليه وحده، فقال: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾؛ أي: اعتمد عليه في شؤونك، وفوض أمورك إليه وحده ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ سبحانه ﴿وَكِيلًا﴾؛ أي: حافظاً يحفظ من توكل عليه، وكفيلاً له في جميع شؤونه، فلا تلتفت في شيء من أمرك إلى غيره.

والخلاصة: حسبك الله، فإنه إن أراد لك نفعاً.. لم يدفعه عنك أحد، وإن أراد بك ضراً.. لم يمنعه منك أحد. قال الزروقي في «شرح الأسماء الحسنى»: الوكيل: هو المتكفل بمصالح عباده، والكافي لهم في كل أمر، ومن عرف أنه الوكيل.. اكتفى به في كل أمره، فلم يدبر معه، ولم يعتمد إلا عليه، وخاصيته

---

(١) البحر المحيط.

نفي الجوائح والمصائب وصرفها، فمن خاف ريحاً أو صاعقة أو نحوهما.. فليكثر منه، فإنه يصرف ويفتح له أبواب الخير والرزق.

ثم ذكر سبحانه مثلاً توطئةً وتمهيداً لما يعقبه من الأحكام القرآنية، التي هي من الوحي الذي أمره الله باتباعه، فقال: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: ما خلق الله سبحانه وتعالى ﴿لِرَجُلٍ﴾؛ أي: لشخص، وهو مخصوص بالذكر من الإنسان، والتنكير[1] فيه، و﴿من﴾ الاستغراقية في قوله: ﴿مِّن قَلْبَيْنِ﴾ لإفادة التعميم، والقلب: مضغة صغيرة في هيئة الصنوبرة، خلقها الله تعالى في الجانب الأيسر من صدر الإنسان،معلقة بعرق الوتين، وجعلها محلاً للعلم ﴿فِى جَوْفِهِۦ﴾؛ أي: في صدره، وذكره لزيادة التقرير، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾.

وقيل: ﴿من﴾ في قوله: ﴿مِّن قَلْبَيْنِ﴾: زائدة في المفعول، وإنما[2] امتنع تعدد القلب، لأنه معدن الروح الحيواني، المتعلق للنفس الإنساني، ومنبع القوى بأسرها، فيمتنع تعدده، لأنه يؤدي إلى التناقض، وهو أن يكون كل منهما أصلاً لكل القوى، وغير أصل لها. ا هـ. «كرخي».

قيل[3]: نزلت هذه الآية في أبي معمر جميل بن أسد الفهري، كما سبق، كان رجلاً لبيباً حافظاً لما يسمع، فقالت قريش: ما حفظ أبو معمر هذه الأشياء إلا من أجل أن له قلبين، وكان هو يقول: لي قلبان أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد، فلما هزم الله المشركين يوم بدر.. انهزم أبو معمر، فلقيه أبو سفيان، وإحدى نعليه بيده، والأخرى برجله، فقال له: يا أبا معمر ما حال الناس؟ فقال: انهزموا، فقال: ما بال إحدى نعليك في يدك، والأخرى في رجلك؟ فقال أبو معمر: ما شعرت إلا أنهما في رجلي، فعلموا يومئذ أنه لو كان له قلبان لما نسي نعله في يده.

---

(١) روح البيان.

(٢) الفتوحات.

(٣) المراح.

وقيل[1]: هي مثل ضربه الله للمظاهر؛ أي: كما لا يكون للرجل قلبان، كذلك لا تكون امرأة المظاهر أمه، حتى يكون لَهُ أُمَّان، وكذلك لا يكون الدعي ابناً لرجلين، وقيل: كان الواحد من المنافقين يقول: لي قلب يأمرني بكذا، وقلب ينهاني عن كذا، فنزلت الآية لرد النفاق، وبيان أن النفاق لا يجتمع مع الإسلام، كما لا يجتمع قلبان في جوف واحد.

﴿وَمَا جَعَلَ﴾ سبحانه ﴿أَزْوَاجَكُمُ﴾؛ أي: نساءكم وزوجاتكم أيها الرجال جمع زوج ﴿ٱلَّـٰٓـِٔى﴾ جمع التي ﴿تُظَـٰهِرُونَ مِنْهُنَّ﴾؛ أي: تقولون لهن، أنتن علينا كظهور أمهاتنا؛ أي: في التحريم، فإن معنى ظاهر من امرأته: قال لها: أنت علي كظهر أمي، فهو مأخوذ من الظهر بحسب اللفظ، كما يقال: لبى المحرم: إذا قال: لبيك، وأفف الرجل: إذا قال: أفٍّ، وتعديته بـ﴿من﴾ لتضمينه التجنب، وكان طلاقاً في الجاهلية، وكانوا يجتنبون المظاهر، منها كما يجتنبون المطلقة.

فمعنى أنت علي كظهر أمي[2]: أنت علي حرام كبطن أمي، فكنوا عن البطن بالظهر، لئلا يذكروا البطن، الذي ذكره يقارب ذكر الفرج، وإنما جعلوا الكناية بالظهر عن البطن، لأنه عمود البطن قوام البنية، ﴿أُمَّهَـٰتِكُمْ﴾؛ أي: كأمهاتكم في الحرمة.

والمعنى: ما جمع الله الزوجية والأمومة في امرأة، لأن الأم مخدومة لا يتصرف فيها، والزوجة خادمة يتصرف فيها، والمراد بذلك: نفي ما كانت العرب تزعمه، من أن الزوجة المظاهر منها كالأم؛ أي: ولم يجعل[3] الله سبحانه لكم أيها الرجال نساءكم اللاتي تقولون لهن: أنتن علينا كظهور أمهاتنا أمهاتكم، بل جعل ذلك من قبلكم كذباً، لا من قبل الله سبحانه، بل ألزمكم عقوبةً وكفارةً على ذلك، كما سيأتي بيانها في سورة المجادلة.

وقد كان الرجل في الجاهلية متى قال هذه المقالة لامرأته.. صارت حراماً

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

حرمةً مؤبدةً، فجاء الإسلام ومنع هذا التأبيد، وجعل الحرمة مؤقتة، حتى تؤدى كفارة ـ غرامة ـ لانتهاكه حرمة الدين، إذ حرم ما أحل الله له.

وقرأ قالون وقنبل[1]: ﴿ٱلَّٰٓـِٔي﴾ هنا، وفي المجادلة والطلاق بالهمز من غير ياء، وقرأ ورش: بهمزة مكسورة مسهلة كالياء، بدون ياء بعدها، وقرأ البزي وأبو عمرو: بياء ساكنة بعد ألف محضة بدلاً من الهمزة، وهو بدل مسموع لا مقيس، قال أبو عمرو بن العلاء: هي لغة قريش التي أمر الناس أن يقرؤوا بها، وقرأ باقي السبعة: بالهمز وياء بعدها.

وقرأ عاصم: ﴿تُظَٰهِرُونَ﴾ هنا بتاء الخطاب المضمومة مع كسر الهاء أيضاً، مضارع ظاهر، من باب فاعل الرباعي، وقرأ الحرميان: نافع وابن كثير وأبو عمرو: ﴿تظهرون﴾ بشد الظاء والهاء وفتح التاء بدون ألف، أصله: تتظهرون، وقرأ ابن عامر: ﴿تظاهرون﴾ بفتح التاء والهاء وتشديد الظاء، مضارع تظاهر، من باب تفاعل، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿تظاهرون﴾ بتخفيف الظاء وبالألف بحذف إحدى التاءين، لأن أصله: تتظاهرون، ووافقهما ابن عامر في المجادلة، وقرأ باقي السبعة في المجادلة: ﴿تظاهرون﴾ بشد الظاء، وقرأ ابن وثاب فيما نقل ابن عطية: ﴿يظهرون﴾ بضم الياء وسكون الظاء وكسر الهاء، مضارع أظهر، وفيما حكى أبو بكر الرازي عنه: بتخفيف الظاء، لحذفهم تاء المطاوعة وشد الهاء، وقرأ الحسن: ﴿تظهرون﴾ بضم التاء وتخفيف الظاء وشد الهاء، مضارع ظهر مشدد الهاء، وقرأ هارون عن أبي عمرو: ﴿تظهرون﴾ بفتح التاء والهاء وسكون الظاء مخفف الهاء، من ظهر الثلاثي، وفي مصحف أبي: ﴿تتظهرون﴾ بتاءين فتلك تسع قراءات.

﴿وَمَا جَعَلَ﴾ سبحانه وتعالى: ﴿أَدْعِيَآءَكُمْ﴾ الذين تبنيتم، جمع دعي فعيل بمعنى مفعول؛ أي: مدعو، وهو الذي يدعى ولداً لغير أبيه ويتخذ ابناً؛ أي: متبنى، بتقديم الباء الموحدة على النون، ﴿أَبْنَآءَكُمْ﴾؛ أي: كأبنائكم حقيقة في

---

(١) البحر المحيط بتصرف.

حكم الميراث والحرمة والنسب؛ أي[1]: ما جعل الدعوة والنبوة في رجلٍ واحدٍ، لأن الدعوة عرض، والبنوة: أصل في النسب، ولا يجتمعان في الشيء، وهذا أيضاً ردّ لما كانوا يزعمون، من أن دعي الرجل ابنه، فيجعلون له من الميراث مثل نصيب الذكر من أولادهم، ويحرمون نكاح زوجته إذا طلقها أو مات عنها.

والمعنى[2]: أي ولم يجعل الله من ادعى أحدكم أنه ابنه، وهو ابن غيره ابناً له بدعواه فحسب، وفي هذا إبطال لما كان في الجاهلية وصدر الإسلام، من أنه إذا تبنى الرجل ابن غيره.. أجريت عليه أحكام الابن النسبي، وقد تبنى رسول الله - ﷺ - قبل البعثة زيد بن حارثة، والخطَّاب عامر بن ربيعة، وأبو حذيفة سالماً.

ويجوز أن يكون نفي القلبين لتمهيد أصل يحمل عليه نفي الأمومة عن المظاهر منها، والبنوة عن المتبنى، كما مر.

والمعنى[3]: لما لم يجعل الله قلبين في جوف واحدٍ لأدائه إلى التناقض، وهو أن يكون كل منهما أصلاً لكل القوى، وغير أصلٍ، كذلك لم يجعل الله الزوجة أماً، والدعي ابناً لأحدٍ، يعني كون المظاهر منها أماً، وكون الدعي ابناً؛ أي: بمنزلة الأم والابن في الآثار والأحكام المعهودة بينهم في الاستحالة، بمنزلة اجتماع قلبين في جوف واحد.

وفيه إشارة إلى أن في القرابة النسبية خواص لا توجد في القرابة السببية، فلا سبيل لأحد أن يضع في الأزواج بالظهار وما وضع الله في الأمهات، ولا أن يضع في الأجانب بالتبني ما وضع الله في الأبناء، فإن الولد سر أبيه، فما لم يجعل الله فليس في مقدور أحد أن يجعله.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ المذكور[4] من قولكم للزوجة: أنت علي كظهر أمي، أو للدعي

---

(1) روح البيان.

(2) المراغي.

(3) روح البيان.

(4) النسفي.

أنت ابني ﴿قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ فقط؛ أي: قول تقولونه بألسنتكم لا حقيقة له ولا تأثير له إذ الإبن يكون بالولادة وكذلك الأم فلا تصير به المرأة أماً، ولا ابن الغير به ابناً، ولا يترتب على ذلك شيء من أحكام الأمومة والبنوة، وقيل: الإشارة[1] إلى الأخير فقط، لأنه المقصود من سياق الكلام؛ أي: دعاؤكم الدعي بقولكم: هذا ابني قولكم بألسنتكم، لا تأثير له في الأعيان، فهو بمعزل عن أحكام البنوة كما زعمتم، والأفواه جمع فم، كما سيأتي. قال الراغب: وكل موضع علق الله فيه حكم القول بالفم فإشارة إلى الكذب، وتنبيه على أن الاعتقاد لا يطابقه.

﴿وَاللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَقُولُ﴾ القول ﴿الْحَقَّ﴾ والصدق، والكلام المطابق للواقع الذي يجب اتباعه لكونه حقاً في نفسه، لا باطلاً، فيدخل تحته دعاء الأبناء لآبائهم، أو يحكم الحكم الحق، وهو أن غير الابن لا يكون ابناً، ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَهْدِي﴾ ويرشد ﴿السَّبِيلَ﴾؛ أي: سبيل الحق لا غيره، فدعوا أقوالكم وخذوا بقوله هذا؛ أي: يدل على الطريق الموصلة إلى الحق.

وقرأ الجمهور: ﴿يَهْدِي﴾ مضارع هدى، وقتادة: بضم الياء وفتح الهاء وشد الدال. ذكره أبو حيان.

والمعنى[2]: أي والله هو الصادق الذي يقول الحق، وبقوله يثبت نسب من أثبت نسبه، وبه تكون المرأة أماً إذا حكم بذلك، وهو يبيّن لعباده سبيل الحق، ويهديهم إلى طريق الرشاد، فدعوا قولكم وخذوا بقوله عزّ اسمه.

وفي هذا: إرشاد للعباد إلى قول الحق، وترك قول الباطل والزور.

وخلاصة ما سلف:

١ ـ أنه لم ير في حكمته أن يجعل للإنسان قلبين، لأنه إما أن يفعل بأحدهما مثل ما يفعل بالآخر، فأحدهما يكون نافلة غير محتاج إليه، وإما أن يفعل بهذا غير ما يفعل بذاك، وهذا يؤدي إلى التناقض في أعمال الإنسان،

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

فيكون مريداً للشيء كارهاً له، وظاناً له موقناً به في حال واحدة، وهذا لن يكون.

٢ ـ أنه لم ير أن تكون المرأة أماً لرجل وزوجاً له، لأن الأم مخدومة مخفوض لها الجناح، والمرأة مستخدمة في المصالح الزوجية على وجوه شتى.

٣ ـ لم يشأ في حكمته أن يكون الرجل الواحد دعياً لرجل وابناً له، لأن البنوة نسب أصيل عريق، والدعوة إلصاق عارض بالتسمية، لا غير، ولا يجتمع في الشيء الواحد أن يكون أصيلاً وغير أصيلٍ.

ولما ذكر أنه يقول الحق.. فصل هذا الحق بقوله: ﴿ٱدْعُوهُمْ﴾؛ أي: أنسبوا أدعياءكم الذين ألحقتم أنسابهم بكم ﴿لِآبَآئِهِمْ﴾؛ أي: إلى آبائهم الذين ولدوهم، فقولوا: زيد بن حارثة، ولا تقولوا: زيد بن محمد، وكذا غيره ﴿هُوَ﴾؛ أي: الدعاء لآبائهم، فالضمير[1] لمصدر ﴿ادعوا﴾، كما في قوله: ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾، ﴿أَقْسَطُ﴾ وأعدل ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه، وأصوب في حكمه من دعائكم إياهم لغير آبائهم، وأقسط أفعل تفضيل، قصد به الزيادة المطلقة.

والمعنى: بالغ في العدل والصدق، وهذه الجملة معللة لما قبلها.

وفي «كشف الأسرار»: هو أعدل وأصدق من دعائهم إياهم لغير آبائهم.

﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟﴾ أنتم أيها الناس، ولم تعرفوا آباء أدعيائكم من هم، حتى تنسبوهم إليهم، وتلحقوهم بهم ﴿فـ﴾ هم ﴿إخوانكم في الدين﴾ إن كانوا قد دخلوا في دينكم ﴿وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ إن كانوا محررين؛ أي: قولوا: هو مولى فلان، ولهذا قيل لسالم بعد نزول الآية: مولى حذيفة، وكان قد تبناه من قبل، قال الزجاج: ويجوز[2] أن يكون ﴿مواليكم﴾ أولياؤكم في الدين، وقيل المعنى: فإن كانوا محررين، ولم يكونوا أحراراً.. فقولوا: موالي فلان.

---

(١) المراغي.　　(٢) الشوكاني.

فائدة: قال بعضهم[1]: متى عرض ما يحيل معنى الشرط.. جعلت إن بمعنى إذ، وإذ: يكون للماضي، فلا منافاة ههنا بين حرفي الماضي والاستقبال، قال البيضاوي: في قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا﴾ إن تفعلوا جزم بـ﴿لَمْ﴾ فإنها لما صيرته؛ أي: المضارع ماضياً صارت كالجزء منه، وحرف الشرط كالداخل على المجموع، وكأنه قال: فإن تركتم الفعل، ولذلك ساغ اجتماعهما؛ أي: حرف الشرط ولم. انتهى.

﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها الناس ﴿جُنَاحٌ﴾؛ أي: ذنب وإثم ﴿فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ﴾؛ أي: فيما فعلتموه من تلك الدعوة مخطئين قبل النهي أو بعده، نسياناً أو سبق لسان.

قال ابن عطية: لا تتصف التسمية بالخطأ إلا بعد النهي، والخطأ: العدول عن الجهة المقصودة؛ أي: لا إثم عليكم فيما وقع منكم من ذلك خطأ من غير عمد بالنسيان، أو سبق اللسان، فقول القائل لغيره: يا بني، بطريق الشفقة، أو يا أبي، أو يا عمي، بطريق التعظيم، فإنه مثل الخطأ لا بأس به، ألا ترى أن اللغو في اليمين مثل الخطأ وسبق اللسان.

﴿وَلَكِن﴾ الجناح والإثم فيـ﴿مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾؛ أي: فيما قصدت قلوبكم به بعد النهي، على أن ما في محل الجر عطفاً على ﴿ما أخطأتم﴾، أو المعنى: ولكن ما تعمدت قلوبكم فيه الجناح، على أن محل ﴿ما﴾ الرفع على الابتداء محذوف الخبر؛ أي: ولكن الجناح والإثم عليكم فيما فعلتموه عامدين، من نسبة الأبناء إلى غير آبائهم مع علمكم بذلك.

وخلاصة ما سلف[2]: أنه لا إثم عليكم إذا نسبتم الولد لغير أبيه خطأً غير مقصود، كأن سهوتم أو سبق لسانكم بما تقولون، ولكن الإثم عليكم إذا قلتم ذلك متعمدين.

أخرج ابن جرير وابن المنذر وعن قتادة، أنه قال في الآية: لو دعوت رجلاً

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

لغير أبيه، وأنت ترى أنه أبوه.. لم يكن عليك بأس، ولكن ما تعمدت وقصدت دعاءه لغير أبيه.

وفي الحديث: «من دعي إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه.. فالجنة عليه حرام».

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿غَفُورًا﴾؛ أي: ستاراً لذنب من ظاهر زوجته، وقال الزور والباطل من القول، وذنب من ادعى ولد غيره ابناً له، إذا تابا ورجعا إلى أمر الله، وانتهيا عن قيل الباطل، بعد أن نهاهما - ﴿رَّحِيمًا﴾ بهما بقبول توبتهما، فلا يعاقبهما على ذلك بعد توبتهما.

فالمغفرة[1]: هو أن يستر القادر القبيح الصادر ممن تحت قدرته، والرحمة: هو أن يميل إلى شخص بالإحسان لعجز المرحوم إليه، لا لعوض.

ثم ذكر سبحانه لرسوله مزيةً عظيمةً، وخصوصيةً جليلةً لا يشاركه فيها أحد من العباد، فقال: ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾ محمد - ﷺ - ﴿أَوْلَىٰ﴾؛ أي: أرأف وأشفق وأحرس ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: النبي أشد[2] ولايةً ونصرةً لهم من أنفسهم، فإن النبي ﷺ لا يأمرهم إلا بما فيه خيرهم وصلاحهم، ولا ينهاهم إلا عما يضرهم ويؤذيهم في دنياهم وآخرتهم، أما النفس، فإنها أمارة بالسوء، وقد تجهل بعض المصالح، وتخفى عليها بعض المنافع.

روي: أن النبي ﷺ أراد غزوة تبوك، فأمر الناس بالخروج، فقال ناس: نشاور آباءنا وأمهاتنا فنزلت.

والمعنى[3]: النبي ﷺ أحرى وأجدر بالمؤمنين من أنفسهم في كل أمر من أمور الدين والدنيا، كما يشهد به الإطلاق على معنى أنه لو دعاهم إلى شيء ودعتهم نفوسهم إلى شيء آخر.. كان النبي أولى بالإجابة إلى ما يدعوهم إليه من

---

(١) المراح.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

إجابة ما تدعوهم إليه نفوسهم لأن النبي - ﷺ - لا يدعوهم إلا إلى ما فيه نجاتهم وفوزهم، وأما نفوسهم فربما تدعوهم إلى ما فيه هلاكهم، وبوارهم، كما قال تعالى حكايةً عن يوسف الصديق عليه السلام: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ فيجب أن يكون عليه السلام أحب إليهم من أنفسهم، وأمره أنفذ عليهم من أمرها، وآثر لديهم من حقوقها، وشفقتهم عليه أقدم من شفقتهم عليها، وأن يبذلوها دونه، ويجعلوها فداءه في الخطوب والحروب، ويتبعوه في كل ما دعاهم إليه، ويجعلوه مقدماً على ما يختارونه لأنفسهم، كما قال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾.

وخلاصة ذلك: أنه تعالى علم شفقته - ﷺ - على أمته، وشدة نصحه لهم، فجعله أولى بهم من أنفسهم، وفي الحديث: «ما من مؤمن إلا وأنا أولى به في الدنيا والآخرة»؛ أي: في الشفقة من أنفسهم ومن آبائهم، وفيه أيضاً: «مثلي ومثلكم، كمثل رجل أوقد ناراً، فجعل الفراش والجنادب يقعن فيها، وهو يذب عنها، وأنا آخذ بحجزكم عن النار، وأنتم تفلتون من يدي». وفيه أيضاً: «لا يؤمن أحدكم، حتى أكون أحب إليه من نفسه وولده وماله والناس أجمعين».

قال في «الأسئلة المقحمة»: وفي الآية إشارة إلى أن اتباع الكتاب والسنة أولى، من متابعة الآراء والأقيسة،حسبما ذهب إليه أهل السنة والجماعة.

وقيل[1]: المراد بـ﴿أَنفُسِهِمْ﴾ في الآية بعضهم، فيكون المعنى: أن النبي - ﷺ - أولى بالمؤمنين من بعضهم ببعض، وقيل: هي خاصة بالقضاء؛ أي: هو أولى بهم من أنفسهم فيما قضى به بينهم، وقيل: أولى بهم في الجهاد بين يديه، وبذل النفس دونه، والأول أولى.

﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ﴾؛ أي: زوجاته - ﷺ - ﴿أُمَّهَٰتُهُمْ﴾؛ أي: مثل أمهاتهم، ومنزلات منزلتهن في التحريم والاحترام والتوقير والإكرام، فلا يحل لأحد منهم أن يتزوج

---

(١) الشوكاني.

بواحدة منهن، كما لا يحل له أن يتزوج أمه كما قال تعالى: ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ فهذه الأمومة مختصة بتحريم النكاح لهن وبالتعظيم لجنابهن، وأما فيما عدا ذلك من النظر إليهن، والخلوة بهن، والمسافرة معهن، والميراث، فهن كالأجنبيات، فلا يحل النظر إليهن، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ ولا الخلوة بهن، ولا المسافرة معهن، ولا يرثن المؤمنين، ولا يرثونهن.

ثم إن[1] حرمة نكاحهن من احترام النبي - ﷺ - واحترامه واجب على الأمة، وتخصيص التحريم بهن، يدل على أنه لا يتعدى إلى عشيرتهن فلا يقال لبناتهن: أخوات المؤمنين، ولا لإخوانهن وأخواتهن أخوال المؤمنين وخالاتهم، ولهذا قال الشافعي: تزوج الزبير أسماء بنت أبي بكر، وهي أخت أم المؤمنين، ولم يقل: هي خالة المؤمنين.

وقال القرطبي: الذي يظهر لي: أنهن أمهات الرجال والنساء، تعظيماً لحقهن على الرجال والنساء، كما يدل عليه قوله: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ وهذا يشمل الرجال والنساء ضرورةً قال: ثم إن في مصحف أبي بن كعب: ﴿وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم﴾، وقرأ ابن عباس: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم وأزواجه أمهاتهم﴾.

قيل: كن[2] أمهات الرجال دون النساء، بدليل ما روي عن مسروق: إن امرأة قالت لعائشة: يا أمه، فقالت: لست لك بأم، إنما أنا أم رجالكم، فبان بذلك أن معنى الأمومة: إنما هو تحريم نكاحهن.

وظاهر قوله[3]: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ﴾: عموم كل من أطلق عليها أنها زوجة له ﷺ؛ أي: سواء دخل بهن أو لا، وسواء مات عنهن أو طلقهن، وقيل: لا يثبت هذا الحكم لمطلقة، وقيل: من دخل بها ثبتت حرمتها قطعاً.

---

(١) روح البيان.

(٢) الخازن.

(٣) البحر المحيط.

وفي «فتح الرحمٰن»: وإنما[1] جعلهن الله كالأمهات، ولم يجعل نبيه كالأب حتى قال: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ لأنه تعالى أراد أن أمته يدعون أزواجه بأشرف ما تنادى به النساء، وهو الأم، وأشرف ما ينادى به النبي - ﷺ - لفظ الرسول، ولأنه تعالى جعلهن كالأمهات، إجلالاً لنبيه، لئلا يطمع أحد في نكاحهن بعده، ولو جعله أباً للمؤمنين. . لكان أباً للمؤمنات أيضاً فيحرمن عليه، وذلك ينافي إجلاله وتعظيمه، ولأنه تعالى جعله أولى بنا من أنفسنا، وذلك أعظم من الأب في القرب والحرمة، إذ لا أقرب للإنسان من نفسه، ولأن من الآباء من يتبرأ من ابنه، ولا يمكنه أن يتبرأ من نفسه. انتهى.

ثم بين سبحانه: أن القرابة أولى بالإرث بها من الأخوة في الدين، فقال: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾؛ أي: ذوو القربات النسبية ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ﴾ وأحق ﴿بـ﴾إرث ﴿بعض﴾ آخر منهم، فالكلام على حذف مضاف.

وهذه الآية كانت ناسخة للتوارث بالحلف والمؤاخاة بين المسلمين، وكان[2] التوارث في بدء الإسلام بالحلف والمؤاخاة بين المسلمين، فكان المهاجري يرث الأنصاري دون قراباته، وذوي رحمه، للأخوة التي آخى بينهما رسول الله - ﷺ - حين الهجرة، فقد آخى بين أبي بكر - رضي الله عنه - وخارجة بن زيد، وبين عمر وشخص آخر، وبين الزبير وكعب بن مالك، ثم نسخ ذلك بهذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى: يجوز[3] أن يتعلق بـ﴿أَوْلَىٰ﴾ لأن أفعل التفضيل يعمل في الظروف.

والمعنى: هذه الأولوية، وهذا الاستحقاق، كائن وثابت في كتاب الله تعالى، ويجوز أن يتعلق بمحذوف على أنه حال من الضمير في ﴿أَوْلَىٰ﴾، والعامل فيها ﴿أَوْلَىٰ﴾ لأنها شبيهة بالظرف؛ أي: حالة كون أولويتهم ثابتةً في كتاب الله تعالى، ولا يجوز أن يكون حالاً من ﴿أولوا﴾ للفصل بالخبر، ولأنه لا عامل فيها

---

(١) فتح الرحمٰن.
(٢) المراغي.
(٣) الفتوحات.

على مذهب الجمهور. انتهى. من «الكرخي».

والمراد بالكتاب: اللوح المحفوظ، أو القرآن، أو آية المواريث، وقوله: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: الأنصار ﴿وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ يجوز في ﴿من﴾ وجهان:

أحدهما: أنها من الجارة للمفضل عليه، كهي في زيد أفضل من عمرو، المعنى عليه: وأولو الأرحام والقرابات، أولى بالإرث من المؤمنين والمهاجرين الأجانب.

والثاني: أنها للبيان، جيء بها بياناً لأولي الأرحام، فتتعلق بمحذوف، **والمعنى**: وأولو الأرحام الكائنون من المؤمنين والمهاجرين، أولى بالإرث من الأجانب. ا هـ. «سمين».

والمعنى[1]: أي وأولو الأرحام أولى بالإرث بحق القرابة، من إرث المؤمنين بحق الدين، ومن إرث المهاجرين بحق الهجرة، فيما كتبه الله سبحانه، وفرضه على عباده.

والخلاصة: أن هذه الآية أرجعت الأمور إلى نصابها، وأبطلت حكماً شرع لضرورةٍ عارضةٍ في بدء الإسلام، وهو الإرث بالتآخي في الدين، والتآخي حين الهجرة بين المهاجرين والأنصار، حين كان المهاجري يرث الأنصاري دون قرابته وذوي رحمه.

ثم استثنى من ذلك الوصية، فقال: ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم﴾ وأصدقائكم؛ أي: إلا أن تحسنوا إلى أصدقائكم من الأجانب ﴿مَّعْرُوفًاۚ﴾؛ أي: وصيةً من الثلث؛ أي[2]: إن أوصيتم فغير الوارثين أولى، وإن لم توصوا.. فالوارثون أولى بميراثكم وبما تركتم.

وهذا الاستثناء إما متصل من أعم ما تقدر فيه الأولوية من النفع، كقولك: القريب أولى من الأجنبي، إلا في الوصية، تريد أحق منه في كل نفع، من

---

(١) المراغي.
(٢) المراح.

ميراثٍ وهبةٍ وهديةٍ وصدقة وغير ذلك، إلا في الوصية، والمراد بالأولياء: من يوادونهم ويصادقونهم، ومن يوالونهم ويؤاخونهم، وبفعل المعروف الوصية؛ أي: التوصية بثلث المال، أو أقل منه، لا بما زاد عليه.

والمعنى: وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كل نفع، من ميراثٍ وهبةٍ وهديةٍ وصدقةٍ وغير ذلك، إلا أن تفعلوا إلى أصدقائكم معروفاً بتوصيةٍ لهم من ثلث المال، فهم أولى بالوصية، لأنه لاوصية لوارث، ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعاً؛ أي: الأقارب أحق بالميراث من الأجانب، لكن فعل التوصية أولى للأجانب من الأقارب، لأنه لا وصية لوارث.

ومعنى الآية: أن الله سبحانه لما نسخ التوارث بالحلف والهجرة.. أباح أن يوصى لهم.

ثم بين أن هذا الحكم هو الأصل في الإرث، وهو الحكم الثابت في كتابه، الذي لا يغير ولا يبدل، فقال: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ﴾ المذكور في الآيتين: من أولوية النبي - ﷺ - بأنفسهم، ونسخ الميراث بالهجرة والمحالفة والمعاقدة، ورده إلى ذوي الأرحام من القرابات ﴿فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ متعلق بقوله: ﴿مَسْطُورًا﴾؛ أي: مكتوباً؛ أي: كان ذلك المذكور من الحكمين مثبتاً في اللوح المحفوظ، أو مكتوباً في القرآن الكريم.

والمعنى: أي[1] إن هذا الحكم، وهو كون أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض: حكم من الله تعالى مقدر مكتوب في الكتاب، الذي لا يبدل ولا يغير وإن كان قد شرع غيره في وقتٍ ما لمصلحةٍ عارضةٍ، وحكمةٍ بالغةٍ، وهو يعلم أنه سيغيره إلى ما هو جارٍ في قدره الأزلي، وقضائه التشريعي.

واعلم: أنه[2] لا توارث بين المسلم والكافر، ولكن صحت الوصية بشيء من مال المسلم للذمي، لأنه كالمسلم في المعاملات، وصحت الوصية بعكسه؛ أي: من الذمي للمسلم، ولذا ذهب بعضهم إلى أن المراد بالأولياء: هم الأقارب

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

من غير المسلمين؛ أي: إلا أن توصوا لذوي قرابتكم بشيء، وإن كانوا من غير أهل الإيمان، وذلك فإن القريب غير المسلم، يكون كالأجنبي، فتصح الوصية له مثله، وأما الوصية لحربي فلا تصح مطلقاً؛ أي: قريباً أو أجنبياً، لأنه ليس من أهل المواساة، والمعروف له كتربية الحية الضارة لتلدغه، وندبت الوصية.عند الجمهور في وجوه الخير، لتدارك التقاصير.

والظرف في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾: متعلق بمحذوف، تقديره: واذكر يا محمد لقومك، أو ليكن ذكر منك، يعني لا تنس قصة وقت أخذنا من الأنبياء كافةً عند تحميلهم الرسالة ﴿مِيثَٰقَهُمْ﴾؛ أي: عهودهم المؤكدة باليمين على تبليغ الرسالة، والدعوة إلى التوحيد والدين الحق.

ثم خصص سبحانه بعض النبيين بالذكر بعد التعميم الشامل لهم ولغيرهم فقال: ﴿وَمِنكَ﴾؛ أي: وأخذنا منك يا حبيبي خاصةً، وقدم تعظيماً وإشعاراً بأنه أفضل الأنبياء وأولهم في القرب، وإن كان آخرهم في البعث، وفي الحديث: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»؛ أي: لا أقول هذا بطريق الفخر، ﴿وَ﴾ أخذنا ﴿من نوح﴾ شيخ الأنبياء وأول الرسل بعد الطوفان ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ الخليل ﴿وَمُوسَىٰ﴾ الكليم ﴿وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ روح الله وكلمته خصهم[1] بالذكر مع اندراجهم في النبيين، للإيذان بمزيد فضلهم، وكونهم من مشاهير أرباب الشرائع، وأساطين أولي العزم من الرسل، قال الزجاج: وأخذ الميثاق حين أخرجوا من صلب آدم مثل الذر، ثم أكد ما أخذه على النبيين من الميثاق، بتكرير ذكره ووصفه بالغلظ، فقال: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم﴾؛ أي: من النبيين ﴿مِّيثَٰقًا﴾؛ أي: عهداً مؤكداً وثيقاً ﴿غَلِيظًا﴾؛ أي: شديداً على الوفاء بما التزموا من تبليغ الرسالات، وأداء الأمانات، وهذا هو الميثاق الأول بعينه، والتكرير لبيان هذا الوصف، ويجوز أن يكون قد أخذ الله عليهم الميثاق مرتين، فأخذ عليهم في المرة الأولى مجرد الميثاق بدون تغليظ ولا تشديد، ثم أخذه عليهم ثانياً مغلظاً مشدداً.

---

(١) روح البيان.

والمعنى[1]: أي واذكر أيها الرسول الكريم، العهد والميثاق الذي أخذه الله تعالى على أولى العزم الخمسة، وبقية الأنبياء، ليقيمن دينه ويبلغن رسالته، ويتناصرن، كما قال في آية أخرى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ﴾ الآية. ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ بسؤالهم عما فعلوا حين الإرسال كما قال: ﴿وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وقد جرت العادة أن الملك إذا أرسل رسولاً وأمره بشيء، وقبله.. كان ذلك ميثاقاً عليه، فإذا أعلمه بأنه سيسأله عما يقول، ويفعل.. كان ذلك تغليظاً للميثاق، حتى لا يزيد ولا ينقص في الرسالة.

فإن قلت: لم[2] قدم النبي - ﷺ - في هذه الآية، وقدم نوحاً في آية ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ الآية؟

قلت: قدمه - ﷺ - هنا إظهاراً لشرفه وفضله عليهم - ﷺ - عليهم أجمعين، وقدم نوحاً هناك، لأن الآية سيقت لوصف ما بعث به نوح من العهد القديم، وما بعث به نبينا من العهد الحديث، وما بعث به من توسطهما من الأنبياء المشاهير، فكان تقديم نوح فيها أشد مناسبةً للمقصود من بيان أصالة الدين وقدمه. ا هـ. «كرخي».

ثم بين علة أخذ الميثاق على النبيين، فقال: ﴿لِّيَسْـَٔلَ﴾ الله سبحانه ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾؛ أي: الأنبياء ﴿عَن صِدْقِهِمْ﴾ في تبليغ الرسالة إلى قومهم، وفي هذا وعيد لغيرهم، لأنهم إذا كانوا يسألون عن ذلك فكيف غيرهم.

وقيل: ليسأل الأنبياء عما أجابهم به قومهم، كما في قوله: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾ و(اللام) فيه: لام كي، إما متعلقة بـ﴿أَخَذْنَا﴾؛ أي: وأخذنا من هؤلاء الأنبياء ميثاقهم، لكي نسأل المرسلين عما أجابتهم به أممهم، وما فعل أقوامهم فيما بلغوهم عن ربهم من الرسالة، وقيل: متعلق بمحذوف مستأنف، مسوق لبيان ما هو داع، إلى ما ذكر من أخذ الميثاق وغاية

(١) المراغي. (٢) الفتوحات.

له، لا بـ﴿أخذنا﴾ فإن المقصود نفس الميثاق، ثم بيان الغرض منه بياناً قصدياً، كما ينبيء عنه تغيير الأسلوب بالالتفات إلى الغيبة.

والمعنى: فعل الله ذلك ليسأل يوم القيامة الأنبياء الذين صدقوا عهودهم عما قالوا لقومهم وفي الخبر: «أنه يسأل القلم يوم القيامة، فيقول: ما فعلت بأمانتي؟ فيقول: يا رب سلمتها إلى اللوح، ثم يصير القلم يرتعد مخافة أن لا يصدقه اللوح، فيسأل اللوح، فيقر بأن القلم قد أدى الأمانة، وأنه قد سلمها إلى إسرافيل، فيقول لإسرافيل: ما فعلت بأمانتي التي سلمها إليك اللوح؟ فيقول: سلمتها إلى جبريل، فيقول لجبريل: ما فعلت بأمانتي؟ فيقول: سلمتها إلى أنبيائك، فيسأل الأنبياء فيقولون: سلمناها إلى خلقك، فذلك قوله: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ قال القرطبي: إذا كان الأنبياء يسألون، فكيف من سواهم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ﴾؛ أي: هيأ في الآخرة ﴿لِلْكَـٰفِرِينَ﴾؛ أي: للمكذبين الرسل ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ أي: وجيعاً معطوف على محذوف، دل عليه ﴿لِّيَسْـَٔلَ...﴾ إلخ، فكأنه قال: فأثاب المؤمنين بهم، وأعد للكافرين بهم عذاباً أليماً، وقيل: إنه قد حذف من الثاني ما أثبت مقابله في الأول، ومن الأول ما أثبت مقابلة في الثاني، والتقدير: ليسأل الصادقين عن صدقهم فأثابهم، ويسأل الكافرين عما أجابوا به رسلهم، وأعد لهم عذاباً أليماً.

ويجوز أن يكون الكلام قد تم عند قوله: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ وتكون جملة ﴿وَأَعَـدَّ لَهُمْ﴾ مستأنفة، لبيان ما أعده للكفار.

غزوة الأحزاب المسماة بغزوة الخندق

وخلاصة هذه القصة، على ما قاله أرباب السير: أن نفراً من اليهود قدموا على قريش في شوال سنة، خمس من الهجرة بمكة، فدعوهم إلى حرب رسول الله ـ ﷺ ـ، وقالوا لهم: إن دينكم خير من دينه، ثم جاؤوا غطفان وقيساً وغيلان، وحالفوا جميع هؤلاء أن يكونوا معهم عليه، فخرجت هذه القبائل، ومعها قادتها وزعماؤها، ولما سمع رسول الله ـ ﷺ ـ بمسيرهم.. أمر المسلمين

بحفر خندق حول المدينة، بإشارة سلمان الفارسي، وعمل فيه رسول الله ـ ﷺ ـ والمسلمون، وأحكموه، وكان رسول الله ـ ﷺ ـ يرتجز بكلمات ابن رواحة، ويقول:

لاَهُمَّ لَوْلاَ أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا ... وَلاَ تَصَدَّقْنَا وَلاَ صَلَّيْنَا
فَأَنْزِلَنْ سَكِيْنَةً عَلَيْنَا ... وَثَبِّتِ الأَقْدَامَ إِنْ لاَقَيْنَا
وَالْمُشْرِكُوْنَ قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا ... إِذَا أَرَادُوْا فِتْنَةً أَبَيْنَا

وفي أثناء العمل برزت لهم صخرة بيضاء في بطن الخندق، فكسرت حديدهم، وشقت عليهم، فلما علم بها ـ ﷺ ـ. أخذ المعول من سلمان، وضربها به ضربة صدعها، وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها ـ جانبي المدينة ـ حتى كأن مصباح في جوف بيت مظلم، فكبر رسول الله ـ ﷺ ـ تكبير فتح، وكبر المسلمون، وهكذا مرة ثانيةً وثالثةً، فكانت تضيء وكان التكبير، ثم قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ضربت ضربتي الأولى، فبرق البرق الذي رأيتم، فأضاء لي منها قصور الحيرة ومدائن كسرى، كأنها أنياب الكلاب، وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها، ثم ضربت ضربتي الثانية، فبرق البرق الذي رأيتم، أضاء لي منها قصور قيصر من أرض الروم، كأنها أنياب الكلاب، فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها، ثم ضربت الثالثة، فبرق البرق الذي رأيتم، أضاء لي منها قصور صنعاء، كأنها أنياب الكلاب، فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها، فابشروا» فاستبشر المسلمون، وقالوا: الحمد لله الذي صدقنا وعده، فقال المنافقون: ألا تعجبون! يمنيكم، ويعدكم الباطل، ويخبركم أنه ينظر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى، وأنها تفتح لكم، وإنكم إنما تحفرون الخندق من الفرق، لا تستطيعون أن تبرزوا، فنزل: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ...﴾ إلخ. ونزل: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ...﴾ الآية.

ولما اجتمع هؤلاء الأحزاب، الذين حزبهم اليهود، وأتوا إلى المدينة.. رأوا الخندق حائلاً بينهم وبينها، فقالوا: والله هذه مكيدة ما كانت العرب تكيدها، ووقعت مصادمات بين القوم كراً وفراً، فمن المشركين من كان يقتحم

الخندق فيرمى بالحجارة، ومنهم من يقتحمه بفرسه فيهلك.

ثم إن نعيم بن مسعود بن عامر من غطفان، أتى رسول الله ـ ﷺ ـ فأعلمه أنه أسلم، وأن قومه لم يعلموا بذلك، فقال ـ ﷺ ـ: إنما أنت فينا رجل واحد، فخذل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة» فأتى قريظة وقال لهم: لا تحاربوا مع قريش وغطفان، إلا إذا أخذتم منهم رهناً من أشرافهم، يكونون بأيديكم تقية لكم، على أن يقاتلوا معكم محمداً، لأنهم رجعوا وسئموا حربه، وإنكم وحدكم لا تقدرون عليه، وذهب إلى قريش وإلى غطفان، فقال لهم: إن اليهود يريدون أن يأخذوا منكم رهناً، يدفعوها لمحمد فيضرب أعناقها، ويتحدون معه على قتالكم، لأنهم ندموا على ما فعلوا من نقض العهد، وتابوا، وهذا هو المخرج الذي اتفقوا عليه.

وحينئذ تخاذل اليهود والعرب، دب بينهم ودبيب الفشل، ومما زاد في فشلهم أن بعث الله عليهم ريحاً في ليلةٍ شاتيةٍ شديدة البرد، فجعلت تكفىء قدورهم، وتطرح آنيتهم، وقد قام رسول الله ـ ﷺ ـ ليلةً يصلي على التل الذي عليه مسجد الفتح، ثم يلتفت ويقول: «هل من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم» فعل ذلك ثلاث مرات، فلم يقم رجل واحد من شدة الخوف، وشدة الجوع، وشدة البرد، فدعا حذيفة بن اليمان، وقال: «ألم تسمع كلامي منذ الليلة» قال حذيفة: فقلت: يا رسول الله منعني أن أجيبك الضر والقر، قال: «انطلق حتى تدخل في القوم، فتسمع كلامهم، وتأتيني بخبرهم، اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، حتى ترده إلي، انطلق ولاتحدث شيئاً حتى تأتيني»، فانطلق حذيفة بسلاحه، ورفع رسول الله ـ ﷺ ـ يده يقول: «يا صريخ المكروبين، ويا مجيب المضطرين، اكشف همي وغمي وكربي، فقد ترى حالي وحال أصحابي»، فنزل جبريل وقال: إن الله قد سمع دعوتك وكفاك هول عدوك، فخر رسول الله ـ ﷺ ـ على ركبتيه، وبسط يديه وأرخى عينيه وهو يقول: «شكراً شكراً كما رحمتني ورحمت أصحابي»، وذهب حذيفة إلى القوم، فسمع أبا سفيان يقول: يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام لقد هلك الكراع والخف

وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من هذه الريح ما ترون، فارتحلوا فإني مرتحل، ووثب على جمله، وشرع القوم يقولون: الرحيل الرحيل، والريح تقلبهم على بعض أمتعتهم وتضربهم بالحجارة، ولم تجاوز عسكرهم، ورحلوا وتركوا ما استثقلوا من متاعهم، فلما رجع أخبر رسول الله ـ ﷺ ـ، فضحك حتى بدت أنيابه في سواد الليل، وقال: «الآن نغزوهم ولا يغزونا». ا هـ. ملخصاً من كتب السيرة، وقد بسط أهل السير في هذه الوقعة بما هو معروف، فلا نطيل بذكرها.

ثم شرع سبحانه في تفصيلها فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وصدقوا بالله ورسوله ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: اشكروا إنعام الله عليكم بالنصرة، فمعنى ذكر النعمة: شكرها، ﴿إِذْ﴾ ظرف للنعمة؛ أي: إنعام الله عليكم بالنصرة حين ﴿جَآءَتْكُمْ﴾ وأحاطت بكم ﴿جُنُودٌ﴾ مجندة، وجموع مجمعة، وعساكر مسلحة، والمراد بهم: جنود الأحزاب، الذين تحزبوا على رسول الله ـ ﷺ ـ، وغزوه بالمدينة، وهم أبو سفيان بن حرب بقريش، ومن معهم من الألفاف، وعيينة بن حصن الفزاري، ومن معه من قومه غطفان، وبنو قريظة والنضير، فضايقوا المسلمين مضايقةً شديدةً، كما وصف الله سبحانه في هذه الآية، وكانت هذه الغزوة في شوالٍ سنة خمس من الهجرة، قاله ابن إسحاق، وقال ابن وهب وابن القاسم عن مالك: كانت في سنة أربع، وكانت جملة الأحزاب اثني عشر ألفاً، وجملة المسلمين ثلاثة آلاف، ومكثوا في حفر الخندق ستة أيام، وقيل: خمسة عشر، وقيل: أربعةً وعشرين، وقيل: شهراً، فلما فرغوا من حفره أقبلت قريش، والقبائل، فحاصروا المسلمين خمسة عشر يوماً، وقيل: أربعةً وعشرين يوماً، والخندق بينهم وبين المسلمين، حتى هزمهم الله سبحانه وتعالى بريح وجنود لم يروها، بلا مقاتلة أحدٍ من المسلمين.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ ليلاً من جانب القهار، عطف على جاءتكم ﴿رِيحًا﴾ شديدةً ناصرةً لكم، وهي ريح الصبا، وهي تهب من جانب المشرق، والدبور من قبل المغرب، قال ابن عباس: قالت الصبا للدبور؛ أي: للريح الغريبة: اذهبي بنا

ننصر رسول الله - ﷺ -، فقالت: إن الحرائر لا تهب ليلاً، فغضب الله عليها فجعلها عقيماً، وفي الحديث: «نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور».

﴿و﴾ أرسلنا عليهم أيضاً ﴿جنوداً﴾ عظيمةً هائلةً ﴿لَّمْ تَرَوْهَا﴾؛ أي: لا ترون أنتم أيها المسلمون تلك الجنود، وهم الملائكة، قيل: كانوا ألفاً، روي[1] أن الله تعالى بعث على المشركين ريحاً باردةً، في ليلة شاتية، ولم تجاوز عسكرهم، فأحصرتهم وسفت التراب في وجوههم، وبعث الله عليهم أيضاً الملائكة، فقلعت الأوتاد، وقطعت أطناب الفساطيط، وأطفأت النيران، وأكفأت القدور، ونفثت في روعهم الرعب، وكبرت في جوانب معسكرهم، حتى سمعوا التكبير وقعقعة السلاح، واضطربت الخيول، ونفرت، فصار سيد كل حي يقول لقومه: يا بني فلان: هلموا إلي، فإذا اجتمعوا قال لهم: النجاء النجاء؛ أي: الإسراع الإسراع، فانهزموا من غير قتال، وارتحلوا ليلاً، وحملوا ما خف عليهم من متاعهم، وتركوا ما استثقلوه منه.

والمعنى[2]: أي تذكروا أيها المؤمنون نعم الله، التي أسبغها عليكم، حين حوصرتم أيام الخندق، وحين جاءتكم جنود الأحزاب من قريش وغطفان، ويهود بني النضير أجلاهم رسول الله - ﷺ - من المدينة إلى خيبر، فأرسلنا عليهم ريحاً باردةً، في ليلة باردةً، أحصرتهم وسفت التراب في وجوههم، وأمر ملائكته فقلعت الأوتاد، وقطعت الأطناب، وأطفأت النيران، وأكفأت القدور، وماجت الخيل بعضها في بعض، وقذف الرعب في قلوب الأعداء، حتى قال طليحة بن خويلد الأسدي: إن محمداً قد بدأكم بالسحر، فالنجاة النجاة، فانهزموا من غير قتال.

والخلاصة: أنه تعالى يمتن على عباده المؤمنين بذكر النعم التي أنعم بها عليهم، إذ صرف عنهم أعداءهم حين تألبوا عليهم، وتحزبوا عام الخندق.

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

وقرأ الحسن[1]: ﴿وجنوداً﴾ بفتح الجيم، والجمهور: بالضم، وقرأ أبو عمرو في رواية وأبو بكر في رواية: ﴿لم يروها﴾ بياء الغيبة؛ أي: الكفار، وباقي السبعة والجمهور: بتاء الخطاب؛ أي: أيها المسلمون.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ قرأ[2] الجمهور: بتاء الخطاب؛ أي: بما تعملون أيها المسلمون من ترتيب الأسباب، وحفر الخندق، واستنصاركم به، وتوكلكم عليه، ﴿بَصِيرًا﴾؛ أي: رائياً، ولذلك فعل ما فعل من نصركم عليهم، وعصمتكم من شرهم، فلا بد لكم من الشكر على هذه النعمة الجليلة، باللسان والجنان والأركان.

وقرأ أبو عمرو بالتحتية؛ أي: بما يعمله الكفار من العناد لله ولرسوله، والتحزب للمسلمين، واجتماعهم عليهم من كل جهة؛ أي: وكان الله سبحانه عليماً بجميع أعمالكم، من حفركم للخندق، وترتيب وسائل الحرب، لإعلاء كلمته، ومقاساتكم من الجهد والشدائد ما لا حصر له، بصيراً بها، لا يخفى عليه شيء منها، وهو يجازيكم عليها، ولا يظلم ربك أحداً.

ثم زاد الأمر تفصيلاً وبياناً، فقال: ﴿إِذْ جَآءُوكُم﴾: ﴿إِذْ﴾: هذه وما بعدها: بدل من ﴿إِذْ﴾ الأولى، والعامل في هذه: هو العامل في تلك، وقيل: منصوبة بمحذوف، هو اذكر؛ أي: اذكروا أيها المؤمنون: هول إذ جاءكم أعداؤكم الأحزاب ﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾؛ أي: من أعلى الوادي من جهة المشرق، والذين جاؤوا من هذه الجهة هم غطفان، وسيدهم عيينة بن حصن، وهوازن، وسيدهم عوف بن مالك، وأهل نجد، وسيدهم طليحة بن خويلد الأسدي، وانضم إليهم عوف بن مالك، وبنو النضير.

﴿و﴾ جاؤوكم ﴿من أسفل منكم﴾؛ أي: من أسفل الوادي من جهة المغرب، من ناحية مكة، وهم قريش ومن معهم من الأحابيش، وسيدهم أبو سفيان بن حرب، وجاء أبو الأعور السلمي، ومعه حيي بن أخطب اليهودي، في

---

(١) البحر المحيط. (٢) الشوكاني.

يهود بني قريظة من وجه الخندق، ومعهم عامر بن الطفيل.

وقوله: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾: معطوف على ما قبله، داخل في حكم التذكير، والزيغ: الميل عن الاستقامة؛ أي: وإذ مالت الأبصار عن كل شيء، فلم تنظر إلا إلى عدوها مقبلاً من كل جانب، وقيل: شخصت من فرط الهول والحيرة.

والمعنى[1]: واذكروا حين مالت الأبصار عن مستوى نظرها، حيرةً وشخوصاً، لكثرة ما رأت من العَدد والعُدد، فإنه كان مع قريش ثلاث مئة فرس، وألف وخمس مئة بعير.

﴿و﴾ إذ ﴿بلغت﴾ ووصلت ﴿ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾: جمع حنجرة، وهي منتهى الحلقوم؛ أي: ارتفعت القلوب عن أماكنها للخروج، فزعاً وخوفاً، ووصلت في الارتفاع إلى رأس الحلقوم وأسفله، وهو مدخل الطعام والشراب، والحنجرة: منتهى الحلقوم وطرفه الأسفل؛ أي: بلغت رأس الغلصمة والحنجرة من خارج رعباً وغماً، لأن الرئة تنتفخ من شدة الفزع والغم، فيرتفع القلب بارتفاعها إلى رأس الحنجرة، وهو مشاهد في مرض الخفقان من غلبة السوداء.

قال قتادة: شخصت عن أماكنها، فلولا أنه ضاق الحلقوم بها عن أن تخرج.. لخرجت، وقال بعضهم: كادت تبلغ، فإن القلب إذا بلغ الحنجرة، مات الإنسان، فعلى هذا يكون الكلام تمثيلاً، لاضطراب القلوب من شدة الخوف، وإن لم تبلغ الحناجر حقيقةً.

وقوله: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ﴾ يا من يظهر الإسلام على الإطلاق ﴿ٱلظُّنُونَا۠﴾ المختلفة، المخلصون يظنون النصر والظفر، والمنافقون يظنون خلاف ذلك، معطوف على ﴿زَاغَتِ﴾. وصيغة المضارع فيه لاستحضار الصورة، والدلالة على الاستمرار، وقال الحسن: ظن المنافقون أنه يستأصل محمد وأصحابه، وظن المؤمنون أنه ينصر، وقيل: الآية خطاب للمنافقين، والأولى[2] ما قاله الحسن.

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

واختلف القراء في الألف التي في ﴿ٱلظُّنُونَا۠﴾، وكذا ﴿السبيلا﴾ و﴿الرسولا﴾، كما سيأتيان في آخر هذه السورة، فأثبت هذه الألفات نافع وابن عامر وأبو بكر وصلاً ووقفاً، ورويت هذه القراءة عن أبي عمرو والكسائي، وتمسكوا بخط المصحف العثماني، وبخط جميع المصاحف في جميع البلدان، فإن الألف فيها كلها ثابتة، واختار هذه القراءة أبو عبيد، إلا أنه قال: لا ينبغي للقارىء أن يدرج القراءة بعدهن، بل يقف عليهن، وتمسكوا أيضاً بما في أشعار العرب من مثل هذا، وأنشد أبو عمرو في «كتاب الألحان»:

إِذَا ٱلْجَوْزَاءُ أَرْدَفَتِ ٱلثُّرَيَّا ظَنَنْتَ بِآلِ فَاطِمَةَ ٱلظُّنُوْنَا

وقرأ[1] أبو عمرو وحمزة والجحدري ويعقوب، بحذفها في الوصل والوقف معاً، وقالوا هي من زيادات الخط، فكتبت كذلك، ولا ينبغي النطق بها، وأما في الشعر فهو يجوز فيه للضرورة ما لا يجوز في غيره، وقرأ ابن كثير والكسائي وحفص وابن محيصن: بإثباتها وقفاً وحذفها وصلاً، وهذه القراءة راجحة باعتبار اللغة العربية، أما[2] إثباتها وقفاً، ففيه اتباع الرسم، وموافقة لبعض مذاهب العرب، لأنهم يثبتون هذه الألف في قوافي أشعارهم، وفي تصاريفها؛ اتباعاً للفتحة، والفواصل في الكلام كالمصارع، وقال أبو علي: هي رؤوس الآي، تشبه بالقوافي، من حيث إنها كانت مقاطع كما كانت القوافي مقاطع، وهذه الألف هي التي تسميها النحاة ألف الإطلاق، والكلام فيها معروف في علم النحو.

﴿هُنَالِكَ﴾ هو[3] في الأصل ظرف للمكان البعيد، لكن العرب تكني بالمكان عن الزمان، وبالزمان عن المكان، فهو إما ظرف زمان أو ظرف مكان لما بعده؛ أي: في ذلك المكان الهائل، أو في ذلك الدحض الذي تدحض فيه الأقدام ﴿ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ واختبروا بالحصر والرعب والخوف والجوع والبرد؛ أي:

---

(١) الشوكاني.

(٢) البحر المحيط.

(٣) روح البيان.

عوملوا معاملة من يختبر، فظهر المخلص من المنافق، والراسخ من المتزلزل ﴿وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾؛ أي: حركوا تحريكاً شديداً، وأزعجوا إزعاجاً قوياً، وذلك أن الخائف يكون قلقاً مضطرباً، لا يستقر على مكان، وتكرير حروف لفظه، تنبيه على تكرر معنى الزلل، ولكن صبروا وقاسوا الشدائد في طريق الحق ونصره، واجتهدوا إلى أن فتح الله مكة، واتسع الإسلام وبلاده وأهاليه.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿زلزلوا﴾ بضم الزاي الأولى، وكسر الثانية، على ما هو الأصل في المبني للمفعول، وقرأ أحمد بن موسى اللؤلؤي عن أبي عمرو: بكسر الزاي الأولى، قاله ابن خالويه، وقال الزمخشري: وعن أبي عمرو إشمام زاي: ﴿زلزلوا﴾. انتهى، كأنه يعني إشمامها الكسر، ووجه الكسر في هذه القراءة الشاذة: أنه أتبع حركة الزاي الأولى بحركة الثانية، ولم يعتد بالساكن، كما لم يعتد به من قال: منتن، بكسر الميم إتباعاً لحركة التاء، وهو اسم فاعل من أنتن، وقرأ الجمهور: ﴿زلزالاً﴾ بكسر الزاي، والجحدري وعيسى بفتحها، وكذا: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ①﴾، ومصدر فعلل من المضاعف يجوز فيه الكسر والفتح، نحو قلقل قلقالاً، وقد يراد بالمفتوح معنى اسم الفاعل، كصلصال بمعنى مصلصل؛ أي: مصوت.

ومعنى الآيتين: أي واذكروا حين مالت الأبصار عن سننها، وانحرفت عن مستوى نظرها، حيرةً ودهشةً، وخاف الناس خوفاً شديداً، وفزعوا فزعاً عظيماً، وظنوا مختلف الظنون، فمنهم مؤمن مخلص يستنجز الله وعده في إعلاء دينه ونصرة نبيه، ويقول هذا ما وعدنا الله ورسوله، ومنهم منافق وفي قلبه مرض، يظن أن محمداً وأصحابه سيستأصلون، ويستولي المشركون على المدينة، وتعود الجاهلية سيرتها إلى نحو ذلك من ظنون لا حصر لها، تجول في قلوب المؤمنين والمنافقين، على قدر ما يكون القلب عامراً بالإخلاص، مكتوباً له السعادة، أو متشككاً في اعتقاده، ليست له عزيمة صادقة، ثم ذكر أن هذه الشدائد محصت

---

(١) البحر المحيط.

المؤمنين، وأظهرت المنافقين فقال: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾؛ أي: حين ذاك اختبر الله المؤمنين، ومحصهم أشد التمحيص، فظهر المخلص من المنافق، والراسخ في الإيمان من المتزلزل، واضطربُوا اضطرباً شديداً من الفزع وكثرة العدو.

وقوله: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾: معطوف على ﴿وَإِذْ زَاغَتِ﴾، والتعبير بالمضارع، لحكاية الحال الماضية كما سيأتي؛ أي: واذكروا حين قال المنافقون، كمعتب بن قشير: ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾؛ أي: ضعف اعتقاد في الإيمان، لقرب عهدهم بالإسلام، والمراد بالمنافقين: عبد الله بن أبي وأصحابه، وبالذين في قلوبهم مرض: أهل الشك والاضطراب.

فإن قلت[١]: ما الفرق بين المنافق والمريض؟

قلت: المنافق من كذب الشيء تكذيباً لا يعتريه فيه شك، والمريض: من قال الله تعالى في حقه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ كذا في «الأسئلة المقحمة».

﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ من النصر والظفر على العدو، وإعلاء الدين وهم لم يقولوا رسول الله - ﷺ -، وإنما قالوه باسمه، ولكن الله ذكره بهذا اللفظ، ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾؛ أي: إلا وعد غرور، وهو بالضم لا غير، والقائل لذلك معتب بن قشير ومن تبعه، كما سبق؛ أي: إلا وعداً باطلاً يغرنا به، ويوقعنا فيما لا طاقة لنا به، ويسلخنا عن دين آبائنا، ويقول: إن هذا الدين سيظهر على الدين كله، وإنه سيفتح لنا فارس والروم، وها نحن أولاء قد حصرنا هاهنا، حتى ما يستطيع أحدنا أن يبرز لحاجته.

وكان القائلون بهذه المقالة نحو سبعين رجلاً من أهل النفاق والشك[٢]، وهذا القول المحكي عن هؤلاء هو كالتفسير للظنون المذكورة؛ أي: كان ظن هؤلاء هذا الظن، كما كان ظن المؤمنين النصر وإعلاء كلمة الله، ﴿وَ﴾ اذكروا

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

﴿إذ قالت طائفة﴾ وجماعة، ﴿مِّنْهُم﴾؛ أي: من المنافقين، قال مقاتل: هم بنو سالم من المنافقين، وقال السدي: هم عبد الله بن أبي وأصحابه، وقيل: هم أوس بن قيظي وأصحابه، والطائفة: تقع على الواحد فما فوقه، والقول الذي قالته هذه الطائفة هو قوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾؛ أي: يا أهل المدينة ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾؛ أي: لا إقامة ولا استقرار لكم ههنا في العسكر، أو لا موضع إقامة لكم ههنا جنب هذا العسكر العظيم لكثرة العدو، وغلبة الأحزاب، يريدون لا معسكر لكم ههنا.

وقرأ السلمي والأعرج واليماني وحفص والجحدري وأبو حيوة[1]: بضم الميم، فاحتمل أن يكون مكاناً؛ أي: لا مكان إقامة، واحتمل أن يكون مصدراً؛ أي: لا إقامة، وقرأ أبو جعفر وشيبة وأبو رجاء والحسن وقتادة والنخعي وعبد الله بن مسلم وطلحة، وباقي السبعة: بفتحها، واحتمل أيضاً المكان؛ أي: لا مكان قيام، واحتمل المصدر؛ أي: لا قيام لكم.

﴿فَٱرْجِعُوا۟﴾ إلى منازلكم بالمدينة ليكون ذلك أسلم لكم من القتل، وقد يكون المعنى: لا مقام لكم في دين محمد، فارجعوا إلى ما كنتم عليه من الشرك، وأسلموا محمد إلى أعدائه، ومرادهم الأمر بالفرار، لكنهم عبروا عنه بالرجوع ترويجاً لمقالهم، وإيذاناً بأنه ليس من قبيل الفرار المذموم، وقد ثبطوا الناس عن الجهاد، والرباط لنفاقهم ومرضهم، ولم يوافقهم إلا أمثالهم، فإن المؤمن من المخلص لا يختار إلا الله ورسوله.

وذلك أن رسول الله ـ ﷺ ـ والمسلمين خرجوا عام الخندق، حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع، والخندق بينهم وبين القوم، فقال هؤلاء المنافقون: ليس ها هنا موضع إقامة، وأمروا الناس بالرجوع إلى منازلهم بالمدينة، وفي «المختار» التثريب: التعبير والاستقصاء في اللوم، وثرب عليه تثريباً: قبح عليه فعله. ا هـ.

فائدة: يثرب[2] هو اسم للمديمة المنورة، لا ينصرف للتعريف وزنة الفعل،

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

وفيه التأنيث أيضاً، وقد نهى النبي ـ ﷺ ـ أن تسمى المدينة بيثرب، وقال: «هي طيبة أو طابة والمدينة» كأنه كره هذا اللفظ، لأن يثرب يفعل من التثريب، وهو التقريع والتوبيخ واللوم، الذي لا يستعمل إلا فيما يكره غالباً، ولذلك نفاه يوسف عليه السلام، حيث قال لإخوته: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾، وكأن المنافقين ذكروها بهذا الاسم مخالفةً له ـ ﷺ ـ، فحكى الله عنهم كما قالوا.

وقال الإمام السهيلي: سميت يثرب لأن الذي نزلها من العماليق اسمه يثرب بن عبيل بن مهلاييل بن عوض بن عملاق بن لاود بن إرم، وعبيل: هم الذين سكنوا الجحفة، وهي ميقات الشاميين، فأجحفت بهم السيول فيها؛ أي: ذهبت بهم فسميت الجحفة، وقال بعضهم: هي من الثَرَب بالتحريك، وهو الفساد، وكان في المدينة الفساد واللؤم بسبب عفونة الهواء، وكثرة الحمى، فلما هاجر رسول الله ـ ﷺ ـ. . كره ذلك فسماها طيبة، على وزن بصرة، من الطيب، وقد أفتى الإمام مالك ـ رحمه الله تعالى ـ فيمن قال: تربة المدينة رديئة بضربه ثلاثين درةً، وقال: ما أحوجه إلى ضرب عنقه، تربة دفن فيها رسول الله ـ ﷺ ـ، يزعم أنها غير طيبة.

وفي الحديث: «من سمى المدينة بيثرب. . فليستغفر الله، فليستغفر الله، هي طيبة، هي طيبة». وقوله ـ ﷺ ـ حين أشار إلى دار الهجرة: «لا أراها إلا يثرب» ونحو ذلك من كل ما وقع في كلامه ـ ﷺ ـ من تسميتها بذلك، كان قبل النهي عن ذلك، وإنما سميت طيبة؛ لطيب رائحة من مكث بها، وتزايد روائح الطيب بها، ولا يدخلها طاعون ولا دجال، ولا يكون بها مجذوم، لأن ترابها يشفي المجذوم، وهو كغراب، علة تحدث من انتشار السوداء في البدن كله، فيفسد مزاج الأعضاء وهيآتها، وربما انتهى إلى تآكل الأعضاء وسقوطها عن تقرح. انتهى.

وفيه إشارة إلى حال أهل الفساد والإفساد في هذه الأمة، إلى يوم القيامة، نسأل الله تعالى أن يقيمنا على نهج الصواب، ويجعلنا من أهل التواصي بالحق، والصبر دون التزلزل والاضطراب.

وقوله: ﴿وَيَسْتَـْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ﴾ معطوف على ﴿قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ والتعبير فيه بالمضارع لحكاية الحال الماضية أيضاً؛ أي: ويطلب جماعة منهم من النبي ـ ﷺ ـ الإذن في الرجوع إلى بيوتهم، وتركهم للقتال، معتذرين بمختلف المعاذير، وجملة قوله: ﴿يَقُولُونَ﴾: بدل من قوله: ﴿يستأذن﴾ أو حال، أو مستأنف جواباً لسؤال مقدر، والقول الذي قالوه هو قولهم: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا﴾ ومنازلنا في المدينة ﴿عَوْرَةٌ﴾؛ أي: غير حصينة، وغير محرزة لما فيها، لأنها قصيرة الحيطان، وفي أطراف المدينة، فيخشى عليها من السراق، وأصل العورة في اللغة: الخلل في البناء ونحوه، بحيث يمكن دخول السارق فيها، كما سيأتي.

والمعنى: أنها غير حصينة متخرقة، ممكنة لمن أرادها، فأذن لنا حتى نحصنها ثم نرجع إلى العسكر، وكان عليه السلام يأذن لهم، وفي الحقيقة أنهم كاذبون فيما يقولون، وهم مضمرون غير ذلك، ثم رد الله عليهم بقوله: ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ﴾؛ أي: والحال أن بيوتهم ليست بضائعةٍ، يخشى عليها السراق، بل هي حصينة محرزة.

وقرأ ابن عباس وابن يعمر وقتادة وأبو رجاء العطاردي وعكرمة ومجاهد وأبو حيوة وابن أبي عبلة، وأبو طالوت وابن مقسم وإسماعيل بن سليمان عن ابن كثير: ﴿عورة﴾ ﴿بعورة﴾ بكسر الواو فيهما؛ أي: قصيرة الجدران، والجمهور: بإسكانها فيهما، أطلقت على المختل مبالغةً.

ثم بيّن سبب استئذانهم وما يريدونه به، فقال: ﴿إِن يُرِيدُونَ﴾؛ أي: ما يريدون بالاستئذان ﴿إِلَّا فِرَارًا﴾ وهرباً من القتال، وعدم مساعدة عسكر رسول الله ـ ﷺ ـ، أو فراراً من الدين والإسلام.

ثم بيّن وهن الدين وضعفه في قلوبهم إذ ذاك، وأنه معلق بخيط دقيق، ينقطع بأدنى هزةٍ، فقال: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ﴾ بيوتهم أو المدينة، أسند الدخول إلى بيوتهم، وأوقع عليهم، لما أن المراد فرص دخولها وهم فيها، لا فرص دخولها مطلقاً كما هو المفهوم لو لم يذكر الجار والمجرور.

﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾؛ أي: من جميع جوانبها، لا من بعضها دون بعض؛ أي:

لو كانت بيوتهم مختلة بالكلية، ودخلها كل من أراد الخبث والفساد، ﴿ثُمَّ سُئِلُواْ﴾ من جهة طائفة أخرى عند تلك النازلة ﴿ٱلْفِتْنَةَ﴾؛ أي: الردة والرجعة إلى الكفر مكان ما سئلوا من الإيمان والطاعة.. ﴿لَآتَوْهَا﴾ بالمد؛ أي: لأعطوا تلك الفتنة السائلين لها؛ أي[1]: أعطوهم مرادهم غير مبالين بما دهاهم من الداهية والغارة بالقصر؛ أي: لفعلوا تلك الفتنة وجاؤوا بها.

﴿وَمَا تَلَبَّثُواْ﴾؛ أي: وما مكثوا وما تأخروا عن الإتيان بتلك الفتنة ﴿إِلَّا﴾ زمناً ﴿يَسِيرًا﴾؛ أي: قليلاً قدر ما يسمع السؤال والجواب، فضلاً عن التعلل باختلال البيوت مع سلامتها، كما فعلوا الآن، وما ذلك إلا لمقتهم الإسلام، وشدة بغضهم لأهله، وحبهم بالكفر وأهله، وتهالكهم على حزبه.

والمعنى[2]: لو دخل هؤلاء الجيوش الذين يريدون قتالهم، وهم الأحزاب، من نواحي المدينة وجوانبها، أو دخلوا بيوتهم من جوانبها جميعاً، لا من بعضها، ونزلت بهم هذه النازلة الشديدة، واستبيحت ديارهم، وهتكت حرمهم ومنازلهم، ثم سئلوا الفتنة والردة والرجعة إلى الكفر، الذي يبطنونه ويظهرون خلافه من جهة أخرى، عند نزول هذه النازلة الشديدة بهم.. لآتوها؛ أي: لجاؤوا، وفعلوا تلك الفتنة، أو أعطوا تلك الفتنة لسائلها، وما تلبثوا وجلسوا بها؛ أي: بالمدينة بعد أن أتوا الفتنة إلا تلبثاً يسيراً حتى يهلكوا، كذا قال الحسن والسدي والفراء والقتيبي، وقال أكثر المفسرين: إن المعنى: وما احتبسوا عن فتنة الشرك إلا قليلاً، بل هم مسرعون إليها، راغبون فيها، لا يقفون عنها إلا قدر زمن وقوع السؤال لهم، ولا يتعللون عن الإجابة بأن بيوتهم في هذه الحالة عورة، مع أنها قد صارت عورة على الحقيقة، كماتعللوا عن إجابة الرسول والقتال معه بأنها عورة، ولم تكن إذ ذاك عورة.

وقال ابن عطية: والمعنى: ولو دخلت المدينة من أقطارها، واشتد الحرب الحقيقي، ثم سئلوا الفتنة، والحرب لمحمد - ﷺ -.. لطاروا إليها، وأتوها

---

(١) روح البيان.
(٢) الخازن والشوكاني.

مجيبين فيها، ولم يتلبثوا في بيوتهم لحفظها إلا يسيراً، قيل: قدر ما يأخذون سلاحهم. انتهى.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿سُئِلُوا﴾، وقرأ الحسن: ﴿سولوا﴾ بواو ساكنة بعد السين المضمومة، قالوا: وهي من سال يسال، كخاف يخاف، لغة: من سأل المهموز العين، وحكى أبو زيد هما يتساولان. انتهى.

ويجوز أن يكون أصلها الهمز، لأنه يجوز أن يكون سولوا على قول من يقول في ضرب ضرب ثم سهل الهمزة، بإبدالها واواً، على قول من قال: في بؤس بوس، بإبدال الهمزة واواً لضم ما قبلها، وقرأ عبد الوارث عن أبي عمرو والأعمش: ﴿سيلوا﴾ بكسر السين من غير همز، نحو قيل، وقرأ مجاهد: ﴿سويلوا﴾ بواو بعد السين المضمومة، وياء مكسورة بدلاً من الهمزة، وقرأ الجمهور ﴿لَآتَوْهَا﴾ بالمد؛ أي: لأعطوها، وقرأ نافع وابن كثير: ﴿لأتوها﴾ بالقصر؛ أي: لجاؤوها.

وفي هذا إيماء[2] إلى أن الإيمان لا قرار له في نفوسهم، ولا أثر له في قلوبهم، فهو لا يستطيع مقابلة الصعاب، ولا مقاومة الشدائد، فلا تعجب لاستئذانهم، وطلبهم الهرب من ميدان القتال.

والخلاصة: أن شدة الخوف والهلع الذي تمكن في قلوبهم، مع خبث طويتهم، وإضمارهم النفاق، تحملهم على الإشراك بالله، والرجوع إلى دينهم، عند أدنى صدمةٍ تحصل لهم من العدو، فإيمانهم طلاء ظاهري، لا أثر له في نفوسهم بحال، فلا عجب إذا هم تسللوا لواذاً، وبلغ الخوف من نفوسهم كل مبلغ.

ثم بيّن أن لهم سابقة عهدٍ بالفرار وخوف اللقاء من الكماة، فقال: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد كان الفريق الذين استأذنوك للرجوع إلى منازلهم في المدينة، وهم بنو حارثة وبنو سلمة ﴿عَاهَدُوا اللَّهَ﴾ سبحانه وحلفوا له ﴿مِن

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

﴿قَبۡلُ﴾؛ أي: من قبل واقعة الخندق، يعني: يوم أحد، حين هموا بالانهزام، ثم تابوا لما نزل فيهم مانزل كما سبق في آل عمران، وقال قتادة: وذلك أنهم غابوا عن بدر، ورأوا ما أعطى الله لأهل بدر من الكرامة والنصر، فقالوا: لئن أشهدنا الله قتالاً.. لنقاتلن.

﴿لَا يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ﴾: جواب قسم، لأن ﴿عَٰهَدُواْ﴾: بمعنى حلفوا، كما في «الكواشي»؛ أي: لا يتركون العدو خلف ظهورهم ولا يفرون من القتال ولا ينهزمون ولا يعودون لمثل ما في يوم أحد، ثم وقع منهم هذا الاستئذان نقضاً للعهد، وقال أبو البقاء: ويقرأ بتشديد النون وحذف الواو على تأكيد جواب القسم. اهـ. «سمين».

﴿وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مَسۡـُٔولٗا﴾ عنه صاحبه يوم القيامة، ومطلوباً بالوفاء به في الدنيا، ومجازىً على ترك الوفاء به يوم القيامة، يسأل عنه: هل وفى المعهود به، أو نقضه فيجازى عليه؟ وهذا وعيد.

والمعنى: أي[1] ولقد كان هؤلاء المستأذنون، وهم بنو حارثة وبنو سلمة، قد هربوا يوم أحد، وفروا من لقاء عدوهم، ثم تابوا وعاهدوا الله أن لا يعودوا إلى مثلها، وأن لا ينكثوا على أعقابهم حين قتالهم مع رسول الله - ﷺ -، ثم بين ما للعهد من حرمةٍ فقال: ﴿وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ﴾ يسأل عن الوفاء به يوم القيامة ويجازى عليه.

ثم أمر الله رسوله أن يقول لهم: إن فراركم لا يؤخر آجالكم، ولا يطيل أعماركم، فقال: ﴿قُل﴾ يا محمد لهؤلاء لمستأذنين الفارين من قتال العدو ومنازلته في الميدان: ﴿لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ﴾ والهرب، ولا يدفع عنكم ما أبرم في الأزل، من موت أحدكم حتف أنفه، ﴿إِن فَرَرۡتُم مِّنَ ٱلۡمَوۡتِ أَوِ﴾ قتلة بسيف أو نحوه، إن فررتم من ﴿ٱلۡقَتۡلِ﴾، والقتل: فعل يحصل به زهوق الروح، فإنه لا بد لكل شخص من الفناء والهلاك، سواء كان بحتف أنف أو بقتل سيف في وقت

---

(١) المراغي.

معين سبق به القضاء، وجرى عليه القلم، ولا يتغير أصلاً، فإن المقدر كائن لا محالة، والأجل إن حضر لم يتأخر بالفرار، وكان علي بن أبي طالب يقول عند اللقاء: دهم الأمر وتوقد الجمر.

أَيَّ يَوْمَيَّ مِنَ ٱلْمَوْتِ أَفِرّ   يَوْمَ لاَ يَقْدِرُ أَمْ يَوْمَ قَدِرْ

يَوْمَ لاَ يَقْدِرُ لاَ أُرْهِبُهُ   وَمِنَ ٱلْمَقْدُوْرِ لاَ يُنْجِيْ ٱلْحَذِرْ

﴿وَإِذًا﴾؛ أي: وإن نفعكم الفرار مثلاً، فمتعتم بالتأخير ﴿لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا﴾ تمتيعاً ﴿قَلِيلًا﴾ أو إلا زماناً قليلاً بعد فراركم إلى أن تنقضي آجالكم، وكل ماهو آتٍ قريب، وعمر الدنيا كله قليل، فكيف مدة آجال أهلها، وقد قال من عرف مقدار: عمرك في جنب عيش الآخرة، كنفس واحد، وقد أجاد من قال:

ٱلْمَوْتُ كَأْسٌ وَكُلُّ ٱلنَّاسِ شَارِبُهُ   وَٱلْقَبْرُ بَابٌ وَكُلُّ ٱلنَّاسِ دَاخِلُهُ

وعن بعض المروانية: أنه مر بحائط مائلٍ فأسرع، فتليت له هذه الآية فقال: ذلك القليل أطلب.

والمعنى[1]: أي وإن نفعكم الفرار، بأن دفع عنكم الموت، فمتعتم.. لم يكن ذلك التمتع إلا قليلاً، فإن أيام الحياة وإن طالب قصيرة، فعمر تأكله الدقائق قليل، وإن كثر، ولله در أحمد شوقي حيث يقول:

دَقَّاتُ قَلْبِ ٱلْمَرْءِ قَائِلَةٌ لَهُ   إِنَّ ٱلْحَيَاةَ دَقَائِقٌ وَثَوَانِيْ

وقرأ الجمهور[2]: ﴿تمتعون﴾ بالفوقانية، وقرأ يعقوب الحضرمي في رواية الساجي عنه: بالتحتية، وفي بعض الروايات: ﴿لا تمتعوا﴾ بحذف النون إعمالاً لإذن، وعلى قراءة الجمهور: هي ملغاة.

ولما كانوا ربما يقولون: بل ينفعنا، لأنا طالما رأينا من هرب فسلم، ومن ثبت فاصطلم.. أمره الله سبحانه بالجواب عن هذا فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المستأذنين ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم﴾ ويحفظكم ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: من قضائه،

---

(١) المراغي.   (٢) الشوكاني.

والاستفهام فيه إنكاري، ومذهب[1] سيبويه على أن ﴿مَنْ﴾ الاستفهامية: مبتدأ، و﴿ذا﴾: خبره، و﴿ٱلَّذِى﴾: صفة أو بدل منه، وذهب بعض النحاة إلى كون: ﴿مَّن ذَا﴾ خبراً مقدماً، والعصمة: الحفظ والمنع؛ أي: قل لهم: من الذي يحفظكم ويدفع عنكم قضاء الله وحكمه ﴿إِنْ أَرَادَ﴾ الله سبحانه ﴿بِكُمْ سُوٓءًا﴾؛ أي: شراً وضرراً وهلاكاً في أنفسكم، أو نقصاً في الأموال، وجدباً مرضاً ﴿أَوْ﴾ من الذي يصيبكم بسوء وضرر إن ﴿أَرَادَ﴾ الله سبحانه ﴿بِكُمْ رَحْمَةً﴾؛ أي: نصرةً وإطالة عمر في عافيةٍ وسلامةٍ وخصباً وكثرة مال، أو المعنى: من يمنع الله من أن يرحمكم، إن أراد بكم رحمةً، لما في العصمة من معنى المنع، ففي الكلام اختصار كما في قوله: متقلداً سيفاً ورمحاً؛ أي: ومعتقلاً رمحاً، والاعتقال: أخذ الرمح بين الركب والسرج، وكما في قوله: علفتها تبناً وماءً بارداً.

والمعنى: لا أحد يستطيع أن يدفع عنكم شراً قدره الله سبحانه عليكم، من قتل أو غيره، ولا أحد يستطيع أن يصيبكم بسوء، إن أراد الله بكم رحمةً، من خصب وملامة وعافيةٍ.

وإجمال القول[2]: أن النفع والضر بيده سبحانه، وليس بغيره في ذلك تصريف ولا تبديل.

ثم أكد هذا بقوله: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم﴾؛ أي: ولا يجد هؤلاء المنافقون لأنفسهم ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: متجاوزين الله سبحانه ﴿وَلِيًّا﴾ يلي أمرهم، ويدفع عنهم السوء قبل الوقوع ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصرهم ويخلصهم من السوء، والضرر بعدالوقوع.

واعلم[3]: أن الآية دلت على أمور:

الأول: أن الموت لا بد منه، قال بعضهم: إذا بلغ الرجل أربعين سنة.. ناداه منادٍ من السماء: دنا الرحيل فأعد زاداً، وقال الثوري: ينبغي لمن كان له

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

عقل إذا أتى عليه عمر النبي - ﷺ - أن يهيىء كفنه.

والثاني: أن الفرار لا يزيد في الآجال، ومن أسوأ حالاً ممن سعى لتبديل الآجال والأرزاق، ورجاء دفع ما قدر له أنه لاقٍ، وأنه لا يقيه منه واقٍ.

والثالث: أن من اتخذ الله سبحانه ولياً ونصيراً.. نال ما يتمناه قليلاً وكثيراً، ونصر أميراً وفقيراً، وطاب له وقته مطلقاً وأسيراً، فثبت ثبات الجبال، وعامل معاملة الرجال، نسأل الله سبحانه أن يعصمنا من الفرار من نحو بابه، والإقبال على الإدبار عن جنابه، إنه الولي النصير، ذو الفضل الكثير.

الإعراب

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾﴾:

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة، و﴿الهاء﴾: حرف تنبيه زائد، ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾: صفة لـ﴿أي﴾ أو بدل منه، وجملة النداء: مستأنفة، ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾ ومفعول به، والجملة الفعلية: جواب النداء لا محل لها من الإعراب، ﴿وَلَا تُطِعِ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لا﴾: ناهية جازمة، ﴿تُطِعِ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، وفاعله: ضمير يعود على ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾، والجملة: معطوفة على جملة ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾، ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: مفعول به، ﴿وَٱلْمُنَٰفِقِينَۗ﴾: معطوف عليه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص واسمه ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، ﴿عَلِيمًا﴾: خبر أول له، ﴿حَكِيمًا﴾: خبر ثان، وجملة ﴿كَانَ﴾: في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿وَٱتَّبِعْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾ ﷺ، ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به، والجملة: معطوفة على جملة ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾، ﴿يُوحَىٰٓ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله: ضمير يعود على ﴿مَا﴾، ﴿إِلَيْكَ﴾: متعلق به، ﴿مِن

﴿رَّبِّكَ﴾: حال من الضمير المستتر في ﴿يُوحَىٰٓ﴾، والجملة الفعلية: صلة الموصول، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، ﴿كَانَ﴾: فعل ناقص واسمه ضمير يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾، ﴿بِمَا﴾: متعلق بـ﴿خَبِيرًا﴾، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾: صلة ﴿مَا﴾ الموصولة، ﴿خَبِيرًا﴾ خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿وَتَوَكَّلْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد، معطوف على ﴿ٱتَّقِ﴾، ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿ٱتَّقِ﴾، ﴿وَكَفَىٰ﴾: فعل ماض، ﴿بِٱللَّهِ﴾: فاعل، و﴿الباء﴾: زائدة، ﴿وَكِيلًا﴾: تمييز لفاعل ﴿كفى﴾. والجملة: مستأنفة.

﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾﴾.

﴿مَّا﴾: نافية، ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة مسوقة للرد على مزاعم المشركين، بأن لبعضهم قلبين، فهو أعقل من محمد، ﴿لِرَجُلٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿جَعَلَ﴾، وهو في محل المفعول الثاني لـ﴿جَعَلَ﴾، ﴿مِّن﴾: زائدة، ﴿قَلْبَيْنِ﴾: مفعول أول لـ﴿جَعَلَ﴾ ﴿فِى جَوْفِهِۦ﴾ صفة لـ﴿قَلْبَيْنِ﴾ ﴿وَمَا﴾ ﴿و﴾: عاطفة، ﴿جعل﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهُ﴾. والجملة: معطوفة على جملة ﴿ما﴾ نافية ﴿جَعَلَ﴾ الأولى، ﴿أَزْوَٰجَكُمُ﴾: مفعول أول لـ﴿جَعَلَ﴾، ﴿ٱلَّٰٓـِٔى﴾: اسم موصول للجمع المؤنث في محل النصب صفة لـ﴿أَزْوَٰجَكُمُ﴾. ﴿تُظَٰهِرُونَ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، ﴿مِنْهُنَّ﴾: متعلق به، ﴿أُمَّهَٰتِكُمْ﴾: مفعول ثان لـ﴿جَعَلَ﴾، ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ما﴾: نافية، ﴿جَعَلَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر معطوف على ﴿جَعَلَ﴾ الأول، ﴿أَدْعِيَآءَكُمْ﴾: مفعول أول لـ﴿جَعَلَ﴾، ﴿أَبْنَآءَكُمْ﴾: مفعول ثان، ﴿ذَٰلِكُمْ﴾: مبتدأ، ﴿قَوْلُكُم﴾: خبره، والجملة: مستأنفة، ﴿بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾: حال من ﴿قَوْلُكُم﴾؛ أي: كائناً بأفواهكم فقط، من غير أن تكون له حقيقة. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة: مستأنفة، ﴿وَهُوَ﴾: ﴿الواو﴾: حالية، ﴿هو﴾: مبتدأ ﴿يَهْدِى﴾: فعل مضارع

وفاعل مستتر ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾: مفعول ثان لـ﴿يَهْدِى﴾، والأول محذوف؛ أي: من يشاء، أو منصوب بنزع الخافض، وجملة ﴿يَهْدِى﴾: في محل الرفع خبر المبتدأ. والجملة الاسمية: في محل النصب حال من فاعل ﴿يَقُولُ﴾.

﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ﴾.

﴿ٱدْعُوهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به. والجملة: مستأنفة مسوقة لبيان أن نسبة كل مولود إلى والده أقوم وأعدل. ﴿لِآبَآئِهِمْ﴾: متعلق بـ﴿ٱدْعُوهُمْ﴾. ﴿هُوَ﴾: مبتدأ، ﴿أَقْسَطُ﴾: خبره. والجملة: مستأنفة. ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿أَقْسَطُ﴾ أو حال من الضمير في ﴿أَقْسَطُ﴾، ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف، تقديره: هذا إن علمتم آباءهم. ﴿إن﴾: حرف شرط، ﴿لَّمْ﴾: حرف جزم. ﴿تَعْلَمُوٓا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لَّمْ﴾. ﴿ءَابَآءَهُمْ﴾: مفعول به، والجملة: في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها. ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية وجوباً، ﴿إخوانكم﴾: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: فهم إخوانكم. ﴿فِى ٱلدِّينِ﴾: حال من ﴿إخوانكم﴾، ﴿وَمَوَٰلِيكُمْ﴾: معطوف على ﴿إخوانكم﴾. والجملة الاسمية: في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها. وجملة ﴿إن﴾ الشرطية: معطوفة على الجملة المحذوفة.

﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

﴿وَلَيْسَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ليس﴾: فعل ماض ناقص. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: خبرها مقدم. ﴿جُنَاحٌ﴾: اسمها مؤخر. ﴿فِيمَآ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿جُنَاحٌ﴾. وجملة ﴿ليس﴾: معطوفة على جملة قوله: ﴿فإن لم تعلموهم﴾. ﴿أَخْطَأْتُم﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿أَخْطَأْتُم﴾. ﴿وَلَٰكِن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لكن﴾: حرف استدراك. ﴿مَّا﴾: اسم موصول في محل الجر معطوف على ما في قوله فيما ﴿أَخْطَأْتُم﴾. ويجوز أن يكون في محل الرفع مبتدأ، وخبره:

محذوف تقديره: ولكن ما تعمدت قلوبكم تؤاخذون به. ﴿تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾: فعل وفاعل صلة لـ﴿مَّا﴾ الموصولة، والعائد: محذوف، تقديره: ولكن ما تعمدته قلوبكم. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿غَفُورًا﴾: خبر أول لكان. ﴿رَّحِيمًا﴾: خبر ثان لها، وجملة ﴿كان﴾: مستأنفة.

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾.

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ﴾: مبتدأ وخبر، ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: متعلق بـ﴿أَوْلَىٰ﴾. والجملة: مستأنفة. ﴿مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾: متعلق بـ﴿أَوْلَىٰ﴾ أيضاً. ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾: مبتدأ وخبر. والجملة: معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ﴾: مبتدأ أول. ﴿بَعْضُهُمْ﴾: مبتدأ ثان أو بدل من أولوا. ﴿أَوْلَىٰ﴾: خبر للمبتدأ الثاني. وجملة الثاني: خبر الأول. وجملة الأول: معطوفة على الجمل التي قبلها. ﴿بِبَعْضٍ﴾: متعلق ﴿أَوْلَىٰ﴾، ولا بد من تقدير مضاف؛ أي: بإرث بعض. ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿أَوْلَىٰ﴾ أيضاً، لأن أفعل التفضيل يعمل في الظرف؛ أي: هذه الأولوية، وهذا الاستحقاق، كائن وثابت في كتاب الله، ويجوز أن يتعلق بمحذوف، على أنه حال من الضمير في ﴿أَوْلَىٰ﴾ والعامل فيها ﴿أَوْلَىٰ﴾؛ لأنها شبيهة بالظرف، ولا يجوز أن يكون حالاً من ﴿وَأُو۟لُوا۟﴾ للفصل بالخبر، ولأنه لا عامل فيها. اهـ. «كرخي». ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: متعلق بـ﴿أَوْلَىٰ﴾ أيضاً. ﴿وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾: معطوف عليه، ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء منقطع بمعنى لكن. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿تَفْعَلُوٓا۟﴾: فعل وفاعل منصوب بـ﴿أَن﴾ المصدرية. ﴿إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم﴾: متعلق بـ﴿تَفْعَلُوٓا۟﴾: بتضمينه معنى تحسنوا أو تسدوا. ﴿مَّعْرُوفًا﴾: مفعول به. والجملة الفعلية، مع ﴿أَن﴾ المصدرية: في تأويل مصدر مرفوع على كونه مبتدأ، وخبره: محذوف، والتقدير: لكن فعلكم إلى أوليائكم معروفاً جائز، والجملة الاستدراكية: مستأنفة. ﴿كَانَ ذَٰلِكَ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾: متعلق بـ﴿مَسْطُورًا﴾. ﴿مَسْطُورًا﴾: خبر ﴿كَانَ﴾. وجملة ﴿كَانَ﴾: مستأنفة.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ⁧(٧)⁩﴾.

﴿وَإِذْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿إذ﴾: ظرف لما مضى متعلق بمحذوف، تقديره: واذكر يا محمد قصة إذ أخذنا إلخ. ﴿أَخَذْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾: متعلق به. ﴿مِيثَٰقَهُمْ﴾: مفعول به. والجملة: في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾. والجملة المحذوفة: مستأنفة. ﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾: معطوفان على ﴿مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾: عطف خاص على عام. ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى﴾: معطوفات على ﴿نُّوحٍ﴾. ﴿ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾: صفة لـ﴿وَعِيسَى﴾. ﴿وَأَخَذْنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿أَخَذْنَا﴾ الأول للتأكيد. ﴿مِنْهُم﴾: متعلق بـ﴿أَخَذْنَا﴾. ﴿مِّيثَٰقًا﴾: مفعول به لـ﴿أَخَذْنَا﴾. ﴿غَلِيظًا﴾: صفة ﴿مِّيثَٰقًا﴾.

﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ⁧(٨)⁩﴾.

﴿لِّيَسْـَٔلَ﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿يسأل﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي. ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾: مفعول به، والجملة: في تأويل مصدر مجرور بـ﴿اللام﴾: الجار والمجرور متعلق بمحذوف، تقديره: فعل ذلك ليسأل الصادقين. إلخ. والجملة المحذوفة: مستأنفة. ﴿عَن صِدْقِهِمْ﴾: متعلق بـ﴿يسأل﴾. ﴿وَأَعَدَّ﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على الله معطوف على ﴿أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾. ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾: متعلق بـ﴿أعد﴾. ﴿عَذَابًا﴾: مفعول به. ﴿أَلِيمًا﴾: صفة له. وفي «الفتوحات»: ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ﴾: يجوز فيه وجهان:

أحدهما: أن يكون معطوف على ما دل عليه ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، إذ التقدير: فأثاب الصادقين وأعد للكافرين.

والثاني: أنه معطوف على ﴿أَخَذْنَا﴾؛ لأن المعنى: أن الله أكد على الأنبياء الدعوة إلى دينه لإثابة المؤمنين، وأعد للكافرين عذاباً أليماً.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا

﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة. و﴿الهاء﴾: حرف تنبيه زائد. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة لـ﴿أي﴾ أو بدل أو عطف بيان. وجملة النداء: مستأنفة. ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿ٱذْكُرُوا۟﴾: فعل أمر وفاعل. ﴿نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾: مفعول به ومضاف إليه. والجملة: جواب النداء. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: متعلق بـ﴿نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾؛ لأنه مصدر بمعنى: إنعام الله عليكم، أو بمحذوف حال من ﴿النعمة﴾. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان متعلق بـ﴿ٱذْكُرُوا۟﴾، وهو بمنزلة بدل اشتمال من ﴿نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾، والمراد بـ﴿نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾: نصرهُ في غزوة الأحزاب. ﴿جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾: فعل ومفعول به وفاعل، والجملة: في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾. ﴿فَأَرْسَلْنَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿أرسلنا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿جَآءَتْكُمْ﴾. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق بـ﴿أرسلنا﴾. ﴿رِيحًا﴾: مفعول به، ﴿وَجُنُودًا﴾: معطوف على ﴿رِيحًا﴾. ﴿لَّمْ﴾: حرف نفي وجزم. ﴿تَرَوْهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول به مجزوم بـ﴿لَّمْ﴾. والجملة الفعلية: صفة لـ﴿جنوداً﴾. ورأى هنا بصرية. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿بَصِيرًا﴾. وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾: صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة. ﴿بَصِيرًا﴾: خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ في محل النصب حال من فاعل ﴿أرسلنا﴾.

﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١﴾.

﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان بدل من ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾. ﴿جَآءُوكُم﴾: فعل وفاعل، والجملة: في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾. ﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾: متعلق بـ﴿جَآءُوكُم﴾. ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ﴾: معطوف على ﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾. ﴿مِنكُمْ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿أَسْفَلَ﴾. ﴿وَإِذْ زَاغَتِ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، معطوف على ﴿إِذْ جَآءُوكُم﴾. ﴿زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾: فعل وفاعل، والجملة: في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾. ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿زَاغَتِ﴾. ﴿ٱلْحَنَاجِرَ﴾: منصوب على الظرفية المكانية، أو على التوسع.

﴿وَتَظُنُّونَ﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿زَاغَتِ﴾، ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿تظنون﴾. ﴿ٱلظُّنُونَا۠﴾: منصوب على المفعولية المطلقة، و﴿الألف﴾: مزيدة تشبيهاً للفواصل بالقوافي. ﴿هُنَالِكَ﴾: ﴿هنا﴾: اسم إشارة للمكان البعيد، في محل النصب على الظرفية المكانية، مبني على السكون، و﴿اللام﴾: لبعد المشار إليه، و﴿الكاف﴾: حرف دال على الخطاب، والظرف متعلق بـ﴿ٱبْتُلِىَ﴾. ﴿ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: فعل مغير ونائب فاعل، والجملة: مستأنفة. ﴿وَزُلْزِلُوا۟﴾: فعل ونائب فاعل معطوف على ﴿ٱبْتُلِىَ﴾. ﴿زِلْزَالًا﴾: مصدر مبين للنوع. ﴿شَدِيدًا﴾: صفة لـ﴿زِلْزَالًا﴾.

﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾
وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ
إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَإِذْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿إذ﴾: ظرف لما مضى متعلق بمحذوف، تقديره: واذكر إذ يقول المنافقون، والجملة المحذوفة، مستأنفة، أو معطوفة على ما سبق. ﴿يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة: في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: معطوف على ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾. ﴿فِى قُلُوبِهِم﴾: خبر مقدم. ﴿مَّرَضٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية: صلة الموصول. ﴿مَّا وَعَدَنَا﴾: ﴿مَّا﴾: نافية. ﴿وَعَدَنَا ٱللَّهُ﴾: فعل ومفعول وفاعل. ﴿وَرَسُولُهُۥٓ﴾: معطوف على الجلالة، والجملة الفعلية: في محل النصب مقول ﴿يَقُولُ﴾. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿غُرُورًا﴾: منصوب على المفعولية المطلقة، ولكنه على حذف مضاف؛ أي: وعد غرور. ﴿وَإِذْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إذ﴾: ظرف لما مضى من الزمان معطوف على ﴿إذ يقول﴾. ﴿قَالَت طَّآئِفَةٌ﴾: فعل وفاعل، والجملة: في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إذ﴾. ﴿مِّنْهُمْ﴾: صفة لـ﴿طَّآئِفَةٌ﴾. ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾: منادى مضاف، ويثرب ممنوع من الصرف للعلمية ووزن الفعل، أو التأنيث المعنوي، وجملة النداء: في محل النصب مقول ﴿قَالَت﴾. ﴿لَا﴾: نافية تعمل عمل إن. ﴿مُقَامَ﴾: في محل النصب اسمها. ﴿لَكُمْ﴾: خبر ﴿لَا﴾. وجملة ﴿لَا﴾: في محل النصب مقول ﴿قَالَت﴾ على كونها جواب النداء. ﴿فَٱرْجِعُوا۟﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة، لأنها

أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا سمعتم كلامي، وقبلتم نصحي.. فأقول لكم: ارجعوا. ﴿ارجعوا﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، و﴿الواو﴾: فاعل، والجملة: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة وجملة إذا المقدرة في محل النصب مقول ﴿قَالَت﴾. ﴿وَيَسْتَـْذِنُ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿يستأذن فريق﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿قَالَت﴾. ﴿مِنْهُم﴾: صفة ﴿فَرِيقٌ﴾. ﴿ٱلنَّبِىَّ﴾: مفعول به. ﴿يَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل. والجملة: في محل النصب حال من ﴿فَرِيقٌ﴾ لوصفه بما بعده. ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا﴾: ناصب واسمه. ﴿عَوْرَةٌ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾. وجملة ﴿إِنَّ﴾: في محل النصب مقول لـ﴿يَقُولُونَ﴾. ﴿وَمَا هِىَ﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿ما﴾: حجازية تعمل عمل ليس. ﴿هِىَ﴾: في محل الرفع اسمها. ﴿بِعَوْرَةٍ﴾: خبرها. و﴿الباء﴾: زائدة. وجملة ﴿ما﴾: في محل النصب حال من ﴿بيوتنا﴾. ﴿إن﴾: نافية. ﴿يُرِيدُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر. ﴿فِرَارًا﴾: مفعول به. والجملة: مستأنفة.

﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَلَوْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿لو﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿دُخِلَتْ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله: ضمير يعود إلى ﴿بيوتهم﴾، أو إلى المدينة. ﴿عَلَيْهِم﴾: متعلق به. ﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾: حال من مرفوع ﴿دُخِلَتْ﴾. والجملة: فعل شرط لـ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب. ﴿سُئِلُوا۟﴾: فعل ونائب فاعل معطوف على ﴿دُخِلَتْ﴾. ﴿ٱلْفِتْنَةَ﴾: مفعول ثان لـ﴿دُخِلَتْ﴾. ﴿لَـَٔاتَوْهَا﴾: ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لو﴾ الشرطية. ﴿أتوها﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والمفعول الثاني: محذوف إن قرأنا بالمد؛ لأنه بمعنى أعطي، تقديره: لأعطوها السائلين. والجملة الفعلية: جواب ﴿لو﴾ الشرطية، لا محل لها من الإعراب. ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا۟﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: نافية. ﴿تَلَبَّثُوا۟﴾: فعل وفاعل. ﴿بِهَآ﴾: متعلق بـ﴿تَلَبَّثُوا۟﴾. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿يَسِيرًا﴾: صفة لمصدر محذوف؛ أي: تلبثاً يسيراً، أو لزمن محذوف؛

أي: زمناً يسيراً، والجملة: معطوفة على جواب ﴿لو﴾ الشرطية.

﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. و﴿اللام﴾: موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة الفعلية، في محل النصب خبر ﴿كان﴾. ﴿مِن قَبْلُ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿عَـٰهَدُوا۟﴾. وجملة ﴿كان﴾: جملة قسمية لا محل لها من الإعراب؛ لأنه بمعنى: ولقد أقسموا بالله من قبل. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يُوَلُّونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾: مفعول ثان لـ﴿يُوَلُّونَ﴾، والمفعول الأول: محذوف، تقديره: لا يولون العدو الأدبار، والجملة الفعلية: جواب القسم لا محل لها من الإعراب. وجاء على حكاية اللفظ، فجاء بلفظ الغيبة، ولو جاء على حكاية المعنى.. لقيل: لا نولي. ﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿كان عهد الله﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿مَسْـُٔولًا﴾: خبره. والجملة: معطوفة على جملة القسم. ﴿قُل﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة: مستأنفة. ﴿لَّن﴾: حرف نفي ونصب. ﴿يَنفَعَكُمُ﴾: فعل ومفعول به منصوب بـ﴿لَّن﴾. ﴿ٱلْفِرَارُ﴾: فاعل، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قُل﴾. ﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿فَرَرْتُم﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إِن﴾: الشرطية، على كونها فعل شرط لها. ﴿مِّنَ ٱلْمَوْتِ﴾: متعلق بـ﴿فَرَرْتُم﴾، ﴿أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾: معطوف عليه، وجواب ﴿إِن﴾: الشرطية معلوم مما قبله، تقديره: إن فررتم من الموت.. لن ينفعكم الفرار، وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قُل﴾. ﴿وَإِذًا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إِذًا﴾: حرف جواب وجزاء مهمل لعدم تصدرها في أول الكلام المجاب بها، كما هو الغالب والشرط فيها. ﴿لَّا﴾: نافية. ﴿تُمَتَّعُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة: في محل النصب مقول ﴿قُل﴾. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿قَلِيلًا﴾: صفة لمصدر محذوف؛ أي: تمتيعاً قليلاً، أو زمان محذوف؛ أي: زمناً قليلاً.

﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر، والجملة: مستأنفة. ﴿مَن ذَا﴾: اسم استفهام مركب للاستفهام الإنكاري، في محل الرفع خبر مقدم. ﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية: في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿يَعْصِمُكُم﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: متعلق به. والجملة: صلة الموصول ﴿إِنْ﴾: حرف شرط. ﴿أَرَادَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر في محل الجزم بـ﴿إِنْ﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿بِكُمْ﴾ متعلقان به ﴿سُوٓءًا﴾: مفعول به، وجواب ﴿إِنْ﴾ معلوم مما قبله، تقديره: إن أراد بكم سوءاً فمن الذي يعصمكم، وجملة ﴿إِنْ﴾ الشرطية: في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿أَوْ أَرَادَ﴾: فعل وفاعل مستتر معطوف على ﴿أَرَادَ﴾ الأول. ﴿بِكُمْ﴾ متعلق بـ﴿أَرَادَ﴾. ﴿رَحْمَةً﴾: مفعول به، ولا بد من تقدير محذوف هنا كما مر؛ أي: أو من الذي يصيبكم بسوء، إن أراد بكم رحمة. ﴿وَلَا يَجِدُونَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿لا﴾: نافية. ﴿يَجِدُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿لَهُم﴾: جار ومجرور في محل المفعول الثاني، أو متعلق به إن كان من وجد الضالة. ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾: حال من ﴿وَلِيًّا﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿وَلِيًّا﴾: مفعول أول لـ﴿يَجِدُونَ﴾ أو مفعول به له. ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾: معطوف على ﴿وَلِيًّا﴾. والجملة الفعلية: مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾: النبي: إما مأخوذ من النبأ، وهو الخبر ذو الفائدة العظيمة، يحصل به علم أو غلبة ظن، وسمي نبياً؛ لأنه منبىء؛ أي: مخبر عن الله بما تسكن إليه العقول الزكية، أو من النبوة؛ أي: الرفعة؛ لأنه مرفوع الرتبة على سائر الخلائق، أو رافع رتبة من تبعه، فهو فعيل: إما بمعنى فاعل، أو بمعنى مفعول، فأصله على الأول نبييء؛ وعلى الثاني: نبيو.

﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾؛ أي: دم على التقوى، قال طلق بن حبيب: التقوى: أن تعمل

بطاعة الله سبحانه على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله مخافة عذاب الله. ا هـ.

واعلم: أن التقوى في اللغة بمعنى: الاتقاء، وهو اتخاذ الوقاية، وعند أهل الحقيقة هو، الاحتراز بطاعة الله من عقوبته، وصيانة النفس عما تستحق به العقوبة، من فعل أو ترك، فالتقوى اسم مصدر من اتقى يتقي اتقاءً: إذا جعل لنفسه وقاية عما يخافه.

﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: دم على ما أنت عليه من انتفاء الطاعة لهم، فيما يخالف شريعتك، ويعود بوهن في الدين، وذلك أن رسول الله - ﷺ - لم يكن مطيعاً لهم، حتى ينهى عن إطاعتهم، لكنه أكد عليه ما كان عليه، وثبت على التزامه، والإطاعة: الانقياد، والطاعة: اسم مصدر من أطاع يطيع إطاعةً وطاعةً، والفرق بين الطاعة والعبادة: أن الطاعة فعل يعمل بالأمر، بخلاف العبادة.

﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ﴾؛ أي: نساءكم، جمع زوج، كما أن الزوجات جمع زوجة، والزوج، أفصح، وإن كان الثاني أشهر.

﴿ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ﴾ يقال: ظاهر الرجل من زوجته: إذا قال لها: أنت علي كظهر أمي، يريدون: أنت محرمة علي كما تحرم الأم، وكانوا في الجاهلية يجرون على المظاهر منها حكم الأم، فهو مضارع ظاهر، ومصدره: الظهار بكسر الظاء، كقاتل قتالاً، وهو كما في «القاموس» قول الرجل لامرأته: أنت علي كظهر أمي، وقد ظاهر وتظهر وظهر، وخصوا الظهر دون غيره؛ لأنه موضع الركوب، والمرأة مركوب الزوج، ففي قول المظاهر: أنت علي كظهر أمي كناية تلويحية لأنه ينتقل من الظهر إلى المركوب، ومن المركوب إلى المرأة، لأنها مركوب الزوج، فكان المُظاهر يقول: أنت محرمة علي لا تركبين، كتحريم ركوب أمي.

﴿أُمَّهَٰتِكُمْ﴾؛ أي: كأمهاتكم، جمع أم، زيدت الهاء فيه كما زيدت في إهراق، من أراق، وشذت زيادتها في الواحدة بأن يقال: أمه.

﴿أَدۡعِيَآءَكُمۡ﴾: جمع دعي، وهو من يُدعى لغير أبيه؛ أي: يتخذ ولداً وابناً له، وهو المتبنى بتقديم الباء الموحدة على النون، فهو فعيل بمعنى مفعول، ولكن جمعه على أدعياء غير مقيس، لأن أفعلاء، إنما يكون جمعاً لفعيل المعتل اللام، إذا كان بمعنى فاعل، نحو تقي وأتقياء، وغني وأغنياء، وهذا وإن كان فعيلاً معتل اللام، إلا أنه بمعنى مفعول، فكان القياس جمعه على فعلى، كقتيل وقتلى، وجريح وجرحى، بأن يقال: دعياً، فكأنه شبه فعيل بمعنى مفعول في اللفظ، بفعيل بمعنى فاعل، فجمع جمعه.

﴿ذَٰلِكُمۡ قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡۖ﴾: والأفواه: جمع فم، وأصل فم: فوه بالفتح، مثل ثوب وأثواب، وهو مذهب سيبويه والبصريين، أوفوه بالضم، مثل سوق وأسواق، وهو مذهب الفراء، حذفت الهاء حذفاً غير قياسي لخفائها، ثم الواو لاعتلالها، ثم أبدلت الواو المحذوفة ميماً لتجانسهما، لأنهما من حروب الشفة، فصار فماً.

﴿وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ﴾: والسبيل من الطرق: ما هو معتاد السلوك وما فيه سهولة.

﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ﴾ يقال: فلان يدعى لفلان؛ أي: ينسب إليه، ووقوع اللام ههنا للاستحقاق.

﴿أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ﴾: القسط بالكسر: العدل، بالفتح: هو أن يأخذ قسط غيره، وذلك غير إنصاف، ولذلك قيل: قسط الرجل: إذا جار، وأقسط: إذا عدل. حكي أن امرأة قالت للحجاج: أنت القاسط، فضربها، وقال: إنما أردت القسط بالفتح، وأقسط هنا أفعل تفضيل، قصد به الزيادة المطلقة، والمعنى بالغ في العدل والصدق.

﴿وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ﴾؛ أي: إثم، يقال: جنحت السفينة؛ أي: مالت إلى أحد جانبيها، وسمي الإثم: المائل بالإنسان عن الحق جناحاً، ثم سمي كل إثم جناحاً، وقال بعضهم: إنه معرب، كناه على ما هو عادة العرب في الإبدال، ومثله الجوهر: معرب كوهر.

﴿فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ﴾ بقطع الهمزة؛ لأن همزة باب الإفعال مقطوعة وفرق بين الخاطىء والمخطيء، بأن الخاطيء من يأتي بالخطأ: وهو يعلم أنه خطأ، والمخطيء: من يأتي بالخطأ، وهو لا يعلم أنه خطأ، يقال: أخطأ الرجل في كلامه وأمره، إذا زلّ وهنا وخطأ الرجل إذا ضلّ في دينه وفعله، ومنه قوله: ﴿لَّا يَأۡكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ أي: أرأف وأشفق وأجدر بهم.

﴿مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾: فيما دعاهم إليه من أمر الدين والدنيا، فإن نفوسهم تدعوهم إلى ما فيه هلاكهم، وهو يدعوهم إلى ما فيه نجاتهم.

والمعنى: أن طاعتهم للنبي أولى من طاعتهم لأنفسهم. ا هـ. «شيخنا».

ويقال: فلان أولى بكذا: أحرى وأليق به.

﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ﴾: جمع رحم، وهو القرابة؛ أي: ذوو القرابات.

﴿مَسۡطُورٗا﴾؛ أي: مكتوباً، يقال: سطر فلان كذا؛ أي: كتب سطراً سطراً، والسطر: الصف من الكتابة.

﴿مِيثَٰقَهُمۡ﴾: الميثاق: عقد يؤكد بيمين. ﴿نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾؛ أي: إنعام الله عليكم بالنصر على الأحزاب، وذكر النعمة: شكرها.

﴿جُنُودٞ﴾: جمع جند، ويقال للعسكر: الجند؛ اعتباراً بالغلظ من الجند، وهي الأرض الغليظة التي فيها حجارة، ثم يقال لكل مجتمع جند، نحو: الأرواح جنود مجندة؛ أي: مجمعة، والمراد بالجنود هنا: الأحزاب، وهم قريش يقودهم أبو سفيان، وبنو أسد يقودهم طليحة، وغطفان يقودهم عيينة بن حصن، وبنو عامر يقودهم عامر بن الطفيل، وبنو سليم يقودهم أبو الأعور السلمي، وبنو النضير من اليهود ورؤسائهم: حيي بن أخطب، وأبناء أبي الحقيق، وبنو قريظة سيدهم كعب بن أسد، وكان بينهم وبين رسول الله ـ ﷺ ـ عهد، فنبذه كعب بسعي حيي، وكان مجموع جيوش الأعداء عشرة آلاف، أو نحو ذلك.

﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾؛ أي: انحرفت عن مستوى نظرها حيرةً ودهشةً، والزيغ: الميل عن الاستقامة، والأبصار: جمع بصر، والبصر: الجارحة الناظرة.

﴿ٱلْحَنَاجِرَ﴾: جمع حنجرة، وهي: رأس الغلصمة، والغلصمة: رأس الحلقوم، والحلقوم: مجرى الطعام والشراب، وقيل: الحلقوم: مجرى النفس، والمريء: مجرى الطعام والشراب، وهو تحت الحلقوم. وقال الراغب: الحنجرة: رأس الغلصمة من خارج. ا هـ. وهي منتهى الحلقوم وطرفه من أسفله. ا هـ. «سمين».

﴿هُنَالِكَ﴾: هو في الأصل للمكان البعيد، لكن العرب تكنى بالمكان عن الزمان، وبالزمان عن المكان.

﴿زِلْزَالًا﴾ الزلة في الأصل: استرسال الرجل من غير قصد، يقال: زلت رجله تزل، والمزلة: المكان الزلق، وقيل: للذنب من غير قصد: زلة، تشبيهاً بزلة الرجل، والتزلزل: الاضطراب، وكذا الزلزلة: شدة الحركة، وتكرير حروف لفظه تنبيه على تكرر معنى الزلل.

﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: قال الراغب: المرض: الخروج عن الاعتدال الخاص بالإنسان، وهو ضربان: جسمي ونفسي، كالجهل والجبن والنفاق ونحوها من الرذائل الخلقية، وهم قوم كان المنافقون يستميلونهم بإدخال الشبه عليهم، لقرب عهدهم بالإسلام.

﴿إِلَّا غُرُورًا﴾: بضم الغين لا غير، لأنه مصدر؛ أي: وعد غرور لا حقيقة له.

﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾؛ أي: لا ينبغي لكم الإقامة هاهنا.

﴿عَوْرَةٌ﴾ بسكون الواو، وفي الأصل: أطلقت على المختل مبالغةً، يقال: عور المكان عوراً: إذا بدا فيه خلل يخاف منه العدو والسارق، وفلان يحفظ عورته؛ أي: خلله، والعورة أيضاً: سوءة الإنسان، وذلك كناية، وأصلها من

العار، وذلك لما يلحق في ظهورها من العار؛ أي: المذمة، ولذلك سمي النساء عورة، ومن ذلك العوراء، للكلمة القبيحة.

﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾: جمع قطر بالضم، وهو الجانب والناحية.

﴿ٱلْفِتْنَةَ﴾: الردة ومقاتلة المؤمنين.

﴿عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ﴾ العهد: حفظ الشيء ومراعاته حالاً بعد حال، وسمي الموثق الذي يلزم مراعاته عهداً، والمعاهدة: المعاقدة.

﴿ٱلْأَدْبَٰرَ﴾: جمع دبر، ودبر الشيء: خلاف القبل، يقال: ولاه دبره: إذا انهزم.

﴿مَسْـُٔولًا﴾؛ أي: مطلوباً حتى يوفى، يقال: سألت فلاناً حقي؛ أي: طالبته به.

﴿أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾ والقتل: فعل يحصل به زهوق الروح، قال الراغب: أصل القتل: إزالة الروح عن الجسد، كالموت، لكن إذا اعتبر بفعل المتولي لذلك يقال قتل، وإذا اعتبر بفوت الحياة يقال موت. انتهى.

﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ﴾: وإذاً: حرف جواب وجزاء كما مر، ولما وقعت هنا بعد عاطف.. جاءت على الأكثر، وهو عدم إعمالها، ولم يشذ ما هنا ما شذ في الإسراء، فلم يقرأ بالنصب. ا هـ. «سمين».

﴿يَعْصِمُكُم﴾: والعصمة: الإمساك والحفظ.

﴿سُوٓءًا﴾: والسوء: كل ما يسوء الإنسان ويغمه، والمراد هنا: القتل والهزيمة ونحوهما.

﴿وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾: الولي هو الدافع عنهم قبل وقوع السوء بهم والناصر المخرج لهم من السوء بعد وقوعهم فيه، كذا فرق بينهما.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: النداء بوصف النبي في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ إجلالاً له وتعظيماً.

ومنها: تنكير رجل في قوله: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ﴾ لإفادة الاستغراق والشمول، وإدخال حرف الجر الزائد؛ لتأكيد الاستغراق في قوله: ﴿مِّن قَلْبَيْنِ﴾.

ومنها: ذكر الجوف في قوله: ﴿فِى جَوْفِهِۦ﴾ لزيادة التصوير في الإنكار.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿أُمَّهَـٰتِكُمْ ۚ﴾، وقوله: ﴿أَبْنَآءَكُمْ ۚ﴾؛ أي: مثل أمهاتكم في التحريم، ومثل أبنائكم في الميراث، وفي قوله: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ ۗ﴾ حذف منه وجه الشبه وأداة التشبيه، فصار بليغاً، وأصل الكلام: وأزواجه مثل أمهاتهم في وجوب الاحترام والتعظيم والإجلال والتكريم.

ومنها: المجاز بالحذف في قوله: ﴿أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾؛ أي: أولى بإرث بعض.

ومنها: ذكر الخاص بعد العام، إظهاراً لشرفه وفضله في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ إلخ. فقد دخل هؤلاء المذكورون في جملة النبيين، ولكنه خصهم بالذكر؛ تنويهاً بشأنهم، وتشريفاً لهم، لأن هؤلاء الخمسة المذكورين هم أصحاب الشرائع والكتب، وأولو العزم من الرسل، فآثرهم بالذكر؛ للتنويه بإنافة فضلهم على غيرهم، وقدم النبي محمداً - ﷺ - مع أنه مؤخر عن نوح ومن بعده؛ لأنه هو المخاطب من بينهم، والمنزل عليه هذا المتلو، فكان تقديمه لهذا السبب.

ومنها: الاستعارة المكنية في قوله: ﴿مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾ حيث شبه الميثاق بجرم

محسوس، واستعار له شيئاً من صفات الإجرام، وهو الغلظ؛ للتنويه لعظم الميثاق وحرمته وثقل حمله.

ومنها: التكرار في قوله: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ لغرض بيان وصف الغلظ.

ومنها: الالتفات من التكلم في قوله: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم﴾ إلى الغيبة في قوله: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ لغرض التبكيت والتقبيح للمشركين.

ومنها: الطباق بين ﴿أَخْطَأْتُم﴾ و﴿تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾، وبين ﴿سُوٓءًا﴾ و﴿رَحْمَةً﴾؛ لأن المراد بالسوء: الشر، وبالرحمة: الخير، وبين ﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾ ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾.

ومنها: التمثيل في قوله: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ حيث صور القلوب في خفقانها، واضطرابها، بارتفاعها إلى الحناجر.

ومنها: الإتيان بصيغة المضارع في قوله: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ لاستحضار الصورة الماضية، وللدلالة على الاستمرار، وفي قوله: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ﴾ للدلالة على استحضار القول، واستحضار صورته، وفي قوله: ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ﴾.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾؛ لأنه كناية عن الفرار من الزحف.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾؛ لأنه كناية عن كونها غير حصينة.

ومنها: العدول إلى الغيبة في قوله: ﴿لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾ على إرادة حكاية اللفظ، ولو جاء على حكاية المعنى.. لقيل: لا نولي الأدبار على، صيغة التكلم.

ومنها: توافق الفواصل في الحرف الأخير مثل: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾، ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ وهو مما يزيد رونق الكلام، وعذوبته، لما له من وقعٍ رائعٍ وجذب سامع.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا
(١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ
فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ
وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا (١٩) يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم
بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا (٢٠) لَّقَدْ
كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا (٢١) وَلَمَّا
رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا
وَتَسْلِيمًا (٢٢) مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن
يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا (٢٣) لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ
عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٢٤) وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (٢٥) وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن
صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ
وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا (٢٧) يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ
إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨) وَإِن
كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩)
يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى
ٱللَّهِ يَسِيرًا (٣٠)﴾

المناسبة

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما نصر[1] نبيه ـ ﷺ ـ، فرد عنه الأحزاب، وفتح عليه قريظة والنضير.. ظن أزواجه ـ رضي الله عنهن ـ أنه اختص بنفائس اليهود

---

(١) المراغي.

وذخائرهم، فقعدن حوله وقلن: يا رسول الله، بنات كسرى وقيصر في الحلي والحلل، والإماء والخول ـ الخدم والحشم ـ ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق، وآلمن قلبه الشريف بمطالبهن من توسعة الحال، ومعاملتهن معاملة نساء الملوك وأبناء الدنيا، من التمتع بزخرفها من المأكل والمشرب، ونحو ذلك، فأمره الله تعالى أن يتلو عليهن ما نزل في شأنهن.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ . . .﴾الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه[1] البخاري بسنده عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر، فقال: يا رسول الله غبت عن أول قتال قاتلت المشركين، لئن أشهدني الله قتال المشركين. . ليرين الله ما أصنع، فلما كان يوم أحد، وانكشف المسلمون. . قال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء؛ يعني: أصحابه، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء؛ يعني: المشركين، ثم تقدم، فاستقبله سعد بن معاذ فقال: يا سعد بن معاذ! الجنة ورب النضر، إني أجد ريحها من دون أُحد، قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع.

قال أنس: فوجدنا به بضعاً وثمانين ضربةً بالسيف، أو طعنةً برمح، أو رميةً بسهم، ووجدناه قد قتل وقد مثل به المشركون، فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه، قال أنس: كنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾. إلى آخر الآية.

والحديث أخرجه أيضاً مسلم والترمذي والنسائي وأحمد والطيالسي وابن جرير وأبو نعيم في «الحلية» وعبد الله بن المبارك في «الجهاد».

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا

---

(١) البخاري.

وَزِينَتَهَا. . .﴾ الآيات، سبب نزولها: ما أخرجه البخاري بسنده عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: لم أزل حريصاً على أن أسأل عمر - رضي الله عنه - عن المرأتين من أزواج النبي - ﷺ -، اللتين قال الله لهما: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ فقال: واعجباً لك يا ابن عباس: عائشة وحفصة، ثم استقبل عمر الحديث يسوقه، فقال: إني كنت وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد، وهي من عوالي المدينة، وكنا نتناوب النزول على النبي - ﷺ -، فينزل يوماً، وأنزل يوماً، فإذا نزلت جئته من خبر ذلك اليوم من الأمر وغيره، وإذا نزل فعل مثله، وكنا معشر قريش نغلب النساء، فلما قدمنا على الأنصار إذا هم قوم تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار، فصاحت علي امرأتي، فراجعتني، فأنكرت أن تراجعني، فقالت: ولم تنكر أن أراجعك، فوالله إن أزواج النبي - ﷺ - ليراجعنه، وإن إحداهن لتهجره النهار حتى الليل، فأفزعني، فقلت: خابت من فعلت منهن بعظيمٍ، ثم جمعت على ثيابي فدخلت على حفصة، فقلت: أي حفصة، أتغاضب إحداكن رسول الله - ﷺ - حتى الليل؟ فقالت: نعم، فقلت: خابت وخسرت، أفتأمن من أن يغضب اللَّهُ رسوله فتهلكين، لا تستكثري على رسول الله - ﷺ - ولا تراجعيه في شيء، ولا تهجريه، واسأليني ما بدا لك ولا تغرنك إن كانت جارتك هي أوضأ منك، وأحب إلى رسول الله - ﷺ - يريد عائشة - وكنا تحدثنا أن غسان تنعل النعال لغزونا، فنزل صاحبي يوم نوبته، فرجع عشاء، فضرب بابي ضرباً شديداً، وقال: أنائم هو، ففزعت فخرجت إليه، وقال: حدث أمر عظيم، قلت: ما هو، أجاءت غسان؟ قال: لا، بل أعظم منه وأطول، طلق رسول الله - ﷺ - نساءه، قال: قد خابت حفصة وخسرت، كنت أظن أن هذا يوشك أن يكون، فجمعت علي ثيابي، فصليت صلاة الفجر مع النبي - ﷺ -، فدخل مشربةً له فاعتزل فيها، فدخلت على حفصة، فإذا هي تبكي، قلت: ما يبكيك، أولم أكن حذرتك، أطلقكن رسول الله - ﷺ -؟ قالت: لا أدري هوذا في المشربة، فخرجت فجئت المنبر، فإذا حوله رهط يبكي بعضهم، فجلست معهم قليلاً ثم غلبني ما أجد، فجئت المشربة التي هو فيها، فقلت لغلام له أسود: استأذن لعمر، فدخل فكلم النبي - ﷺ - ثم خرج فقال: ذكرتك له

فصمت، فانصرفت حتى جلست مع الرهط الذين عند المنبر، ثم غلبني ما أجد، فجئت الغلام، فذكر مثله، فجلست مع الرهط الذين عند المنبر، ثم غلبني ما أجد، فجئت الغلام، فقلت: استأذن لعمر، فذكر مثله، فلما وليت منصرفاً فإذا الغلام يدعوني، قال: أذن لك رسول الله - ﷺ -، فدخلت عليه، فإذا هو مضطجع على رمال حصير، ليس بينه وبينه فراش، وقد أثر الرمال بجنبه، متكىء على وسادةٍ من أدم حشوها ليف، فسلمت عليه، ثم قلت: وأنا قائم: أطلقت نساءك يا رسول الله؟ فرفع بصره إليّ فقال: «لا» ثم قلت وأنا قائم: استأنس يا رسول الله لورأيتني وكنا معشر قريش نغلب النساء، فلما قدمنا على قوم تغلبهم نساؤهم، فتبسم النبي - ﷺ -، ثم قلت: يا رسول الله لو رأيتني ودخلت على حفصة فقلت: لا يغرنك أن كانت جارتك هي أوضأ منك، وأحب إلى النبي - ﷺ -، يريد عائشة، فتبسم أخرى، فجلست حين رأيته تبسم، ثم رفعت بصري في بيته، فوالله ما رأيت فيه شيئاً يرد البصر غير أهبة ثلاث، فقلت: أدع الله فليوسع على أمتك، فإن فارس والروم وسع عليهم وأعطوا الدنيا، وهم لا يعبدون الله، وكان متكأ فقال: «أو في شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا، فقلت: يا رسول الله، استغفر لي، فاعتزل النبي - ﷺ - من أجل ذلك الحديث حين أفشته حفصة على عائشة، وكان قد قال: «ما أنا بداخل عليهن شهراً، من موجدته عليهن حين عاتبه الله سبحانه، فلما مضت تسع وعشرون ليلةً. . دخل على عائشة فبدأ بها، فقالت له عائشة: إنك أقسمت أن لا تدخل علينا شهراً، وإنا أصبحنا لتسع وعشرين ليلةً أعدها عداً، فقال النبي - ﷺ -: الشهر تسعٌ وعشرون، وكان ذلك الشهر تسعاً وعشرين، قالت عائشة: فأنزلت آية التخيير، فبدأ بي أول مرةٍ، فقال: «إني ذاكر لك أمراً، ولا عليك أن لا تعجلي حتى تستأمري أبويك». قالت: قد علم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه، ثم قال: إن الله سبحانه قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ إلى قوله: ﴿عَظِيمًا﴾ قلت: أفي هذا أستأمر أبوي، فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة، ثم خير نساءه، فقلن: مثل ما قالت عائشة.

الحديث أخرجه الترمذي وصححه، والنسائي وابن ماجه وأحمد وابن

الجارود وابن جرير.

وأخرج[١] مسلم وأحمد والنسائي من طريق أبي الزبير عن جابر قال: أقبل أبو بكر يستأذن على رسول الله - ﷺ -، فلم يؤذن له، ثم أقبل عمر فاستأذن فلم يؤذن له، ثم أذن لهما فدخلا، والنبي - ﷺ - جالس وحوله نساؤه وهو ساكت، فقال عمر: لأكلمن النبي - ﷺ - لعله يضحك، فقال عمر: يا رسول الله لو رأيت ابنة زيد امرأة عمر، سألتني النفقة آنفاً فوجأت عنقها، فضحك النبي - ﷺ - حتى بدا ناجذه، وقال: هن حولي يسألنني النفقة آنفاً، فقام أبو بكر، إلى عائشة ليضربها، وقام عمر إلى حفصة، كلاهما يقول: تسألان النبي - ﷺ - ما ليس عنده، وأنزل الخيار فبدأ بعائشة، فقال النبي - ﷺ -: «إني ذاكر لك أمراً، ما أحب أن تتعجلي فيه، حتى تستأمري أبويك» قالت: ما هو؟ فتلا عليها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ...﴾ الآية. قالت عائشة: أفيك أستأمر أبوي؟ بل اختار الله ورسوله.

التفسير وأوجه القراءة

﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾: ﴿قد﴾[٢] فيه لتأكيد العلم بالتعويق، ومرجع العلم إلى توكيد الوعيد، والتعويق: التثبيط، يقال: عاقه وعوقه: إذا صرفه عن الوجه الذي يريده، كما سيأتي. ومنه عوائق الدهر، والخطاب فيه لمن أظهر الإيمان مطلقاً.

والمعنى: قد علم الله سبحانه المثبطين للناس عن نصرة رسول الله - ﷺ -، الصارفين عن طريق الخير، وهم المنافقون أياً من كان منهم.

﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ من منافقي المدينة، فالمراد: الأخوة في الكفر والنفاق ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾؛ أي: احضروا وارجعوا إلينا، ودعوا محمداً - ﷺ -، فلا تشهدوا معه الحرب، فإنا نخاف عليكم الهلاك، وهذا يدل على أنهم عند هذا القول

(١) مسلم.

(٢) روح البيان.

خارجون عن العسكر، متوجهون نحو المدينة فراراً من العدو، و﴿هَلُمَّ﴾: اسم فعل بمعنى أقبل وأحضر وقرب، يستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث عند الحجازيين، وكلمة ﴿إلى﴾ صلة التقريب الذي تضمنه ﴿هَلُمَّ﴾. والمعنى: قربوا أنفسكم إلينا.

قيل[1]: هم أناس من المنافقين، كانوا يثبطون أنصار النبي - ﷺ -، ويقولون لهم: ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأسٍ، ويريدون أنهم قليلو العدد، ولو كانوا لحماً لالتهمهم؛ أي: ابتلعهم أبو سفيان وأصحابه، دعوا الرجل فإنه هالك، وقيل: نزلت في المنافقين، وذلك أن اليهود أرسلت إليهم: ما الذي يحملكم على قتل أنفسكم بيد أبي سفيان ومن معه، فإنهم إن قدروا عليكم في هذه المرة.. لم يبقوا منكم أحداً، وإنا نشفق عليكم، فأنتم إخواننا وجيراننا، هلموا إلينا، فأقبل عبد الله بن أبي بن سلول وأصحابه على المؤمنين، يعوقونهم ويخوفونهم بأبي سفيان ومن معه، وقالوا: لئن قدر اليوم عليكم لم يبق منكم أحداً، أما ترجعون عن محمد، ما عنده خير، ما هو إلا أن يقتلنا ههنا، انطلقوا بنا إلى إخواننا؛ يعني اليهود، فلم يزدد المؤمنون بقول المنافقين إلا إيماناً واحتساباً.

﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ﴾؛ أي: الحرب والقتال، وهو في الأصل الشدة ﴿إِلَّا﴾ إتياناً ﴿قَلِيلًا﴾ خوفاً من الموت، فإنهم يعتذرون ويتأخرون ما أمكن لهم، أو يخرجون مع المؤمنين، يوهمونهم أنهم معهم، لا تراهم يبارزون ويقاتلون، إلا شيئاً قليلاً، إذا اضطروا إليه، وهذا على تقدير عدم الفرار، وقيل: المعنى: لا يحضرون القتال إلا رياءً وسمعةً من غير احتساب، وقال أبو حيان: وقلته: إما لقصر زمانه، وإما لقلة عقابه، وأنه رياء وتلميع لا تحقيق، انتهى.

وقال ابن السائب:[2] هي في عبد الله بن أبي بن سلول، ومعتب بن قشير

---

(١) الخازن.

(٢) البحر المحيط.

ومن رجع من المنافقين من الخندق إلى المدينة، فإذا جاءهم المنافق.. قالوا له: ويحك، اجلس ولا تخرج، ويكتبون إلى إخوانهم في العسكر: أن ائتونا فإنا ننتظركم، وكانوا لا يأتون العسكر إلا أن لا يجدوا بداً من إتيانه، فيأتون ليرى الناس وجوههم، فإذا غفل عنهم.. عادوا إلى المدينة، فنزلت هذه الآية؟

والمعنى[1]: أي إن ربك أيها الرسول، ليعلم حق العلم من يثبطون الناس عن رسول الله - ﷺ -، يصدونهم عنه، وعن شهود الحرب معه، نفاقاً منهم، وتخذيلاً عن الإسلام، ويعلم الذين يقولون لأصحابهم خلطائهم من أهل المدينة: تعالوا إلى ما نحن فيه من الظلال والثمار، ودعوا محمداً فلا تشهدوا معه مشهداً، فإنا نخاف عليكم الهلاك، ولا يأتون المعسكر إلا ليراهم المخلصون، فإذا غفلوا عنهم.. تسللوا لواذاً، وعادوا إلى بيوتهم.

ثم ذكر بعض معايبهم، من البخل والخوف والفخر الكاذب فقال:

١ - ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ حال من فاعل ﴿يَأْتُونَ﴾؛ أي: حالة كونهم بخلاء عليكم، لا يعاونونكم بحفر الخندق، ولا بالنفقة والنصرة في سبيل الله، فهم لا يودون مساعدتكم، لا بنفس ولا بمالٍ، قاله مجاهد وقتادة، وقيل: بخلاء بالقتال معكم، وقيل: بالنفقة على فقرائكم ومساكينكم، وقيل: أشحةٌ بالغنائم إذا أصابوها، قاله السدي. وقرأ الجمهور: بالنصب، وقرأ ابن أبي عبلة: بالرفع.

٢ - ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ﴾؛ أي: الخوف من العدو ﴿رَأَيْتَهُمْ﴾؛ أي: رأيت يا محمد، أو أيها المخاطب أولئك المعوقين ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ يا محمد في تلك الحالة، حالة كونهم ﴿تَدُورُ﴾ وتتحرك ﴿أَعْيُنُهُمْ﴾ وأبصارهم في أحداقهم يميناً وشمالاً، وذلك شأن الجبان، إذا شاهد ما يخافه، و(الكاف) في قوله: ﴿كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾: صفة لمصدر محذوف؛ أي: تدور أعينهم دوراناً كائناً كدوران عين المغشي عليه من معالجة سكرات الموت وأسبابه، حذراً وخوفاً

---

(١) المراغي.

والتجاءً بك، يقال: غشي على فلان: إذا نابه ما غشي فهمه وستر عقله، كما سيأتي؛ أي: تدور أعينهم كدوران عين الذي غشيته أسباب الموت، وأحاطت به سكراته، فيذهل عن كل شيء، ويذهب عقله، ويشخص بصره، فلا يطرف، كذلك هؤلاء، تشخص أبصارهم لما يلحقهم من الخوف، ويقال للميت إذا شخص بصره: دارت عيناه، ودارت حماليق عينيه.

والمعنى: أي[1] فإذا بدأ الخوف بِكَرِّ الشجعان وفرِّهم في ميدان القتال.. رأيتهم ينظرون إليك، وقد دارت أعينهم في مواضعها، فرقاً وخوفاً، كدوران عين الذي قرب من الموت، وعشيته أسبابه، فإنه إذ ذاك يذهب لبه وعقله، ويشخص بصره، فلا يتحرك طرفه.

٣ - ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ﴾ وحصل الأمن من العدو وجمعت الغنائم.. ﴿سَلَقُوكُم﴾؛ أي: جرحوكم وآذوكم ﴿بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾؛ أي: بألسنة سليطةٍ ذربةٍ بذيةٍ خفيفة الحياء، جهروا فيكم بالسوء من القول، قال قتادة: ومعنى الآية: بسطوا ألسنتهم فيكم في وقت قسمة الغنيمة، وقالوا: وفروا لنا قسمتنا وسهمنا، فإنا قد ساعدناكم، وقاتلنا معكم، وبمكاننا غلبتم عدوكم، وبنا نصرتم عليه.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿سَلَقُوكُم﴾ بالسين، وابن أبي عبلة: بالصاد.

أي: فإذا كان الأمن.. تكلموا فصيح الكلام، وفخروا بما لهم من المقامات المشهودة في النجدة والشجاعة، وهم في ذلك كاذبون، قال قتادة: أما عند الغنيمة فأشح قوم، وأسوؤهم مقاسمةً، يقولون: أعطونا أعطونا، قد شهدنا معكم، وأما عند البأس فأجبن قوم، وأخذَ لُهم للحق. ا هـ.

ثم بيّن ما دعاهم إلى بسط ألسنتهم فيهم، فقال: ﴿أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾: حال من فاعل سلقوكم؛ أي: طعنوكم بألسنةٍ حدادٍ؛ أي: مؤثرة في الإعراض تأثير الحديد في الأجسام، حالة كونهم بخلاء على المال، حريصين على أخذ الغنائم.

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

وقرأ الجمهور: ﴿أَشِحَّةً﴾ بالنصب على الحال، وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿أشحة﴾ بالرفع؛ أي: هم بخلاء حريصون على الغنائم، إذا ظفر بها المؤمنون، لا يريدون أن يفوتهم شيء مما وصل إلى أيديهم.

والخلاصة: أنهم حين البأس جبناء، وحين الغنيمة أشحاء.

أَفِيْ السلم أعيار جفاءً وغلظةً ... وَفِيْ ٱلْحَرْبِ أَمْثَالَ ٱلنِّسَاءِ ٱلْعَوَاتِكِ

وبعد أن وصفهم بما وصفهم به، من دنيء الصفات.. بين ما دعاهم إليها، وهو قلة ثقتهم بالله، لعدم تمكن الوازع النفسي في قلوبهم فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر من صفات السوء ﴿لَمْ يُؤْمِنُوا۟﴾ بالإخلاص، حيث أبطنوا خلافاً ما أظهروا، فصاروا أخبث الكفرة، وأبغضهم إلى الله ﴿فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾؛ أي: أظهر بطلانها إذ لم يثبت لهم أعمال تقتضي الثواب فتبطل، لأنهم منافقون، وفي هذا[1] دلالة على أن المعتبر عند الله هو العمل المبني على التصديق، وإلا فهو كبناء على غير أساس، أو المراد[2] أبطل تصنعهم ونفاقهم، فلم يبق مستتبعاً لمنفعةٍ دنيوية أصلاً.

وقال الزمخشري: فإن قلت[3]: هل يثبت للمنافق عمل حتى يرد عليه الإحباط؟

قلت: لا، ولكن تعليم لمن يظن أن الإيمان باللسان إيمان، وإن لم يواطئه القلب، وأن ما يعمله المنافق من الأعمال يجزى عليه، فبين أن إيمانه ليس بإيمان، وأن كل عمل يوجد منه باطل، انتهى.

والمعنى: أي هؤلاء الذين بسطت أوصافهم لم يصدقوا الله ورسوله، ولم يخلصوا له العمل، لأنهم أهل نفاق، فأبطل أعمالهم، وأذهب أجورها، وجعلها هباءً ومنثوراً.

---

(١) روح البيان.

(٢) أبو السعود.

(٣) الكشاف.

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ الإحباط ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾؛ أي: هيناً على الله، لا يبالي به، لتعلق الإرادة به، إذ هم قوم فعلوا ما يستوجب الإحباط ويستدعيه، فاقتضت حكمته أن يعاملهم بما يقتضيه عدله، وتدل عليه حكمته.

ثم أبان مقدار الجبن والهلع الذي لحق بهم فقال: هم ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟﴾؛ أي: هؤلاء المنافقون لجبنهم المفرط، يظنون أن الأحزاب باقون في معسكرهم، لم يذهبوا، إلى ديارهم، ولم ينهزموا، ففروا إلى المدينة، والأحزاب: هم الذين تحزبوا وتجمعوا على محاربة النبي - ﷺ - يوم الخندق، وهم قريش وغطفان وبنو قريظة والنضير من اليهود، كما مر.

أي: هم[1] من شدة الهلع والخوف، وعظيم الدهشة والحيرة، لا يزالون يظنون أن الأحزاب لم يرحلوا، وقد هزمهم الله، ورحلوا وتفرقوا في كل وادٍ.

وإجمال القول: أنهم لم يقاتلوا لجبنهم وضعف إيمانهم، فكأنهم غائبون، فظنوا أن الأحزاب لم يرحلوا، وقد كانوا راحلين منهزمين، لا يلوون على شيء.

﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ﴾ مرةً ثانية إلى المدينة ﴿يَوَدُّوا۟﴾ ويتمنوا ﴿لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ﴾؛ أي: خارجون من المدينة إلى البادية ساكنون ﴿فِى ٱلْأَعْرَابِ﴾ لئلا يقاتلوا، والود[2]: محبة لشيء وتمني حصوله، والبادون: هم الساكنون في البادية، وهم خلاف الحاضرين، والبدو وكذا البادية: خلاف الحضر، كما سيأتي. والأعراب: سكان البادية مطلقاً.

حال كونهم ﴿يَسْـَٔلُونَ﴾ كل قادم من جانب المدينة ﴿عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾؛ أي: عن أخباركم وعما جرى عليكم من الأحزاب؛ أي: يودون أنهم غائبون عنكم، يسمعون أخباركم بسؤالهم عنها من غير مشاهدة.

أي: وإن يأت الأحزاب ويعودوا مرةً أخرى.. تمنوا أن لو كانوا مقيمين في البادية، بعيدين عن المدينة، حتى لا ينالهم أذىً ولا مكروه، ويكتفون بأن

---

(١) المراغي.　　(٢) روح البيان.

يسألوا عن أخباركم كل قادم من جانب المدينة، وفي هذا كفاية لديهم لجبنهم، وخور عزائمهم.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿يَسْـَٔلُونَ﴾ بالهمز مضارع سأل، وحكى ابن عطية أن أبا عمرو وعاصماً، والأعمش قرؤوا: ﴿يسلون﴾ بغير همز نحو قوله: ﴿سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ولا يعرف ذلك عن أبي عمرو وعاصم، ولعل ذلك في شاذهما، ونقلهما صاحب «اللوامح» عن الحسن والأعمش، وقرأ زيد بن علي وقتادة والجحدري والحسن ويعقوب بخلاف عنهما: ﴿يسأل بعضهم بعضاً﴾؛ أي: يقول: بعضهم لبعض: ماذا سمعت وماذا بلغك؟ أو يتساءلون الأعراب كما تقول: ترائينا الهلال.

ثم سلى نبيه - ﷺ - عنهم، وحقر شأنهم، فقال: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟﴾؛ أي: ولو كان هؤلاء المنافقون ﴿فِيكُم﴾ أيها المؤمنون في الخندق في هذه الغزوة مشاهدين للقتال، ولم يرجعوا إلى المدينة، وكان قتال ﴿مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا﴾ قتالاً ﴿قَلِيلًا﴾ رياءً وسمعةً وخوفاً من التعبير من غير حسبةٍ.

والمعنى: أي ولو كان هؤلاء المنافقون فيكم في الكرة السابقة، ولم يرجعوا إلى المدينة، وكان القتال قتال جلاءٍ وكرٍّ وفرٍّ وطعنٍ وضربٍ ومحاربةٍ بالسيوف، ومبارزة في الصفوف ما قاتلوا إلا قتالاً يسيراً رياءً وخوفاً من العار، لا قتالاً يحتسبون فيه الثواب من الله وحسن الأجر.

وحاصل معنى الآية[2]: أي وإن يأت الكفار بعدما ذهبوا كرةً ثانية.. تمنى هؤلاء المنافقون أن لو كانوا ساكنين خارج المدينة بين الأعراب، بعداء عن تلك الكفرة، يسألون كل قادم من جانب المدينة عما جرى عليكم مع الكفار، والحال أن هؤلاء المنافقين، لو كانوا فيكم هذه الكرة، ولم يرجعوا إلى المدينة، ووقع قتال آخر.. ما قاتلوا معكم إلا قليلاً رياءً وخوفاً من التعيير.

وبعد أن فصل أحوالهم، وشرح نذالتهم، وعظيم جبنهم.. عاتبهم أشد

---

(١) البحر المحيط.	(٢) المراح.

العتب، وأبان لهم أنه قد كان لهم برسول الله - ﷺ - معتبر لو اعتبروا، وأسوة لو أرادوا التأسي، فقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون، وهو الظاهر من قوله فيما بعد: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ...﴾ الخ ﴿فِي رَسُولِ اللَّهِ﴾ - ﷺ - ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾؛ أي: خصلة صالحة، حقها أن يقتدى بها على سبيل الإيجاب في أمور الدين، وعلى سبيل الاستحباب في أمور الدنيا، والقدوة: الحالة التي يكون الإنسان عليها في اتباع غيره، إن حسناً وإن قبيحاً، وإن ساراً وإن ضاراً، يقال: تأسيت به؛ أي: اقتديت به.

والمعنى[١]: لقد كان لكم أيها المؤمنون في محمد - ﷺ - خصلة حسنة، وسنة صالحة، حقها أن يؤتى بها؛ أي: يقتدى فيها، كالثبات في الحرب، ومقاساة الشدائد، فإنه قد شج فوق حاجبه وكسرت رباعيته، وقتل عمه حمزة يوم أحد، وأوذي بضروب الأذى، فوقف ولم ينهزم، وصبر ولم يجزع، فاستسنوا بسنته وانصروه، ولا تتخلفوا عنه.

وقال بعضهم: كلمة ﴿فِي﴾ تجريدية، جرد من نفسه شيء وسمي قدوة، وهي هو؛ يعني أن رسول الله - ﷺ - في نفسه أسوة وقدوة، يحسن التأسي به، والاقتداء، كقولك: في البيضة عشرون مناً حديداً؛ أي: هي نفسها هذا القدر من الحديد.

وقرأ الجمهور[٢]: ﴿أُسْوَةٌ﴾ بضم الهمزة، وقرأ عاصم: بكسرها، وهما لغتان، كما قال الفراء وغيره، وفي هذه الآية عتاب للمتخلفين عن القتال مع رسول الله - ﷺ -؛ أي: لقد كان لكم في رسول الله، حيث بذل نفسه للقتال، وخرج إلى الخندق لنصرة دين الله أسوة، وهذه الآية، وإن كان سببها خاصاً.. فهي عامة في كل شيء، ومثلها ﴿وَمَا ءَاتَىٰكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ وقوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾.

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

وهذه الجملة: خبرية لفظاً، إنشائية معنىً قصد بها الأمر؛ أي: اقتدوا به اقتداءً حسناً، وهو أن تنصروا دين الله، كما نصر هو بنفسه بالخروج إلى الغزو.

و(اللام) في قوله: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ﴾: ويأمل ثوابه ﴿و﴾ يرجو ﴿ٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾؛ أي: نعيمه، أو يخاف الله واليوم الآخر، فالرجاء يحتمل الأمل والخوف متعلقه بحسنة، أو بمحذوف، هو صفة لحسنة؛ أي: كائنة لمن كان يرجو الله، وقال الزمخشري: إنه بدل من ﴿لَكُمْ﴾، كقوله: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾. انتهى. ولا يجوز[1] على مذهب جمهور البصريين أن يبدل من ضمير المتكلم، ولا من ضمير المخاطب اسم ظاهر في بدل الشيء، وأجاز ذلك الكوفيون والأخفش، ويدل عليه قول الشاعر:

بِكُمْ قُرَيْشٍ كَفَيْنَا كُلَّ مُعْضِلَةٍ وَأَمَّ نَهْجَ ٱلْهُدَىٰ مَنْ كَانَ ضِلِّيْلاً

والمراد بـ﴿من كان يرجو الله﴾: المؤمنون، فإنهم الذين يرجون الله، ويخافون عذابه، ومعنى يرجون الله: يرجون ثوابه أو لقاءه، ومعنى يرجون اليوم الآخر: إنهم يرجون رحمة الله فيه، أو يصدقون بحصوله، وأنه كائن لا محالة، وهذه الجملة: تخصيص بعد التعميم بالجملة الأولى.

وقوله: ﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ﴾ سبحانه بلسانه، وجنانه ذكراً ﴿كَثِيرًا﴾ في جميع أوقاته وأحواله معطوف على ﴿كان﴾؛ أي: ولمن ذكر الله سبحانه في جميع أحواله، ذكراً كثيراً، وجمع[2] بين الرجاء لله، وكثرة الذكر له، المؤدية إلى ملازمة الطاعة، لأن بهما يتحقق الائتساء برسول الله - ﷺ -.

قال الحكيم الترمذي: الأسوة في الرسول: الاقتداء به، والاتباع لسنته، وترك مخالفته في قول وفعل.

ثم بين سبحانه ما وقع من المؤمنين المخلصين عند رؤيتهم للأحزاب، ومشاهدتهم لتلك الجيوش، التي أحاطت بهم كالبحر المحيط، فقال: ﴿وَلَمَّا رَءَا

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾؛ أي: الجنود المجتمعة لمحاربة النبي ـ ﷺ ـ وأصحابه يوم الخندق، والحزب: جماعة فيها غلظ، كما في «المفردات».. ﴿قَالُوا۟﴾؛ أي: قال المؤمنون ﴿هَٰذَا﴾ البلاء العظيم، والإشارة[1] بقوله: ﴿هَٰذَا﴾ إلى ما رأوه من الجيوش، أو إلى الخطب الذي نزل بهم، والبلاء الذي دهمهم ﴿مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ﴾ سبحانه وأخبرنا به، ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ ـ ﷺ ـ بقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾ الآية. وبقوله ـ ﷺ ـ: «سيشتد الأمر باجتماع الأحزاب عليكم، والعاقبة لكم عليهم»، وبقوله عليه السلام: «إن الأحزاب سائرون، إليكم بعد تسع ليال أو عشر» كما روي عن ابن عباس قال: قال النبي ـ ﷺ ـ لأصحابه: «إن الأحزاب سائرون، إليكم تسعاً أو عشراً؛ أي: في آخر تسع ليال أو عشر، فلما رأوهم قد أقبلوا من حين الإخبار.. قالوا ذلك، وهذا القول استبشار بحصول ما وعدهم الله تعالى ورسوله ـ ﷺ ـ، من مجيء هذه الجنود، وأنه يعقب مجيئهم إليهم نزول النصر والظفر من عند الله تعالى.

ثم أردفوا ما قالوه بقولهم: ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ﴾؛ أي: ظهر صدق خبر الله ورسوله ـ ﷺ ـ ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ ما رأوه ﴿إِلَّآ إِيمَٰنًا﴾ بالله وتصديقاً بمواعيده ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ لأوامره ومقاديره، وقال الفراء: ما زادهم النظر إلى الأحزاب إلا إيماناً وتسليماً.

وقرأ ابن أبي عبلة[2]: ﴿وما زادوهم﴾ بالواو وضمير الجميع يعود على الأحزاب؛ أي: ولما أبصر[3] المؤمنون الصادقون المخلصون لله في القول والعمل الأحزاب، الذين أدهشت رؤيتهم العقول، وتبلبلت لها الأفكار، واضطربت الأفئدة.. قالوا: هذا ما وعدنا الله ورسوله، من الابتلاء والاختبار، الذي يعقبه النصر في نحو قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ

---

(١) الشوكاني.

(٢) البحر المحيط.

(٣) المراغي.

﴿خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ...﴾ الآية. وقوله: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢﴾ وقوله - ﷺ -: «سيشتد الأمر باجتماع الأحزاب عليكم» إلخ، وقوله: «إنهم سائرون إليكم تسعاً أو عشراً»؛ أي: في آخر تسع ليال أو عشر من حين الأخبار، وصدق الله ورسوله في النصرة والثواب، كما صدق الله ورسوله في البلاء والاختبار، وما زادهم ذلك إلا صبراً على البلاء، وتسليماً للقضاء، وتصديقاً بتحقيق ما كان الله ورسوله وعدهم. ووجه إظهار الاسم الشريف والرسول في قوله: ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ﴾ بعد قوله: ﴿مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ هو قصد التعظيم كما في قول الشاعر:

أَرَىٰ ٱلْمَوْتَ لاَ يَسْبِقُ ٱلْمَوْتَ شَيْءٌ

وأيضاً لو أضمرهما.. لجمع بين ضمير الله وضمير رسوله في لفظٍ واحدٍ، وقال صدقا، وقد ورد النهي عن جمعهما، كما في حديث: «بئس خطيب القوم أنت» لمن قال: ومن يعصهما فقد غوى، ثم وصف سبحانه بعض الكملة من المؤمنين الذين صدقوا عند اللقاء واحتملوا البأساء والضراء بقوله:

﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ أي: من المؤمنين المخلصين لله، المصدقين برسوله ﴿رِجَالٞ﴾ كمله، فالتنوين فيه للتعظيم، والكمال ﴿صَدَقُواْ﴾ ووفوا ﴿مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ﴾؛ أي: أوفوا بما عاهدوا الله عليه، ونذروا على أنفسهم من الثبات مع الرسول، والمقاتلة لإعلاء الدين، والصبر في اللأواء وحين البأساء؛ أي[1]: حققوا العهد بما أظهروه من أفعالهم، وهم عثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وحمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير وأنس بن النضر وغيرهم - رضي الله عنهم أجمعين - نذروا أنهم إذا لقوا حرباً مع رسول الله - ﷺ -.. ثبتوا وقاتلوا حتى يستشهدوا.

وقيل المعنى[2]: أنهم وفوا بما عاهدوا عليه رسوله - ﷺ - ليلة العقبة، من الثبات معه، والمقاتلة لمن قاتله، بخلاف من كذب في عهده، وهم المنافقون.

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

قال الحكيم الترمذي ـ رحمه الله ـ: خص الله الإنس من بين الحيوان، ثم خص المؤمنين من بين الإنس، ثم خص الرجال من المؤمنين، فقال: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟﴾ فحقيقة الرجولية الصدق، ومن لم يدخل في ميادين الصدق.. فقد خرج من حدّ الرجولية.

وقوله: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ﴾ ووفى نحبه ونذره فاستشهد بعض يوم بدر، وبعض يوم أحد، وبعض في غير هذه المواطن، كحمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير وأنس بن النضر. ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ قضاء نذره ووفاءه والقتل في سبيله؛ لكون موقناً كعثمان وطلحة وغيرهما، فإنهم على نذورهم وقد قضوا بعضها، وهو الثبات مع رسول الله ـ ﷺ ـ، والقتال إلى حين نزول الآية الكريمة، ومنتظرون قضاء بعضها الباقي، وهو القتال إلى الموت شهيداً، وفي وصفهم بالانتظار إشارة إلى كمال اشتياقهم إلى الشهادة.

تفصيل[1] لحال الصادقين، وتقسيم لهم إلى قسمين، والنحب في الأصل: النذر المحكوم بوجوبه، وهو أن يلتزم الإنسان شيئاً من أعماله ويوجبه على نفسه، وقضاؤه الفراغ منه والوفاءُ به، يقال: قضى فلان نحبه؛ أي: وفى بنذره، ويعبر بذلك عمن مات كقولهم: قضى أجله واستوفى أكله، وقضى من الدنيا حاجته، وذلك، لأن الموت كنذر لازم في عنق كل حيوان.

وقال أبو السعود: ويجوز[2] أن يكون النحب مستعاراً لالتزام الموت شهيداً، إما: بتنزيل أسبابه التي هي أفعال اختيارية للناذر منزلة التزام نفسه، وإما بتنزيل نفسه منزلة أسبابه، وإيراده الالتزام عليه، وهو الأنسب بمقام المدح، وأما ما قيل من أن النحب استعير للموت؛ لأنه كنذر لازم في رقبة الحيوان، فهو تقبيح للاستعارة، وإذهاب لرونقها. انتهى.

ومعنى الآية[3]: أن من المؤمنين رجالاً أدركوا أمنيتهم، وقضوا حاجتهم، ووفوا بنذرهم، فقاتلوا حتى قتلوا، وذلك كما في يوم أحد، كحمزة بن عبد

---

(١) روح البيان.
(٢) أبو السعود.
(٣) الشوكاني.

المطلب ومصعب بن عمير وأنس بن النضر، ومنهم من ينتظر قضاء نحبه حتى يحضر أجله، كعثمان بن عفان وطلحة والزبير وأمثالهم، فإنهم مستمرون على الوفاء بما عاهدوا الله عليه، من الثبات مع رسوله - ﷺ -، والقتال لعدوه، ومنتظرون لقضاء حاجتهم، وحصول أمنيتهم بالقتل وإدراك فضل الشهادة.

وجملة قوله: ﴿وَمَا بَدَّلُوا۟﴾ عهدهم وما غيروه ﴿تَبْدِيلًا﴾ وتغييراً ما، لا أصلاً، ولا وصفاً، كما غير المنافقون عهدهم، بل ثبتوا عليه ثبوتاً مستمراً، راغبين فيه، مراعين لحقوقه على أحسن ما يكون، معطوفة على ﴿صَدَقُوا۟﴾ وفاعله: فاعله.

أما الذين قضوا نحبهم فظاهر، فقد أخرج الإمام أحمد ومسلم والترمذي والنسائي في جماعة آخرين عن أنس، قال: غاب عمي أنس بن النضر عن بدر فشق عليه، وقال: أول مشهد شهده رسول الله - ﷺ - غبت عنه، لئن أراني الله تعالى مشهداً مع رسول الله - ﷺ - فيما بعد.. ليرين الله تعالى ما أصنع، فشهد يوم أحد، فاستقبله سعد بن معاذ فقال: يا أبا عمرو إلى أين؟ قال: واهاً: لريح الجنة أجدها دون أحد، فقاتل حتى قتل، فوجد في جسده بضع وثمانون، من ضربةٍ وطعنةٍ ورميةٍ، ونزلت هذه الآية: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ الآية.

وأما الذين ينتظرون قضاء نحبهم.. فقد استمروا على ذلك حتى فارقوا الدنيا، ولم يغيروا ولا بدلوا، فيشهد به انتظارهم أصدق الشهادة، روي أن طلحة - رضي الله عنه - ثبت مع رسول الله - ﷺ - يوم أحد يحميه، حتى أصيبت يده فشلت، وجرح أربعاً وعشرين جراحةً، فقال عليه السلام: «أوجب طلحة الجنة» وسماه النبي - ﷺ - يومئذ طلحة الخير، ويوم حنين طلحة الجود، ويوم غزوة ذات العشيرة طلحة الفياض، وقتل يوم الجمل، وفي الآية تعريض[1] بأرباب النفاق، وأصحاب مرض القلب، فإنهم ينقضون العهود، ويبدلون العقود.

---

(١) روح البيان.

و(اللام): في قوله: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ يجوز أن يتعلق بـ﴿صَدَقُواْ﴾ أو بـ﴿زَادَهُمْ﴾ أو بـ﴿ما بدَّلوا﴾ أو بمحذوف، تقديره: وقع جميع ما وقع؛ ليجزي الله الصادقين بما صدر عنهم من الصدق والوفاء قولاً وفعلاً، قال في «كشف الأسرار»: في الدنيا بالتمكين والنصرة على العدو وإعلاء الراية، وفي الآخرة بجميل الثواب، وجزيل المآب، والخلود في النعيم المقيم، والتقديم على الأمثال بالتكريم والتعظيم.

﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ بما صدر منهم من الأقوال والأعمال المحكية في التغيير والتبديل ﴿إِن شَآءَ﴾ تعذيبهم؛ أي: إن لم يتوبوا فإن الشرك لا يغفر البتة.

جعل[1] المنافقين كأنهم قصدوا عاقبة السوء، وأرادوها، بسبب تبديلهم وتغييرهم، كما قصد الصادقون عاقبة الصدق بوفائهم، فكل من الفريقين مسوق إلى عاقبته من الثواب والعقاب، فكأنهما استويا في طلبها، والسعي لتحصيلها، ومفعول ﴿إِن شَآءَ﴾ وجوابها: محذوفان؛ أي: إن شاء تعذيبهم عذبهم، وذلك إذا أقاموا على النفاق، ولم يتركوه ويتوبوا عنه، كما مرّ.

﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: يقبل توبتهم إن تابوا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿كَانَ غَفُورًا﴾؛ أي: ستوراً على من تاب محاءً لما صدر منه ﴿رَّحِيمًا﴾؛ أي: منعماً عليه بالجنة والثواب.

والمعنى[2]: أي إنه سبحانه إنما يختبر عباده بالخوف والزلزال؛ ليتميز الخبيث من الطيب، ويظهر أمر كل منهما جلياً واضحاً، كما قال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ وقال: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾. ثم يثيب أهل الصدق منهم بصدقهم بما عاهدوا الله عليه ووفائهم له به، ويعذب المنافقين الناقضين لعهده، المخالفين لأوامره، إذا استمروا على نفاقهم حتى يلقوه، فإن تابوا ونزعوا عن نفاقهم، وعملوا صالح الأعمال.. غفر لهم ما

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

أسلفوا من السيئات، واجترحوا من الآثام والذنوب، ولما كانت رحمته ورأفته بخلقه هي الغالبة.. قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾؛ أي: إنه تعالى من شأنه الستر على ذنوب التائبين، والرحمة بهم، فلا يعاقبهم بعد التوبة، وفي هذا حث عليها في كل حين، وبيان نفعها للتائبين.

ثم رجع يحكي بقية القصص، وفصل ذلك تتميماً للنعمة التي أشار إليها إجمالاً بقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ ووسط بينهما بإيضاح ما نزل بهم من الطامة التي تحير العقول والأفهام، والداهية التي زلت فيها الأقدام، وما صدر من الفريقين المؤمنين وأهل الكفر والنفاق من الأحوال والأقوال؛ لإظهار عظمة النعمة، وإبانة جليل خطرها، ومجيئها حين اشتداد الحاجة إليها، فقال: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وصرف ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وهم الأحزاب، معطوف على قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ أو على محذوف؛ أي: وقع ما وقع من الحوادث، ورد الله الذين كفروا من الذين تحزبوا وتجمعوا لمحاربة النبي - ﷺ - إلى بلدانهم، حال كونهم ملتبسين ﴿بِغَيْظِهِمْ﴾ وغضبهم وحسرتهم، لم يشف صدورهم ﴿لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾ حال بعد حال؛ أي: حال كونهم لم يصيبوا ما أرادوا من الغلبة، وسماها خيراً؛ لأن ذلك كان خيراً عندهم، فجاء على استعمالهم وزعمهم.

والمعنى: أن الله سبحانه ردهم بغيظهم، لم يشف صدورهم، ولا نالوا خيراً في اعتقادهم، وهو الظفر بالمسلمين، أو لم ينالوا خيراً، أي خير، بل رجعوا خاسرين، لم يربحوا إلا عناء السفر وغرم النفقة. ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ﴾ سبحانه ﴿المؤمنين القتال﴾؛ أي: أغناهم عن قتال الأحزاب بما أرسله عليهم من الريح الشديدة والجنود من الملائكة.

وحاصل المعنى(١): أي فأرسلنا ريحاً وجنوداً لم تروها، ورددنا الذين كفروا بالله ورسوله من قريش وغطفان بغمهم، بفوت ما أملوا من الظفر، وخيبتهم، فيما كانوا طمعوا فيه من الغلبة، والنصر على محمد وصحبه، إذ لم

---

(١) المراغي.

يصيبوا مالاً ولا إساراً، ولم يحتج المؤمنون إلى منازلتهم ومبارزتهم لإجلائهم عن بلادهم، بل كفى الله المؤمنين القتال، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، فلا شيء بعده.

روى الشيخان من حديث أبي هريرة أن رسول الله - ﷺ - كان يقول: «لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، فلا شيء بعده». ورويا أيضاً عن عبد الله بن أوفى: قال: دعا رسول الله - ﷺ - على الأحزاب، فقال: «اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم».

وروى محمد بن إسحاق: أنه لما انصرف أهل الخندق عن الخندق.. قال رسول الله - ﷺ -: «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا، ولكنكم تغزونهم». وقد تحقق هذا، فلم تغزهم قريش بعد ذلك، بل كان رسول الله - ﷺ - يغزوهم، حتى فتح الله تعالى مكة.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه ﴿قَوِيًّا﴾ على إحداث كل ما يريده، وإيجاده، إذ قال له: كن فكان، ﴿عَزِيزًا﴾؛ أي: غالباً قاهراً على كل شيء، لا يغالبه أحد من خلقه، ولا يعارضه معارض في سلطانه وجبروته؛ أي: وكان الله عزيزاً بحوله وقوته، فردهم خائبين لم ينالوا خيراً.

ولما قص أمر الأحزاب، وذكر ما انتهى إليه أمرهم.. ذكر حال من عاونوهم من اليهود، فقال: ﴿وَأَنزَلَ﴾ الله سبحانه اليهود ﴿ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم﴾؛ أي: عاونوا الأحزاب المردودين على رسول الله - ﷺ - والمسلمين، حين نقضوا العهد وعاضدوهم عليهم حالة كون المظاهرين ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهم بنو قريظة قوم من اليهود بالمدينة من حلفاء الأوس، وسيد الأوس حينئذٍ سعد بن معاذ - رضي الله عنه - ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾؛ أي: من حصونهم وقصورهم، جمع صيصية بالكسر، وهي[1] ما يتحصن به، ويجعل وقايةً من المهالك، ولذلك يقال لقرن الثور

---

(١) روح البيان.

والظبي وشوكة الديك، وهي في مخلبته التي في ساقه، لأنه يتحصن بها ويقاتل.

أي: وأنزل الله[1] يهود بني قريظة الذي عاونوا الأحزاب على رسول الله ﷺ، وأخرجهم من حصونهم وقصورهم، بعد أن نقضوا العهد، بسفارة حيي بن أخطب النضيري، إذ لم يزل بزعيمهم كعب بن أسد حتى نقض العهد، وكان مما قاله له: جئتك بعز الدهر، أتيتك بقريش وأحابيشها، وغطفان، وأتباعها، ولا يزالون ههنا حتى يستأصلوا محمداً وأصحابه، فقال له كعب: بل والله جئتني بذل الدهر، ويحك يا حيي إنك مشؤوم، فدعنا منك، فلم يزل يحاوله حتى أجابه، واشترط له حيي إن ذهب الأحزاب، ولم يكن من أمرهم شيء، أن يدخل معهم في الحصن، فيكون أسوتهم.

ولما أيد الله المؤمنين، وكبت أعداءهم وردهم خائبين، ورجعوا إلى المدينة، ووضع الناس سلاحهم.. أوحي إلى رسول الله - ﷺ -: أن انهض إلى بني قريظة من فورك، فأمر الناس بالسير إليهم، وكانوا على أميال من المدينة بعد صلاة الظهر، وقال - ﷺ -: «لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بني قريظة» فسار الناس، فأدركتهم الصلاة فصلى بعض في الطريق، وقال آخرون: لا نصليها إلا في بني قريظة، فلم يعنف واحداً من الفريقين.

﴿وَقَذَفَ﴾ الله سبحانه وتعالى؛ أي: ألقى ورمى ﴿فِي قُلُوبِهِمُ﴾؛ أي: في قلوب اليهود الذين ظاهروا الأحزاب ﴿الرُّعْبَ﴾؛ أي: الخوف والفزع الشديد، حتى سلموا أنفسهم للقتل، وأهليهم وأولادهم للأسر، حسبما ينطق به قوله: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ يعني رجالهم ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ يعني نساءهم وصبيانهم من غير أن يكون من جهتهم حركة، فضلاً عن المخالفة، وهذه الجملة: مبينة ومقررة لقذف الرعب في قلوبهم.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿تقتلون وتأسرون﴾ بالفوقية على الخطاب وكسر السين، وقرأ أبو حيوة: بضمها، وقد حكى الفراء كسر السين وضمها، فهما لغتان. وقرأ

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

اليماني: بالفوقية في الأول، والتحتية في الثاني، وقرأ ابن ذكوان في رواية عنه: بالتحتية فيهما.

ووجه تقديم مفعول الفعل الأول، وتأخير مفعول الثاني[١]: أن الرجال لما كانوا أهل الشوكة، وكان الوارد عليهم أشد الأمرين، وهو القتل.. كان الاهتمام بتقديم ذكرهم أنسب بالمقام.

وقد اختلف في عدد المقتولين والمأسورين، فقيل: كان المقتولون من ست مئة إلى سبع مئة، وقيل: ست مئة، وفيل: سبع مئة، وقيل: ثمان مئة، وقيل: تسع مئة. وكان المأسورون سبع مئة. وقيل: سبع مئة وخمسين، وقيل: تسع مئة.

والمعنى: أي وألقى الله الرعب والخوف الشديد في قلوبهم حين نازلهم رسول الله ـ ﷺ ـ، وحاصرها خمساً وعشرين ليلةً، فنزلوا على حكم سعد بن معاذ سيد الأوس، لأنهم كانوا حلفاءهم، فأحضره رسول الله ـ ﷺ ـ وقال له: «إن هؤلاء نزلوا على حكمك، فاحكم فيهم بما شئت» فقال ـ رضي الله عنه ـ: وحكمي نافذ فيهم؟ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «نعم، فقال: إني أحكم أن تقتل مقاتليهم، وتسبى ذراريهم وأموالهم، فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ: «لقد حكمت فيهم بحكم الله وحكم رسوله»، ثم أمر رسول الله ـ ﷺ ـ بالأخادية، فخدت في الأرض، وجيء بهم مكتوفي الأيدي، فضربت أعناقهم، وكانوا ما بين سبع مئة وثمان مئة، وسبي من لم ينبت منهم مع النساء، وسبي أموالهم.

والخلاصة[٢]: أنه قذف الرعب في قلوبهم، حتى أسلموا أنفسهم للقتل، وأهليهم وأموالهم للأسر.

﴿وَأَوْرَثَكُمْ﴾ أيها المؤمنون؛ أي: ملَّككم ملكاً، كالميراث في حصوله بلا مقابل ﴿أَرْضَهُمْ﴾؛ أي: مزارعهم وحدائقهم ﴿وَدِيَـٰرَهُمْ﴾؛ أي: منازلهم وحصونهم ﴿وَأَمْوَٰلَهُمْ﴾؛ أي: حليهم وأثاثهم ومواشيهم وسلاحهم ونقودهم التي ادخروها، شبهت[٣] في بقائها على المسلمين بالميراث الباقي على الوارثين، إذ ليسوا في

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي. (٣) روح البيان.

علقةٍ منهم من قرابةٍ ولا دين، ولا ولاءٍ، فأهلكهم الله تعالى على أيديهم، وجعل أملاكهم وأموالهم غنائم لهم باقيةً عليهم كالمال الباقي على الوارث. ﴿و﴾ أورثكم في علمه وتقديره ﴿أرضا لم تطؤها﴾ الآن بأقدامكم، ولم تقبضوها كفارس والروم وما ستفتح على المسلمين إلى يوم القيامة من الأراضي والممالك، من وطيء على الأرض، يطأ وطئاً: إذا مشى عليها بالأقدام، قاله عكرمة، واختاره أبو حيان.

قال الشوكاني: واختلف[1] المفسرون في تعيين هذه الأرض المذكورة، فقال يزيد بن رومان وابن زيد ومقاتل: إنها خيبر، فإنها فتحت بعد بني قريظة بسنتين، ولم يكونوا إذ ذاك قد نالوها، فوعدهم الله بها، وقال قتادة: كنا نتحدث: إنها مكة، وقال الحسن: فارس والروم، وقال عكرمة: كل أرض تفتح إلى يوم القيامة. انتهى.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿لَّمْ تَطَـُٔوهَاۚ﴾ بهمزة مضمومة ثم واو ساكنة، وقرأ زيد بن علي: ﴿لم تطوها﴾ بفتح الطاء وواوٍ ساكنة أبدل همزة تطأ ألفاً على حد قوله:

إِنَّ ٱلسِّبَاعَ لَتَهْدَا فِيْ مَرَابِضِهَا وَٱلنَّاسُ لاَ يُهْتَدَىٰ مِنْ شَرِّهِمْ أَبَدَا

فالتقت ساكنة مع الواو فحذفت، كقوله: ﴿لَّمْ تَرَوْهَا﴾، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من المقدورات ﴿قَدِيرًا﴾؛ أي: قادراً، فقد شاهدتم بعض مقدوراته من إيراثكم الأرض التي تسلمتموها ونصركم عليهم، فقيسوا عليها ما بعدها، إذ لا يتعذر عليه شيء أراده، ولا يمتنع عليه شيء شاءه.

وقال أبو حيان: وختم تعالى هذه الآية بقدرته على كل شيء، فلا يعجزه شيء، وكان في ذلك إشارة إلى فتحه على المسلمين الفتوح الكثيرة، وأنه لا يستبعد ذلك، فكما ملكهم هذه، فكذلك هو قادر على أن يملكهم غيرها من البلاد.

---

(١) الشوكاني.
(٢) البحر المحيط.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ الكريم ﴿قُل﴾ أمر إيجاب في تخييرهن، وهو من خصائصه عليه السلام ﴿لِّأَزۡوَٰجِكَ﴾ ونسائك، قيل[1]: هذه الآية متصلة بمعنى ما تقدمها من المنع من إيذاء النبي ـ ﷺ ـ، وكان قد تأذى ببعض الزوجات، قال الواحدي: قال المفسرون: إن أزواج النبي ـ ﷺ ـ سألنه شيئاً من عرض الدنيا، وطلبن منه الزيادة في النفقة، وآذينه بغيرة بعضهن على بعض، فآلى رسول الله ـ ﷺ ـ منهن شهراً، وأنزل الله سبحانه آية التخيير هذه، وكن يومئذٍ تسعاً: عائشة بنت أبي بكر وحفصة بنت عمر وأم حبيبة ـ واسمها رملة بنت أبي سفيان ـ وأم سلمة ـ واسمها هند بنت أبي أمية المخزومية ـ وسودة بنت زمعة العامرية، وهذه الخمسة من قريش، وأربع من غيرهم: زينب بنت جحش الأسدية، وميمونة بنت الحارث الهلالية وصفية بنت حيي بن أخطب الخيبرية الهارونية وجويرية بنت الحارث الخزاعية والمصطلقية، وهذه كلها بعد وفاة خديجة الكبرى ـ رضي الله عنها وعنهن ـ.

﴿إِن كُنتُنَّ﴾ أنتن ﴿تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾؛ أي: التنعم فيها، والسعة في معاشها، ﴿وَزِينَتَهَا﴾؛ أي: زخارفها ونضارتها ورفاهيتها ﴿فَتَعَالَيۡنَ﴾؛ أي: أَقبِلْنَ إلي بإرادتكن واختياركن لإحدى الخصلتين، وأجبن إلى ما أعرض عليكن وأسمعنه، وليس المراد حقيقة الإقبال والمجيء، كما يقال: أقبل يكلمني، وذهب يخاصمني، وقام يهددني، كما سيأتي في مبحث التصريف.

﴿أُمَتِّعۡكُنَّ﴾ بالجزم جواباً للأمر؛ أي: أعطيكن متعة الطلاق، وتقديم التمتع[2] على التسريح المسبب عنه من باب الكرم وحسن الخلق، وفيه قطع لمعاذيرهن من أول الأمر، وقيل: لأن الفرقة كانت بإرادتهن كاختيار المخيرة نفسها، فإنه طلقة رجعية عند الشافعي، وبائنة عند أبي حنيفة. اهـ. «بيضاوي».

والمتعة لغة: اسم مصدر بمعنى التمتع والتلذذ بالأمور، وشرعاً: مال يجب على الزوج لمطلقة قبل وطء لم يجب لها شطر مهر، بأن كانت مفوضةً لم يفرض

(١) الشوكاني.
(٢) البيضاوي.

لها شيء، وهي واجبة في المطلقة التي لم يدخل بها، ولم يسم لها مهراً عند العقد، ومستحبة في غيرها، والحكمة في[1] إيجابها: الجبر لما أوحشها الزوج بالطلاق، فيعطيها لتنتفع بها مدة عدتها، ويعتبر قدرها بحسب حال الزوج يساراً وإعساراً، كما هو مقرر في محله.

وقوله: ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾؛ أي: أطلقكن، بالجزم معطوف على ﴿أُمَتِّعْكُنَّ﴾. ﴿سَرَاحًا جَمِيلًا﴾؛ أي: طلاقاً حسناً من غير ضرار ولا بدعة ولا صريح اللفظ، الذي يقع به الطلاق من غير نيةٍ، وهو لفظ الطلاق عند أبي حنيفة وأحمد، والطلاق والفراق والسراح عند الشافعي ومالك.

وقرأ[2] الجمهور: ﴿أمتعكن﴾ بالتشديد من متع، وزيد بن علي: بالتخفيف من أمتع، وقرؤوا أيضاً: ﴿أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾ بالجزم في الفعلين، وقرأ حميد الخراز: بالرفع في الفعلين على الاستئناف، والجزم على قراءة الجمهور على أنهما جواب الطلب، وقيل: على أنهما جواب الشرط، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿فَتَعَالَيْنَ﴾ اعتراضاً بين الشرط وجزائه، ولا يضر دخول الفاء على جملة الاعتراض كقول الشاعر:

وَٱعْلَمْ فَعِلْمُ ٱلْمَرْءِ يَنْفَعُهُ أَنْ سَوْفَ يَأْتِيْ كُلُّ مَا قُدِرَا

واتفق الأئمة[3] على أن السنة في الطلاق أن يطلقها واحدةً، في طهر لم يصبها فيه، ثم يدعها، حتى تنقضي عدتها، وإن طلق المدخول بها في حيضها أو طهرٍ أصابها فيه، وهي ممن تحبل.. فهو طلاق بدعة محرم، ويقع بالاتفاق، وجميع الثلاثة بدعة عند أبي حنيفة ومالك، وقال أحمد: هو محرم، خلافاً للشافعي، ويقع بلا خلافٍ بينهم.

واعلم: أن الشارع إنما كره الطلاق ندباً إلى الألفة وانتظام الشمل، ولما علم الله أن الافتراق لا بد منه لكل مجموع مؤلف، لحقيقةٍ خفيت عن أكثر

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.
(٣) روح البيان.

الناس.. شرع الطلاق رحمةً لعباده، ليكونوا مأجورين في أفعالهم، محمودين، غير مذمومين، إرغاماً للشيطان، فإنهم في ذلك تحت إذن إلٰهي.

وإنما كان الطلاق أبغض الحلال إلى الله تعالى، لأنه رجوع إلى العدم، إذ بائتلاف الطبائع ظهر وجود التركيب، وبعد الائتلاف كل العدم، فمن أجل هذه الرائحة كرهت الفرقة بين الزوجين؛ لعدم عين الاجتماع، كذا في «الفتوحات».

ومعنى الآية: أي يا أيها النبي الكريم والرسول العظيم، قل لأزواجك: اخترن لأنفسكن إحدى خصلتين: أولاهما: إن تكن ممن يحببن لذات الدنيا ونعيمها، والتمتع بزخرفها، فليس لكن عندي مقام، إذ ليس عندي شيء منها، فأقبلن علي أعطكن ما أوجب الله على الرجال للنساء من المتعة عند فراقهم إياهن بالطلاق، تطييباً لخاطرهن، وتعويضاً عما لحقهن من ضرر بالطلاق، وهي كسوة تختلف بحسب الغنى والفقر، واليسار والإقتار، كما قال تعالى: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾. ثم أسرحكن وأطلقكن على ما أذن الله به وأدب عباده بقوله: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ وحين نزلت هذه الآية، عرض عليهن رسول الله - ﷺ - ذلك، وبدأ بعائشة، وكانت أحب أهله إليه فخيرها، وقرأ عليها القرآن، فاختارت الله ورسوله والدار الآخرة، ففرح رسول الله - ﷺ -، ثم تابعها بقية نسائه، ثم ذكر ثانية الخصلتين، فقال: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾؛ أي: إن كنتن تردن طاعة الله وطاعة رسوله، أو المعنى: إن كنتن تردن رسوله وصحبته ورضاه، وذكر الله للإيذان بكرامته - ﷺ - عنده تعالى: ﴿وَٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ﴾؛ أي: نعيمها الذي لا قدر عنده للدنيا وما فيها جميعاً، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿أَعَدَّ﴾ وهيأ في الآخرة، ﴿لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ﴾؛ أي: لمن عمل الصالحات منكن بمقابلة إحسانهن، و﴿من﴾ للتبيين، لأن كلهن محسنات أصلح نساء العالمين، ولم يقل: لكن، إعلاماً بأن كل الإحسان في إيثار مرضاة الله ورسوله على مرضاه أنفسهن.

وقال أبو حيان: وأوقع الظاهر موقع المضمر، حيث قال: ﴿لِلْمُحْسِنَٰتِ﴾ ولم يقل: لكن تنبيهاً على الوصف الذي ترتب لهن به الأجر العظيم، وهو الإحسان،

كأنه قال: أعد لكن، لأن من أراد الله ورسوله والدار الآخرة كان محسناً. ﴿أَجْرًا﴾؛ أي: ثواباً ﴿عَظِيمًا﴾؛ أي: كبيراً في ذاته، حسناً في صفاته، باقياً في أوقاته.

والمعنى[1]: أي وإن كنتن تردن رضا الله ورضا رسوله، وثواب الدار الآخرة.. فأطعنهما، فإن الله أعد للمحسنات منكن في أعمالهن القولية والفعلية ثواباً عظيماً، تستحقر الدنيا وزينتها دونه كفاء إحسانهن.

والخلاصة: أنتن بين أحد أمرين: أن تقمن مع الرسول وترضين بما قسم لكن، وتطعن الله، وأن يمتعكن ويفارقكن إن لم ترضين بذلك.

وبعد أن خيرهن واخترن الله ورسوله، أتبع ذلك بعظتهن وتهديدهن إذا هن فعلن ما يسوء النبي ﷺ، وأوعدهن بمضاعفة العذاب فقال: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾ الكريم، توجيه[2] الخطاب إليهن لإظهار الاعتناء بنصحهن، ونداؤهن ههنا وفيما بعده بالإضافة إليه ﷺ؛ لأنها التي يدور عليها ما يرد عليهن من الأحكام ﴿مَن يَأْتِ﴾ ويفعل ﴿مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ﴾؛ أي: بسيئةٍ بليغةٍ في القبح، وهي الكبيرة، وقد عصمهن الله عن ذلك وبرأهن وطهرهن.

وقرأ زيد بن علي والجحدري وعمرو بن فائد الأسواري ويعقوب[3]: ﴿تأت﴾ بتاء التأنيث، حملاً، على معنى ﴿من﴾، والجمهور: بالياء، حملاً على لفظ ﴿من﴾ ﴿مُّبَيِّنَةٍ﴾ قرئ بكسر الياء، وقرئ بفتحها كما مر في سورة النساء؛ أي: ظاهرة القبح، من بين بمعنى تبين، قيل: هذا كقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ لا أن منهن من أتت بفاحشة؛ أي: معصية ظاهرة.

قال أبو حيان: ولا يتوهم أنها الزنا لعصمة رسول الله ـ ﷺ ـ من ذلك، لأنه وصفها بالتبيين والزنا مما يتستر به، وينبغي أن تحمل الفاحشة على عقوق الزوج وفساد عشرته. انتهى.

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان. (٣) البحر المحيط.

قال ابن عباس: يعني النشوز وسوء الخلق، وقال بعضهم: لعل[1] وجه قول ابن عباس أن الزلة منهن، كسوء الخلق مما يعد فاحشة بالنسبة إليهن؛ لشرفهن وعلو مقامهن، خصوصاً إذا حصل بها أذية النبي - ﷺ -، ولذا قال: ﴿يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ﴾؛ أي: يعذبن ضعفي عذاب غيرهن؛ أي: مثليه، إذا أتين بمثل تلك الفاحشة، وذلك لشرفهن وعلو درجتهن وارتفاع منزلتهن، ولما كان مكانهن مهبط الوحي من الأوامر والنواهي.. لزمهن بسبب ذلك، وكونهن تحت الرسول أكثر مما يلزم غيرهن، فضوعف لهن الأجر والعذاب، وقد ثبت في هذه الشريعة في غير موضع، أن تضاعف الشرف وارتفاع الدرجات، يوجب لصاحبه إذا عصى تضاعف العقوبات.

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: تضعيف العذاب لهن ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾؛ أي: سهلاً لا يصعب عليه ولا يتعاظمه، لا يمنعه عنه كونهن نساء النبي - ﷺ -، بل يدعوه إليه لمراعاة حقه،وليس أمر الله كأمر الخلق، حيث يتعذر عليهم تعذيب الأعزة بسبب كثرة شفعائهم.

ومعنى الآية[2]: يا أزواج النبي، من يعص منكم الرسول - ﷺ -، ويطلب ما يشق عليه ويضيق به ذرعاً، ويغتم لأجله.. يضاعف لها العذاب يوم القيامة ضعفين؛ أي: تعذب ضعفي عذاب غيرها، لأن قبح المعصية أشد، ومن ثم كان ذم العقلاء للعالم العاصي أشد منه للجاهل العاصي، وكان ذلك سهلاً يسيراً على الله الذي لا يحابي أحداً، لأجل أحد، إذ كونهن نساء رسوله ليس بمغنٍ عنهن شيئاً بل هو سبب لمضاعفة العذاب.

روي: أن رجلاً قال لزين العابدين - رضي الله عنه -: إنكم أهل بيت مغفور لكم، فغضب، وقال: نحن أحرى أن يجرى فينا ما أجرى الله سبحانه في أزواج النبي - ﷺ -، من أن نكون كما قلت، إنا نرى لمحسننا ضعفين من الأجر، ولمسيئنا ضعفين من العذاب، وقرأ هذه الآية التي بعدها.

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

وقرأ نافع وحمزة وعاصم والكسائي[1]: ﴿يُضَٰعَفۡ﴾ بألف وفتح العين، والحسن وعيسى وأبو عمرو: بالتشديد وفتح العين، والجحدري وابن كثير وأبو عامر: بالنون وشد العين مكسورةً، وزيد بن علي وابن محيصن وخارجة عن أبي عمرو: بالألف والنون والكسر، وفرقة: بياء الغيبة والألف والكسر، ومن فتح العين، رفع العذاب، ومن كسرها نصبه، ومعنى ضعفين؛ أي: عذابين، فيضاف إلى عذاب سائر الناس عذاب آخر.

قال في «الأسئلة المقحمة»: ما وجه تضعيف العذاب لزوجات النبي - ﷺ -؟ الجواب: لما كان فنون نعم الله عليهن أكثر، وعيون فوائده لديهن أظهر، من الاكتحال بميمون غرة النبي - ﷺ -، وترداد الوحي إلى حجراتهن، بإنزال الملائكة، فلا جرم كانت عقوبتهن عند مخالفة الأمر من أعظم الأمور وأفخمها، ولهذا قيل: إن عقوبة من عصى الله تعالى عن العلم، أكثر من عقوبة من يعصيه عن الجهل، وعلى هذا أبداً. وحد الحر أعظم من حدّ العبد، وحدّ المحصن أعظم من حدّ غير المحصن؛ لهذه الحقيقة. انتهى. وعوتب[2] الأنبياء بما لا يعاتب به الأمم.

والحاصل: أن الذنب يعظم بعظم جانبه، وزيادة قبحه تابعة لزيادة شرف المذنب والنعمة، فلما كانت الأزواج المطهرة أمهات المؤمنين، وأشراف نساء العالمين.. كان الذنب منهن أقبح، على تقدير صدوره، وعقوبة الأقبح أشد وأضعف.

وفي «التأويلات النجمية»: يشير إلى أن الثواب والعقاب بقدر نفاسة النفس وخستها، يزيد وينقص، وأن زيادة العقوبة على الجرم من أمارات الفضيلة، كحدّ الحر والعبد، وتقليل ذلك من أمارات النقص. انتهى.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

تتمة في حكم الخيار المذكور في الآية

اختلف[1] العلماء في هذا الخيار: هل كان ذلك تفويض الطلاق إليهن حتى يقع الاختيار أم لا؟ فذهب الحسن وقتادة وأكثر أهل العلم: إلى أنه لم يكن تفويض الطلاق، وإنما خيرهن على أنهن إذا اخترن الدنيا.. فارقهن، لقوله تعالى: ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾ بدليل أنه لم يكن جوابهن على الفور، وأنه قال لعائشة: لا تعجلي حتى تستشيري أبويك، وفي تفويض الطلاق يكون الجواب على الفور.

وذهب قوم إلى أنه كان تفويض الطلاق، ولو اخترن أنفسهن.. كان طلاقاً.

التفريع على حكم الآية: اختلف أهل العلم في حكم التخيير، فقال عمر وابن مسعود وابن عباس: وإذا خير الرجل امرأته فاختارت زوجها.. لا يقع شيء، وإن اختارت نفسها.. يقع طلقةً واحدةً، وهو قول عمر بن عبد العزيز وابن أبي ليلى وسفيان والشافعي وأصحاب الرأي، إلا أن عند أصحاب الرأي يقع طلقةً بائنةً، إذا اختارت نفسها، وعند الآخرين رجعيةً، وقال زيد بن ثابت: إذا اختارت الزوج.. يقع طلقةً واحدةً، وإذا اختارت نفسها.. فثلاث، وهو قول الحسن، وبه قال مالك: وروى عن علي رضي الله عنه: أنها إذا اختارت زوجها.. طلقةً واحدةً، وإذا اختارت نفسها.. فطلقةً بائنة، وأكثر العلماء على أنها إذا اختارت زوجها.. لا يقع شيء.

وعن مسروق قال: ما أبالي خيرت امرأتي واحدةً أو مئةً أو ألفاً بعد أن تختارني، ولقد سألت عائشة ـ رضي الله عنها ـ فقالت: خيرنا رسول الله ـ ﷺ ـ فما كان طلاقاً، وفي روايةٍ: فاخترناه، فلم يعد ذلك شيئاً. متفق عليه.

فصل

وجملة[2] أزواجه ﷺ، اللاتي كن تحته وقت هذا التخيير تسع: وهن اللاتي

(١) الخازن. (٢) الفتوحات.

مات عنهن، وفي «المواهب»: واختلف في عدة أزواجه - ﷺ - وترتيبهن، وعدة من مات منهن قبله ومن مات عنهن، ومن دخل بها ومن لم يدخل بها، ومن خطبها، ولم ينكحها، ومن عرضت نفسها عليه، والمتفق على دخوله بهن إحدى عشرة امرأةً، ست من قريش: خديجة بنت خويلد وعائشة بنت أبي بكر وحفصة بنت عمر بن الخطاب وأم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب وأم سلمة بنت أبي أمية وسودة بنت زمعة.

وأربع عربيات: زينب بنت جحش وميمونة بنت الحارث الهلالية وزينب بنت خزيمة الهلالية «أم المساكين» وجويرية بنت الحارث الخزاعية المصطلقية.

وواحدة غير عربية من بني إسرائيل، وهي صفية بنت حيي من بني النضير.

ومات ﷺ عن تسع دخل بهن باتفاق.

وقد ذكر أنه - ﷺ - تزوج نسوةً غير من ذكرنَ، وجملتهن ثنتا عشرة امرأة: الأولى: الواهبة نفسها له - ﷺ - وهي أم شريك القرشية، الثانية: خولة بنت الهذيل بن هبيرة، الثالثة: عمرة بنت يزيد، الرابعة: أسماء بنت النعمان، الخامسة: مليكة بنت كعب، السادسة: فاطمة بنت الضحاك، السابعة: عالية بنت ظبيان، الثامنة: قتيلة بنت قيس، التاسعة: سبأ بنت أسماء، العاشرة: شراق بنت خليفة أخت دحية الكلبي، الحادية عشرة: ليلى بنت الخطيم، الثانية عشرة: امرأة من غفار، فهؤلاء. الاثنتا عشرة، جملة من ذكر من أزواجه ﷺ،وفارقهن في حياته، بعضهن قبل الدخول، وبعضهن بعده على خلاف فيه.

فجملة من عقد عليهن ثلاث وعشرون امرأةً، دخل ببعضهن دون بعضٍ، مات عنده منهن بعد الدخول خديجة وزينب بنت خزيمة، ومات منهن قبل الدخول اثنتان: أخت دحية وبنت الهذيل باتفاق، واختلف في مليكة وسبأ: هل ماتتا أو طلقهما، مع الاتفاق على أنه لم يدخل بهما، وفارق بعد الدخول باتفاق بنت الضحاك وبنت ظبيان، وقبله باتفاق عمرة وأسماء والغفارية، واختلف في أم شريك: هل دخل بها؟ مع الاتفاق على الفرقة، والمستقيلة التي جهل حالها، فالمفارقات باتفاقٍ سبع، وثنتان على خلفٍ، والميتات في حياته باتفاق أربع،

ومات - ﷺ - عن عشرة، واحدة لم يدخل بها، وهي قتيلة بنت قيس، وخطب - ﷺ - ثماني نسوة لم يعقد عليهن باتفاق، وأما سراريه التي دخل عليهن بالملك فأربعة: مارية القبطية وريحانة بنت شمعون من بني قريظة، وقيل: من بني النضير، وأخرى وهبتها له زينب بنت جحش، واسمها نفيسة، والرابعة: أصابها في بعض السبي ولم يعرف اسمها. ا هـ. من «المواهب» من المقصد الثاني، وقد بسط الكلام عليهن هناك جداً فارجع إليه إن شئت.

الإعراب

﴿۞ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا (١٨)﴾.

﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق. ﴿يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به. ﴿مِنكُمْ﴾: حال من المعوقين. ﴿وَالْقَائِلِينَ﴾: معطوف على ﴿الْمُعَوِّقِينَ﴾. ﴿لِإِخْوَانِهِمْ﴾: متعلق بـ﴿القائلين﴾، والجملة الفعلية: مستأنفة مسوقة لتصوير حال المنافقين، ﴿هَلُمَّ﴾: اسم فعل أمر بمعنى أقبلوا عند الحجازيين، مبني على الفتح، وفاعله: ضمير مستتر فيه وجوباً، تقديره: أنتم، ويلزم عندهم صيغةً واحدةً في المفرد والمذكر وغيرهما، وجاء هنا على لغتهم، وعند بني تميم فعل أمر، وتلحقه علامات التثنية والجمع والتأنيث، ويستعمل لازماً كما هنا، ومتعدياً كما في الأنعام، ﴿إِلَيْنَا﴾: جار ومجرور متعلق به، وجملة اسم الفعل: في محل النصب مقول ﴿القائلين﴾. ﴿وَلَا يَأْتُونَ﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿لا﴾: نافية. ﴿يَأْتُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿الْبَأْسَ﴾؛ أي: القتال مفعول به. والجملة الفعلية: في محل النصب حال من الضمير المستكن في ﴿القائلين﴾. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿قَلِيلًا﴾: منصوب على المفعولية المطلقة؛ أي: إلا إتياناً قليلاً، أو على الظرفية الزمانية؛ أي: إلا إتياناً قليلاً، أو زماناً قليلاً.

﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ۚ﴾.

﴿أَشِحَّةً﴾: حال من فاعل ﴿يَأْتُونَ﴾. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: متعلق به. ﴿فَإِذَا جَآءَ﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية. ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿جَآءَ ٱلْخَوْفُ﴾: فعل وفاعل، والجملة: في محل الجر مضاف إليه لـ(إذا) على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿رَأَيْتَهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، لأن رأى هنا بصرية، يتعدى إلى مفعول واحد، والجملة الفعلية: جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة، وجملة ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾: حال من مفعول ﴿رَأَيْتَهُمْ﴾. ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة: في محل النصب حال من فاعل ﴿يَنظُرُونَ﴾، وهو ﴿الواو﴾. ﴿كَٱلَّذِى﴾: جار ومجرور نعت لمصدر محذوف، ولكنه على تقدير مضاف؛ أي: تدور أعينهم دوراناً كدوران عين الذي يغشى عليه من الموت. ﴿يُغْشَىٰ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة. ﴿عَلَيْهِ﴾: جار ومجرور في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿يُغْشَىٰ﴾. ﴿مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ متعلق بـ﴿يُغْشَىٰ﴾. ﴿فَإِذَا ذَهَبَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ﴾: فعل وفاعل. والجملة: في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها. ﴿سَلَقُوكُم﴾: فعل وفاعل ومفعول به. والجملة: جواب إذا لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾: معطوفة على جملة قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ﴾. ﴿بِأَلْسِنَةٍ﴾: متعلق بـ﴿سَلَقُوكُم﴾. ﴿حِدَادٍ﴾: صفة لـ﴿ألسنة﴾: ﴿أَشِحَّةً﴾ حال من فاعل ﴿سَلَقُوكُم﴾، أو منصوب على الذم؛ أي: أذم أشحة ﴿عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾، جار ومجرور متعلق بـ﴿أَشِحَّةً﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ. ﴿لَمْ﴾: حرف نفي وجزم. ﴿يُؤْمِنُواْ﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لَمْ﴾. والجملة الفعلية: في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: مستأنفة. ﴿فَأَحْبَطَ﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع. ﴿أحبط الله أعمالهم﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف على ﴿لَمْ يُؤْمِنُواْ﴾ بمعنى: ما آمنوا. ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ﴿يَسِيرًا﴾. ﴿يَسِيرًا﴾ خبر ﴿كان﴾. وجملة ﴿كان﴾: مستأنفة أو حال من فاعل ﴿أحبط﴾.

﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾.

﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول. ﴿لَمْ يَذْهَبُوا۟﴾: جازم وفعل وفاعل، والجملة: في محل النصب مفعول ثان لـ﴿حسب﴾، والجملة الفعلية: مستأنفة. ﴿وَإِن يَأْتِ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إن﴾: حرف شرط. ﴿يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ﴾: فعل وفاعل مجزوم، بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، وعلامة جزمه: حذف حرف العلة. ﴿يَوَدُّوا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه جواباً لها، والجملة الشرطية: معطوفة على جملة ﴿يَحْسَبُونَ﴾. ﴿لَوْ﴾: حرف مصدر ومدخولها محذوف، تقديره: لو ثبت أنهم بادون. ﴿أَنَّهُم﴾: ناصب واسمه ﴿بَادُونَ﴾: خبره ﴿فِى ٱلْأَعْرَابِ﴾: متعلق به، وجملة ﴿أن﴾: في تأويل مصدر مرفوع على الفاعلية لفعل محذوف، تقديره: لو ثبت كونهم في البادية، وجملة الفعل المحذوف: صلة ﴿لو﴾ المصدرية، وجملة ﴿لو﴾ مع صلتها: في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ﴿يَوَدُّوا۟﴾، تقديره: يودوا كونهم في البادية مع الأعراب. ﴿يَسْـَٔلُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾: متعلق به. وجملة ﴿يَسْـَٔلُونَ﴾: حال من الضمير المستكن في ﴿بَادُونَ﴾: وقول المعربين هنا حال من الواو في ﴿بادون﴾ غلط فاحش لأنّ الواو في ﴿بادون﴾ حرف جيء به علامة على الرفع، فلا يصلح أن يكون صاحب حال؛ لأنه لا يكون إلا اسماً. ﴿وَلَوْ كَانُوا۟﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية أو حالية. ﴿لو﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿فِيكُم﴾: خبره. والجملة: فعل شرط لـ﴿لو﴾. ﴿مَّا﴾: نافية. ﴿قَٰتَلُوٓا۟﴾: فعل وفاعل. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿قَلِيلًا﴾: صفة لمصدر محذوف؛ أي: إلا قتالاً قليلاً أو لزمن محذوف؛ أي: إلا زمناً قليلاً، والجملة الفعلية: جواب ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية: مستأنفة، أو حال من فاعل ﴿يَسْـَٔلُونَ﴾.

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾.

﴿لَقَدْ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿لَكُمْ﴾: خبره مقدم. ﴿فِي رَسُولِ ٱللَّهِ﴾: حال من ﴿أُسْوَةٌ﴾ لأنه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿أُسْوَةٌ﴾: اسمه مؤخر. ﴿حَسَنَةٌ﴾ صفة لـ﴿أُسْوَةٌ﴾. وجملة ﴿كَانَ﴾: جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم: مستأنفة. ﴿لِّمَن﴾: جار ومجرور بدل من الجار والمجرور في قوله: لكم بدل بعض من كل. ﴿كَانَ﴾: فعل ناقص واسمها ضمير يعود على من. ﴿يَرْجُواْ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به. ﴿وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾: معطوف على الجلالة، والجملة الفعلية: في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾. وجملة ﴿كَانَ﴾: صلة ﴿من﴾ الموصولة. ﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به معطوف على جملة ﴿كَانَ﴾. ﴿كَثِيرًا﴾: منصوب على المصدرية؛ لأنه صفة لمصدر محذوف؛ أي: ذكراً كثيراً، أو على الظرفية؛ أي: زماناً كثيراً.

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَلَمَّا﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿لما﴾: اسم شرط غير جازم في محل نصب على الظرفية الزمانية متعلق بجوابه. ﴿رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، لأن رأى هنا بصرية يتعدى إلى مفعول واحد، والجملة الفعلية: فعل شرط لـ﴿لما﴾ في محل جر بالإضافة. ﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل جواب ﴿لما﴾ الشرطية، وجملة ﴿لما﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿هَٰذَا مَا﴾: مبتدأ وخبر، والجملة: مقول لـ﴿قَالُواْ﴾. ﴿وَعَدَنَا ٱللَّهُ﴾: فعل ومفعول أول وفاعل. ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾: معطوف على الجلالة، والجملة الفعلية: صلة ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد: محذوف، تقديره: ما وعدناه الله، وهو المفعول الثاني لوعد. ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾: معطوف على الجلالة، والجملة الفعلية: معطوفة على الجملة الاسمية على كونها مقول ﴿قَالُواْ﴾. ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿ما﴾: نافية. ﴿زَادَهُمْ﴾: فعل ومفعول به أول، وفاعله: ضمير يعود على رؤية الأحزاب، وذكر الضمير؛ لأن تأنيثها غير حقيقي، أو ضمير يعود على الوعد. والجملة معطوفة

على جملة ﴿قَالُواْ﴾. ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿إِيمَٰنًا﴾: مفعول ثان لـ﴿زاد﴾. ﴿وَتَسْلِيمًا﴾: معطوف عليه.

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾.

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: خبر مقدم. ﴿رِجَالٌ﴾: مبتدأ مؤخر. والجملة: مستأنفة مسوقة لبيان حال الصالحين من الصحابة. ﴿صَدَقُواْ﴾: فعل وفاعل صفة ﴿رِجَالٌ﴾. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿صَدَقُواْ﴾. ﴿عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة: صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة. ﴿عَلَيْهِ﴾ متعلق بـ﴿عَٰهَدُواْ﴾، وهو العائد على ﴿ما﴾ الموصولة. ﴿فَمِنْهُم﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت من المؤمنين رجال، وأردت بيان مراتبهم.. فأقول لك: منهم. ﴿منهم﴾: خبر مقدم. ﴿مَّن﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية: في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة: مستأنفة. ﴿قَضَىٰ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿من﴾. ﴿نَحْبَهُۥ﴾: مفعول به. والجملة: صلة ﴿من﴾ الموصولة. ﴿وَمِنْهُم﴾: خبر مقدم. ﴿مَّن﴾: اسم موصول مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية: في محل النصب معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿يَنتَظِرُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿مَّن﴾. والجملة صلة الموصول. ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿بَدَّلُواْ﴾: فعل وفاعل. ﴿تَبْدِيلًا﴾: مفعول مطلق مؤكد لعامله، والجملة الفعلية: في محل النصب حال من فاعل ﴿يَنتَظِرُ﴾.

﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾.

﴿لِّيَجْزِىَ﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل. ﴿يجزي الله الصادقين﴾: فعل وفاعل ومفعول به منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، والجملة الفعلية، مع أن المضمرة: في تأويل مصدر مجرور بلام كي، والجار والمجرور: متعلق بمعلول محذوف، تقديره: وقع جميع ما وقع لجزاء الله سبحانه الصادقين: ﴿بِصِدْقِهِمْ﴾:

متعلق بـ﴿يجزي﴾، والجملة المحذوفة: مستأنفة مسوقة لبيان ما دعا إلى وقوع ما حكى من الأقوال والأحوال. ﴿وَيُعَذِّبَ﴾: فعل مضارع معطوف على ﴿يجزي﴾ منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على ﴿اللَّهُ﴾. ﴿الْمُنَافِقِينَ﴾: مفعول به. ﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿شَاءَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ومفعول ﴿شَاءَ﴾: محذوف؛ أي: إن شاء تعذيبهم، وجواب ﴿إن﴾ الشرطية: محذوف أيضاً، والتقدير: إن شاء تعذيبهم يعذبهم، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية: معترضة لا محل لها من الإعراب. ﴿أَوْ يَتُوبَ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر معطوف على ﴿يعذب﴾. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق بـ﴿يَتُوبَ﴾. ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص واسمه ضمير يعود على ﴿اللَّهَ﴾. ﴿غَفُورًا﴾: خبر أول له. ﴿رَحِيمًا﴾: خبر ثان. وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (٢٥)﴾.

﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة: مستأنفة. ﴿كَفَرُوا﴾: فعل وفاعل صلة الموصول. ﴿بِغَيْظِهِمْ﴾: جار ومجرور حال من الموصول؛ أي: ملتبسين بغيظهم. ﴿لَمْ يَنَالُوا﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لم﴾. ﴿خَيْرًا﴾: مفعول به، والجملة: في محل النصب حال ثانية من الموصول. ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾: فعل وفاعل ومفعولان، والجملة: معطوفة على جملة قوله: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ﴾، ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا﴾: فعل ناقص واسمه وخبره، ﴿عَزِيزًا﴾: خبر ثان له. والجملة: معطوفة على جملة قوله: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ﴾.

﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦)﴾.

﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به معطوف على ﴿وَرَدَّ اللَّهُ﴾. ﴿ظَاهَرُوهُم﴾: فعل وفاعل ومفعول به صلة الموصول. ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه حال من فاعل ظاهروهم. ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾: متعلق

بـ﴿أنزل﴾، وهو اسم منقوص مجرور بكسرة مقدرة، ويحتمل كون جملة ﴿أنزل﴾: مستأنفة مسوقة لبيان قصة غزوة بني قريظة. ﴿وَقَذَفَ﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على الله معطوف على ﴿أنزل﴾. ﴿فِي قُلُوبِهِمُ﴾: متعلق بقذف. ﴿ٱلرُّعْبَ﴾: مفعول به لـ﴿قذف﴾. ﴿فَرِيقًا﴾: مفعول مقدم لـ﴿تَقْتُلُونَ﴾. ﴿تَقْتُلُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة: مستأنفة مبينة ومقررة لقذف الله الرعب في قلوبهم. ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿تَقْتُلُونَ﴾.

﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعولان معطوف على ﴿أنزل﴾. ﴿وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا﴾: معطوفات على ﴿أَرْضَهُمْ﴾. ﴿لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة: في محل المصب صفة لـ﴿أرضا﴾. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾: متعلق بـ﴿قَدِيرًا﴾. ﴿قَدِيرًا﴾: خبر ﴿كان﴾. وجملة ﴿كان﴾: مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾: حرف نداء. ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة. و﴿الهاء﴾: حرف تنبيه زائد. ﴿ٱلنَّبِىُّ﴾: صفة لـ﴿أي﴾ أو بدل منه، وجملة النداء: مستأنفة مسوقة لتقرير موقف الإسلام من أزواج النبي - ﷺ -. ﴿قُل﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلنَّبِىُّ﴾. ﴿لِّأَزْوَٰجِكَ﴾: متعلق به. والجملة: جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿كُنتُنَّ﴾: فعل ناقص واسمه في محل الجزم بـ﴿إِن﴾ الشرطية، على كونها فعل شرط لها. ﴿تُرِدْنَ﴾: فعل مضارع في محل الرفع مبني على السكون، لاتصاله بنون النسوة، ونون النسوة: في محل الرفع فاعل. ﴿ٱلْحَيَوٰةَ﴾: مفعول به. ﴿ٱلدُّنْيَا﴾: صفة لـ﴿ٱلْحَيَوٰةَ﴾. ﴿وَزِينَتَهَا﴾: معطوف على الحياة، والجملة الفعلية: في محل النصب خبر ﴿كان﴾؛ أي: مريدات الحياة الدنيا. ﴿فَتَعَالَيْنَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب

﴿إن﴾ الشرطية وجوباً لكون الجواب جملة طلبية. ﴿تعالين﴾: فعل أمر مبني على السكون ونون النسوة فاعل، والجملة الفعلية: في محل الجزم بـ﴿إنْ﴾ الشرطية على كونها جواباً لها. وجملة ﴿إنْ﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قُل﴾. ﴿أُمَتِّعۡكُنَّ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على النبي مجزوم بالطلب السابق و﴿الكاف﴾: ضمير الإناث في محل النصب مفعول به والنون علامة جمع الإناث، الجملة جوابية لا محل لها من الإعراب ﴿وَأُسَرِّحۡكُنَّ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به معطوف على ﴿أُمَتِّعۡكُنَّ﴾، ﴿سَرَاحٗا﴾: مفعول مطلق. ﴿جَمِيلٗا﴾: صفة له.

﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إن﴾: حرف شرط ﴿كنتنّ﴾: فعل ناقص واسمه في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية. ﴿تُرِدۡنَ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، ﴿وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ﴾: معطوفان على لفظ الجلالة. ﴿ٱلۡأٓخِرَةَ﴾: صفة لـ﴿الدار﴾. وجملة ﴿تُرِدۡنَ﴾: في محل النصب خبر ﴿كان﴾. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية. ﴿إن الله﴾: ناصب واسمه. ﴿أَعَدَّ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱللَّهَ﴾. ﴿لِلۡمُحۡسِنَٰتِ﴾: متعلق بـ﴿أَعَدَّ﴾. ﴿مِنكُنَّ﴾: حال من المحسنات ﴿أَجۡرًا﴾: مفعول ﴿أَعَدَّ﴾، ﴿عَظِيمٗا﴾: صفة ﴿أَجۡرًا﴾. وجملة ﴿أَعَدَّ﴾: في محل الرفع خبر ﴿إن﴾. وجملة ﴿إن﴾ في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها. وجملة ﴿إن﴾ الشرطية: في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الأولى على كونها مقولاً لـ﴿قُل﴾. ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء، في محل النصب مقول لـ﴿قُل﴾. ﴿مَن﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر: جملة الشرط أو الجواب أو هما. ﴿يَأۡتِ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿مَن﴾: مجزوم بحذف حرف العلة، على كونه فعل شرط لـ﴿مَن﴾. ﴿مِنكُنَّ﴾: حال من فاعل ﴿يَأۡتِ﴾. ﴿بِفَٰحِشَةٖ﴾: متعلق

بـ﴿يَأْتِ﴾: ﴿مُّبَيِّنَةٍ﴾ صفة لـ﴿فاحشة﴾. ﴿يُضَٰعَفۡ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة مجزوم بـ﴿مَن﴾ الشرطية على كونه جواباً ﴿لَهَا﴾: متعلق بـ﴿يُضَٰعَفۡ﴾. ﴿ٱلۡعَذَابُ﴾: نائب فاعل ﴿ضِعۡفَيۡنِۚ﴾: مصدر مبين لعدد عامله، منصوب على المفعولية المطلقة، وجملة ﴿من﴾ الشرطية: في محل النصب مقول ﴿قُل﴾ على كونها جواب النداء. ﴿وَكَانَ﴾: ﴿الواو﴾: حالية أو استئنافية. ﴿كان ذلك﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿يَسِيرًا﴾: خبر ﴿كان﴾. وجملة ﴿كان﴾: في محل النصب حال من العذاب أو مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها، والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ﴾؛ أي: المثبطين، الذين يخذلون المسلمين من التعويق، وهو: التثبيط، يقال: عاقه وهوقه: إذا صرفه عن الوجه الذي يريده، والعائق: الصارف عما يراد منه خير، ومنه عوائق الدهر، وتقول: فلان صحبه التعويق فهجره التوفيق.

﴿هَلُمَّ إِلَيۡنَاۖ﴾؛ أي: أقبلوا إلينا، وهو اسم فعل أمر عند الحجازيين، ويلزم صيغة واحدة في خطاب الواحد وغيره، والمذكر وغيره، وعند بني تميم: فعل أمر وتلحقه علامات التثنية والجمع والتأنيث، فيقولون: هلم يا رجل، وهلموا يا رجال، وهلما يا رجلان، هلمّي يا هندُ وهلمّا يا هندان وهلمُمْن يا هندات.

﴿وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ﴾: والبأس في الأصل: الشدة، والمراد به هنا: الحرب والقتال.

﴿أَشِحَّةً﴾: جمع شحيح، وهو البخيل والحريص، وهو جمع لا ينقاس، إذ قياس فعيل الوصف الذي عينه ولامه من وادٍ واحد، أن يجمع على أفعلاء، نحو خليل وأخلاء، وظنين وأظناء، وضنين وأضناء، وقد سمع أشحاء، وهو القياس. قال الراغب: الشح بخل مع حرصٍ، وذلك فيما كان عادةً، يقال: رجل شحيح، وقوم أشحة.

﴿تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ﴾؛ أي: تدير أعينهم أحداقهم من شدة الخوف.

﴿كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾: يقال: غشى على فلان: إذا نابه ما غشي فهمه؛ أي: ستره.

﴿سَلَقُوكُم﴾؛ أي: آذوكم بالكلام، يقال: سلقه بالكلام: إذا آذاه، كما في «القاموس». وأصل السلق: بسط العضو للضرب، وهو من باب ضرب. ا هـ. «شيخنا». وفي «المختار»: سلقه بالكلام آذاه، وهو شدة القول باللسان، وقال تعالى: ﴿سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ وسلق البصل والبيض أغلاه بالنار إغلاءً خفيفاً، وباب الكل ضرب. ا هـ. وفي «المصباح»: أنه من باب قتل أيضاً. ا هـ. قال القتيبي: المعنى: آذوكم بالكلام الشديد، وعبارة الشهاب: أصل السلق: بسط العضو ومدة للقهر، سواء كان يداً أو لساناً، كما قال الراغب، فتفسيره بالضرب مجاز.

والحاصل عليه: توصيف الألسنة بالحداد، ويجوز أن يشبه اللسان بالسيف على طريق الاستعارة المكنية، والضرب: تخييل. ا هـ. وفي «السمين»: يقال: سلقه، اجترأ عليه في خطابه، وخاطبه مخاطبةً بليغة، وأصله البسط، ومنه سلق امرأته؛ أي: بسطها وجامعها، والسليقة: الطبيعية. ا هـ. وسلقه بالرمح: طعنه؛ وسلقه بالسوط: ضربه إلى أن نزع جلده، وسلق اللحم عن العظم: قشره، وعلى كل حال فالعامة تستعمل هذه الكلمة استعمالاً عاماً لا غبار عليه.

﴿بِأَلْسِنَةٍ﴾: جمع لسان، كأسلحة جمع سلاح، وهي الجارحة المعروفة.

﴿حِدَادٍ﴾: جمع حديد، يقال: لسان حديد، نحو لسان صارم وماض، وذلك إذا كان يؤثر تأثير الحديد؛ أي: ذربةٍ سلطة تفعل فعل الحديد.

﴿أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾؛ أي: بخلاء حريصين على مال الغنيمة.

﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ﴾: الأحزاب: جمع حزب، وهم الذين تحزبوا لحرب رسول الله - ﷺ -.

﴿يَوَدُّوا﴾؛ أي: يتمنوا، والود: محبة الشيء وتمني كونه وحصوله.

﴿بَادُونَ﴾: جمع بادٍ، وهو ساكن البادية، يقال: بدا يبد وبداوةً: إذا خرج

إلى البادية، وهي خلاف الحاضرة، يقال: لقد بدوت يا فلان؛ أي: نزلت البادية وصرت بدوياً، وما لك والبداوة، وتبدى الحضري: إذا سكن البادية، ويقال: أين الناس؟ فتقول: لقد بدوا؛ أي: خرجوا إلى البادية، وكانت لهم غنيمات يبدون إليها.

﴿فِي ٱلْأَعْرَابِ﴾: قال في «القاموس وشرحه»: العرب: بالضم والتحريك، خلاف العجم مؤنث، وهم سكان الأمصار، أو عام، والأعراب منهم: سكان البادية، لا واحد له، ويجمع على أعاريب، وعرب وعاربة وعرب عرباء، وعرب وعربة صرحاء، وعرب متعربة، وعرب مستعربة، دخلاء، والمعنى هنا: خارجون إلى البدو، مقيمون بين أهله.

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ﴾: قال الراغب: الأسوة بضم الهمزة والإسوة بكسرها: كالقدوة، والقدوة: الحالة التي يكون الإنسان عليها في اتباع غيره، حسناً كان أو غيره، ضاراً أو غيره، ويقال: تأسيت به؛ أي: اقتديت. اهـ. والأسوة: بمعنى الاقتداء، وهي اسم وضع موضع المصدر، وهو الائتساء كالقدوة من الاقتداء، وائتسى فلان بفلان؛ أي: اقتدى به. اهـ. «سمين».

وفي «المصباح»: الإسوة بكسر الهمزة وضمها: القدوة، وتأسيت به وائتسيت: اقتديت. اهـ.

﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾؛ أي: مات، والنحب: النذر، ووقع قولهم: قضى نحبه عبارة عن الموت، لأن كل حي لا بد له من أن يموت، فكأنه نذر لازم في رقبته، فإذا مات.. فقد قضى نحبه؛ أي: نذره، والنذر: بفتح النون، وقد وهم صاحب «المنجِد» فضبطه بكسرها، وهذا غريب. وفي «المصباح»: نحب نحباً من باب ضرب بكى، والاسم: النحيب، ونحب نحباً من باب قتل نذر، وقضى نحبه مات أو قتل في سبيل الله، وفي التنزيل: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾. انتهى. وفي «القرطبي»: والنحب: النذر والعهد والموت والحاجة والمدة. ﴿بِغَيْظِهِمْ﴾: والغيظ أشد الغضب، وهو الحرارة التي يجدها الإنسان من ثوران دم قلبه.

﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾؛ أي: من حصونهم، جمع صيصية بالكسر، وهي كل ما

يتحصن به ويمتنع، قال الشاعر:

فَأَصْبَحَتِ ٱلنِّيْرَانُ صَرْعَىٰ وَأَصْبَحَتْ نِسَاءُ تَمِيْمٍ يَبْتَدِرْنَ ٱلصَّيَاصِيَا

وفي «القاموس»: والصيصية: شوكة الحائك يسوي بها السدى واللحمة، وشوكة الديك التي في رجله، وقرن البقر والظباء، والحصن وكل ما امتنع به. انتهى.

﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ والأسر: الشد بالقيد، وسمي الأسير بذلك، ثم قيل لكل مأخوذٍ مقيدٍ، وإن لم يكن مشدوداً بذلك.

﴿لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾: من وطئ يطأ وطئاً: إذا مشى على الأرض.

﴿فَتَعَالَيْنَ﴾: فعل أمر مبني على سكون الياء ونون النسوة فاعل، كما مر، وأصل الأمر أن يكون الآمر أعلى مكاناً من المأمور، فيدعوه أن يرفع نفسه إليه، ثم كثر استعماله حتى صار معناه أقبل، وقال صاحب «الروح» أصل تعالى أن يقوله من في المكان المرتفع لمن في المكان المنخفض، ثم كثر حتى استوت في استعماله الأمكنة كلها، ولم يرد حقيقة الإقبال والمجيء، بل أراد أجبن على ما أعرض عليكن، وأقبلن بإرادتكن واختياركن لإحدى الخصلتين، كما مر.

﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾: السرح: شجرة له ثمرة، وأصله: سرحت الإبل: إذا أرسلتها لرعي السرح، ثم جعل لكل إرسال في الرعي، والتسريح في الطلاق: مستعار من تسريح الإبل؛ كالطلاق في كونه مستعاراً من طلاق الإبل.

﴿بِفَٰحِشَةٍ﴾: قال الراغب: الفاحشة ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال. انتهى.

﴿ضِعْفَيْنِ﴾: مثنى ضعف بكسر الضاد، يقال: ضعف الشيء: مثله في المقدار أو مثله وزيادة غير محصورة، فقولهم: لك ضعفه، يعني لك مثلاه أو ثلاثة أمثاله أو أكثر، وفي «المصباح»: ضعف الشيء: مثله، وضعفاه: مثلاه، وأضعافه: أمثاله. وقال الخليل: التضعيف: أن يزاد على أصل الشيء فيجعل مثليه وأكثر، وكذلك الأضعاف والمضاعفة، وقال الأزهري: الضعف في كلام

العرب المثل، هذا هو الأصل، ثم استعمل الضعف في المثل وما زاد، ليس للزيادة حد، يقال: هذا ضعف هذا؛ أي: مثله، وهذان ضعفان؛ أي: مثلاه. قال: وجاز في كلام العرب أن يقال: هذا ضعفه؛ أي: مثلاه وثلاثة أمثاله، لأن الضعف زيادة غير محصورة، فلو قال في الوصية: أعطوه ضعف نصيب ولدي.. أعطي مثليه، ولو قال: ضعفيه، أعطي ثلاثة أمثاله، حتى لو حصل للابن مئة؟.. أعطي مئتين في الضعف، وثلاث مئة في الضعفين، وعلى هذا جرى عرف الناس واصطلاحهم، والوصية تحمل على العرف، لا على دقائق اللغة هذا، وللضعف بفتح الضاد والضعف بكسرها والضعف بضمها معان، نظمها بعضهم بقوله:

وَفِيْ ٱلرَّأْيِ وَٱلْعَقْلِ يَكُوْنُ ٱلضَّعْفُ وَٱلْوَهْنُ فِيْ ٱلْجِسْمِ فَذَاكَ ٱلضَّعِيْفُ
زِيَادَةُ ٱلْمِثْلِ كَذَا وَٱلضِّعْفُ جَمْعُ ضَعِيْفٍ زَهْوَ شَاكِيْ ٱلضُّرِّ

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التأكيد المستفاد من قد في قوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ فإنها لتأكيد العلم بالتعويق، ومرجع العلم إلى توكيد الوعيد.

ومنها: التنذير في قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ وحده: أن يأتي المتكلم بنادرة حلوة، أو نكتة مستظرفة، وهو يقع في الجد والهزل، وهو لا يدخل في نطاق التهكم، ولا في نطاق الهزل الذي يراد به الجد، ويجوز أن يدخل في نطاق باب المبالغة، وذلك واضح في مبالغته تعالى في وصف المنافقين بالخوف والجبن، حيث أخبر عنهم أنهم تدور أعينهم حالة الملاحظة، كحالة من يغشى عليه من الموت.

ومنها: الاستعارة المكنية في قوله: ﴿سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾: شبه اللسان بالسيف المصلت، وحذف ذكر المشبه به، ورمز له بشيء من لوازمه وهو السلق، بمعنى الضرب، على طريقة الاستعارة المكنية، ولفظ حداد: ترشيح.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ وفيه أيضاً مجاز بالحذف، لأنه على حذف مضاف، تقديره: تدور أعينهم كعين الذي يغشى عليه من الموت.

ومنها: الإطناب بتكرار الاسم الظاهر في قوله: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ كرر الاسم الشريف؛ للتكريم والتعظيم، ولأنه لو أعادهما مضمرين.. لجمع بين اسم الله تعالى واسم رسوله في لفظة واحدةً، فكان يقول: وصدقا، وقد كره النبي ـ ﷺ ـ ذلك ورد على من قاله حيث قال: «من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى، فقال له: بئس خطيب القوم أنت، قل: ومن يعص الله ورسوله قصداً إلى تعظيم الله، وقيل: إنه إنما رد عليه؛ لأنه وقف على يعصهما، وعلى الأول استشكل بعضهم بقوله عليه الصلاة والسلام: «حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، فقد جمع بينهما في ضمير واحد، وأجيب: بأن النبي ﷺ، أعرف بقدر الله تعالى منا، فليس لنا أن نقول كما يقول. ا هـ. «سمين».

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾؛ لأن النحب حقيقة في النذر، فاستعير للموت؛ لأنه نهاية كل حي، فكأنه نذر لازم في رقبة الإنسان، ولكن في هذا تقبيح للاستعارة، وإذهاب لرونقها، ولكن الأنسب بمقام المدح أن يكون النحب مستعاراً لالتزام الموت، شهيداً، إما بتنزيل أسبابه التي هي أفعال اختيارية للناذر منزلة التزام نفسه، وإما بتنزيل نفسه منزلة أسبابه، وإيراده الالتزام عليه. ا هـ. «جمل».

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ وفيه التعريض بأرباب النفاق، وأصحاب مرض القلب، فإنهم ينقضون العهود، ويبدلون العقود.

ومنها: الاعتراض في قوله: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ بجملة ﴿إِن شَآءَ﴾ للتنبيه على أن أمر العذاب أو الرحمة، موكول لمشيئته تعالى.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ﴾ شبهت هذه المذكورات في بقائها على المسلمين بالميراث الباقي على

الوارثين، فعبر فيها بالميراث.

ومنها: المقابلة بين قوله: ﴿وإن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها﴾ وبين قوله: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾؛ لأن التسريح حقيقة في تسريح الإبل للرعي، فاستعير التسريح بمعنى إرسال الإبل للرعي لإطلاق الزوجة عن عقد النكاح، فاشتق منه سرح بمعنى طلق، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿فَتَعَالَيْنَ﴾؛ لأنه كناية عن الاختيار والإرادة، والعلاقة، هي أن المخير يدنو إلى من يخيره. ا هـ. «خطيب».

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع(1).

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب

* * *

(1) وكان الفراغ من تسويد الجزء الحادي والعشرين من القرآن الكريم ليلة الاثنين المبارك، الليلة الثانية عشرة من شهر ذي القعدة، من شهور سنة ألف وأربع مئة وثلاث عشرة سنة، ١٢/ ١١/ ١٤١٣ من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، ويتلوه الجزء الثاني والعشرون من القرآن الكريم بحول الله تعالى وتيسيره، نسأل الله سبحانه الإعانة لنا على الإتمام والإكمال، كما أعان لنا على الابتداء والافتتاح، وأن يجعل في عمرنا البركة إلى إكماله وطبعه والتدريس عليه، وانتفاع المسلمين به، بمنه وكرمه وجوده وإحسانه، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير، آمين آمين، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، و- ﷺ - على سيدنا ونبينا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

تمّ المجلد الثاني والعشرون من تفسير حدائق الروح والريحان، ويليه المجلد الثالث والعشرون، وأوله قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ . . .﴾ الآية.

شعرٌ

إِذَا رَأَيْتَ لَحِيْنَا كُنْ سَاتِراً وَحَلِيْمَا
يَا مَنْ يَعِيْبُ قَوْلِيْ لِمْ لاَ تَمُرُّ كَرِيْمَا

آخرُ

إِنَّمَا ٱلدُّنْيَا كَبَيْتٍ نَسْجُهُ مِنْ عَنْكَبُوْتِ

آخرُ

أَلاَ إِنَّمَا ٱلدُّنْيَا كَظِلٍّ سَحَابَةٍ أَظَلَّتْكَ يَوْماً عَنْكَ ٱضْمَحَلَّتِ
فَلاَ تَكُ فَرْحَاناً بِهَا حِيْنَ أَقْبَلَتْ وَلاَ تَكُ جَزْعَاناً بِهَا حِيْنَ وَلَّتِ

الفهرس